المشرق

السنة السابعة والاربعون
تموز – آب ١٩٥٣
ايلول – ت ١

الروم الملكيون في الاسلام

مقتل البطريرك الانطاكي الملكي الشهيد خريستوفوروس

سنة ٣٥٦ للهجرة – ٩٦٧ للميلاد

حسدًا له لمكانته لدى الامير سيف الدولة علي بن حمدان (تابع)

ويليه

قسم من اخبار جثالقة الروم الملكيين في العراق وبلاد فارس

نشرها لاول مرة حبيب زيات عن نسخة يتيمة من القرن العاشر

موجز نسخة الاصل

قال البطريرك ما معناه بلفظه بوجه التقريب وبعض الاختصار. وهو مثال من انشاء الروم الملكيين المستعربين في القرن العاشر :

« كان البطريرك المعظم والمكرم الشهيد من مدينة السلام بغداد التي

اعتاضها ولد هاجر (العرب) عن مدينة اكتيسفون (المدائن) مدينة ملكهم في الاول وارض علومهم واما والداه فلست اعرف صورتهما كيف كانت غير انهما على كل حال كانا كبيرين جليلين . واما مـدة تربيته فكانت يسيرة في مدينته بمقدار ما احتاج اليه في التأدب باوائل العلوم حتى احكم ما امكن من بلاغة القول واحكم اكثر من ذلك صناعة الكتابـة باليد . لانه كان اذا كتب لا يدري احد كيف يميز الافضل من حال خطه في الحسن ام في السرعة. ومن العناية الالهية التي عنيت بكرسي رأس السليحيين عندنا لم يتيسر له المقام في وطنه طويلًا فانتقل من بلد الكلدانيين الى بلد السريانيين . ولست اعني بلد الكنعانيين الذي هو في هذا الوقت بلد فلسطين بل اعني به البلد القريب منا النازح قليلًا عنا وهو بلد حلب وذلك ان ابن حمدان الملقب بسيف الدولة كان ذكره كبيرًا وحاله في ذلك الوقت في هذا الصقع كبيرة . وكانت آثاره جليلة وكان يعين كل من كانت له فضيلة من الناس لما فيه من الكرم وكبر الهمة وكان يجيئه الناس من سائر الاقطار فلذلك قصده الذي تشبه بالاب القديم في النقلة (ابرهيم) وكان اسمه في الاول عيسى الا انه تسمى في مـا بعد خريسطوفورس فسلمه علي بن حمدان (سيف الدولة) الى امير كبير من امراء البادية يسمى خليفـة بن جندي كانت امارته بناحية شيزر . ولم يكن عند الانطاكيين في الاول معروفاً ولكنه عُرف بعد ذلك بما نحن به ذاكروه.

وكانت اكتيسفون التي ذكرناها كبيرة وعظيمة . لانها كانت تخماً وحدًا لمملكة الفرس وكان فيها جماعة من النصارى ولهم راعٍ مطران ولم يكن في رتبة المطرنة كفاية لرعاية جمع مثل هذا كبير في سائر بلاد فارس وردّ امورهم الى اساقفة وحدهم يكاد ان يكونوا قليلين . بل كانت الحاجة داعية الى اساقفة كثيرين مـا كان يمكن مطران واحد ان يسيمهم ويشرطنهم فدعت الحاجة الضرورية الى كون مطارنة كثيرين. وكانت تلك الديار شاسعة بعيدة عن انطاكية المسماة باسم الله (Théoupolis) وكان في ذلك الموضع من بـلاد الفرس يُتم المصير في اكثر الاوقات الى انطاكية لاصلاح مطران لكل موضع. فتقدم لهذه الحال من القدما. سياسة اخرى جرى مثلها في امم مختلفة واماكن بعيدة مثل بلد الخزران والابخاز والبلغران يسام انسان يكون سلطانه اكبر

من سلطان المطران يسمى جاثليقاً فاتبع قدماؤنا هذه العادة . وشرطن المتقدم على مدينتنا جاثليقاً على مدينة اكتيسفون . فلما بنى بنو هاجر مدينة السلام بغداد رأوا ان ينفوا النصارى من القرب منها فنقلوهم الى بلد بعيد من بلاد فارس يدعى شاش . ونفوا اليه الجاثليق مع من نفوه من اصحابه وسميت تلك العشيرة المنتقلة جماعة الروم (روجرد) وصار مقام الجاثليق في شاش مدة من الزمان . ولم يكن احد يناظر على ذلك ولا ينازع فيه . فلما ابتدأ جمع من اسرى الروم وتبعهم جماعة بدأت خبثة المنازعة بين الفريقين فقال الجمع المجتمع في بغداد من النصارى: الجاثليق لنا ونحن اولى به لان مقامه كان في اكتيسفون وهي بصقعنا وجوارنا وبالقرب منا . وقال من كان في شاش اننا نحن اهل ذلك الموضع والمتنقلون من هناك الى هنا بجاثليق المشرق وحسبا ان الانسان اكرم من كل ما في الارض فكذلك نحن يجب ان يكون الجاثليق لنا .وقد انتقل معنا فلنا التقدم ويجب لنا اكثر من وجوبه لكم لانكم تطلبون ان يكون لكم التقدم من الحجارة والتراب . وبينما كانت المشاجرة في ما بين الفئتين على هذه الحال اتفق ان توفي الجاثليق الذي كان في ذلك الوقت واحتيج بعده الى انسان آخر يتمم خدمة الكهنوت ووفد الى مدينة انطاكية من روجرد[1] ثلثة رسل طالبين شيروطنية جاثليق احدهم قسيس والاثنان شماسان

---

١) هذا الاسم كما يدل عليه لفظه مركب من كلمتين « روم » وهم الملكيون المعروفون في كل انحاء الشرق « وجرد » بالجيم المكسورة . وهي لفظة فارسية . ذكر ياقوت ان اصلها بالكاف . قال في تعريفه داربجرد كورة بفارس : دراب اسم رجل . وكرد معناه « عمل » فعُرِّب بنقل الكاف الى الجيم (معجم البلدان ٢: ٥٦٠) فيكون معنى روجرد « عمل الروم » اي مشأهم ومجتمعهم . وقد نبه البشاري المقدسي على ان اكثر بلدان الاعاجم موضوعة على اسم من انشأها وبناها (احسن التقاسيم ٢٥٩) وفي اسماء القرى والكور في خراسان عدد غير قليل من الاعلام التي كسمت بها كلمة جرد مثل بروجرد . وخسروجرد . ودستجرد . ومهربجرد . وواشنجرد الى آخر ما هنالك . احصينا منها نحوًا من ٢٥ علماً . وربما دخل الشطر الثاني من هذه المسميات في تعيين الحصون كحصن سوانجرد . وفي بعض قرى بغداد كوسنجرد . او في بلدان ارمينية كمنازجرد واهله يقولون منازكرد بالكاف بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُعَدّ في ارمينية واهله ارمن وروم (معجم البلدان ٤: ٦٤٩)

وليس لدينا اقل تعريف لموقع روجرد في كورة الشاش . فلا ندري هل كان البلد اسم

وانا القائل والمصنف رأيتهم وانا صبي مقيمين في كنيستنا يقولون انهم لن يعودوا الا بعد ان يُسمع منهم ويؤهلوا لأخذ جاثليق لانهم قدموا في طلبه من اقصى الارض .

وكان عيسى المقدم ذكره قد سمع بقدومهم ولم يحسُن عنده موقع ما وردوا فيه لانه كان بغدادياً واحد المقاومين في باب الجاثليق والمتقدم في ذلك وفي التحذير من إتمام ما وردوا فيه فما تراخى ولا ضجع في ترك ما هو عليه من الخدمة وتجشم عناء المجيء الى انطاكية ليدفعهم عما وردوا فيه ولم يكن احد سامه ذلك بل نهض اليه هو من ذات نفسه غيرة لوطنه .

وكان في ذلك الوقت المتولي لسياسة بلدتنا المنسوبة الى الله اغابيوس بن القعبرون المتنيح الذي كان يدير البطريركية قبله . فجرت المناظرة والمشاجرة قدامه في نصب الجاثليق . وكان عيسى شديد المنازعة عن اهل بلده يحتج بحججهم طلباً للظفر واجتذاب الجاثليق الى مدينتهم مدينة السلام العوض عن اكتيسفون . وكان البطريرك غير مؤثر لما يطلبه عيسى ولكنه احتشمه وعلّق الامر فاقتنع بذلك عيسى وانصرف الا انه بان للانطاكيين انه رجل كبير جلد وان له غيرة شديدة في امور الكنيسة .

ولم يكن الا هنيهة من الزمان وتوفي البطريرك . وصار اهتمام الانطاكيين باختيار بطريرك راع بعده لان الاختيار لم يكن هنا لمطارنة واساقفة لا يهتمون بشيء غير ما يصلح حال نفوسهم واما ما يصلح احوال الكافة فلا يهتمون به حسبما جرت به العادة في غير هذا الموضع . بل كان الاختيار ههنا لمن يؤلمه هذا الامر والاهتمام به واختياره في العامة والخاصة متساوياً . فلما اهتم الانطاكيون بهذا الباب افاض جميعهم في اختيار واحد بعد آخر فلم يجدوا اوفق لهم واصلح لكرسيهم من عيسى فلما وقع اختيار جماعتهم عليه طلبوه من سيف الدولة لانه هو كان المستولي على هذه الديار فحسن موقع ذلك منه لانه

حي من احياء قصبة بُنكُث ام كان داخلا في مدينة اخرى من مدن الشاش . وقد بقي لنا اسم قرية من قرى الشاش يقال لها تنكرة تعرف بقرية النصارى (معجم ياقوت ٣: ٣٢٤) ذكرها في وصفه الشاش ولكنه اهمل سردها في محلها من المعجم . ولا شك ان اشتهارها بقرية النصارى دليل بيّن على وجود الروم فيها

كان الي عيسى مائلاً وبه مختصاً الا انه لم يكن له طريق الى اجابتهم في اختياره لموضع توقيه قِحة الاعرابي الذي كان يخدمه لما كان فيه من الغلظ والشجاعة والاقدام ولم يشك في دفعه عن عيسى اذ كان كاتبه في ذلك الوقت. وكان من توفيق الله وما اراده تبارك اسمه من حصول مثله بطريركاً ان سار ذلك البدوي القرمطي مع سيف الدولة في بعض الغزوات فرمته الفرس على جسر صارخة[1] وغرق في نهر ألوس[2]. فاطلق حينئذ سيف الدولة اختيار عيسى. فاستعلى حينئذ المختار سريعاً على كرسي رئيس الملّيحيين العالي المكرم من الله واخذ الشيرطونية من المطارنة بحسب الواجب فكانت شيرطونيته بهية ولائقة وتسمى خريسطوفورس.

وانه وان كان لم يصر راهباً فقد زاد على الرهبان في ما كان يستعمله وذلك انه من شيرطونيته ما طعم شيئاً من اللحوم. وما اقتنع بما جرت سالفة الرهبان عليه في صوم او سهر او قيام. بل زاد عليهم في هذه المعاني كلها وعنّي. وكان صومه في كل يوم من الليل الى الليل ومن اول السنة الى آخرها بالسواء. لانه منذ تبطرك ما تناول شيئاً من الاغذية في يوم من الايام الا في وقت المساء. ولا كان له ايضاً اهتمام بفنون من الطعام بل كان لا فرق عنده في ما يستطعمه وكانت مائدته كيف ما اتفق لا يحضرها في كثير من الاوقات لا بيض ولا سمك ولا ما يُتنوّق فيه وكان شرابه يسيراً من الخمر مع كثير من الماء.

واما قيامه في الصلاة. فكان في الايام المحلولة من وقت كبير من الليل قبل الفجر بكثير وفي ايام الآحاد من مساء دخول ليلة الاحد الى الصباح. واما قيامه فكان كثيراً لا ينثني عنه طويلاً حتى رأيته انا عدة دفعات من شدة الوقوف يكاد ان يسقط الى الارض. وذكرنا من هذا المعنى يسيراً لندل به على خشونة السيرة التي استعملها ولم تتقدم له بها تجربة.

١) صارخة بالصاد والخاء بلدة غزاها سيف الدولة في سنة ٣٣٩ ببلاد الروم وذكرها المتنبي بشعره فقال:

فَمَن له الحرج منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجمع

(معجم البلدان ٣ : ٣٢٠)

٢) ألوس اسم رجل سميت بالبلدة على الفرات .. قرب عانات والحديثة.

(معجم البلدان ١ : ٢٥٢)

ولما دعت الحاجة الى شرطونية اساقفة على الكراسي الفرغة فالكراسي التي اهتم بها في الاول لم يهتم بما ليس فيه منازعة ولا بكرسي آخر لم تتقدم له فيه مدافعة . بل بالكرسيين اللذين كان يناضل عن احدهما، ويقاوم الآخر . وذلك انه جعل جاثليقين احدهما على مدينة السلام وطنه وكان من اهل حلب واسمه ماجد والآخر من اهل انطاكية واسمه اوتيكيوس على روجرد التي كان كان يقاومها . فمن هو الذي لم يحمده من الناس على هذه السياسة اللطيفة السديدة المؤدية الى السلم والاتفاق. لانه ما ظلم مدينته واحسن النظر لغيرها ولم يضجع بعد هذا في امر الكراسي الأخر التي كانت فارغة . ولما نظر في بابها لم ينظر لرشوة ام شفاعة ام رضى رئيس ام فرّق من مقتدر عبوس بل كان اذا رأى وفد المدينة التي تطلب اسقفاً قد ذكروا له المستحق للشرطونية وهو مُرضٍ لله وله يضع يده عليه للوقت ويتمّه . وان لم يرضَ به يختار غيره ممن يرضى اولئك به ايضاً ويضع يده عليه برأي السينودس .

ولاجل ذلك كان المطارنة الذين قبله اذا رأوا حصافة عقله وقوة عزيمته وانه لا يداخله محاباة ولا يرغب في عطاء ولا رشوة لا يخالفونه في شيء مما يرمي اليه .

واما قوة عزيمته وكبر قلبه وغيرته في ما يحتمل البيعة ويصلح شأنها فانه كان يقاوم عن ذلك ولا يتحرك ولا يرتدع . ولا بأس ان نذكر ههنا خبراً يدلنا على ذلك جملةً . وهو انه كان قسيس متطبب قد عرض له هفوة من الهفوات الصغار فعقده الاب المطوَّب ومنعه مدة ما من استعمال الكهنوت وكان ذلك القس يخدم انساناً من امراء بني حمدان عاتياً عسوفاً لا يطيع في كثير من الاشياء ولا لابن حمدان . فاستشفع به الى البطريرك في اطلاقه وحله من الرباط فما تأخر عن الشفاعة في نصراني ذمي . وارسل البطريرك بانبساط قائلاً : مهما كان من خطإ جرى من طبيبي القسيس هَبْ لي ايها البطريرك ذنبه واصفح عنه . فأجابه قائلاً : ليس يمكنني ذلك يا سيدي الامير فاعاد عليه قائلاً في الجواب : يا أقلف اما تهابني بل تجسر ان تقول لي ما يمكنني ذلك . وماذا الذي لا يمكنك اذا امرتك انا به . فاعاد عليه قائلاً : الحوادث من هذه الاشياء كثيرة مما لا تمكنني ايها الامير اذ كانت مخصوصة بديني ومذهبي

وناموسي لاننا نحن في طوعكم وفي اشياء اخرى لا يمكننا ان نخالفكم. واما ما حظره الدين فنحن به مستعدون للسجن وقواطع السيوف. فاعاد عليه الامير: عرّفني على كل حال ما هذه الجناية التي قد تمس دينك فقال تلميذ المسيح: اما قبل هذا ايها الامير فقد كانت الجناية صغيرة وإقالتها متيسّرة فاما الآن فانها كبيرة والصفح عنها لا يرام لاني استشنع منه (التشفع بك) وانت مسلم مخالف لنا في مذهبنا اذ كان الامر يخص كنيستنا فاجابه الهاجري قائلاً: فكن من الآن مدجّجاً بالسلاح واعلم علماً يقيناً انك ستموت وذلك اني آخذ رأسك ولو كان في حضن الامير الكبير. فماذا الذي صنعه البطريرك هل جزع. هل لان. هل انثنى. هل توقف لمراسلة يراسل بها ابن حمدان. لا البتّة بل تصور ذلك كله بصورة الهباء المنثور. ولم يكن له عنده قدر بل توجه للوقت الى انطاكية وكان اذ ذاك بجانب ووثق في ذلك بالله الذي كان عنه يناضل فما اخطأ بحمد الله غرضه فهذه كانت صورته في غيرته وحرصه على ما يجمّل البيعة ويزينها.

واذ كان مذهب هذا الرجل الفاضل في هذا المعنى على ما شرحناه فكذلك كانت صورته في غير هذا الباب صورة من لا ينثني ولا يلين. ولكن في الحد الآخر من كان يكون اشد تحنّناً من خريسطوفورس او ألين عطفاً للمنكوبين او اشد رحمة للمحتاجين او اوفر عطاء للعافين؟ على انه لم يكن المال عنده وافراً وكان الارتفاع (الدخل) الذي يرتفع اليه ناقصاً ولكنه في ما كان يمكنه ما كان قط في الاحسان مقصراً. وكان تُرفع اليه الرقاع (العرائض) فلا يُضجع في قراءتها والتوقيع فيما بيده بان يعطى بعض المساكين ورقاً (فضة) ويعطى الآخر كسوة والآخر طعاماً والآخر شراباً وغير هذه اشياء اخرى وقد رأيت انا المصنف لهذا القول قسيساً قد رفع اليه قصة فادخله اليه وسأله وقال له: كم لك من العيال فاجابه قائلاً كذا وكذا فقال ليُدفع اليه كذا وكذا بُرّاً وكذا وكذا زيتاً وكذا وكذا خمراً. بقدر ما يكفيه السنة فلما اومأ ذلك القس للخروج قال له: عُد الى ههنا ومن اين لك يا بائس اجرة الطحين او شيء من الأدم ليُدفع اليه من هذا ايضاً ما يكفيه. ولم يتركه القديس ينصرف حتى قام له بجميع ما يُقنعه لسنته كلها.

وكان اذا رُفعت اليه ايضاً قصة من محبوس او مطالَب بظلم ان كان

يمكنه ان يخلصه بيسير من عطاياه ما كان يزخر العطاء عنه ولا خلاصه مما يُطالَب به وان كان هناك صعوبة شديدة ما كان يضجع في الركوب والمرور الى من يطالبه وسؤاله الصفح له عما يرام ان يغرمه .

ولما كان رأسه وذروته والمتقدم بالتمثل له المسيح وكان حريصاً على التشبه به لم يقتنع باشباعه أنوفاً من خبزات قليلة بل اضاف الى ذلك مكافأة اخرى بيديه الطاهرتين فغسل ارجل تلاميذه . وأجتهد انا الذي هو تلميذه ايضاً الّا اكتفي بما شرحناه مما تقدم ذكره بل أُضيف الى ذلك شيئاً آخر لاخوته المنسوبين الى معلمه وذلك انه كان في ذلك الحين بانطاكية مجاعة شديدة لم يكن يمكن الّا ان تمسّ كافة الناس . ولذلك جمع خريسطوفورس جمعاً من الذين نكأهم الجوع من شيوخ ومرضى وقسوس وشمامسة وصبيان وايتام ورتّبهم في مكاتب . وكان يجالسهم على الموائد ويكون هو قائماً لا يقنع بان يوفر عليهم الطعام بل كان يقدم لهم احياناً بيده ويسقي الشراب واحداً بعد واحد ويبيّن بذلك انه عبد للمسيح امين متشبه به تشبهاً لا يمكن غيره ان يساويه فيه . واذ كنت انا ذكرت ههنا صِبيةً وأيتاماً فيلزمني ان اذكر من كان هؤلاء الصبيان ليبين للسامع لا كبر نفسه في محبته للضعيف بل فضل عقله ولطف سياسته في ما يجمع به العام من المنفعة . وذلك انه لما رأى ضيق الوقت وصعوبته وكانت كنيسة الله مختلة وليس لاكثر الناس علم ولا فكر ولا همة فكّر هو في امر كبير بان فيه خير سياسته واختار اثني عشر صبياً اذكيا. نجبا. وسلمهم الى مؤدب بصير بعلوم الكنيسة التي تزيد على غيرها . ثم اقترع من الفقرا. على قوم غيرهم وافرد ايتاماً شبه حالهم عددهم مائة وخمسين صبياً وسلمهم الى معلمين ليعلموا كل واحد ما ينفذ فيه . وتقدم بان يُطبخ في كل يوم ثلثة مواجل كبار فيها ملؤها من الطعام ويحمل كل موجل منها الى كل واحد من المكاتب . ويعطى كل واحد من الصبيان ما يكفيه مع ما يحتاج اليه من الخبز . ويجب أن يُعرف ما اجتمع ههنا من المنافع وهي ثلاث كبار : احداها إهدا. طعام لا يتعب فيه من يأكله . والثانية تعليم لا يؤخذ التراب والاجرة عليه . والثالثة خدمة للبيعة الشريفة . فهذه جملة من افعاله في هذا المعنى .

وانضاف الى ذلك ما هو اكثر في معونة الفقرا. وإدعام الدين وذلك ان

الهاجريين يستخرجون من النصارى في بلادهم جزية نسميها نحن جزية الرؤوس ويسمونها هم براءة لانها تبرئ الذي يؤديها من الاذية والتتبع . وليس لاحد من النصارى المقيمين هناك بدّ من تأديتها لان من لا يؤديها يُقاد بغير اختياره الى دين الاسلام . فبعض النصارى يؤدون البراءة بنية صادقة اذا كان يمكنهم ويتصورون ذلك برًّا ومعروفًا لانه شيء يؤدونـه عن دينهم . وقوم آخرون يُضطهدون لانهم معسرون . فالاقوى منهم في الدين ليس هو الذي يتأخر عن الاداء عند امكانه بل الذي يعين الضعيف في ما يُستأدى منه . فلما رأى خريسطوفورس المشتمل في صدره على المسيح هذه الشدة من هذا الباب لم يكفّ عن العطية ولا كان يقتنع بزيادة يزيدهـا في تأدية براءة بل كان يضيف الى ذلك تأدية جملة البراءة من عنده . ولما كان لم يتيسر له وفر يقوم به في هذا الباب بحسب اعتقاده لانه لم يكن له غزارة ارتفاع انبسط على سؤال الامير سيف الدولة معاونته على محبة المساكين. فلم يخالفه في ذلك لانه كان بالطبع كريمًا وكان ميله الى البطريرك خاصة ميلًا شديدًا فتقدم الى مستخرجي البراءة بان يصفحوا له منها في كل سنة عن عشرة آلاف درهم يكتب بها الرقاع اليهم لمن يريد ان يرفده . فكان يكتب لواحد بالصفح عن كل براءته . ويكتب لغيره بالصفح عن بعض ما يُراد منه . فما تقدم احد من النصارى على عيده الى دين الاسلام . وحصل للبطريرك من هذا مع الثواب من الله قبول شديد من الامير سيف الدولة .

ولما تحرك على سيف الدولة خلف شديد وعصيان ثبت مدة طويلة من الزمان انفرد عنه البطريرك وحده ولم يدخل في جملة من عصى عليه من الانطاكيين ولا رضي ان يخاطب واحدًا من المتمردين . وكان السبب في هـذا العصيان ان الملك نيكيفور المغبوط (Nicéphore Phocas) لما ملك اكثر الثغر عنوة خرّب طرسوس وحدها لان الجوع كان قد نهك اهلها . وكان سيف الدولة في الحال بميافارقين قد فُلج وقدم اهل طرسوس الى انطاكية بنسائهم واولادهم فحذر من كان بانطاكية من الهاجريين على نفوسهم وصاروا الى ابن الزيات المقدم كان عليهم يسألونه ويتضرعون اليه في مقامه عندهم لتدبير امورهم اذ كانت قد تشعثت وضعفت وكان يجزع من نقفور الملك فتمنع من المقام بالكلية .

وزاد خوف الانطاكيين من امتناعه وحداهم ذلك الى قصد رشيق النسيمي الوارد من طرسوس. وكان ثني ابن الزيات في الامارة . فأجابهم الا انه اشار عليهم بالخضوع لنيقيفور الملك والنزول على حكمه لانه لا يتم لهم ما يريدونه من الهدو، والسكون الا بطاعته . فقبلوا مشورتــه وبعثوا رسلًا الى الملك يبذلون له تحصيل الاموال وعقد الموافقة برهائن . ولموضع ما كان في الملك من الركانة والاحتراز اجابهم عما راساوه فيه وقال اما المال فلست اقبله اذ كان مُلك الروم غير محتاج اليه والمسلمون قد يعطونــه اليوم ويمنعونه غداً ولا اقبل ايضاً الرهائن . واما الذي التمسه فهو شيء واحد متى ارفقتموه وعرفتم ما عليكم فيه من الوفاء. كان سهلًا خفيفاً وهو ان ابني في صخرة داخل مدينتكم معقلًا يكون لي فيــه سَتْرَدَغوس[١] مع عدة يسيرة تحفظهم واكون انا بها مستظهراً . فلما امتنع الانطاكيون من ذلك فكر رشيق في الحيلة فرأى ان يكشف رأسه كما يقال في العصيان على سيف الدولة ولا سيما مع ما كان عليه من الالم والامتناع عن الحركة وهو ما فتح في قلة الاكتراث بــه . والتصق برشيق رجل من اهل انطاكية يعرف بالحسن الاهوازي وتولى تدبير امره وذلك بمساعدة اهل انطاكية . وكان شديد الحركة فاطمعهم بان سيف الدولة لا يعود الى الشام واستأمن رشيق دِزْبَر الديلمي وجماعة من الديلم كانوا مع قرغويه[٢] غلام سيف الدولة وسار رشيق وابن الاهوازي وجمع وحشد وقصد مدينة حلب بالمدد وجرى بينه وبين قرغويه حروب كثيرة وتسلميا عنوة بغير تعب وصدق قتال القلعة بها ثلثة اشهر وعشرة ايام . وقتل رشيق بعد ذلك بطعنة اصابته

---

١) وردت هذه اللفظة ايضاً في زبدة الحلب لابن العديم قال في كلامه على نقفور الملك وابي المحسن علي بن ابرهيم بن يوسف الفصيص : « عرف نقفور سلفه وجعله ستردغوس » (خزانة باريس ١٦٦٦ ص ٤٢) وهي لقب رومي من القاب الجنود والقواد ([illegible]) ومنها اخذت اللفظة الفرنسية stratège وقد ضبطها يحيي بن سعيد الانطاكي بصورة « استراتيغوس ».

٢) روي هذا الاسم على حروف شتى : بالفاء باوله او القاف قبل الراء . والعين او الغين قبل الواو . والنون او الياء قبل الهاء بآخره وفي تاريخ العبر لابن خلدون مرعويه بالميم والعين .. وهو زيادة بلة في الطين . وفي نسخة من زبدة الحلب لابن العديم في خزانة باريس منقولة عن الاصل بخطه قرغويه بالقاف والغين والياء وهو الصحيح.

وانهزم اصحابه الى انطاكية فلما حصلوا بها تيقظوا وخافوا وجعلوا دزبر الديلمي اميرًا عليهم وابن الاهوازي مدبرًا له وثبتوا على ما كانوا عليه من العصيان. فقصد قرعونه انطاكية وجرت بينهم وقعة وانهزم قرغويه وعاد الى حلب وسار دزبر الديلمي في اثره الى حلب ولقيه اصحاب قرغويه وحاربوه ودفعوه فرجع الى انطاكية.

فلما رأى البطريرك هذا الاضطراب بانطاكية وانه مُؤذن بزيادة في الصعوبة، كان من تدبير عقله الثبات على مكان سيف الدولة فلجأ الى دير القديس مار سمعان الحلبي لان سيف الدولة وان كان يومئذ قد فُلج ما كان ضاع عقلـه بالكلية ولا انضبط لسانه عن النطق ففي مدة مقام البطريرك والذين معه في الدير اشتد ذلك عـلي العاصي ابن الاهوازي وقصد اسباب البطريرك باعتقال خواصه والتضييق عليهم وختم على سائر ما كان في القلاية لما انكشف له ميل البطريرك ومن معه الى سيف الدولة. وكان يقول بصوت عالٍ: اذا لم يأتِ البطريرك ويتلافَ امره والا أخرج معه الى زيادة في مـا يغمّه. فهل جزع البطريرك لذلك او هلع منه؟ لا. ولكنه ثبت على جملته ورآه على مثل هذا بعض خواصه وهو ثاودولس الذي صار بعد قتله اسقفاً على سلوكية وبنى بانطاكية هيكلين حسنين الازكـوطوس[1] وغم الذهب فجسر عليه وقال له: هل في نيتك ايا السيد ان تقول بعد هذا في بيعتك انا الراعي الصالح وتترك غنمك لتختطفها الذئاب (هنا نقص في نسخة الاصل لم يعين مقداره).

وبعد مدة يسيرة لم يصبر غلمان سيف الدولة على العار بل حركوه على المسير وانهضوه فسار من ميافارقين الى نواحي معرة مصرين وانتشب الحرب فيما بين الفئتين فكان الظفر لسيف الدولة وأسر دزبر وابن الاهوازي وجماعة كثيرة من عسكرهما وجعلهم في القيود والسلاسل وحملهم الى حلب وقتلهم وولى على انطاكية تقي (الدين) غلامه.

وقصد خريسطوفورس البطريرك عند ذلك سيف الدولة في حلب مسرورًا. فقبله سيف الدولة احسن قبول وصار حينئذ امامه في كل الاشياء جليساً متقدماً

[1] لم نتمكن من تحقيق هذه الكلمة وتفسيرهـا ولا ندري اين كان هذا الهيكل في انطاكية.

وشنيعاً مقبولاً . وانتقل من حال التابع الصغير الى حال الصديق الاثير لا يُتهم ولا يُستصغر لانه تقدم في وقت الشدة الامانة والمحافظة والصبر على المضض . فكوفئ على ما اتاه في وقت الضرّاء بالاختصاص والتقديم في وقت السرّاء . وشكره على فعله من بُعده عن المخالفين عليه وقدّمه وتخصّص به . فكان يرى الذين غمّوه يعاقبون بالضرب والامتهان وانواع من العذاب يصعب الصبر عليها فما كان يحسن وقوع ذلك منه ولا كان يتعظم لظفره بالوقت بل كان يحزن ويضيق صدره ويقلق فكره ويقول ارحم ايها السيد وخفّف عمن ظفرت به من اجل من اعانك عليه . ولما رأى في جملة من كان يعاقب جاراً من المسلمين بمدينة انطاكية وقد اسرف عليه بضرب السياط لم يصبر على الجلوس لكنه قام قائماً ثم طرح نفسه الى الارض وسأله ان يهب له جرمه فلم يُمتنع مما طلبه فلما أُطلق وسُمح له بما كان أوجب عليه عاد بريئاً من التبعة وليت ذلك لم يكن حتى ان كثيرين من شيوخ انطاكية نقم عليهم سيف الدولة عصيانهم وصادرهم فتشفع البطريرك اليه في بعضهم وتوسط امرهم معه فأجاب مسألته فيهم فتأكّد في نفوسهم حينئذ مما شاهدوا من تمكن حاله عند سيف الدولة حسد له وحقد عليه .

واقام البطريرك بعد ذلك مدة يسيرة بحلب وسار الى مدينته ومعه توقيعات من سيف الدولة الى اصحابه الذين كان انفذهم الى انطاكية رسم لهم فيها الّا يقنعوا للبطريرك ببراءة جماعة من اصحابه من كل تبعة بل يقبلوا سؤاله في سائر من يتوسط امره بمقدار ما يمكن القبول منه . فلما وصل الى انطاكية وجد فيها اميراً يعرف بتقي الدين الذي ذكرناه ووجد البطريق كُلَيب[1] ههنا يقبض قبضاً كلياً على كل شيء من النعم ويصادر اصحابها بحسب ما تصل ايديهم اليه . فلما رأى البطريرك اهل انطاكية يُكَدُّون في هذه المطالبات من منهم لم ينقذه ويخلّصه من اكثر ما يُطالَب به ومن لم يخفف عنه ومن لم يخلصه بالكلية ؟ وكان بانطاكية رجل من شبانها شديد الغنى والثروة لانه كان ذا

١) كان كليب كاتب رقتاش التركي غلام سيف الدولة وكان حصن برزويه بيد رقتاش فسلّمه كليب للروم « فصيره ملك الروم بطريقا وكان له ولدان فجعل لهما ايضاً مراتب وصيره ايضاً باسلبقاً على انطاكية واقطعه نعمة كبيرة »(ذيل يحيى بن سعيد١٤٥–١٤٦).

ارتفاعات كثيرة ولكنه كان مضيقاً على نفسه وكان منحنياً لا يرفع رأسه من الارض من دالته وعظم شخصه وكان لا يفرج عن نفسه بشي. من ماله فاخذه اصحاب سيف الدولة وكانوا يعاقبونه ويطالبونه بثلثة قناطير ونصف من الذهب فواسل البطريرك القديس وهو في وسط العقوبات وقال له ارحم ايها السيد مثلي انا الشقي فركب لوقته وساعته ورفع عنه العذاب وتوسط امره في ما كان يُطالَب به الى ان حط الجلة الكثيرة من خمسة وعشرين الف دينار الى العشر منها وهو مقدار الفين وخمسمائة دينار فقال المستخرجون له لن يقوم ولا بهذا المقدار بغير عقوبة وضرب . فقال لهم تلميذ المسيح المتشبه به في كل حال انا اسألكم الا تسرفوا عليه بعد هذا بعقوبة بل سلموه الي وانا اكون القيّم لكم بالجملة .ثم تسلمه البطريرك وكان المستخرجون يطالبون البطريرك بالجلة ويلزم البطريرك ان يكون مطالباً له بها .فكانت المراسلة من البطريرك اليه في هذا الباب في قلبه كشل الطعنات لان سهام الحسد كانت تعمل فيه فصار في ما بعد مطابقاً على قتل من احسن اليه .

وكان قتل البطريرك مثل شهادته التي تمت من هذا وغيره فكان يُنظم في الخفية ويُؤرخ قليلاً قليلاً لانه اجتمع عليه من ميل سيف الدولة اليه مادة في قلوب المسلمين من الحسد . ولكن لم يكن كلهم متطابقين على قتله بل الذين تطابقوا على ذلك اذ كانوا ممن زاد في الاحسان اليهم وذلك ان الحسد تبين فعله فيهم .

وكان بيانه ذلك ان سيف الدولة توفي وتقدم من بلد خراسان اقوام قاصدين غزو الروم وساروا الى انطاكية ولقيهم اهلها اجمل لقا. فخشي ابن مانك ذلك الملعون الذي اخذه البطريرك اليه وكان سم الحسد يعمل فيه ان لا يتمكن من البطريرك فيا بعد فلما وصل صاحب الخراسانية وخاف ان لا يتمكن منه فيفوته قتله استدعى اثنين من شيوخ انطاكية وامائلها الذين كان البطريرك توسط امرهم وشفع فيهم الواحد ابن محمود والآخر كان جاراً لهم يدعى بابن دغامة فقال لهما ما تقولان هل عندكما من الرأي ان تقرّوا الكافر يعيش. فيصل الى ههنا بعد وقت رئيس ويكون هو جالساً ونكون نحن معاقبين كما ما كنا في وقت سيف الدولة.فقالوا له انه ليس من الصواب فقال لهما فما رأيكما

في كتابة فتوى في بابه الى الفقيه فحمدوا رأيه وكتبوا رقعة برأي مشترك تسمى عندهم فتوى . ولم يذكروا البطريرك باسمه بل قالوا ما رأيك ايها الفقيه في ما يوجبه الحكم على من يدبّر على حصن من حصون المسلمين فاجابهم انه يجب عليه القتل فقال المتقدم في الرأي والتدبير هذه الفتوى سبيلنا ان نريها للعامة فهم يقتلونه للوقت من نفوسهم . ولم يكن هذا رأيه بالحقيقة لانه كان هو ايضاً من الفرس عارفاً باسباب الخراسانية . ففكر في نفسه ان يستدعي قوماً من الخراسانية ويريهم الفتوى لكي يقتلوا البطريرك ولا يحتجوا في ذلك وكان هذا ما اقنعهم وحداهم على ما ارادوا .

وكان للبطريرك جار من وجوه المسلمين يعرف بابن ابي عدو وكان له صديقاً صادقاً مناصحاً فاسرع اليه وقال له ماذا تعمل قم مسرعاً وخذ لنفسك والا فاعلم انك مقتول بعد قليل فقال له لِمَ ولأي شيء . ومن اجل ماذا فقال له لأنه قد اجتمع عليك جمع خبيث واخرجوا فتيا ذكروا فيها وجوب القتل عليك . فاستعلم منه وقال له ماذا يجب عندك ان اصنعه فقال له انك لست في هذا الوقت في اعتقال فاخرج من باب المدينة آخر النهار فلا يصبح عليك الصبح الا وانت في نواحي حلب ولن يتبعك احد فهذا الذي عندي لك . فقال له اما انت يا سيدي فالله يجازيك بالحسنات واما انا فسبيلي ان افكر في ما اعمله . وانصرف الرجل واستدعى البطريرك ذلك الرجل الذي قال له فيما قبل وهو في دير القديس مار سمعان : لِمَ لا تجب الى المصير الى انطاكية في وقت العصيان . وهل انت ايها السيد من يقول بعد هذا انا الراعي الصالح . فلما مثل هذا الرجل بين يديه قال له اعلم ان جارنا فلاناً صار اليّ في هذه الساعة واشار علي بكيت وكيت فماذا ترى . فقال له ما اجود هذا يا سيدنا فاستخر الله وافعل فقال له : ان انا فعلت هذا كنت انت ايها الوقاح من يهزأ بي فيما بعد . وبعد هذا انت عتيد ان تقول انا الراعي الصالح في غد . فاجابه ذلك الرجل قائلاً ايها السيد ذلك كان سبباً آخر فقال له البطريرك نعم ليس بالخافي عني ان ذلك كان سبباً آخر بل لانه كان كذلك ولم يكن موافقاً في ذلك الوقت ما فعلتُه ولما لم افعله علمتَ انت انه لم يتضرّر بذلك احد من النصارى . لانه لم يكن قتلي المطلوب في ذلك الوقت والآن فالمطلوب هو قتلي وليس يطلب ذلك طلباً

مطلقاً بل بحرص شديد واجتهاد وكيد لان الذين يطلبون قتلي حسَّاد وسمّ الحسد في اجسادهم مكنون . ومتى ما افلتُ من يديهم ولم يقذفوا سهمهم في لم يُبقوا بعدها على نصراني ولا على كنيسة . ولكن هذا الوقت هو الوقت الذي يجب ان اقول فيه يا هذا ليس انا الراعي الصالح فقط بل اقول مع ذلك والراعي الصالح هو الذي يضع نفسه دون اغنامه . وانت فسترى بعد وقت هذه اللحية مخضوبة بدماني ومد يده مع هذا اليها .

وفكر فيا بعد ان يجتمع بذلك الشرير المتهيء للعمل عليه . وكان عالماً علماً يقيناً انه قد مزج له قهوة الموت فارسل اليه بعد قليل بغير حذر منه ولا خوف اني اريد ايها السيد ان اجتمع بك فتأذن لي بذلك اذا رأيت موافقاً وكنت خالياً ان اصير اليك ؟ فلما سمع ابن مانك ذلك استفرص هذا القول منه وتصوره غنيمة فقال له لست في هذا الوقت متفرغاً لك فاذا تفرغتُ ارسل فاعلمك . ولم يزل طول نهاره في التدبير ولم يراسله بشيء لشغله بالحيلة عليه.

فلما ادرك الليل وتصرم وقت كبير منه وتناول البطريك ما جرت عادته ان يتناوله من الطعام ارسل اليه ذلك الملعون قائلاً اني الآن فارغ لك في هذا الوقت ايها البطريك فان رأيت ان تحضر فاحضر . فذهل خروف المسيح من هذه الرسالة في غير وقتها عند سماعه لها . وقال لاصحابه ماذا سبيلنا يا قوم ان نصنع وقد حضرنا امران غير موافقين لان المضي في هذا الوقت من الليل لا يليق ولا يصلح وذلك ان الطعام بعد في فيَّ والقوة ضعفت عن الخطاب وانا على هذه الحال . ولكن سبيل واحد منكم ان يستنهكني فان احس مني برائحة خمر احتججنا وقلنا ان ذلك لا يمكننا في هذا الوقت وان كانت نكهتي نقية مضينا على كل حال . فلما استنكهه احدهم ولم يكن هناك رائحة سار على قدميه كمثل حَمَل ساتر باختياره للذبح . فلقيه ذلك الملعون وسلم عليه سلام مودة والغش في قلبه مكنون . ولما جلسا جميعاً كان مملوءاً حقداً وغيظاً عليه فلم يصبر ان يبتدئه البطريك بكلام بل قال له يا بطريك ما بالك وانت واحد من اهل هذا البلد مساكن لنا ورأيك رأي سوء في معاملتنا لانك تعمل علينا . فقال له البطريك وكيف ذلك يا سيدي ومن اي معنى فقال له مجيباً لانك تكاتب ملك الروم وتستنهضهم الى قصدنا وتطمعهم فينا وتكاتب

غلام ابن حمدان ايضاً فقال له وما الدليل على ذلك يا سيدي ومن هو الذي وجد لي كتاباً بهذه الصورة فنهض ابن مانك كأنه يطلب كتاباً وقام قائماً وتكلم بالفارسية واستدعى من كان قد اعدّهم للقتل من الخراسانية وهو مع ذلك يعاين ويرعد لانه لم يكن جباناً فقط بل كانت صورته في الرجال صورة الخشّاف[١] قدّاً وعيناً لان قامته كانت تكاد ألّا تزيد على اليسير الا بمقدار يسير فكان منظره يشبه خشافاً في اللون واللحظ والبشر. فلما حضر من استدعاهم من القوم المُعدّين قال لهم عند ذلك بلسانهم واسنانه ترجف: هذا هو المطلوب هذا هو الذي يريد ان يسلّم هذه المدينة هذا هو عدو المسلمين . فمدّ خروف المسيح عنقه وهو جالس بغير انزعاج منتظرًا اخذ رأسه ولم يكن مع اولئك مشرفية بل خناجر طوال فاقامه واحد منهم قائماً وضربه الآخر بخنجر طويل جاز كل الحديد في بطنه . ولما سقط الشهيد الى الارض قُطع رأسه ناحية وطرح في اتّون الحمام في جوار دار ابن مانك وأُخرجت جثته الطاهرة في الوقت من باب المدينة بالليل وطرحت في النهر[٢] ولم يُستر ذلك عن كافة النصارى بل لما سقط راعيهم ذهلوا واختبطوا بما دهمهم من ذلك وجزعوا جزعاً شديداً وتفرقوا في بيوت قوم من المسلمين استتروا فيها . لكنهم لم يطلبوا من احد لانه كان من الواجب ان يتم مقال ابيهم الذي تقدم فقاله انهم اذا اشتفوا مني بقتلي وقذفوا السم الذي كثروه في قلوبهم على ان يطلبوا سواي .

واما ذلك الحيوان الضاري الصورة الزائد في الوحشية فلم يزل ممسكاً الى وقت من الليل لان روعه ما كان بعد قد رجع اليه فلما تمادى به الوقت الى السحر عاد الى ذاته ووجّه اشراطه قبل الصبح الى البيعة التي هي كنيسة القسيان وقلاية البطريرك . فلم يجدوا فيها غير مأكول مثل تين وزبيب وزيت قد احتُفظ به لمؤونة الكنيسة وقوت الاخوة بالمسيح ولم يكن هناك ذهب ولا فضة مخزونة . وكيف كان يُخزن شيء . والنفقة كانت تسبق ما يدخل ولا

١) . الخشّاف بتقديم الشين هو الخفاش اي الوطواط

٢) من هذا النص الصريح يتضح غلط شلومبرجر حين روى ان قاتل خريسطوفورس هو امير مسلم طعنه برمحه لظنه خيانته وميله الى الروم G. Schlumberger : Épopée Byzantine - tome 1er p. 25, édit. 1925

كان هناك ايضاً ملبوس وليس لمن كان ملبسه الصوف غير اسكيم رهبانية كان عليه . بل كان هناك اشيا. يسيرة نفيسة للكهنوت كانت معدة لمن كان قبله على طول الزمان . فاخذوا جميعها وفتحوا خزانة البيعة ولما لم يجدوا فيها شيئاً عاقبوا الخازن الى ان اظهر لهم المستور كله من اواني البيعة الذهب والفضة مع السلف الديباج مما كان يُحتفظ به لزينة الكنيسة ولم يتركوا شيئاً غير نحاس ومصاحف لم تكن كثيرة . واخذوا ايضاً اليهم كرسي مار بطرس السليح وهو من خشب النخل مصفَّح بفضة وحفظوه في دار شيخ من شيوخهم يعرف بابن عامر ولم يزل في داره الى ان ملك الروم المدينة . فمن هذه الجملة ما حبا به الملعون من تولى سفك الدم الزكي بحسب ما كان وافقهم عليه ومن ذلك ما تمسك به لملاطفة من كان ينتظره من الفرس القادمين لقصد جهاد الروم .

وفيما بين ذلك قدم القوم وتباهم الانطاكيون جميعاً قبولاً بهياً . وكان ذلك الكافر اللعين مختصاً بهم لا من اجل ما حمله اليهم فقط بل لانه كان مشاركهم في قبيلتهم ولسانهم واخذوا في الغارات على اطراف بلاد الروم واجتياحها . وكان اذ ذاك نقفور الملك المغبوط متشاغلاً بقصد البلغر فلما بلغه ذلك انفذ بطرس الاصطراطوبدرخ[1] فكانت له وقعة مع الخراسانية بناحية الاسكندرية الصغرى وهي التي بين المصيصة وانطاكية لما عادوا من غزاتهم فأوقع بهم وقتل صناديدهم واسر سلّار العسكر وجماعة منهم . وكان مع الخراسانيين جماعة من المسلمين الطرسوسيين فاشاروا عليهم بالّا يلقوا القتال ولا يصابروا في الحروب وقالوا ان هذا الجيش الذي يقاتلكم عسكر ملكي وليس لكم بهم طاقة فلم يقبل منهم الفرس بل صابروا الى ان قتل ابطالهم واكثر رجالهم ثم أُسر رؤساؤهم . ومن رؤساء الخراسانيين المأسورين في ذلك الوقت سلّار العسكر فاشتراه الانطاكيون بمال جسيم وثياب كثيرة وبالاسارى الذين كانوا اسروهم متقدماً من الروم وكانوا في حبس انطاكية . ولما تخلص السلار ووصل الى انطاكية تلقاه اهلها بالاكرام والتعظيم واحتفلوا بلقاه كل الاحتفال ولكن بحسب ما دخل في ذلك الوقت مكرماً كان فعله بهم بالعكس لان رجاله

1) stratopédarque من الرومية στρατοπεδάρχης اي قائد الجيوش .

الذين سلموا من القتل كانوا عراة حفاة وعاد هو ايضاً مثلهم فكانت الضرورة تدعوهم الى خطف ما يقوم بهم فتسلطوا على الانطاكيين وصاروا يتخطفون اموالهم ورحالاتهم . فلم يصبر لهم الانطاكيون على ذلك بل دافعوهم واستوحشوا منهم وانتشبت الحرب فيما بينهم واخرجوهم من المدينة عراة .

وكان الانطاكيون الذين تولوا قتالهم حينئذ عصابتين . عمل رئيس الفريق الواحد على رئيس الفريق الآخر فقتله . وذلك انه كان قد ورد من مصر الى انطاكية رجل اسود ممن افلت من صعاليك طرسوس يعرف بالرغيلي ومعه نفر يسير لينزو بهم اطراف الروم فهذا كان رأس العصابة الواحدة . وكان رأس العصابة الاخرى كردياً من اهل يوقا يدعى علوش وكانت المدينة اذ ذاك في يده . فدخل الرغيلي يسلم عليه ولما انكبّ لتقبيل يده كان سيف علوش معارضاً على ركبتيه فاخترطه الرغيلي وضربه به للحال فقتله . فتفرق رجال المقتول وكانوا كثيرين وصار الامر الى القاتل وكان رجاله قليلين واستولى الرغيلي على انطاكية . لكنه ما قامت ولايته بعد ذلك ولا طالت مدة لانه بعد مدة يسيرة قدم بطرس الاصطراطوبدرخ ومعه عسكر ضخم من عسكر نقفور الملك الممدوح ونزل على انطاكية واجتمع اليه ميخائيل البرجي المقيم بحصن بغراس واقاموا يحاصرون المدينة العظمى التي ما كانت ترام وهي اذ ذاك ضعيفة لما تقدم من الغارات على اعمالها وضجع اهلها في حفظها وحراستها لانهم ما كانوا يشعرون انها تقصد في ذلك الوقت ولم يتمكنوا من جمع رجال يصعدون الى الجبل ليحفظوا السور وراءه الروم خالياً فبادروا بالطلوع اليه فلم يروا احداً فيه وتمكنوا من الصعود اليه وملكوا المدينة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلثمائة[1] . وطرح المسلمون النار لتحول بينهم وبين الروم ففتحوا باب البحر وخرج منه جماعة من اهلها واسر الروم جميع من كان فيها ولم يفلت منهم احد الا ذلك المأمون الذي كان رأس البلية ابن مانك . وكان قد خرج من المدينة ليلاً طالباً ان ينجو الى بلد من بلدان الاسلام وخفي في الاول امره فكان مسروراً بذلك لا من اجل خلاصه

---

١) ٢٨ تشرين الاول سنة ٩٦٩

من الاسر وحده فقط بل لتمكنه على ظنه من الحيلة والتحرص والكذب على الله والملائكة بانهم حملوه في الهواء وخاصوه وكانت جرت عادته قديماً بمثل ذلك وكان يدفن الحيلة في المخرقة والكذب على رب العالمين . ولكن القضاء العدل ههنا سبقه وتقدم له في الطريق باقولة اي عصبة من السريان في الجبل الاقرع ممن كانوا يغيرون على انطاكية فقبضوا عليه وجاؤا به الى الاصطراطوبدرخ فسلمه الى من يحتاط عليه الى ان ينظر ماذا يجب ان يعمل في بابه . وانعم على اهل الباقولة بنعم جسيمة . واشار بعض الرؤساء بحمل ذلك الملعون ابن مانك الى الملك وخالفهم غيرهم وقالوا من هو هذا حتى يؤهل للحمل الى حضرة الملك بل من اوجب الاشياء قتله انتصافاً لذلك الدم الزكي الذي سفكه . فاجابهم الآخرون الذين كانوا اشاروا بحمله وقالوا ما الصواب ان يتدنس ذلك الدم الطاهر بهذا الدم النجس. فقال في الآخر افسطانيوس البطريق اسطراتيغوس الكبادوك المعروف بالملاييني هل البطريوك ههنا حاضر يأمرنا بقتله حتى نتدنس نحن بدمه كما تقولون . اما ذاك فانسان قد قضى ما يجب عليه ومضى وحصل بحيث ينتظر من الله المكافأة الجليلة . واما نحن فان كنا نصارى فيجب علينا ان ننتصف له من الظلم الجاري عليه ولما قال لهم مثل هذا القول اقنعهم وانفذ المحكوم عليه الى جسر باب البحر الذي كان هو طرح منه الجثة الكريمة الى النهر وقُطع قطعة قطعة بالسيوف ولم تطرح القطع في النهر ولا أُهل لذلك بل رُمي بكل واحدة منها حسبما اتفق على الخضيض وحصلت طعاماً للطيور وللكلاب . واما ابن محمود وابن دغامة اللذان كانا شاركاه في اهراق الدم الزكي فانهما كانا أُنفذا الى جسر طرسوس وبقيا فيه مدة طويلة ولم يطلبا في ذلك الوقت . ثم اتفق ان نقفور الملك من قبل معرفته خبر انطاكية على حقيقته قُتل وحصل الملك لابن الشمشقيق[1] . فبادر بانفاذ ثاودورس الراهب[2] من اهل قلونية وجعله بطريركاً على مدينة انطاكية . فسأل عن خبر الشهيد

---

١) Jean Tzimiscès

٢) كان قبلًا رئيس دير انطوني في الارمنياكس (التيبكون الصغير لينكن الثاني) صُيّر بطريركاً على انطاكية يوم الاحد ثالث وعشرين من كانون الثاني سنة الف ومائتين وواحد وثمانين للاسكندر (٩٧٠ م) (ذيل يحيى بن سعيد الانطاكي طبعة بيروت ص١٢٨)

وطلب بقية جسده الطاهر وذلك ان جثته الكريمة كانت قد ظهرت بعد ثمانية ايام من شهادته التي كانت ليلة اليوم الثالث والعشرين[١] من شهر ايار سنة ست وخمسين وثلثمائة للهجرة[٢] وكان ظهورها في جزيرة من النهر قد تعلّقت بطرّاش هناك ولم يكن الرأس الكريم معها لانه قبل ان ذلك الكافر احرقه. فخرج قوم من نصارى انطاكية ودفنوها في الدير المقدس المعروف بارشايا . فلما عرف ذلك ثاودروس البطريرك لم يتبصر ولا تثاقل عن النفوذ الى هناك بل صار الى الدير المقدس وحمل جثة القديس ومعه الاكليرس الطاهر وخلق من المؤمنين وصاروا قدامها الى المدينة بليتين وحفل عظيم . وجعلوها في جرن لطيف من الرخام وضعوه على مائدة من رخام في مغارب الكنيسة الكبرى . الا ان القديس نقولاوس البطريرك[٣] بعد برهة من السنين نقله من هناك باكرام ايضاً وجعله في جوف بيت القديس مار بطرس رأس الرسل مع شَبوقته[٤] وكرسيه وحُيول[٥] عدة ولباسات للآباء البطاركة واغناتيوس البطريرك ايضاً واشياء اخرى من حيول مار يوحنا المعمدان والحربة الكريمة السيدية وشبوقة خريصوطمس ومنطقة مار سمعان الحلبي العمودي وغير ذلك مما هو في خزانة القديس مار بطرس الى هذه الغاية .

ولم يسكت القضاء العالي كثيراً فيما بعد عمن كان شريكاً في القتل . فالواحد من الاثنين وهو ابن محمود كان في سجن طرسوس في كل شقاء وضرّ والم يقين جسيم يعاقب باعماله الى ان هلكت نفسه الشقية المقابلة للحسن بالقبيح . واما الآخر وهو ابن دغامة فبقي محبوساً الى ان قدم الى انطاكية ميخايل البرجي[٦]

---

١) في خزانة باريس سنكسار عربي رقم ٢٥٦ ورد فيه ان تذكار خريسطوفورس بطريرك انطاكية الذي استشهد في ايام المسلمين كان في اليوم الحادي والعشرين من ايار (ص ٢١٥) والصحيح ما جاء اعلاه .

٢) سنة ٩٦٧ للميلاد.

٣) كان قبلاً رئيس دير الاصطوديين في القسطنطينية وصُلّي عليه فيها يوم الاحد سابع عشر كانون الآخر سنة الف وثلثمائة للاسكندر (٩٨٩ للميلاد) .

٤) الشبوقة لفظة سريانية يراد بها المكازة

٥) الحيول جمع حَيْل وهو الدهن السائل من بعض الايقونات .

٦) Le patrice Michel Bourtzès

البطريق كان في ذلك الوقت فانفذ من احضره وثقّله بحجارة وطرحه في البحر . وحصل الثلاثة وهم ابن مانك وابن محمود وابن دغامة الذين تولوا قتل القديس ومكافأته بضد افعاله في الآخرة ينتظرون العقوبة الدائمة . واما القديس فحصل في السماوات العالية مساكناً للكهنة مخالطاً للصديقين واقفاً مع الرهبان الناسكين في صف الشهداء القديسين .

فيا من كان الى كل حسنة سابقاً اقبل مني هذا القول وان كان قاصراً لكنه بحسب الطاقة وكما لم تستنكف ان تسعى بقدميك من اجلي حتى سلمتني الى ذلك المؤدب الالهي الفاضل عساك عرفت اني اصير كما صرتَ في العلوم فاضلًا ولكنني عُلّمتُ على كل حال علماً وحاشا ان اقدر في بعض الاوقات ان اكتب خبرك لئلا ينسى في طول الزمان . فلذلك تعطّف علي في هذا الوقت واصفح عن تأخيري وأجب المقال فيك الى هذه الغاية . ولا تحرمني عند وقوفك الآن في السماوات امام المنبر العظيم بحسب ما كنت مشتاقاً او بحسب ما كنت حريصاً مجتهداً فينظر اليَّ الربّ وتشفع فيَّ وفي الذين عولوا على عنايتك في خلافتك فيَّ وفي اخوتي رضي الله عن الجميع . وبالغ فيَّ السؤال والتضرع ان يغفر خطاياي ويُنجح سعيي في بقية عمري فاخلص من الشدائد وانتقل الى ما يرضي الله الهي ويُزلف لديه .

ولك عدة من التبّاع والمساعدين الاولاد الذين اولدتهم بالمسيح وقدمتهم الى الطريق المؤدية الى ما يرضي الله وقد كانوا اغصاناً مقدسة وازهاراً روحانية ومقدَّمات من لدن النفس الالهي مقبولة .

فمنهم انبا جرجي الكبير نصبتك وغرستك الذي لقي الملك نقفور القديس ورأس على دير مار سمعان العمودي الخابي .

ومنهم انبا يوحنا العجيب الذي أُهّل لان صار كاثوليكا على بلد المشرق .

ومنهم انبا خاريطن الثاني المجتهد الارشيمندريتس رئيس دير سابا .

ومنهم سمعان العجائبي البحري الذي في جبل اللكام العجيب .

ومنهم انبا يعيش الحبيس الذي جاهد بانواع من عمود الحبيس وصبر على ضيق المحابس الكثيرة ولم ينتقل عن طريقة واحدة وكان حبيباً بنا مخصوصاً بل بالمسيح في دير القديس اغريغوريوس الثاولوغس بيشاس .

ومنهم انبا ارميا رفيقه العجيب رئيس دير الست السيدة والدة الاله المعروف بالجراجة الذي انشأه هو في جبل اللكام المقدس .

ومنهم الاب المغبوط اوتيكيوس ابن فرجوس .

ومنهم انبا غريغوريوس الكبير الفاضل رئيس دير السيدة والدة الاله المعروف بدقتونا وكفانا اشتهاره بالفضائل وقد ذكرت لكل منهم خبرًا مفردًا على حدة كما استأهلوا ان يكونوا مذكورين وان كنت اختصرت فيه غاية الاختصار وكفانا بهم من نضيك مديحاً لهم وذكرًا وشفاعتك وصلواتك وصلواتهم اجمعين لتكن لنا مخلصة وحافظة الآن ودائماً الى اقصى آخر الدهور كلها آمين .

(لها صلة)

تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطي (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد المستنجد المستضيء ابنه

تولّى تسع سنوات . بعدما اجهز الزعماء على المستنجد وقع اختيارهم على مبايعة احد بنيه الذي لم تخطر الخلافة بباله اصلاً وكان حليماً وضيعاً . فاستحلفوه ان لا يفتك باحد منهم وان يرد لهم كل ما انتزعه والده منهم . فاقسم لهم بذلك واحضروا اخاه واستحلفوه مثله وهددوه بالقتل وصنعوا مثل ذلك بجميع ابناء الاسرة . ولمّا اقسموا جميعاً بايعوه بالخلافة وأسموه المستضيء .

وفي السنة ١٤٨٣ لليونان (١١٧٢ م) عمّ الثلج الارض كلها حتى الهند التي لم يعرف اهلها الثلج قطعاً . وقد بلغ علوه هناك اربعة عشر شبراً فيما قيل . وجمدت الانهار والينابيع وتلفت الحيوانات والطيور جوعاً وعطشاً . ولزم الناس بيوتهم كأنهم في قبور لا يتيسر لهم الذهاب من قرية الى قرية . وخنق الثلج كثيرين من سكان الخيام والمسافرين . وتفاقم الجوع في سبسطية بسبب بُعد المسافة وطلب الزعماء من اسمعيل بن دنشمند صاحب قبدوقية قمحاً لهم ولذويهم يكفيهم الى الصيف لئلا يهلكوا . وكان عنده اهراء كثيرة مملوءة ذخيرة لكنه رفض طلبهم فوثبوا اليه وقتلوه هو وامرأته وهي اخت السلطان قلج ارسلان وقتلوا معها خمسمائة شخص من حشمها وعبيدها وجواريها واحتلوا الاهراء باسرها . وارسلوا الى دمشق وطلبوا عمه ذوالنون الذي كان منهزماً (٣٤٤) من وجه السلطان فاقبل وتولى سبسطية .

وفي السنة ٥٦٧ للعرب (١١٧١ م) كتب نور الدين الى صلاح الدين ليلغي الخطبة باسم العاضد خليفة مصر ويخطب لخليفة بغداد . لكن صلاح الدين تخوّف حدوث ثورة فاجل القضية . فاضطره نور الدين ثانية ولم يستطع ان يخالفه فاستشار زعماء مصر فاختلفوا فرقتين احداهما حتمت بذلك والثانية نهت عنه .

وحضر هناك رجل فارسي يقال له الامير العالم فقال لهم : انا ابتدئ الخطبة واكفيكم الهمّ . وصعد المنبر يوم الجمعة ودعا للمستضيء ابن العبّاس بدلًا من العاضد ابن علي . ووافقه الجمهور . وجرى مثل ذلك يوم الجمعة التالية في مساجد مصر جميعها والتغت خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر يومئذٍ مريضاً ولم يخبره اصحابه بما تمّ خيفة ان تعاجله المنون فقضى دون ان يشعر بما صار . واعتقل صلاح الدين ابناء الخليفة وآله وفصل الذكور عن الاناث قطعاً لنسلهم . واعتق العبيد والجواري . فابتهج العرب اصحاب شيعة القدر والقضاء وشيعة مزبدي الحرية والاختيار . ويقال ان خلفاء مصر لا يتحدرون كما يزعمون من علي وفاطمة بل من رجل يهودي او مجوسي . وقد نظم الشعراء قصائد جمة في الغاء الدولة الفرعونية وظهور الدولة اليوسفية . وقام منهم اربعة عشر خليفة في المغرب : ثلاثة في افريقية وهم : المهدي والقائم والمنصور . واحد عشر في مصر وهم : المعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والامير والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

واستقل صلاح الدين بمصر (٥٦٣ه) لا يعارضه احد قطعاً سوى نور الدين فقد كتب اليه يقول : هذا احاصر الكرك فاحشد الجنود واستعجل في القدوم الى هناك . لكن صلاح الدين لم يلبه . فسخط نور الدين واعتزم الذهاب بذاته الى مصر ليخرجه عنها . فاجتمع صلاح الدين بالزعماء وشاورهم في الامر فسكتوا ولم يدروا ما يقولون سلباً ام ايجاباً . وعند ذلك نهض الشاب ابن اخي صلاح الدين وقال : اذا جاء نور الدين فاننا نحاربه ولا ندعه يدخل مصر . ووافقه في ذلك سائر الشبان زملائه . غير ان والد صلاح الدين وخاله غضبا عليهم ثم تكلّم والد صلاح الدين وقال هل بين جميع الحضور من يرغب لك الخير نظيري ونظير خالك ؟ قال صلاح كلّا . قال والده : كن على ثقة من اننا انا وخالك اذا شاهدنا نور الدين خررنا امامه وقبلنا الارض خاضعين . واذا كان ذلك كذلك فمن تراه يتجاسر ان يشهر السلاح عليه ؟ فهذه بلاد مصر باجمعها وغيرها ايضاً انما هي لنور الدين واذا شاء ان يعزلك فلا حاجة ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه ان يرسل شخصاً واحداً في سطرين منه فيلقي

الحبل في رقبتك ويقودك الى دمشق ويستعمل على بلاده من شاء . ثم نهض الشيخ نجم الدين وانهى الزعماء. وقال : نقول باننا جميعاً عبيد لنور الدين وله ان يصنع بنا ما شاء . وبعدما انصرف الزعماء. قال الاب لابنه صلاح الدين: انك فتى بعدُ لا عقل لك ولا سياسة عندك . الا تدري ان نور الدين اذا سمع انك تمرّدت عليه ترك كل شيء. وتتبعك حتى يقضي عليك ? ومَن من الجنود يا ترى يتركه ويتبعك ? اعلم ان ما احدثك به الان لا بد من ان يصل اليه. اذن يجب ان ترسل اليه سفيرًا يخاطبه خطاب متضع ويصرح له بانك عبد (٣٤٦) مطيع لامره . وان احوال مصر مضطربة بعد وان الخوف من الفرنج يصدك عن الذهاب اليه فيخمد غضبه ويغمض عنك . وقد صار مثلما قال الشيخ .

وفي تلك الغضون اقبل جمهور غفير من النوبة الى اطراف الصعيد وسبوا قرى كثيرة . فوجه صلاح الدين العساكر وانتشب القتال بين الفريقين وهلك الكثيرون من الجهتين ثم تقوى السودان وارسل صلاح الدين اخاه شمس الدولة توارنشاه في جيش ضخم . فانهزم النوبة وتتبعهم العرب وغزوا وقتلوا واحتلوا قلعة ابريم واقاموا بها حفظة ولما عاد العرب عاد النوبة كذلك واسترجعوا قلعتهم وارسل ملكهم سفيرًا الى شمس الدولة وهو في قوس وسأله الصلح فلبى الطلب وشرط ان يؤدي جزية . وسيّر مع سفير النوبة سفيرًا من قبله اسمه سعود الحلبي ووصل الى دونغولا العاصمة واطلع على المضايق وعرف ان الاهالي لا يزرعون غير الدخن وان عندهم اشجار نخل وهم يأكلون دخنهم ملتوتًا بنحرهم ومواشيهم وليس عندهم ابنية سوى دار واحدة هي بلاط ملكهم . اما الاهالي فيجتمعون في الخيام والمغاور . قال السفير : شاهدتُ الملك يومًا قد خرج عريانًا وركب حصانًا عريانًا كذلك والتف بثوب اطلس غير مخيط ورأسه أصلع ومكشوف ولما دنوت وسلّمتُ عليه ضحك وقهقه وأمر فكوَوا يدي شكل صليب ودفع لي خمسين رطلًا قمحًا وأطلقني .

وفي السنة ٥٦٩ للعرب (١١٧٣م) سار شمس الدولة المذكور الى ارض اليمن واحتلها وملكها . وفي ايار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤م) مات (٣٤٧) نور الدين في دمشق بداء الخناق . وحدّث الرحبيّ الطبيب الدمشقيّ الذي ادركتُ انا الحقير ابنيه الطبيبَين الفاضلَين قال : لمّا تفاقم داء نورالدين ودُعيت

الى عيادته مع سائر الاطباء. شاهدناه في بيت ضيّق صغير وقلنا له : ان يفصد الوريد فأبى . ولم نزَ ان نلحّ عليه لاننا كنّا نهابه جدًّا . وما عتم ان مات . وكان رجلًا اعتياديًا طويل القامة دون لحية تحت ذقنه بعض شعرات بسيطًا في هندامه وكسوته مبغضاً للعرب المتسللين من عليّ . وقد استرجع من الفرنج اكثر من خمسين مدينة وقلعة وابتنى بيمارستانًا كبيرًا ومدرسةً في دمشق ومسجدًا في الموصل فخماً .

وقام بعد نور الدين ابنه الملك الصالح اسمعيل وحالفه جميع الزعماء وخطب له صلاح الدين في مصر وضرب الدراهم والدنانير باسمه . اما سيف الدين غازي صاحب الموصل فلمّا نُعيَ اليه عمّه نور الدين فرح الفرح كلّه واوعز الى المنادين لينادوا باطلاق الحرّية للاهالي في الشرب والسكر والذبح علانيةً . ثم حشد الجيوش واقبل الى بلاد ما بين النهرين واحتلّ الرها وحرّان وما حولها. وارسل الامير شمس الدين قائد الجيش الحلبيّ الى زعماء دمشق يقول : ابعثوا الملك الصالح الى حلب قبل ان تُنزَع من يدكم . غير انهم خافوا ان يتولّى هو سياسة الدولة فلم يَدَعوا الملك الصالح ان يغادرهم. ثم ارسل صلاح الدين يعاتبهم لانهم لم يستدعوه الى مساعدتهم الى ان قال : لو عرف نور الدين ان بينكم من هو انشط منّي لولّاهُ مملكة مصر . والآن فاني قادم اليكم اذ يترتّب عليّ ان ادبّر مولاي وابن مولاي دونكم . عند ذلك وجّه الزعماء الصالح الى حلب وجعل قيّمهُ (٣٤٨) سعد الدين الحاجب وكان هذا حافظاً فيما مضى لقلعة الموصل ثم انهزم واقبل الى دمشق .

وتخوّف الدماشقة من صلاح الدين وبعثوا يطلبون الصلح من آموري ملك اورشليم وقبلوا ان يؤدّوا له جزيةً . الّا ان اموري توفّي في عكّة في ١١ تموز بعد مرور اربعين يوماً على وفاة نور الدين . وقد اشتدّ كمد المسيحيّين بوفاة هذا الملك البطل الذي كان عرب مصر وسورية قاطبةً يهابونه . وخلفه ابنه بغدوين الرابع .

ولمّا بلغ قلج ارسلان سلطان قونية خبر وفاة نورالدين حليف دوألنون بن دانشمند زحف الى سبسطية ونوقيسارية وتوماما وملكها . فسار دوألنون الى

قسطنطينية واستنجد بملك اليونان . وانتهت يوم ذاك زعامة بني دنشمند التي استغرقت ١٢٢ سنة .

ثم ان امير ميافرقين ضايق الارمن السناسنة فارسلوا الى شاه ارمن صاحب خلاط وسلّموه حصونهم . وعاد ملك الكرج فانتزع مدينة أني من العجم.

وفي السنة ٥٧٠ للعرب (١١٧٤ م) حشد صلاح الدين جيوشه واقبل الى دمشق يتظاهر بانه قادم ليساعد ابن مولاه ودخل دار ابيه واقام بها ثم وسوس الى ريحان الخصيّ حافظ القلعة ففتح له بابها ودخلها اخوه سيف الاسلام واصحابه واحتلّوها وأبد الخطبة للملك الصالح اسمعيل. ثم غادر دمشق الى حمص وأخذها ووصل الى حماة وملكها. ووصل الى جبل جوشن قرب حلب فحشد امبرها الحلبيّين قاطبةً كبارًا وصغارًا في ميدان باب العراق واشاروا الى الصالح ان يخرج ويكلّم (٣٤٩) الجماعة كلاماً مؤثّراً. فانتصب في راس الميدان وقال: يا أيها الحلبيّون انكم انتم ربيتموني وهذا استغيث بكم وليس لي اب او أخ سواكم . واجهش بالبكاء حتى كاد يختنق وبكوا جميعاً لبكائه وصرخوا صرخة واحدة وقالوا : اننا كأنّا عبيد لك وفدًى امامك .

امّا الفرنج فقد بعثوا السفراء الى صلاح الدين يلومونه وينكرون عليه عمله هذا وقالوا له : انك بعملك هذا تنكر جميل مولاك . فاصغ الى كلامنا واترك حلب والّا فاننا بأجمعنا نثب اليك ونناهضك . ولمّا رأى صلاح الدين ان الامور لن تتمشّى طبقاً لمآربه وانه يتعذّر عليه ان يخدع الحلبيّين انقلب عائدًا الى بعلبك واحتلّها وسار الى حمص وملك قلعتها . ثم ارسل الحلبيّون الى سيف الدين صاحب الموصل يقولون : اذا تركتَ صلاح الدين يحتلّ حلب فكن على ثقة بأنه لن يترك لك الموصل . فسيّر جيشاً كثيفاً بقيادة اخيه عزّ الدين واتّفق مع الحلبيّين وساروا معاً الى حماة وارسلوا سفيرًا الى صلاح الدين وهو في حمص يلحّون عليه ليردّ جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق لا غير ويكون كسائر الامراء الخاضعين للملك الصالح . فأجابهم صلاح الدين : اني لم آتِ لاحارب ابن مولاي بل لاحفظه واحفظ بلاده وخزائنه. ولن اخالف قولكم مطلقاً . لكنهم لمّا عرفوا استعداده للصلح ظنّوه ضعيفاً فاستحقروه وقالوا له : يجب ان تغادر سورية كذلك وتعود الى مصر وليس لك عندنا الّا السيف . ثم

زحفوا الى الرستن واقبل صلاح الدين اليهم وتبارز الجيشان في قرون حماة فانكسر المواصلة والحلبيون وارتدوا الى ورائهم منهزمين . وأمر صلاح الدين جيوشه ان يقفوا ولا يتتبعوا المنهزمين ولا يقتلوا احداً . وعند ذلك ارسل اليه (٣٥٠) الملك الصالح يسأل الصلح وان يتولى صلاح الدين دمشق وحماة وحمص ويترك سورية الخارجة للصالح . لكن صلاح الدين لم يرضَ الّا بعدما اضافوا الى ذلك المعرّة وكفرطاب . عند ذلك وافقهم وأقسم بان يخطب للملك الصالح في كلّ البلاد التي تحت يده وان يوافي الى مساعدته كلّما دعت الحاجة .

ولمّا بلغت المستضيء خليفة بغداد اخبار نصرة صلاح الدين ارسل إليه حللاً ملكيّة وسيفاً وألويةً وفرماناً . وكان قطب الدين قياز قد خرج يومئذٍ على الخليفة وحاصره في بلاطهِ . فهلع الخليفة وقصد السطح وأمر المنادي ان ينادي بأعلى صوته ويقول : ايّها البغداديّون هذا وقتُ مساعدتكم لمولاكم وإمام دينكم فأبدوا تحمّسكم في سبيل ايمانكم . وعمّت الصيحة المدينة واقبل الاهالي في سيوفٍ وعصيٍ وقراميد وحجار وهزموا قياز واعوانه الى الصحراء . فادركهم العطش وعثروا على صهريج خُنقت فيه الحيَّات فشربوا منه وانتشر الوباء فيهم وفي خيلهم وتوجّهوا الى الموصل وهلك اغلبهم في الطريق وقضى بقيّتهم في الموصل .

وفي السنة ١٤٨٦ لليونان (١١٧٥م) خرج زعماء ارمينية على مليح أميرهم وحاولوا ان يقتالوه فانهزم الى احد الحصون ووثب اليه الحرّاس وقطّعوه ارباً ارباً والقوا جثّته للكلاب انتقاماً منه لما انزله بالمسيحيّين من الاعذبة والمساوئ . ثمّ استدعى الزعماء روفين ابن اخيه اسطفان من طرسوس وولّوه أمرهم فأجهز على قتلة عمّه مليح ولا سيما لانهم ألقوه للكلاب .

وفي السنة ٥٧١ للعرب (١١٧٥م) ارسل سيف الدين صاحب الموصل الى الصالح في حلب (٣٥١) يلومه أشدّ اللوم لانه هادن صلاح الدين . ثم حشد نحو عشرين الف فارس واقبل الى حلب وفكّ زعماء الفرنج المسجونين هناك منذ امدٍ طويل . وباع قمّص طرابلس بثمانين الف دينار وجوسلين بن جوسلين بخمسين ديناراً والبرنس امير انطاكية بمائة وعشرين ديناراً واستحلفهم ان يساعدوا العرب دائماً .

وحشد صلاح الدين كذلك عساكره وزحف الى اطراف التركمن بين حلب وحماة وتبارزوا فانكسر الحلبيّون والمواصلة ولاذوا بالفرار واحتلّ صلاح الدين خيامهم واثقالهم وشاهد هناك طائفة من الطيور كاليمام والحمام والبلابل في اقفاصها ومائة من العاهرات المطربات. واستدعى واحداً من مشخّصي الروايات وارسله الى سيف الدين مع تلك الاقفاص وقال له : اذهب وسلّم بدلاً مني على سيف الدين وقل له: ارجع الى شنشنتك ولاعب طيورك لانها تحميك كل خطر . وبعد ما اوثق زعماء الموصل وفي جملتهم فخر الدين عبد المسيح فكّهم وألبسهم ثياباً واعطاهم خيلاً وهدايا وردهم بسلام. وترك حلب على ما كانت ومرّ بقلعة بزاعة واحتلّها وسار الى منبج وتولّاها وعثر في قلعتها على ثلاثمائة الف دينار . ثم اقبل الى عزاز وحاصرها اربعين يوماً واحتلها .

وفي السنة ١٤٨٧ لليونان (١١٧٦م) شاد منوئيل ملك اليونان مدينتين في حدود الاتراك ووضع فيهما الجنود وجعلوا يزعجون اصحاب قليج أرسلان وكان منوئيل يلحّ عليه ليردّ الى آل دنشمند اماكنهم فأبى . فوجه الملك ثلاثين الف فارس يونانيّ مع دوألنون التركيّ بن دنشمند وحاصروا نوقيأرية (٣٥٢) وكتب لهم اتراكها رسالةً في اليونانية بلسان اهاليها النصارى يقولون : لا تصدّقوا دوألنون فهو يواصل الاتراك برسائله ويحاول ان يغدركم ويدفعكم الى اصحابه . فخاف اليونان وغادروا المدينة وتتبّعهم الاتراك وفتكوا بابن اخت الملك . فسخط الملك وحشد جيوشاً ضخمة وسار الى حدود الاتراك وترك العجلات واثقالها . وجعل اليونان ينهبون ويحرقون القرى التركية وهي خالية من الناس والزاد. على ان الرّجالة الاتراك خرقوا الجبال والاودية العميقة ووصلوا الى معسكر اليونان ونهبوا ما به واحرقوا عجلاتهم وجعلوا يدحرجون من قمم الجبال حجاراً ضخمة سحقتهم هم وخيلهم . وعند الليل ارسل الملك الى السلطان سفيراً يطلب الصلح . فلبّى طلبه ولا سيّما لانه هو كذلك كان خائفاً. ثمّ اقام ثلاثة امراء اتراكاً سيّرهم في خدمة الملك حتى وصل الى حدود بلاده. وكان مع اليونان كثير من الكنائس (النقّالة) والصلبان والحال في جملتها صليب يشتمل على قطعة من عود الصليب انتهبها الاتراك جميعها ثم ارسل الملك الى السلطان ذهباً وافراً واسترجع عود الصليب .

وفي هذه السنة مات نجم الدين صاحب ماردين واستغرق ملكه اثنتين وعشرين سنة وعامل النصارى وكنائسهم واديارهم خير معاملة وخلفه ابنه قطب الدين فتحرّش بعمّيه صاحب حاني وصاحب دارا ثم صالحها وأقبلا اليه طائعَين . ولمّا ذاع خبر موته سارع المعديون ليغزوا بلده فاستجمع قواه ووثب اليهم وفتك بالف منهم وانتزع منهم (٣٥٣) اثني عشر الف جمل وانهزم من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦م) شخص صلاح الدين ثانية الى حلب فتذلّل له الصالح صاحبها وطلب الموادعة اذ تعذّر عليه ان يقاومه . فارتضى وابرم صلحاً عاماً مع حلب والموصل وارمينية الصغرى . ثم وجّه اليه الصالح اخته الصغيرة فطلبت منه عزاز فأجاب الى طلبها . وبعد هذا غادر حلب الى دمشق واقترن بعصمة الدين امرأة نورالدين وقلّد اخاه شمس الدين تورانشاه امور دمشق وعاد الى مصر وابتنى سوراً واحداً يحدق بمدينتي مصر والقاهرة وشاد قلعة فوق الجبل المتوسط .

وفي السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨م) زحف صلاح الدين في جيوش كثيفة الى عسقلان وغزا واستأسر وسفك دماء كثيرين من النصارى . فذعر الفرنج وكان ملكهم في اورشليم مبتلىً بداء الجذام فتشجع واجتمع بجنوده وانحدر عن حصانه وخرّ على وجهه امام الصليب المقدّس وجعل يبكي فتأثرت قلوب الجنود واقسموا انهم يحاربون ويجاهدون حتى النهاية . بناء عليه أغمضوا هنيهة حتى توغل الاتراك في الضواحي وانهمكوا في الغزو وكفّوا عن استئناف القتال معتقدين ان الفرنج ضعفاء . اما الفرنج فزحفوا اليهم وادركوهم وهم يعبرون النهر . وارسل الربّ عاصفة شديدة جرفت الرمال من ناحية الفرنج على الاتراك وأعمتهم . ووضع الفرنج فيهم السيف فتقهقروا وضلّوا وتاهوا في الصحراء القفراء ولحقهم الفرنج خمسة ايام وهم يقتلونهم ويجمعونهم طائفةً طائفةً ويرتقونهم ويقتلونهم وقد افلت صلاح الدين مع قليلين الى القاهرة . قال المؤرخ: شاهدت (٣٥٤) حاملي البشرى راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر انّ السلطان انتصر والفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لان السلطان سالم . فعرفتُ ان البشرى كانت عكس الواقع .

وفي هذه السنة تمّ الصلح بين قلج ارسلان ومنوئيل ملك اليونان واقبل قلج ارسلان الى ملطية وشدّد عليها اربعة اشهر ولم يدخلها وأمر جنوده فابتنوا لهم بيوتاً من لبن ليشتّوا بها وشادوا له بيوتاً واسعة بحجارة نقلوها من المقابر. امّا امير المدينة وهو من عشيرة دنشمند فخاف ان يتفق الزعماء محتجّين بالغلاء ويسلّموه المدينة فأرسل الى السلطان في الأمان وسار الى حصن زياد. فاحتلّ السلطان ملطية يوم الاربعاء ٢٥ تشرين الاوّل ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨م).

وفي السنة التالية اتفق الفرنج قاطبةً مع الملك بغدوين وابتنوا مدينة على شاطئ الاردن في مكان يقال له مَعبَر يعقوب كي يضايقوا دمشق .

وسار صلاح الدين من مصر الى بعلبك بسبب خروج حاكمها عليه وشدّد عليه الحصار حتى طلب الهدنة وسلّمه المدينة. ثم انقلب الى فلسطين فثار الفرنج وهزموه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا . واذ كانوا مطمئنين هادئين كأنهم احرزوا النصر باغتهم كمناء العرب واعتقلوا منهم نحو مائة محارب وقبضوا على رئيس الفرير . ثم توجّه صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الفرنج وامتلكها وكان فيها خمسمائة من الاخوة الفرير فلمّا شاهدوا العرب قد تغلّبوا عليهم ألقى البعض بنفوسهم في النار فاحترقوا والبعض في نهر (٣٥٥) الاردن فاختنقوا والبعض على الصخور فترضّضوا وقضوا . وحصدت البقيّة سيوف العرب .

وفي السنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) وعك منوئيل ملك اليونان ولمّا شعر بدنو الاجل انقطع الى احد الاديار ووضع التاج لابنه ألكس وبايعه . وجعل امرأته وهي والدة ألكس راهبةً واناط بها خزائن الدولة . ونصب اثني عشر زعيماً ليشرفوا على تدبير الجيوش. غير ان الملكة الراهبة ارتكبت القبيح مع واحد من اولئك الزعماء الاثني عشر وحاول سائر الزعماء ان يخلعوا ابنها ويقيموا ابنة منوئيل وهي من امرأته الاولى بدلاً منها ويبايعوا زوجها بالمملكة ولكنهم لم يتوفقوا . وما عتم ان ظهرت المكيدة وخاف الزعماء وانهزموا الى الكنيسة الكبرى والتحم القتال ضمن المدينة سبعة ايام وسفكت الدماء . وصوّب احزاب الملك المنجنيقات نحو كنيسة اجيا صوفيا . وسار ثاوذوسيوس البطريرك وقابل الملك وامّه فأقسما له انهما لن يؤذيا احداً ممّن هو ضمن الكنيسة فخرج جميعهم مطمئنين. لكنّ الملك وامّه خرقا الايمان وسملا عيون الزعماء الاحد عشر وقتلا

احزابهم . فامتعض البطريرك وأبرم الحرم على المدينة جمعاء . وغادرها الى دير قريب وألغى قرع النواقيس والصلاة تسعة شهور وجعلوا يشيّعون الموتى ويدفنونهم دون صلاة .

وفي تلك السنة وجّه السلطان قلج ارسلان جيشاً الى رعبان فوثب اليه جنود دمشق وهزموه الى قبدوقية . وكان ذلك الجيش منجدًا في محاربة الفرنج.

وفي هذه السنة وهي السنة ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) مات الخليفة المستضيء. وخلفه ابنه الناصر .

بعد المستضيء الناصر ابنه

تولّى سبعاً واربعين سنة . ولمّا بويع بالخلافة قبض على الوزير ابن العطّار وزجّه في السجن وأوثقه وانتزع كلّ ما له . ووقعت وفاته ليلة الاربعاء ١٢ ذي القعدة (٣٥٦) ولمّا شيّعوه ثار البغداديون وطرحوه عن كتف حمّاله وفسخوه وشدّوا في ذكره حبلًا وسحبوه في البلد ووضع الصبيان بيده مغرفة . وهم يقولون : وقّع لنا يا مولانا. وظلّوا يسخرون به حتى اقبل الاتراك ونقلوه ودفنوه . وحدث في تلك السنة غلاء . فظيع ووباء. تتال شمل الارض كلّها .

وفي السنة ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١م) زحف صلاح الدين ليناوش السلطان قلج ارسلان بسبب صهره نور الدين بن قرا ارسلان بن داود بن ارتق صاحب حصن كيفا . وكان هـذا يسيء معاملة زوجته وهي ابنة السلطان ولا يراعي حقوق الزواج فأرسل يتهدّده . فاستنجد بصلاح الدين فكتب الى السلطان يسأله ان يغفر لصهره فأبى. فاتفق صلاح الدين مع الفرنج الذين في ساحل البحر وحشد الجنود وسار يريد حلب وحلّ في برج قرا حصار عند نهر الازرق بين الحصن وحصن منصور . ثم زحف الى نهر كوكسو واقبل اليه نور الدين فرحّب به وأمّنه . وبعد هذا ارسل السلطان سفيرًا الى صلاح الدين وجرت المصالحة بعد ما استحلف نور الدين ان يعيش مـع امرأته عيشة مرضيّة ويحترمها احترام ابن لابيه . وارتحل صلاح الدين من هناك الى النهر الاسود ودخل جنوده ليغزوا ضواحي قيليقية وكان دوفين صاحبها قد فتك بجماعة من الرعاة التركمان وسبى نساءهم واولادهم ومواشيهم . فارسل روفين

كتاب خضوع وتذلل الى صلاح الدين في ذهب وافر وأعتق خمسمائة من الاسرى (٣٥) الاتراك وبعد ما عقدا الصلح سافر صلاح الدين وعاد قلج ارسلان الى ملطية ورمّم سورها .

وفي تلك الغضون سرّح البرنس صاحب انطاكية امرأته اليونانيّة الشرعيّة واتخذ امرأة زانية . فحرم البطريرك الانطاكي القسّيس الذي صلّى عليها وحرم المدينة كلّها وألغى قرع النواقيس والصلوات . فسخط البرنس ونهب كنائس الفرنج واديارهم بأسرها .واذ ذاك وافى بطريرك اورشليم مع القامصة وصالحوه ووافقوا على اقترانه بالمرأة الغير الشرعية[1] وردّ كلّ ما سلبه من الكنائس والاديار .

وفي تلك السنة مات سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل . وكان مدمناً الرغد والرفاهية ومعاقرة الخمرة . وعاش المواصلة في ايامه عيشة اطمئنان وخصب. وخلفه اخوه عزّ الدين مسعود وذعي ابا الفتح وسار سيرة وفيّة منتظمة. امّا صلاح الدين فسار الى دمشق وغادرها الى مصر وانجز بنيان قلعة القاهرة . ومات اخوه شمس الدولة في الاسكندريّة .

وفي السنة ٥٧٧ للعرب (١١٨١ م) مرض الملك الصالح اسمعيل صاحب حلب ولمّا شعر بدنوّ الاجل ارسل الى ابن عمّه عزّ الدين مسعود يحثّه ليسارع ويتولّى مكانه قبل قدوم صلاح الدين . واجتمع بالزعماء. واستحلفهم في ذلك ومات . قيل ان احد العبيد سقاه سمّاً في عنقود عنب وقيل بل مات بداء المفاصل. وقد بكاه الحلبيّون (٣٥٨) والياروقيّون القاطنون في ضواحي حلب. وارسل هؤلاء الى عماد الدين زنكي صاحب سنجار يستدعونه ليسلّموه المدينة. لكنّ الحلبيّين ارسلوا يتهدّدونه لينصرف عنهم والّا فهم مستعدّون ان يقتلوه ويسيئوا معاملته . فلم يرَ الّا الرحيل عنهم وعندئذٍ وصل عزّ الدين مسعود من الموصل وقصد القلعة واحتلّها واقترن بامّ الملك الصالح وارسلها الى الموصل. ثم فتح الخزائن وهي مملوءة منذ عهد نور الدين وزنكي اموالًا وافرة وارسلها بأجمعها الى الموصل .وعقد هدنةً مع بوهيمند البرنس صاحب انطاكية لمدة سنتين

١) لم يوافق البطريرك والقامصة على الزواج الثاني بل تركوه مقيّداً بالحرم بسببه . واكتفى البطريرك بالغاء حرمه للمدينة لا غير .

وترك في قلعة حلب ابنه نور الدين الصغير واقام له وصيًا وتوجه الى مرج قرا حصار وبعث سفيرًا الى اخيه عماد الدين صاحب سنجار وكان قد غادرها في عياله وابنائه واهله الى قرقيسيا معولًا على الاستغاثة بصلاح الدين ليساعده ويعيد اليه مملكة ابيه . فقال للسفير اني لن ارجع ما لم يعطني حلب او الموصل او ما بين النهرين . ووافق عزّ الدين على ان يوليه حلب فقط ويقيم ابنه في قلعتها. فلم يوافقه عماد الدين محتجًا بانه لا يرضى ان يكون تحت طاعة ابنه في حلب . فأضاف عزّ الدين الى ذلك عَربان والجدل وغيرهما من بلاد الخابور فلم يرضَ عماد الدين . عند ذلك اشار الزعماء بان يعطيه حلب وقلعتها ولا يناهضه بما لا يتيسّر له ان يصونه من صلاح الدين. ثم قالوا له : انك لم تترك شيئًا في حلب وقد نقلتَ ثروتها جميعها الى الموصل واخيرًا اتفق الاخوان واستولى عمادالدين على حلب وضواحيها وترك سنجار والموصل لعزّ الدين .

وفي تلك السنة سارت سفن كبيرة من سفن الفرنج الى دمياط وهم في موادعة مع العرب (٥٦٩) لكن العرب غدروا بهم واعتقلوا الفين وخمسمائة من تجارهم وملاحيهم محتجين بانتهاء مدّة الهدنة . ولذا خرج الفرنج الى مدينة ايالة على ساحل البحر الاحمر واعدّوا سفنًا كثيرة ومراكب وساروا في اماكن لم تسر فيها سفن افرنجيّة قطعًا واصلًا واحتلّوا كثيرًا من سفن العرب وهي موسقة اموالًا وذخائر وافرة وفتكوا بجماهير من اهالي عيذاب وسيّر صلاح الدين من الاسكندريّة سفنًا في احمالٍ جمالٍ في البحر ادركت سفن الفرنج وقتل الكثيرون من الجهتين .

وفي السنة ١٤٩٤ لليونان (١١٨٣م) احتال اندرونيقس الزعيم اليونانيّ الذي سبق الملك منوئيل فطرده من العاصمة فأغوى ألكس الفتى وامّه وعاد الى قسطنطينية يتظاهر بالطاعة. وما عتم ان زجّ في البحر امّ الفتى وابنتها وصهرها وفتك سرًّا بالفتى الكس . وقتل اكثر من الف زعيم واحرقهم وسمل عيون بعضهم .وحمل هذا الشيخ النجس على امرأة الكس واغتصبها ونفى الفرنج من العاصمة . ولمّا انصرف هولاء احرقوا اربعة عشر الفًا من اديار وقرى بلاد اليونان. وبعد ذلك اقبل ملك صقليّة واجتاح مدنًا شتّى يونانيّة واخلاها من السكّان.

وفي السنة ٥٧٨ للعرب (١١٨٢م) زحف صلاح الدين من مصر الى دمشق

والى حلب وحاول ان يحتلها. الكنّ الزعماء اشاروا عليه ان يعبر الفرات اولاً ويحتلّ مدن ما بين النهرين وآثور ثم يعود الى حلب ويتملكها بسهولة. فاقتنع وعبر الفرات ومرّ بالرها وحرّان واحتلّها واحتلّ الرقة ووصل إلى عَرَبان فدفع اليه حراسها المفاتيح فتولّاها وتولّى بلدة ماكسين. وعامل بالحسنى اهالي الخابور وسار (٣٦٠) الى نصيبين وتهيّأ اصحابها لمبارزته فوضع هناك جيشاً صدّهم عن الغدوّ والرواح فتضايقوا واسلّموه المدينة. وسار الى الموصل وحاصرها من جهاتها كلها. فأرسل عزّ الدين صاحبها الى خليفة بغداد يسأله ان يتوسط في الصلح بينه وبين صلاح الدين فلبّى طلبه وأرسل سفيراً في ذلك. فطلب صلاح الدين ان يؤدّي له المواصلة نفقات رحلته او يتخلّوا له عن حلب. فقالوا: ليس عندنا ذهب امّا حلب فصاحبها هو عماد الدين وليس في امكاننا ان نعطي ما لا نملك. فتركهم وانطلق الى سنجار ونازلها وانتزعها من شرف الدين بن قطب الدين مودود. ومن هناك اقبل الى دارا وقابله صاحبها صمصام الدين بهرام من بني ارتق وادّى له الطاعة فترك له المدينة وعاد الى حرّان وسرّح الجنود ليستريح كلٌّ منهم مدّة الشتاء. وصوم العرب وعيدهم وظلّ هو هناك مع القليلين.

وتخوّف المواصلة ان يعود اليهم صلاح الدين في الربيع ويحتلّ مدينتهم كما احتلّ سنجار فأرسلوا الى شهرامان صاحب خلاط يستنجدونه فلبّى طلبهم مجوداً واتّفق مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن أبي بن تيمورتاش صاحب ماردين خال عزّ الدين صاحب الموصل. واحتشد الماردينيّون والموصليّون والخلاطيّون في البارعيّة وجاءهم كذلك الف وسبعمائة فارس من الياروقيّين المجاورين لحلب وتأهّبوا قاطبة لمناوشة صلاح الدين. فلمّا سمع باحتشادهم ملكته الرعدة فارسل يستعجل جيوشه ليوافوا اليه فاجتمعوا في مدّة ثمانية ايام قادمين من حماة وحمص وما بين النهرين (٣٦١) وجاء كذلك ابن قرا ارسلان من حصن كيفا. ولمّا رأى شهرامان تأهّبَ اصحاب صلاح الدين للقتال وضعف الذين معه قال لصاحبَي الموصل وماردين: لقد اقبل الشتاء ولستُ ارى فائدة من الحرب فالأحرى ان يعود كلّ منّا الى بلده ثم نجتمع في الربيع ثانيةً. هكذا تفرّقوا وتشتّتوا دون جدوى. ثم ارسل صلاح الدين الى الخليفة يخبره بما صنع المواصلة وانهم هم الذين يتحرّشون به وحصّل منه الأمر لينازل آمد.

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وايار ١٤٩٤ لليونان (١١٨٣ م) احتلّ صلاح الدين آمد بعد حصار شديد . وكان صاحبها ابن نيسان يقاتل الاعداء قتالاً عنيفاً . غير ان الآمديين اغمضوا عنه . وسبب ذلك انه لمّا ازدحم اصحاب صلاح الدين ما بين سورَي المدينة انقضّ عليهم الاهالي وضغطوهم هناك وقتلوهم وكتب صلاح الدين على الرايات عبارة تهديد قاس واقسام مغلّظة بانه لن يحيد عن المدينة ما لم يحتلّها ويحرقهم جميعاً ان رفضوا تسليمها . فخافوا وارتخت عزائمهم وارتعب ابن نيسان وطلب الامان له ولاهله وامواله . فامهله صلاح الدين ثلاثة ايام ريثما ينقل ما شاء نقله . ثم دخل المدينة . وقد نقل ابن نيسان ما نقل من ذهب وفضة وحجار كريمة وآنية . قيل انه لم يتيسّر له ان ينقل عُشرَ امواله في تلك الايام الثلاثة اذ كانت كثيرة جداً . وبعد ما احتلّ صلاح الدين المدينة ولّى عليها نور الدين بن قرا ارسلان مع كلّ ما بها . فقيل له : انك اتيّا وعدته بالمدينة لا بكلّ ما بها مما ينيف على ثلاثة آلاف دينار . فقال صلاح الدين (٣٦٢) : لا يجمل بنا ان نعطي صديقنا مدينة فارغة . قيل انهم عثروا في احد ابراجها على مائة الف شمعة وكان في مكتبتها الف الف واربعون الف مجلّد اعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل كاتبه . وايّد ابن قرا ارسلان في ولايته وحلف له وعبر الفرات الى عينتاب واطاعه صاحبها نصير الدين بن كمرتكين ثم غادرها الى حلب وحاصرها . وكان عماد الدين صاحبها قد تسلّمها فارغة حتى انه لم يبقَ له ما يقوم بحاجات جنوده ولم يحصل على شيء من الحلبيّين ومن اهالي ضواحيها . ولمّا قال لاحد الزعماء ان ليس عندي ما اوديه لك قال له الزعيم : بع حلى امرأتك واعطِ المحاربين ان شئتَ ان تكون ملكاً . وأفضى به العوز الى حدّ ان الاهالي كانوا يقدّمون الطعام يوماً فيوماً له ولاهل بيته . ذلك مما حمل الزعماء والجنود على ترك الحرب بخلاف الاهالي فظلّوا يواصلونها.

ولمّا تعذّر على صلاح الدين احتلال حلب عنوة شاور زعماءها سرّاً واستمالهم بالعطاء . فاشاروا على عماد الدين بالتسليم والاكتفاء باماكن اخرى ذلك لئلا يأخذها غيره ويبقى هو دون شيء . ثم قالوا له : هل تظنّ ان العامّة تدافع عنك وتكتفي برزقها . وقد نفدت الاقوات ولم يبقَ عندك ما تعطيهم ? تبصّر

اذن في ما يجب ان تصنعه. ارتضى عماد الدين بما اشاروا وارسل الى صلاح الدين يطلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة بدلاً من حلب. فلبى طلبه وكتبها له وارسل اليه الصك موقعاً بخط يده وحلف له انه يتخلى له عنها بأجمعها. ولما سمع (٣٦٣) الحلبيون ذلك شملهم الكمد واحتشدوا عند القلعة وجعلوا يشتمونه. وعلقوا امامه طستاً ورداء وصاحوا قائلين: تباً لك من خنثى! لا يصلح لك الا غسل الاواني. وكان ينظر اليهم من الشرفة ويسمع شتائمهم.

وليلة ١٨ صفر من تلك السنة انحدر عماد الدين من القلعة وخرج الى خيمة أُعدت له وتسلمها صلاح الدين مع المدينة. وتوجه عماد الدين الى سنجار وتولاها مع البلاد المذكورة. على ان صلاح الدين سُرَّ باحتلاله حلب اكثر من سائر المدن التي احتلها. قيل انه لما كان ماراً بدرجات القلعة كرّر ما ورد في القرآن نقلاً عما كتبه دانيال النبيّ فقال: « ان العليّ يتسلط على مُلك البشر ويجعل له من يشاء. » (دانيال ٤: ٢٩). ثم التفت وقال لمن معه من الزعماء: الآن عرفتُ ان المُلك استتب لي. صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ولم اشتهِ سواها. وبعدما احتلها صلاح الدين ألغى جبايات جمة ونقص الضرائب ووزع اموالاً طائلة بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسين الف دينار.

وأُصيب في هذه المعمعة تاج الملوك توري اخو صلاح الدين الصغير وعاش اياماً ومات. ولما عاده اخوه قال له: ينبغي ان تفرح وتبتهج لاننا ملكنا حلب وهي لك منذ الآن. فقال له تاج الملوك: ان السيادة انما تفيد الاحياء لا المدفنين مثلي. كن على ثقة بأنك ملكتها بأثمان غالية اذ ضيعت اخاك بامتلاكك اياها. وكان تاج الملوك هذا منجداً في الحروب. فبكى صلاح الدين وبكى معه الحاضرون بكاء مراً.

وحاول صاحب حارم يومئذ ان يبيع بلدته من الفرنج وشعر الحرّاس بما انتوى. ولما خرج يوماً الى التنزه وعاد اغلقوا الابواب في وجهه (٣٦٤) وكتبوا الى صلاح الدين ليأتي ويحتل المدينة. فأرسل لذلك ابن اخيه وابن عمه لكنهم بعثوا يطلبون حضوره بذاته فلبى طلبهم وانطلق وملك البلد واجزل لهم العطاء. وأخرجهم من القلعة ولم يتعدّ على صاحبها لان الزعماء دافعوا عنه وقالوا ان الحرّاس خدعوه.

واقام صلاح الدين ابنه الملك الظاهر في قلعة حلب وعاد الى دمشق ومنها سار في جيوشه الى قلعة الكرك وحاصرها حصارًا شديدًا . فاحتشد الفرنج واعتزموا الهجوم فشمر صلاح الدين وانقلب الى دمشق. واقبل اليه اخوه الملك العادل من مصر في ذهب كثير فولاه حلب وملحقاتها من رعبان وسواحل الفرات حتى حماة . ولما دخل العادل قلعة حلب غادرها الظاهر بن صلاح الدين بعد ما اقام بها ستة أشهر وعاد الى ابيه .

وفي السنة ٥٨٠ للعرب (١١٨٤م) أعدّ صلاح الدين العدّة ليزحف الى الكرك وأرسل فاستدعى نور الدين من حصن كيفا والعادل اخاه من حلب وتقيّ الدين من مصر واحتشدوا جميعاً هناك . واحتشد الفرنج كذلك فتخوّف صلاح الدين وامر ان يحرقوا المنجنيقات ويتركوا الكرك فانتقلوا الى بلد السامرة وغزوه .

اما البرنس أرناط[1] صاحب الكرك فقد حصّنها تحصيناً متيناً. وسار البرنس صاحب انطاكية الى حارم في مائتي فارس وغزا ضواحيها وفتك بالكثيرين من العرب.وهم مجتمعون في جسر الحديد ووثب الى الكمناء بالجبل وهم اربعمائة راجل وعشرون فارساً وأجهز عليهم كافةً .

وفي تلك السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تيمورطاش ابن ايلغازي بن (٣٦٥) أرتق صاحب ماردين وخلفه حسام الدين يولق ارسلان وهو بعدُ فتى . واقام طاهر الدين شهرامان خالهُ وصيًّا له اسمه نظام الدين . واقترن نظام الدين بامّ الفتى وساس المملكة خير سياسة . ثم مات الفتى وله أخ اصغر منه اسمه قطب الدين باسم ابيه فجعله نظام الدين مكان اخيه . واصبحت السياسة بيده وبيد عبده لؤلؤ . ولما نما الفتى وعرف انه متولٍّ بالاسم لا بالفعل عاد يوماً نظام الدين وهو مريض ولما خرج من عنده سار معه لؤلؤ الى الباب كرماناً له . فوصلا الى مكان ضيّق واستلّ قطب الدين السكين وضرب لؤلؤ وفتك به وانقلب الى نظام الدين وهو مضطجع في فراشه فأجهز عليه كذلك . واخذ الرأسين وألقاهما الى الزعماء من القلعة. وما ان شاهدوهما

---

[1] هو ارنادس رونود .

حتى ملكهم الرعب واذعنوا له بالطاعة واستغرقت وصاية نظام الدين عشرين سنة وتمّ تتاه في السنة ٦٠١ للعرب (١٢٠٤م).

وفي السنة ٥٨١ للعرب (١١٨٥م) سار صلاح الدين الى حلب ثم عبر الفرات الى الرها وانتزعها من مظفّر الدين بن زين الدين صاحبها. واستأنف السير الى راس العين ودارا وجاء الى زيارته عماد الدين بن قرا ارسلان بدلًا من اخيه نور الدين الذي كان مريضاً. ومن هناك سار صلاح الدين الى مدينة بَلَد ثم الى الموصل واقبل اليه صاحب اربيل زين الدين بن علي كوجاك. وكان مظفّر الدين صاحب حرّان مع صلاح الدين. ولمّا ضايق صلاح الدين الموصل خرجت اليه امّ عزّ الدين صاحبها وهي ابنة ارتق وخرجت معها بنت نور الدين ابن زنكي وتوسّلتا اليه ان يترك المدينة لعزّ الدين متذكرًا (٣٦٦) الايام القديمة وعوارف آل زنكي وبكتا امامه وتشبّثتا بأذياله فلم يكترث لهما. فتركتاه وانقلبتا خائبتين. فهاج المواصلة عند ذلك وماجوا كبارًا وصغارًا وهم يعربون عن ولائهم لآل زنكي وتصافقوا على احتلال الأسوار وعلى الجهاد في القتال. وجعلوا يستحقرون صلاح الدين بكونه غامطًا لمعروف مواليه. فلم يرَ صلاح الدين الّا ان يترك الموصل ويتوجّه الى خلاط وقد بلغه ان صاحبها شاه ارمن مات وناب منابه بكتمر عبده وأحسن الى الخلاطيّين واحبّهم واحبّوه حبًا جمًا. ولمّا سمع ان البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم قادم ارسل الى صلاح الدين يستنجده فيسلّمه المدينة. فسار اليه وراءه متحصّنًا فلم يخرج الى لقائه. ثم وصل شمس الدين البهلوان من العجم وحلّ في الجانب الآخر من المدينة واستعدّ ليحاربها. لكنّ الزعماء قالوا له: اذا ضايقت بكتمر ومال الى صلاح الدين فلن يتيسّر لك ان ترتاح او تنجح. بناءً عليه ارسل البهلوان الى بكتمر وطيّب قلبه وزفّ اليه ابنةً من ذويه وتركه وانصرف.

ولمّا رأى صلاح الدين ان الخلاطيّين والعجم قد اتفقوا انقلب الى ميافرقين وكان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد مات وتولّاها ابنه الفتى كما ذكرنا. فحاصر صلاح الدين المدينة وكان قائدها اسد الدين يرنقش وكانت خاتون امرأة قطب الدين صاحب ماردين كذلك هناك مع بناتها فاخذت تحمّس المحاربين وتشجّعهم. ولمّا طالت الحرب (٣٦٧) ارسل صلاح الدين يملّق المرأة ويعدها

بأخذ احدى بناتها زوجةً لابنه. فارتضت وسألته ان يتخلّى لها عن قلعة الحناخ ثم سلّمته المدينة وارتحلت الى تلك القلعة .

واقبل كذلك قطب الدين سقمان بن نورالدين بن قرا ارسلان صاحب آمد الى زيارة صلاح الدين فرحّب به أجمل ترحيب ثم عاد الى مدينته . وبعد هذا غادر صلاح الدين ميافرقين الى ساحل نهر قرمان والى كفر زمّار على ساحل دجلة .

امّا المواصلة فتضايقوا جدًّا وارسلوا تكرارًا المرأتين المذكورتين الى صلاح الدين يتوسّلون اليه في الصلح والموادعة . وتوسّط بين الفريقين عماد الدين صاحب سنجار . وتخلّى عزّ الدين صاحب الموصل لصلاح الدين عن شهرزور وعن الزابين وبيت وازيق وسائر الشرق وارتضى ان يخطب له وان تضرب الدراهم والدنانير باسمه . وبناء على ذلك عُقد الصلح ما بينهما . وانقلب صلاح الدين الى حرّان ومرض هناك وادنف ثم تعافى وكان معه ابن عمّه ناصر الدين ابن اسد الدين شيركوه فغلب على ظنّه ان صلاح الدين يموت لا محالة فتركه وعاد الى حمص مدينته واجتمع بالشبان واستحلفهم فقرروا بانه متى مات صلاح الدين يتفقون على ان يخلفهُ هو في الملك. وقد شاء الله تعالى فتعافى صلاح الدين ومات ناصر الدين وتوجّه صلاح الدين الى حمص واحتوى على كلّ ما كان له وولّى مكانه ابنه الفتى الملك المجاهد . قيل انه بعد سنة زار هذا الفتى صلاح الدين فسأله : الى اين وصلتَ من القرآن ؟ فقال الفتى الى الآية : ان آكلي اموال اليتامى انما يأكلون نارًا في بطنهم. فدهش صلاح الدين واثنى على ذكائهِ وقال : ان كان هذا الفتى قد فهم ما قال لزم ان نخافه .

وفي السنة ١٤٩٦ لليونان (١١٨٥ م) تحفّز (٣٠٨) اندرونيقس الطاغية ليفتك باسحق الذي بقي من اسرة منوئيل الملكيّة فتحصّن اسحق في داره وارسل اندرونيقس قائد العسكر في طلبه. فما كان من اسحق الا ان استلّ السيف وأجهز عليه ثم امتطى حصانه وخرج يريد الكنيسة الكبرى والسيف بيده مخضّباً بالدم وهو يصرخ ويولول . فتبعه ربوات الاهالي وانضمّ اليهم جمهور من الزعماء المناوئين للطاغية. ودخلوا الكنيسة واضطرّوا البطريرك فتوّج اسحق ملكاً . وما ان سمع اندرونيقس حتى فرّ من البلاط يريد الهزيمة بحرًا. فادركه

وردّوه الى العاصمة واخذوا يقطعونه بالسكاكين وينهشونه وينكلون به أشدّ التنكيل ثم احرقوه على مرأى من الجماهير.

وفي هذه السنة اشتدّ داء الجذام على بغدوين ملك اورشليم فاستودع المملكة لابن اخته الصغير بغدوين (الخامس) وما تمّ ان توفّاه الله تعالى.

وفي السنة ٥٨٢ للعرب (١١٨٦ م) تعافى صلاح الدين وغادر حرّان الى حلب وحمص واستيقن ان ناصر الدين ابن اخيه شمس الدولة قد مات فانتزع قلعة حمص من ابنه. ولقي فيها موادّ وافرة ثم سار الى دمشق. وانقلب فاخذ حلب من العادل اخيه واعطاها لابنه الملك الظاهر واعطى دمشق لابنه الثاني الملك الافضل. واعطى مصر لابنه الملك العزيز وبعثه اليها مع العادل اخيه. وكان تقيّ الدين ابن اخيه هناك فلمّا سمع ان مصر انتزعت من يده ارتاب واستعدّ للذهاب الى افريقية. غير ان صلاح الدين ارسل يلاطفه واستدعاه اليه وطيّب خاطره وذكر له انه انما يرغب اقامته لديه طمعاً بقوّته. وولّاه حماة والمعرّة وسلامية ومنبج وقلعة نجم واضاف اليها ميافرقين (٣٦٩). وارسل فاستحضر ابنه الملك المنصور من مصر مع جيوشه. غير ان مملوكه بوزباه أبى القدوم اليه وانطلق الى المغرب وملك افريقية.

وفي السنة ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) كان اجتماع الكواكب السيّارة الستة في برج الميزان سوى زحل فقد كان على شكلين في ١٤ ايلول و٢٩ جمادى الآخرة. وسبق المنجّمون فقضوا انه سيحدث طوفان عوميّ في ريح شديدة ويهلك البشر قاطبة. ويكون مثله مثل طوفان نوح اذ اجتمعت الكواكب في برج الاسماك واغرقت المياه الارض كلّها؛ وقد صدّق قلج ارسلان سلطان قونية ذلك الزعم اكثر من كلّ الناس وأنفق مبالغ طائلة في حفر سراديب في قلب الارض وابتناء بيوت محكمة عميقة. غير ان الله سبحانه وتعالى كذّب زعم المنجّمين. ولما كان ذلك اليوم المحدود وقد اعتصم الكثيرون بالسراديب والمناور لاح الجوّ صافياً نقيّاً والهدوء سائداً اكثر من سائر الايام ولم يحدث الا كسوف اعتيادي في الشمس. وسقط المنجّمون من عيون الملوك والعامّة بسبب كذب رأيهم. وان منجّماً من مشاهيرهم كان يقول: ان المنجّمين غير صادقين في زعمهم. فاستدعاهُ السلطان واستخبره فأكّد له قوله بتوقيعه

وامضائه مصرحاً بانه لن يحدث ما يدعيه المنجمون ولن يُصاب احدٌ بأذى. ولما تحقق كلامهُ استفسره السلطان وقال له: كيف عرفتَ ذلك؟ فقال اني لم أقل ما قلتهُ استناداً الى علم التنجيم غير اني عرفتُ انه اذا حدث الطوفان فلن ابقى انا ولا يبقى من يلومني. واذا لم يحدث اكون قد ربحت الجائزة وقد ربحتها. فضحك السلطان وجاد عليه وأطلقه.

وفي تلك الغضون عقد البرنس صاحب انطاكية الصلح مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية واوثقه بسلاسل حديدية واعتقله. وحشد الجنود وزحف الى بلاده فناهضه لاون مناهضة البطل وردّه الى بلاده خازياً. وبعد هذا (٣٧٠) دفع له الارمن ثلاثين الف دينار مع المصيصة وادنة فأطلق روفين. غير ان روفين انقلب فاسترجع المدينتين فسخط البرنس وجعل يعيث وينزو بلاد قيليقية جميعها.

وفي تلك الاثناء قُتل البهلوان سلطان العجم وحدثت معامع طاحنة بسبب ذلك. وتحرّش الاكراد والتركمان كذلك في اطراف نصيبين. ذلك ان تركمانياً ذهب فتزوج بتركمانيَّة من غير عشيرته. ولما مرّ اهالي العرس بحصن من حصون الاكراد ببلد زوزان وقف الاكراد في طريقهم وطلبوا منهم وليمة العرس. واختلف التركمان في ذلك فشدّ عليهم الاكراد وخطفوا العروس وعادوا الى حصنهم. ومن ثم حصل قتال شديد وقُطعت الطرق ونُهبت البضائع وقُتل من كلتا الجهتين زهاء عشرة الاف نسمة. ثم احتشد ثلاثون الف كرديّ او اكثر ونازلوا التركمان بجانب الخابور فانكسر الاكراد وسقط قتلاهم منذ شواطئ الخابور حتى نصيبين. ثم تبارز الفريقان ثانيةً بضواحي الموصل وانكسر الاكراد كذلك. واغار التركمان على الاكراد غير مرّة وشدّوا عليهم حتى هزموهم الى قيليقية واثخنوا في الرجال والنساء والفتيان. هكذا أفنى التركمان الاكراد من سوريّة وما بين النهرين وتوغلوا في ارمينية وقبضوا على ستة وعشرين الفاً من الارمن واستاقوهم عبيداً وباعوهم. واحرقوا دير كرابيد الكبير وفتكوا برهبانه. وقتلوا في تلدم مائة وسبعين رجلاً سريانياً. واجهزوا على مائتي شاب سرياني من حملة السلاح في قرية أمرون ببلد قلودية التابعة لملطية. واحدثوا معامع جمة في قبدوقية وملطية بأسرها. والتحم القتال كذلك بين العرب

والاسمعيليين وبطش بعضهم ببعض بطشاً ذريعاً .

وفي تلك السنة حصل نزاع بين الفرنج . ذلك ان صاحب طبرية قبل وفاته سلّم ابنه الصغير الى قمّص (٣٧١) طرابلس لينبض بتربيته . وما عتم ان مات الصبي وافضى الامر الى امه . فكلفت برجل اسمه جي لم يكن من اسرة ملكية واقترنت به وترجته ملكاً[1] . ومن ثم سخط قمّص طرابلس وقصد صلاح الدين وانضم اليه وتمّم يحفر الحفائر للملكة طبرية ولسائر النصارى.

وفي السنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) رأى صلاح الدين ان البرنس ارناط نكث اقسامه ونهب قافلة تجار عرب وحشد الجنود وتهيأ للحرب فسار الى الكرك في جنوده واكتسح اشجارها واتلف ما حولها من القرى . وغادرها الى شوبك وفعل مثل ذلك . وزحف ابنه الملك الافضل الى طبرية وغزا وبرز الفرنج وناوشوا العرب وكاد يُقضى على العرب قضاء مبرماً لو لم يساعدهم الحلبيون. وبعد هذا عاد الفرنج الى المدينة وساء الافضل ومن معه الى صلاح الدين . ثم اجتمع ملوك الفرنج وزعماؤهم وتشاوروا في منازلة العرب . لكن القمّص صاحب طرابلس قال لهم : اعلموا يا اخوتي ان في مبارزة صلاح الدين خطراً جسيماً . فقد كان فيما سبق رجلاً كسائر الرجال واصبح اليوم مستولياً على مصر وفلسطين حتى بلاد المشرق . فارى من المفيد ان نعقد معه الصلح ويطمئن كلٌّ في بلده .

غير ان جي الملك الحديث الذي اقترن بملكة طبرية اعتز بنفسه وقال : لا بدّ من المبارزة . فقال له القمّص : سترى عاقبة غايتك . اما صلاح الدين فاجتمع كذلك بزعمائه وشاورهم (٣٧٢) فقالوا : لا يوافق الان ان نبارز الفرنج وهم في فورة اجتماعهم . فالاجدر ان نضعفهم شيئاً فشيئاً حتى اذا اخذوا يتشتتون استسهلنا مناوشتهم والبطش بهم . غير ان صلاح الدين لم يوافقهم بل قال لهم : متى يا ترى يجتمع نديّ مثل هذا الحشد الغفير ؟ فالاجدر ان تتشجعوا وتتشددوا وتبارزوهم . وما يريده الله تعالى يفعله . قال هذا

---

1) هي ايزابيل اخت بلدوين الرابع ملك اورشليم ووالدة بلدوين الخامس . فلمّا ترمّلت اقترنت بجي دي لوسنيان . ولمّا توفي بلدوين الرابع والخامس افضت المملكة اليها واصبح زوجها غي ملكاً على اورشليم لا على طبريّة فقط .

وركب واركب جنوده وزحفوا الى الاردن وحطوا رحالهم على شواطئ بحيرة طبرية . واحتشد العرب في صفورية . واقام الصفان اياماً لا يناوش احدهما صاحبه . وبعد هذا وجه صلاح الدين قسماً من جيوشه في طريق مجهولة الى طبرية ليلاً . ولما اصبح وثبوا ودخلوا المدينة ووضعوا فيها السيف والنار . وتحصنت الملكة[1] في القلعة .

اما جي زوجها فلما سمع الخبر انحلت عزيمته ولكنه تشجّع وشجّع الفرنج وركبوا جميعاً وانقضوا على العرب . ولما كان المساء اقام الصفان احدهما تجاه الاخر واحيوا الليل كله ساهرين . وغلب العطش على الفرنج لان العرب كانوا محتلين ناحية الاردن وشدّدوا عزائمهم للمبارزة . ولما اصبحوا وشاهد العرب شجاعة الفرنج وهم يقتحمون اقتحام الدبابير ولا يتقهقرون اضطربوا كل الاضطراب وفشلوا وارتعدت ركبهم . وما ان شاهدهم صلاح الدين على تلك الصورة حتى بادر الى الوسط واوقع فيهم صيحة عظيمة واسمعهم كلمات ممزوجة بالعسل والمرارة تارة يشجعهم وطوراً يهددهم . وان شاباً باسلاً اسمه منغوراس وهو مملوك صلاح الدين استبسل وخرج من صفوف العرب وبلغ الى وسط الصفين فادركه شاب فرنجي باسل وطعنه برمحه والقاه عن حصانه وانحنى فقبض على ضفيرته وجره نحو صف (٣٧٣) الفرنج واحتز رأسه . ولما شاهده الفرنج تقوّوا واشتدّوا ظانين انه احد ابناء صلاح الدين .

اما قمّص طرابلس وكان قلبه مملوءاً غشاً ومكراً فتخوف ان يحرز الفرنج الغلبة التامة وتغدو مشورته بالعدول عن القتال لاغية فتظاهر كمن يحاول تتبع العرب والبطش بهم . ففتحوا له الطريق ما بين صفوفهم لانهم سبقوا فعرفوا ان قلبه غير مستقيم مع ابناء دينه . وهكذا مرّ بينهم وتوجه الى طرابلس مدينته . وقد اصبح انهزامه هذا مدعاة كبرى الى انكسار الفرنج ولم يبق بينهم من يثق بصاحبه . غير انهم لم يروا بدّاً من المبارزة فخاضوا ما بين العرب وشلّت السيوف ولم يستفيدوا شيئاً اذ قطعوا الرجاء بسبب انهزام القمّص. وعند ذاك حمل عليهم العرب حملة شعواء واوثقوا جي صاحب طبرية[2]

١) لم تكن ايزابيل ملكة اورشليم بل امرأة ريموند قمّص طرابلس .

٢) ملك اورشليم .

والبرنس ارناط صاحب الكرك وجمهورًا من الاخوة الدواوية الاسبيتالية[١] وغيرهم ولم يتمكن من الهزيمة الا القليلون .

ولما خمدت الحرب جلس صلاح الدين في خيمته واجتمع عنده زعماؤه وامر باحضار جي زوج الملكة صاحبة طبرية والبرنس ارناط . وابدى الاكرام لجي واجلسه الى جانبه واجلس ارناط كذلك . وكان العطش قد اجهد جي فطلب ماء ليشرب . فامر صلاح الدين فأتوه بماء ممزوج بالثلج فشرب نصفه ودفع النصف الثاني لارناط . فقال له صلاح الدين : لا يجوز ان تسقيه دون امري . قال جي : ان الاعتقال موت فلا تُمته موتتين (٣٧٤) . والانكسار قتل فلا تقتله قتلتين . فاعجب صلاح الدين بكلامه واعتزم ان يعفو عن ارناط لكن الزعماء حرضوه على قتله وقالوا : لا يستحق هذا ان يبقى حيًا لانه اقسم مرارًا وحنث في يمينه . وبعد هذا ارسلهما كليهما الى خيمة اعدت لهما . وما مرت ساعة حتى بعث فاحضر ارناط وحده واستل السيف وفتك به بيده[٢] . وكان ارناط هذا شيخًا منجذًا بالحروب ذا بطش وشجاعة فائقة يهاب العرب سطوته.

وبعد هذا سار صلاح الدين الى قلعة طبرية ولاطف الملكة واقسم لها وانزلها وبعثها الى طرابلس مع ذويها وكل مالها واعطاها بعض عطايا . اما الرهبان الدواوية والاسبيتالية وكانوا ثمانين عدًا فقد اعتقلهم ثم فتك بهم . وقد باع الفرسان منهم كل فارس بخمسمائة دينار وقال : ان هؤلاء يفوقون الفرنج كافة في ايقاع الضرر بالعرب ويؤثرون القتل في سبيل ايمانهم فيجب الاجهاز عليهم .

ثم اقبل صلاح الدين الى عكة وانهزم الزعماء كافة في البحر الى صور وبقي المساكين فطلبوا الأمان . وبعدما احتل عكة احتل كذلك حيفا ونابلس وهي السامرة وتبنين وصيدا وقيسارية ويافا وبيروت والناصرة . ويقصر اللسان عن وصف ما احتمله النصارى القاطنون في اصقاع العرب يومئذ من الاستهزاء والازدراء . اما صاحب جبيل وكان معتقلًا فقد سلمهم المدينة ونجا .

وسار صلاح الدين الى عسقلان وهي حافلة برجال الحرب وحاصرها حصارًا

---

١) هم رهبان جنود يحافظون اصقاع المسيحيين . واسمهم فرير اعني اخوة ويقال لهم دواوية وهيكليون واسباتاليون اعني مضيفين وقد صنعوا خيرًا عظيمًا بضيافتهم .

٢) قد قُتل ارناط لانه أبى ان يجاهر بالاسلام .

شديدًا ولم يقوَ على أخذها فاستدعى صاحب طبرية (ملك اورشليم) وكان معتقلًا عنده وقال له : ان سلّمتني عسقلان اطلقت سبيلك . فارسل واستدعى اليه حاكمها وامره ان يسلّمها (٣٧٥) فأبى . فقال لذلك العرب الذين يحرسونه ارتقوه واوثقوا من معه وبعد هذا ارسل الى اهالي المدينة ليسلموها وينجوا. فاختضعوا له وسلّموها .

وعوّل اهالي صور كذلك على التسليم غير ان القمّص (كونرآد) شخص اليها وتولى حراستها جيدًا .

وزحف صلاح الدين من هناك الى اورشليم وحاصرها ونصب منجنيقات ضخمة على سورها في الناحية الشمالية لاتساعها وموافقتها لاقامة المحاربين وظلّ ثلاثة ايام كذلك . ثم اشتدّ الفرنج وهم ستون الفًا من فرسان ورجالة وخرجوا الى قتال العرب وفتكوا بكثير منهم في جملتهم عزّ الدين عيسى صاحب قلعة جعبر وغيره من المشاهير . واذ ذاك اخذ العرب يستعملون قذف السهام ليلهوا الواقفين في السور حتى تشبّث به الحلبيون النقّبة واقتلعوا حالًا الحجار ونقبوا ثقبًا أسندوها بالاخشاب حتى اذا لعبت بها النيران يسقط السور.

ولما قنط الفرنج وآيسوا ارسلوا اثنين من العقلاء الى صلاح الدين يطلبون الامان . لكنه ابى وقال لن افتح المدينة الّا بالسيف وسأفعل بكم كما فعلتم انتم بالعرب حين ملكتموها اذ قتلتم وسبيتم . فقال له احد ذينك الزعيمين ان لي كلمةً اخرى اقولها لك ان وعدتني بانك لن تحنق . قال له صلاح الدين : لست احنق قل ما بدا لك . فقال : او لم نعرف فطنتك وانك لا تقدر ان تخالف شريعة من سبقك من الملوك الاقدمين اذا انكسر اعداؤهم والقوا سلاحهم وطلبوا الامان لما اقبلنا اليك . والآن فقد اتينا (٣٧٦) ولم يبقَ لنا امل في كرمك فاعلم اننا عائدان الى المدينة لنبلغ رجالنا الابطال المجاهدين. وسنفتك اول بدء بالعرب الاسرى الذين عندنا . ثم نحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الابنية ثم الاموال والامتعة ثم نذبح بيدنا نساءنا وابناءنا وبناتنا ولن ندعكم تكملون فيهم شهوتكم. وبعد هذا كله فالواحد منا لن يسلّم ذاته للقتل الّا بعد ان يقتل واحدًا او اثنين منكم.

أدهش صلاح الدين هذا الخطاب وقال للزعيمين ان يقيما في احدى الخيام

ربما يشاور زعماءه . فقالوا له : ان كلّ ما قاله هـذان صحيح وان الفرنج يصنعون اكثر من ذلك . فالاجدر ان نصالحها . فاستدعى صلاح الدين ذينك الزعيمين الفرنجيين وقال لهما : اني قابـل بما طلبتما غير انه لا يمكن ان يخرج الاهالي كلّهم مجاناً وأمرائي يطلبون ذهباً لانهم تعبوا وخسروا في الحرب خسائر وافرة . واستقرّ الرأي ان يدفع كلّ رجـل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكلّ ابن وبنت دينارين ويخرج الجميع في كلّ ما يمكنهم حمله. فوافق الفرنج على ذلك . ووزنوا ثلاثين الف دينـار عن الفقراء والمساكين وادّى الاغنياء عنهم وعن غيرهم من الفقراء. وخرجوا جميعاً بالامان . وبقي خمسة آلاف ممن لم يمكنهم ان يدفعوا شيئاً فاستاقهم العرب أسرى . وقـد ارتشى بعض الحراس العرب من كثير من المسيحيين ديناراً ديناراً او اكثر وسرّحوهم . امّـا مظفّر الدين بن زين الدين فقـد اطلق نحو الف شخص من السريان والارمن مجاناً وهو يقول ان هولاء هم رهاويّون من ابناء رعيتي . ونهج نهجه ابن شهاب الدين صاحب البيرة فاطلق الكثيرين من ابناء بلده.

وكان في اورشليم يومئذ ملكة يونانيّة متوشّحة بثوب الرهبانية منقطعة في احد الاديار فارسلت الى صلاح الدين تلتمس منه ان لا يتعدّى عليها احد . فامر ان تخرج هي (٣٧٧) والشامسة والشماسات والخدّام وتنقـل معها كل اموالها . وارسل معها بعض الفرسان اوصلوها الى حدود الفرنج . وصنع مثل ذلك لسائر الملكات الفرنجيات اللواتي كنّ في اورشليم . ونقل البطريرك جميع امتعة كنيسة القيامة وسائر الكنائس وقناديل الذهب والفضة وارتحل . وباع الاهالي ما لم يتيسّر لهم نقله . وبالجملة فقد سلّموا المدينة فارغة من الذخيرة. على ان العماد الكاتب قال لصلاح الدين : علامَ ينقل هولاء كلّ هذه الاموال وانت لم تقرّر لهم الّا الامان ؟ فقال له : صدقتَ ولكنّ الفرنج لا يفهمون ذلك واذا منعناهم عن اخذ اموالهم اذاعوا عنا انا اقسنا وحنثنا باقسامنـا وألحقوا بنا ذكرى سيئة . هكذا احتل صلاح الدين اورشليم يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) و ١٢ تشرين الاول ١٤٩٨ لليونان . وتمّ ذلك بعد مضيّ ٢٨ يوماً من اجتماع الكواكب السيّارة الستة.

ولم يملك المسيحيون اورشليم بعد هذا التاريخ . غير ان صلاح الدين اقام

اربعة رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة لينهضوا بخدمة القبر المقدس . وبعد زمن قليل تولى بطريرك اليونان ادارة تلك الكنيسة ..

ولما فرغ صلاح الدين من امر اورشليم سار الى صور وهي في قلب البحر وابتنى ابراجاً متينة وافرغ كل قوته في محاربتها وهو يحرّض عساكره ويقول لهم : لم يبقَ للفرنج في ساحل البحر مكان يقيمون فيه الا صور فاذا انتزعناها منهم كفوا عن الزحف ونجونا منهم . وبمثل هذه العبارات دفعهم الى القتال حتى النهاية . غير ان المركيز الذي اقبل من رومية حصّن المدينة بالخنادق وبرجالٍ اشداء ملاحين وجعلوا يخرجون ويفتكون بالعرب ويعودون (٣٧٨) وعند ذلك ارسل صلاح الدين الى الاسكندرية واستقدم الف سفينة ضخمة أرست تجاه المرفأ . وخرج ليلةً ملّاحو الفرنج في سفنٍ محكمة وحطّوا اغلبها واعتقلوا ملّاحين شهيرين من بلاد المغرب والقى البقية انفسهم في البحر وهلكوا وانهزم بعضهم في سفنهم الى بيروت فادركهم الفرنج واعتقلوا اغلبهم وغرق الباقون .

ولما شاهد صلاح الدين تلك الاهوال وبسالة الفرنج في البحر قطع الامل هو واصحابه واحرقوا ما ابتنوا من الابراج والمنجنيقات والبقية الباقية من السفن واقلعوا من صور وتوجهوا الى عكة . ثمّ امر صلاح الدين جنوده ان يذهب كل منهم الى وطنه ويستريح في بيته.

وفي تلك الاثناء وقع خلاف بين الخليفة الناصر وبين صلاح الدين لان هذا اغمض عن ارسال جزية سورية اليه . ولم يرسل اليه كذلك شيئاً مما كان يجبيه من مصر . وطالما صرّح صلاح الدين في نشوته بانه متعمدٌ ان يلغي الخطبة للخليفة ويجددها للفاطميين بمصر . وقد امتعض الخليفة اي امتعاض عندما نقل اليه رجلٌ حقيرٌ بغداديّ كان سابقاً في خدمة صلاح الدين البشرى باحتلاله اورشليم .

وفي تلك السنة حشد رجل تركمانيّ من الرعاة يقال له رستم خمسة آلاف فارس وجمهوراً غفيراً من الرجّالة وسار الى قيليقية ليسبي وينزو . وما ان شعر لاون صاحبها حتى سدّ الثغور في ناحية مرعش واجهز على اولئك التركمان . ثمّ احتشد خمسة آلاف رجل منهم في اطراف حلب (٣٧٩) ليغزوها فبرز اليهم البرنس بوهيمند وسحقهم جميعاً.

وفي السنة ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) زحف صلاح الدين بذاته الى حصن الاكراد وحاصره يوماً واحداً فامتنع عليه . فانقلب الى انطرطس وقبل ان ينتهوا من نصب الخيام كلها احتلّ الحلبيّون اسوار المدينة وتحصن الفرنج في برجين من ابراجها واخيرًا سلّموا . فقوّض صلاح الدين سورها وقلعتها وكنيستها الشهيرة المعروفة بكنيسة مريم والدة الله وسائر ابنيتها وانطلق الى قلعة المرقب فلم يرَ احدًا من السكان فيها . وانتهى الى جبلة فسلّمه اياها مَن فيها من العرب . ثم زحف الى اللاذقية ونازلها بشدّة وحفر الحلبيّون خندقاً تحت الارض طوله ستّون ذراعاً وعرضه اربع اذرع . فخاف الفرنج وطلبوا الامان . فرخص لهم صلاح الدين ان يخرجوا في اولادهم ونسائهم واموالهم سوى البهائم والقمح وآلات الحرب . واستعمل عليها ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة

واقبل في تلك الايّام جيوش مَن الفرنج في سفن كثيرة من صقلّية ليساعدوا المسيحيين . وانطلق قائدهم ليحادث صلاح الدين وقال له : لقد استوليت على كلّ ما كان للفرنج في سواحل البحر ولم تترك لهم سوى القليل الحقير . فينبغي ان تكفّ عن قتالهم لئلا يتدفقوا قادمين من البحر ويسبّبوا لك عناء جسيماً . فلاجدر بك ان تحسُن معاملة جيرانك هولاء لانهم بمثابة حصن حصين بينك وبين الاهالي . فقال صلاح الدين : ان شريعتنا تضطرّنا ان نعزّز ديننا . والربّ يصنع ما يشاء . فعاد ذلك القائد الى بلده ثم زحف صلاح الدين الى صهيون وهي على صخر (٣٨٠) ما بين واديين عميقين وحاصرها واحتلّها بالامان واستعمل عليها ناصر الدين منغوراس بن كرتكين مملوك مجاهد الدين بن بزان . واحتلّ كذلك شوغر بكاس وزحف الى دربساغ ونازلها واحتلها . وانتهى الى بغراس وهي خالية من الجيش الكافي وانتزعها من الاخوة الداويّة . واصبحت تلك البلاد جميعاً للعرب . فخاف الانطاكيون خوفاً شديدًا ولاسيا لان الطرق سُدّت تجاههم ونقصهم الزاد . بناء عليه ارسل البرنس الى صلاح الدين يتذلل ويطلب الامان فلبى طلبه لمدّة ثمانية اشهر وتركه وانصرف الى حلب ثم الى دمشق واستراح هنيهةً . ثم زحف الى صفد وحاصرها حصارًا شديدًا حتى انتزعها من اصحابها وانتزع معها بلدة كوكبة بعد ما ضايقها جدًّا .

وفي هذه السنة مات الموفّق اسعد الطبيب الدمشقي المشهور بابن المطران الذي هجر النصرانيّة وأسلم حبّاً للدنيا الزائلة . واقتنى اموالاً وافرة وزفّ اليه صلاح الدين احدى جواريه وما عتم ان مات واضمحلّ ذكره . على اثر موت صلاح الدين شوهدت امرأته مع فتى عزيز عليه يطوفان بيوت الضباط ويستعطيان .

وفي السنة ٥٨٥ للعرب (١١٨٩ م) خرج بوهيمند البرنس من انطاكية وغزا بلد حارم ووصل الى شيح وفتك بالعرب والمسيحيين معاً.

اما ارناط صاحب صيدا و كان على اثر انتزاعها من يده قد سار الى شقيف ارنون برخصةٍ من صلاح الدين فقد شخص اليه واستمهله ثلاثة اشهر ليرحّل اهله عن صور ويقيم في مكان يكفيه ببلد دمشق ثم يسلّمه الشقيف المذكور. وقد أذن له في ذلك ثم أحسّ انه يخادعه ويواصل حفر الخندق وبناء السور . ومن ثم خرج صلاح الدين يوماً كعادته (٣٨١) واستأسر ارناط ووجّهه الى دمشق ولم يطلقه الا بعد ما سلّمه الشقيف.

وفي سنة ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) حدث نزاع بين السلطان قلج ارسلان وبين ابنه الكبير المقيم في سبسطية . وقد قُتل نحو اربعة آلاف من الاتراك الذين مع الولد . وبعد هذا اصطلحا على يد الامير بيرشاه صهر السلطان . ثم ان السلطان رحّل عنه اختيار الدين الحسن الامير حاجبه لانه كان السبب في القاء الفتنة بينه وبين اولاده وعند ذلك حشد اختيار الدين زهاء مائتي فارس من اولاده وانسبائه واقاربه وقصد مرج كنيوك فوجّه ابن السلطان بعض التركمان حملوا عليه وفتكوا به وببنيه وبمن معه . ثم قطّعوه ارباً ارباً وعلّقوه في رؤوس الرماح وطافوا به في سبسطية يوم عيد الصليب.

وفي تلك السنة تولى ملطية معزّ الدين قيصر شاه ابن السلطان قلج ارسلان .

وفيها كذلك اقبل الى صور جماهير مختلفة من الفرنج يفوق عددهم حدّ الكثرة وزحفوا من هناك الى عكة . فسمع صلاح الدين ودبّ الرعب في قلبه وارسل فاستدعى جميع جيوشه وزحف وحطّ رحاله بالقرب من الفرنج . وشاهدهم يزدادون يوماً فيوماً ويأتيهم القوت من البحر فحار في امره واجتمع بزعمائه وشاورهم فقرّروا ان يسارعوا في المبارزة قبل ان يزداد عدد الفرنج

اكثر فاكثر . وتأهبوا ليلة الجمعة اوّل رجب ولما كان الصباح التحم القتال واستغرق النهار كله حتى غروب الشمس ورسخ الجانبان رسوخاً تماً وبات الجميع ليلتهم على ظهور خيلهم . واشتعلت نيران المعركة يوم السبت كذلك حتى المساء . ولما كان الفرنج يواصلون القتال وقد أخلوا جهة عكّة الشمالية حيث لم يكن لهم خيام اغتنم صلاح الدين الفرصة ودخلها (٣٨٢) في كثير من الرّجالة والمؤن والذخائر وأخرج منها الضعفاء . ثمّ خرج هو كذلك وأمر الداخلين ان لا يكتفوا بمحاربة السور فقط بل يقاتلوا الفرنج على المدى لعلّهم يضعفون اذا شاهدوا الداخلين والخارجين يشدّدون عليهم .امّا الفرنج فلكثرتهم لم يَدَعوا العرب يخرقون جيوشهم بل واصلوا غاراتهم . ولولا ذلك لاحتلوا المدينة سريعاً .

ثم ركب الفرنج يوم الاثنين أحصنتهم ودنوا من خيام العرب دون ان يدَعوا احدا من رجّالتهم يرافقهم . ووضعوا السيف في الكثيرين من العرب ورجعوا . فتتبّعهم العرب الى تلّ المصلوبين حيث كانوا متحصّنين . ولمّا شاهد صلاح الدين قوّتهم في ذلك التلّ سار الى تلّ آخر تجاهه يشرف على عكّة . وكان العرب الرّجالة يخرجون كلّ يوم ويبارزون الرّجالة الفرنج . قيل ان الفرنج خاطبوا يوماً العرب الداخلين قائلين : لقد سئمنا الحرب نحن وانتم واكتفينا . فاليوم نروم ان ننشرح بمبارزة الفتيان الصغار . ثم هيّأوا مائة فتى فرنجيّ ومائة فتى عربيّ جعلوا يتبارزون بقذف الحجار ثم بالعصيّ والرماح واخيراً هَزَمَ الفتيانُ الفرنج الفتيانَ العرب وحشروهم في المدينة .

ويوم الاربعاء ٢٠ رجب كانت الملحمة العظيمة اذ برز الفرنج من خيامهم كالجراد وبرز الملك كذلك وامامه كتاب الانجيل مجلّلا بقماش حرير احمر يحمله الكهنة فوق رؤوسهم . فهلع صلاح الدين وأوقع صيحة هائلة في جنوده وخوّفهم (٣٨٣) وأذعرهم . وبعد هذا وثب الفرنج من الناحية اليسرى الى العرب في الناحية اليمنى حيثُ كان تقيّ الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وقد جاهد جيّداً تجاه الفرنج . ولمّا شاهد ملك الفرنج ان العرب لم يتزعزعوا تشدّد بروحه وصنع اشارة الصليب على وجهه وخرق قلب الجيوش العربيّة حيث كان الافضل والظافر ولدا صلاح الدين وقطب الدين بن نور الدين بن قرا ارسلان

صاحب حصن كيفا وابن لاخين صاحب نابلس وغيرهم كثيرون. وما ان اشتبك احدهم بالآخر حتى اخذ الفرنج يحصدون العرب حصاد القمح بالمناجل ولاذ العرب بالهزيمة وتتبّعهم الفرنج في سيوفهم وهم يهتفون بأبواقهم هتافاً شديداً. وانكسر العرب كسرة هائلة. وقصد الفرنج معسكرهم ونهبوا خيامهم وفتكوا بكلّ السوقة . ووصل المنهزمون الى دمشق وطبريّة .

امّا الفرنج فبعد ما طاردوا العرب نحو فرسخ عادوا فرأوا الباقين مطمئنين في الناحية الشماليّة لا يتزحزحون. وبما انهم أعيوا لم يَرَوا ان يتحرّشوا بهم بل قصدوا خيامهم ليستريحوا . غير ان صلاح الدين جعل يصيح وينادي ويشجّع المنهزمين حتى عادوا الى خيامهم كالاموات . وأحصي عدد القتلى فكان اربعة آلاف ومائة . على ان صلاح الدين أمر العرب الذين في عكّة ان يلقوا الجثث في البحر فتام احدهم وبيده خيط وجعل كلّما القوا واحداً عقد عقدة . وسقط من الفرنج نحو الفين . حينئذٍ اشار الزعماء على صلاح الدين ان يرحلوا ويبتعدوا قليلًا عن الفرنج يتعلّلون بحدوث فساد في المناخ من جرى نتونة اجسام القتلى . فارتحلوا الى مكان بعيد واشتغل الفرنج بحفر خندق كبير من التلّ حتى البحر بينهم وبين الجيش العربيّ الخارجيّ ثم احدقوا بعكّة من جهة البحر وسدّوا الطريق في وجه العرب وتعذّر الدخول الى المدينة والخروج منها .

(٣٨٤) وبلغ صلاح الدين ان ملك الالمان[1] قادم بطريق قسطنطينية في مائتي الف فارس وراجل فتأثر اشدّ التأثر وارسل بهاء الدين بن شداد سفيراً الى خليفة بغداد والى سائر ملوك المشرق يستنفرهم ويستعجلهم ليساعدوه والّا فالعربيّة تضمحلّ لا محالة .

ولمّا دخلت السنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) اطمأنّ صلاح الدين بسبب انتزاحه عن معسكر الفرنج الذين وجّهوا افكارهم كلّها نحو عكّة . غير ان الفرنج باغتوا معسكر العرب وكان صلاح الدين يتصيّد فأوقع اخوه العادل صيحةً في الجنود فركبوا وناوشوا الفرنج وسقط قتلى كثيرون من كلتا الجهتين ولو لم يدركهم الليل لأصبح الانكسار تامّاً . وانتقل الفرنج الى معسكرهم وهبطت الامطار وحصلت الأوحال بين الفريقين وتعذّر على ايّ كان ركوب

١) فردريك الاوّل ملك النمسة .

الحيل ومناوشة احدهم للآخر. وانقطعت الاخبار بين صلاح الدين وبين الذين في عكّة. وقد سبح احدهم في البحر ووصل اليه واخبره ان الفرنج يحاربون المدينة حرباً عواناً وقد ابتنوا ابراجاً شاهقة تُطل عليها وأمسى مَن في داخلها في ضيق شديد.

فركب صلاح الدين وتوجه نحو الفرنج ليلهيهم هنيهة عمّن هم ضمن المدينة وصادف هناك خنادق عميقة قد حفروها حولهم واضحى البلوغ اليهم مستحيلاً. فعضّ اصابعه ندماً وانقلب وحلّ في تلّ العجول بعيداً جداً عن الفرنج. وأقبل اليه ملوك العرب كافةً. نذكر منهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ومعز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب الجزيرة وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ومظفّر الدين بن (٣٨٥) زين الدين علي كجك صاحب اربيل. ثم ادخل صلاح الدين الى عكّة صناعاً محتكين باضرام النيران وأحرقوا ثلاثة ابراج كبيرة للفرنج. غير انه تعالى اغاث الفرنج بريح شديدة هبّت نحو المدينة ولولاها لاحترقوا جميعاً في لهيب تلك الابراج الهائل. زد عليه ان الخندق الذي حفروه تبّطهم عن الفرار من تلك النيران المتأججة. أمّا الابراج المذكورة فكانوا قد أسّسوها على عجلات يدفعونها متى أرادوا بأرماحهم ويلصقونها بالسور والمحاربون ضمنها. واذا أرادوا اجتذبوها اليهم بالحبال التي عندهم. ذلك عمل غريب يُذهل مَن يشاهده ويُرعبه.

أمّا ملك الالمان فلم يَدَعه اليونان ان يغادر قسطنطينية لكنه عاندهم وتغلّب عليهم ففتحوا له الطريق ووصل الى بلاد قلج ارسلان فحشد قطب الدين ملكشاه ابن السلطان جيوش التركمان وناوش الالمان فانكسر وولّى هارباً في جيوشه. ووصل الالمان الى قونية وفتكوا بكثيرين من اهاليها. وفي تلك الاثناء توجّه بياس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي الى قونية ليدفع الخراج فاجهز عليه التركمان وقتلوه. وظلّ قلج ارسلان متحصّناً في قلعة قونية ثم ادّى مبالغ لملك الالمان وعقد معه الصلح وفتح له الطريق فاقبل الى قيليقية وانطلق اليه لاون بن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية وزاره في طرسوس واعرب له عن خضوعه وطاعته. ثم توجّه ملك الالمان وهو شيخ ليسبح في النهر وكان

البرد شديدًا يومئذٍ فوعك ومات[1] هناك ونقل ابنه رفاته الى انطاكية . ثم توجّه سائر الالمان الى اطراف طرابلس وقد خارت قواهم وركبوا البحر الى عكّة غير ان اغلبهم قضوا مرضى في فيليقية ولم يبق منهم الّا النزر القليل .

(٣٨٦) واقبل في تلك الغضون ملك انكلترا[2] ونزل في قبرس وانتزعها من اليونان واستأنف المسير الى عكّة فاشتدّ ساعد الفرنج بقدومه . وكان في تلك المدينة عشرة امراء عرب فارسلوا يقولون لصلاح الدين : ان المعارك المتواصلة قد أوهنت قوانا وأضعفتنا ودبّ المرض فينا . فكان جوابه ان يغادروا المدينة بحرًا . وأرسل من ناب منابهم ممّن لم يكونوا منجدين في القتال على السور . بناء عليه تعزّز الفرنج وأقاموا سبعة منجنيقات وجّهوها نحو برج واحد . واوفد ملك انكلترا سفيرًا الى صلاح الدين يقول : لا بأس ان نختلي انا وانت في مكان ما وندبّر تدبيرًا يفيد الطرفين . فأجاب صلاح الدين : ينبغي اوّلًا ان ندبّر امر الصلح وبعد هذا نجتمع معًا . لانه لا يجمل بنا ان نعود الى القتال بعد المحادثة والمنادمة . واتّفق ان ملك الانكليز وعك يومئذٍ واشتدّ مرضه ممّا أخّر الفرنج عن متابعة الحرب . ولمّا تعافى ارسل تكرارًا سفيرًا الى صلاح الدين يقول : لا تلُمني بسبب سكوتي لان المرض اعاقني عن مراسلتك . والآن فقد تعافيتُ وأرسلتُ استأذنك في ان اوجّه اليك بعض الهدايا اذ لا يجدر بالملوك ان يقطعوا حبل المواصلة والمبادلة بالهدايا والسفراء والعبارات الحبيّة حتى في اثناء الحرب . هذا ما تلقّنا اياه شرائع آبائنا الملوك الاقدمين . فقال صلاح الدين : ان بادلتمونا بالهدايا بادلناكم بمثلها . قال السفير : ان عندنا بواشق ونسورًا وطيورًا وحمامَ زاجل قد ادركها الضعف فأعطونا دجاجًا وزغاليل تقتات بها وتنتعش ثم نحضرها اليكم . تبسّم العادل اخو صلاح الدين وقال

(٣٨٧) للسفير ممازحًا : يا ان ملك انكلترا قد ابلّ من وعكته فلا ريب انه يحتاج الى زغاليل بتمرّضه لذكر البواشق .

وبعد هذا وشّح صلاح الدين السفير الانكليزي بحلّة ملكيّة وسيّر معه طائفة من الدجاج والزغاليل والحمام . وما مرّت ثلاثة ايّام حتى عاد السفراء

١) ذكر مؤرخو الفرنج ان هذا الملك غرق في النهر في حزيران ١١٩٠

٢) هو الملك رشرد الذي بسبب بسالته أُطلق عليه لقب « قلب الأسد » .

الفرنج الى صلاح الدين وطلبوا منه ثمارًا وثلجاً فأعطاهم وعادوا. قيل ان ملك الانكليز لم يتوخَّ في ارسال الوفود مرةً بعد مرةٍ اخبارًا فارغةً لكنه كان يريد ان يقف حقيقةً على ما عند صلاح الدين والملوك الذين معه من الجيوش.

ولما اشتدَّ الحصار على العرب ضمن عكة بعثوا الى صلاح الدين قائلين: أرسل الينا مَن ينجدنا والَّا فاننا نسلّم المدينة. وكان صلاح الدين لا يهمّه الَّا ان يُشغِل الفرنج في القتال. ولذا قسم الفرنج جيوشهم قسمين فوّضوا الى الاوّل مبارزة العرب خارجاً والثاني مبارزتهم داخلاً. ولما استيقن الذين ضمن البلد بالانكسار سألوا الامان. فقال لهم الفرنج: لن نلبّي طلبكم الَّا اذا ردّ لنا صلاح الدين جميع الاسرى الفرنج وجميع المدن التي انتزعها منّا. فراساوه في ذلك فقال: اني أطلق ثلاثة آلاف اسير فقط بدلاً من العرب الذين في عكة. واذا تركوا لنا عكة بادلتُهم مدينة عوض مدينة. والَّا فليأخذوا تلك المدن بالسيف كما سبقتُ فاخذتُها.

ولما بلغ الفرنج ذلك تعرّشوا حالاً بالسلّم الى الاسوار وانحدروا الى المدينة. وبطشوا بالكثيرين. ثم حشدوا بقيّة الاهالي في ناحية فقال لهم هؤلاء: اعفوا عنّا ريثما نراسل صلاح الدين لينقذنا بالذهب وبمن تطلبون من الاسرى الفرنج. فوافق الفرنج على ذلك واعطاوهم مهلة اربعة عشر يوماً حتى يبدو القمر الجديد. وقالوا: اذا دفع لنا صلاح الدين مائتي الف دينار ذهباً ومائة اسير متين (٣٨٨) نكتب اسماءهم من القامصة والكونتيّة وغيرهم مع الف وخمسمائة اسير نجهل اسماءهم فعند ذلك نعتقكم. فارسل اولئك العرب الى صلاح الدين واخبروه بالامر فاجتمع بزعمائه وشاورهم فقالوا بفمٍ واحدٍ: ان هؤلاء العرب هم اخوتنا فيجب ان ننقذهم. فامتثل المشورة وكتب الى البلاد فجمعوا الاسرى الفرنج. اما بشأن الذهب فتقرّر ان يؤدّي ثلثه في كلّ عشرة ايام. وعند انتهاء الايام العشرة ارسل الى الفرنج يقول: اطلقوا جميع مَن عندكم من العرب ثم ندفع لكم ثلث الذهب والرهائن بدلاً من الثلثين الباقيين. او ادفعوا لنا رهائن بدلاً من ثلث الذهب الذي تقبضون. فقال الفرنج: تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن. فاستغلظ صلاح الدين جوابهم ورفض طلبهم فسخطوا كلّ السخط واوثقوا جميع اولئك العرب بالحبال واستاقوهم الى تلّ بظاهر المدينة وكوّموا

حولهم حطباً كثيراً وحبالاً عتيقة وبراميل خمر وحشروهم واستلّوا السيوف وبطشوا بهم قاطبةً وكان كاتب الديوان واقفاً يشاهدهم . وبلغ عدد قتلى العرب على اسوار عكّة وداخلها وخارجها في التلّ مائة الف وثمانمائة نسمة . وجرى ذلك في رجب ٥٨٧ للعرب وفي آب السنة ١٥٠٢ لليونان (١١٩١م). ولقد اسهبنا الكلام قليلاً في وصف هذا الحصار لِما له من الشهرة لدى العرب وقد كتبوا مجلّدات في ذكر ما نالهم من الضيق هذه المرّة من الفرنج .

وبعد ما احتلّ الفرنج عكّة اقاموا فيها جيشاً يحرسها وبنّائين يرممون اسوارها وارتحلوا نحو ارسوف . وارتحل صلاح الدين كذلك وكان الفرنج والعرب يتحرّشون بعضهم ببعض وهم سائرون في الطريق (٣٨٩) وقد ناوش العرب ذات يوم القتال الفرنج فاغتاظ ملك انكلترا وحمل عليهم ببأس شديد وهزمهم وشتّت شملهم ولم يبقَ مع صلاح الدين الّا سبعة عشر من خيرة العرب ونافخي الابواق وحاملي الرايات . ولولا خوف الفرنج من كمين يترصّدهم لقبضوا في ذلك اليوم على صلاح الدين ذاته وقوّضوا دعامة العرب تقويضاً تامّاً .

ووجّه صلاح الدين يومئذ بنّائين وفرساناً الى قلعة بغراس لينقلوا منها الذخيرة ويدكّوها . ولمّا وصلوا وباشروا العمل بلغهم ان لاون صاحب قيليقية متأهب لينصب عليهم فتركوا القلعة ولاذوا بالفرار . وبلغ الانطاكيين خبر هزيتهم فزحفوا الى تلك القلعة وشاهدوا فيها اثني عشر الف مكّوك من الحنطة فنقلوا ذلك كلّه الى انطاكية وانفرجوا وكان الجوع يومئذ قد ضايقهم جدّاً وما مرّ القليل حتى اقبل لاون وتغلّب على الفرنج وانتزع منهم بغراس .

وارسل صلاح الدين فحارب عسقلان وافرغها من السكّان . وكان الفرنج قد ابتنوا يافا وعمروها وهي واقعة بين اورشليم وعسقلان . ولهذا السبب ادّعى العرب بانهم لا يستطيعون الى حراستها سبيلاً . وسار صلاح الدين الى اورشليم وأشرف عليها وحصّنها بالرجال والعدّة . وسار اليه يومذاك معزّ الدين صاحب ملطية يرفع الدعوى على ابيه السلطان قليج ارسلان وعلى اخوته اذ كانوا يحاولون انتزاع ملطية منه . وقد رحّب به صلاح الدين وزفّ اليه ابنة اخيه الملك العادل واعاده الى ملطية وشجّعه بقوله : لا تخف أباك ولا اخوتك .

وارسل ملك انكلترا سفيراً الى صلاح الدين يقول : لقد افنت الحرب

عسكرنا وعسكركم فإلى متى تبقى الحال كذلك ؟ قد ارتوت سيوفنا وسيوفكم من الدماء. فاردد ما اخذته منا من البلاد ولا سيما اورشليم مقام ديننا وقد غادرنا اوطاننا بسببها فاذا وافقتَ على ذلك تركنا كل شي. وعدنا(٣٩٠) الى وطننا فتستريح منا . فاجاب صلاح الدين : ان هذه البلاد لم تكن لكم فيما مضى بل لليونان. وقد انتزعها العرب منهم في غاراتهم الاولى ولمّا استضعفتموهم اقبلتم فانتزعتموها منهم . والآن فقد استرجعنا بلادنا منكم . امّا اورشليم التي قلتم انها مقام دينكم فهي مقام ديننا كذلك ونعتبرها اكثر منكم مثلما اوصانا الله في قرآنه .

ثم ارسل ملك انكلترا ثانيةً الى صلاح الدين يقول : أريد ان يصاهرني اخوك العادل فازفّ له شقيقتي التي قدمت معي لتسجد في اورشليم . فاذا وهبت المدن التي بساحل البحر لاخيك واكتفيت انت بالقلاع والمدن فقط وظلّت القوى باجمعها للاخوة الدواوية والاسبتالية فحين ذاك يتم عقد الزواج وانا استعمل اختي على جميع المدن الساحلية التي بيد الفرنج ويكون مركزها في اورشليم . لكنّ صلاح الدين لم يرضَ بذلك امّا ابنه العدل فقد كلف بالابنة ووجه الزعماء والشيوخ الى اخيه ليقنعوه في ذلك . غير انه رفض كلّ الرفض فقال له اولئك الدهاةُ : نحن عالمون ان الزواج لن يكون قطعاً وان ابنة الملك الكبير لن ترضى الاقتران بعربيّ واخاه يعرف ذلك حقّ المعرفة . ولعلّه قال ذلك على سبيل المزاح كمادته . وبناء عليه فلا تكسر خاطر اخيك . اقتنع صلاح الدين وأرسل سفيرًا في القبول . واقام السفير لدى الملك ثلاثة ايام ثم قال له في اليوم الثالث : قضيتُ هذه الايام الثلاثة احاول ليل نهار اقناع اختي فلم تقتنع الّا بشرط ان يتنصّر العادل. هكذا عاد السفير خائباً.

وفي تلك الايام مات تقيّ الدين عمر ابن اخي صلاح الدين في طريق خلاط وهو ذاهب ليحاربها فحملوه وردّوه الى ميافرقين ودفنوه . وكان هذا يبغض (٣٩١)المسيحيين البغض كلّه ويفتك دون شفقة بالارمن الفلّاحين المظلومين ببلد جبل جور . وكان معه ابن الملك المنصور فتحصّن في ميافرقين وارسل يقول لصلاح الدين: ان نزعتَ منّي بلاد ابي تقيّ الدين انضمتُ الى بكتمار صاحب خلاط. فلم يرَ صلاح الدين الّا ان يغض عنه مدّة. وبعد ايام قلائل استعمل

العادل على بلاد ابيه واستعمله هو على الرها وحرّان وسميساط .

ولمّا ارتحل الفرنج والعرب الى عسقلان اقام العرب بعد يوم كميناً للفرنج وهم خارجون من المعسكر ليجمعوا حطباً . وما ان اكتشف الفرنج الكمين حتى امتطى كلٌّ منهم حصانه ووثبوا اليه وفتكوا بثلاثة من زعماء صلاح الدين وقبض العرب على فارسين من الفرنج اعتياديين . ووجّه ملك انكلترا سفيراً الى العادل يعاتبه بشأن الكمين ويقول له : ارغب ان اشاهدك واحدّثك . ونصب الفرنج خيمةً كبيرةً خارج معسكرهم فاقبل العادل واقام اليوم كله لدى ملك انكلترا ثم ودّع احدهما الآخر عند الغروب . وقال الملك للعادل: ارغب ان اجالس اخاك السلطان كذلك في هذه الخيمة واشاهده واحادثه . لكن صلاح الدين لمّا اخبره اخوه بذلك رفض الطلب لسببين اوّلهما لخوفه وثانيهما لانه لم يرَ ذلك موافقاً وكتب اليه يقول : لا يجدر بالملوك ان يجتمعوا معاً الّا بعد عقد الصلح والحال ان ذلك لم يتمّ بعدُ . واذا افترضنا عقده فانا لستُ افهم لغته ولا هو يفهم لغتي . ولا بدّ من مترجم يترجم بيننا . فالأحرى اذاً ان نقيم السفير ترجماناً ونعدل عن المواجهة. ولمّا اقبل الشتاء سار ملك انكلترا الى عكّة وصلاح الدين الى اورشليم وبعث اليه باربعة وعشرين الف دينار ذهب في اعتاق الاسرى العرب .

ولمّا دخلت السنة ٥٨٨ للعرب(١١٩٢م) زحف (٣٩٢) الفرنج الى عسقلان وجعلوا يرمّمون ابنيتها. وكان المركيز صاحب صور قد اختلف مع ملك انكلترا وحاول ان يستبدّ بها فاراد الملك ان ينتزعها من يده . فكتب المركيز الى صلاح الدين في الانضمام اليه ومبارزة الفرنج ابناء جنسه . ولمّا كان سفير المركيز لدى صلاح الدين وثب اليه رجلان اسمعيليّان تزيّا بزيّ الرهبان وطعنه احدهما بالسكّين . وانهزم الثاني الى كنيسة قريبة نقلوا اليها سفير المركيز كذلك فثار اليه الاسمعيليّ المذكور عندما سمعه يتكلّم واجهز عليه ضمن الكنيسة بطعنةٍ ثانيةٍ . وقد قبض الفرنج على ذينك الاسمعيليين ونكّلوا بهما فادّعيا ان ملك انكلترا هو الذي سيّرهما . فوثق الفرنج بقولهما بسبب الخلاف الذي حصل بين الملك والمركيز كما ذكرنا . غير ان الحقيقة انجلت اخيراً واتّضح ان سينان زعيم الاسمعيليين هو الذي ارسلهما ليفتكا به .

وبعد هذا استعمل ملك انكلترا على صور الكُنت هنري فاقترن بامرأة المركيز وضاجعها وهي حامل خلافاً للناموس .

ثم تشدَّد الفرنج وساروا الى داروم وانتزعوها من المسلمين عنوةً واجهزوا على كلّ اهلها . وفي تلك الغضون تعرّض الفرنج لقافلةٍ من المسلمين كبيرةٍ قادمة من مصر حاملة ذهباً لصلاح الدين. وبلغ صلاح الدين ان الفرنج متأهبون للزحف الى اورشليم فحشد جيوشه واستعدّ للمعركة . وحصّن اسوار المدينة وافسد جميع القنوات التي بظاهرها . عرف ملك انكلترا فثبَّط الفرنج عن الزحف وقال لهم : (٣٩٣) ان ضواحي اورشليم خالية من المياه وقد افسد العرب المياه المجاورة لها والنهر بعيد عنها فرسخاً وكسوراً ولا يغلبنّ على ظنكم ان اورشليم هي مثل عكّة . صدّقوني لولا البحر لَما تيسَّر لنا ان نحاصرها اكثر من يومين . فوافق الجميع على مشورته وزحفوا نحو غزّة .

اما صلاح الدين فقد سُرَّ بانتزاح الفرنج عن اورشليم ولكنه بات يتخوف على مصر . واذ ذاك وجّه الملك سفيرًا اليه يقول : لا يتبادرنّ الى ظنك اني اغمضتُ خوفاً او ضعفاً . كلّا . فان الكبش لا يعود القهقرى الّا ليضرب الراس. فان رأيتَ ان نعقد الهدنة على ما نطلب فذلك ازكى لك وقد سبقتُ فاخبرتُك . وبعد مراسلات شتّى عُقدت الهدنة على ان تبقى بلاد الفرنج للفرنج اعني يافا وضاحيتها وقيسارية وارسوف وحيفا وعكّة وانطاكية وطرابلس . وتبقى سائر البلاد للعرب وتمسي عسقلان خراباً. ودفع صلاح الدين للفرنج جميع ما انفقوه على ترميمها . وفُتحت الطرق واقبل جمهور من الفرنج وزاروا اورشليم وبالغ صلاح الدين في اكرامهم وبذل لهم العطايا واعطاهم خيلاً لركوبهم.

قيل ان ملك انكلترا ارسل الى صلاح الدين يقول : كل فرنجيّ خالٍ من علامتي لا تَدَعْه يدخل اورشليم. فاجتمع صلاح الدين بالعقلاء واستفسرهم عن تلك العلامة . وبعد التروّي قالوا له : ان اقوى داعٍ يحمل الفرنج على حجّ اورشليم انّما هو العبادة لا غير فاذا حجّوا وعادوا الى اوطانهم فلا تبقى لهم رغبة في العودة. ولهذا فالملك يحرّج عليهم الحجّ حتى اذا عادهو ثانية واراد ان يأتوا معه لزمهم ان يكونوا مستعدّين. ولمّا فهم صلاح الدين السبب ارسل يقول للملك : ان هولاء الناس هم غرباء يتعذّر عليّ ان ازعجهم اما انت ففي وسعك ان تنهاهم.

وبعد ما احتلّ الفرنج عكّة اعتقلوا زعيمين عربيّين (٣٩٤) وهما ابن المشطوب وقرقوش الحاجب وهذا كان روميّ الاصل وارسله صلاح الدين الى افريقية وفتح مدناً كثيرة وعاد الى مصر وابتنى سورًا عُرف باسمه حتى اليوم. ثم أحيلت اليه قيادة الجيش في عكّة. ولمّا قرّر الفرنج ان يدفع لهم ثمانية آلاف دينار دية قال لهم: بكم اعتقتم ابن المشطوب؟ قالوا بثلاثين الف دينار. قال لهم: اني أودّي مثله اذ ليس من الصواب ان يؤدّي هو ثلاثين الفاً وانا ثمانية آلاف. فتهقه الفرنج وقبضوا منه كذلك ثلاثين الفاً. ولقرقوش هذا حكايات مثل هذه منها ان شاعرًا نظم فيه كتاباً كاملًا لم يبرزه الّا بعد موته.

وبعدما عُقد الصلح سار صلاح الدين الى بيروت واقبل اليه البرنس بوهيمند صاحب انطاكية فبالغ في اكرامه ووشحه بحلل ملكية ووشح كذلك الزعماء الاربعة عشر الذين معه واعطاه نصف ريع بلد انطاكية الذي احتلّه العرب. ولقد دهش صلاح الدين من قدوم البرنس اليه بثقة وطمأنينة ولذا اكرمه اكراماً جزيلًا وودّعه بسلام. ومن بيروت توجه صلاح الدين الى دمشق.

امّا ملك انكلترا فقد استعمل على عكّة القمص هنري ابن اخته وابحر الى وطنه. ويقال انه توفي قبل الوصول اليه[1].

وفي سلخ آب ١٥٠٣ لليونان (١١٩٢م) مات السلطان قلج ارسلان في قونية. وكان ذا هيبة وصولة وذكاء. وانتزع عدة مواضع من اليونان. لكنه عندما بلغ الشيخوخة وزّع بلاده على اولاده وامسى بينهم نظير عاجز وكان اذا قام مدة عند احدهم لاجل غدائه انهزم الى ابن اخر. وعندما سار الى غياث الدين كيكسرو صاحب مدينة بروغلو رحب به كل الترحيب (٣٩٥) ونهض بخدمته اجمل نهوض. وحشد الجنود واستصحب اباه الشيخ وقصد قونية وانتزعها من قطب الدين اخيه. ثم زحفا الى اقسرة وهناك هلك قلج ارسلان فنقله ابنه كيكسرو الى قونية وفيها توفي ودُفن وتولاها هو حتى انتزعها اخوه ركن الدين وسنذكر ذلك ان شاء الله تعالى. واستغرق ملك قلج ارسلان بن مسعود ابن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن يبغو بن سلجوق بن توقاق ثاني وثلاثين سنة. وخلّف اثني عشر ملكاً.

١) وصل الى وطنه وتوفي عام ١١٩٩م.

وفي تلك الغضون انتابت صلاح الدين حمى شديدة ومات في دمشق ليلة الاربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ للعرب[1] وخلّف سبعة عشر ابناً وابنة صغيرة. ولم يكن في خزانته حين موته الا دينار واحد وستة وثلاثون فلساً لانه كان كريماً جواداً وهذا ما جعله ان ينجح في شؤونه. قيل انه لما ملك دمشق اخرج كل ما كان في الخزانة من دنانير ودراهم وكوّمها امامه وهي كمية وافرة وامر ابن المقدم ان يوزع حفنة حفنة على كل من الزعماء. والفرسان والعبيد. ولما اخذ الحفنة زجره صلاح الدين قائلاً : املأ حفنتك. فضحك ابن المقدم. فسأله عن سبب ضحكه فقال : اني اذكر ان نور الدين كان يوماً جالساً كمكانك واحضروا اليه علبة مملوءة من الزبيب الجيد الكبير وقال لي : وزع بحفنتك على الزعماء. ولما اخذت املأ حفنتي قال لي بهدوء : ان وزعت هكذا فلن يكفي جميعهم. فضحك صلاح الدين وقال له : ان البخل انما يوافق التجار لا الملوك. اذا (١٣٦) لا توزع منذ الان بيدٍ واحدة بل بيديك كلتيهما. وذكر احد الحضور ان الحفنة التي اصابها كانت مائة وثمانية وخمسين ديناراً.

وقيل ايضاً : ان صلاح الدين لما كان يحاصر عكة وركب يوماً مع قاضي المعسكر سمع رجلاً يهودياً ينادي ويقول : اني اتظلّم الى الشرع العربي. فسأله العبيد من هو خصمك؟ ومن الذي أكل حقك؟ قال : ان خصمي هو السلطان وعبيده تعدّوا علي. فلم يسخط صلاح الدين بل نزل للحال عن حصانه ونزل معه القاضي كذلك واستدعى اليهودي واقامه الى جانبه. فقال اليهودي : انا رجل يهودي تاجر دمشقي اتجرت من الاسكندرية في عشرين حملاً سكرًا وما كدت ابلغ مرفأ عكة حتى انتهبني عبيدك وقالوا لي : انك كافر وما لك هو للسلطان. فامر صلاح الدين باحضار الذين اخذوا السكر فصرحوا بانهم نقلوه الى الخزانة. فأمر الخزنة فأدوا لليهودي ثمن السكر.

ولما كان صلاح الدين جالساً يوماً مع الزعماء. اخذ العبيد الصغار يلعبون معاً وقذف احدهم حذاء على صاحبه وسقط الحذاء عند ركبة صلاح الدين فالتفت الى الناحية الاخرى وجعل يحدث جليسه هناك متظاهراً بانه لم يرَ ما صار. وعطش يوماً وطلب ماء فقال العبيد احدهم للاخر : هلمّ ماء.

1) مات في ٤ اذار ١١٩٣ م.

واغمضوا ولم يأتوا بشيء . فطلب ثانية وثالثة وخامسة ولما احضروا الماء اخذ وشرب دون تذمر . ونهض يوماً من فراشه وقصد الحمام وطلب ماء بارداً ليشرب ولما احضروه اليه سقطت قطرات على جسمه فاهتز بسبب مرضه وأبى ان يشرب ومكث ساعة حتى ازداد عطشه فتضايق وطلب الماء. ولما اتاه به الخادم ارتجت يداه خوفاً وسقط الطش وتدفق ذلك الماء البارد كله على جسم صلاح الدين (٣٩٧) فاقشعرَّ اقشعرارًا شديدًا واكتفى بان يقول لذلك الخادم: قل لي هل تنوي ان تقتلني ؟ ولم يزد .

وسمع بكتمر صاحب خلاط بموت صلاح الدين ففرح الفرح كله وحشد الجنود ليزحف الى ميافرقين . فوثب اليه صهره هزرديناري عبد شهرامان وقتله وملك مكانه . وحافظ على محمد ابنه الصغير وربّاه تربيته لابنه .

ومات في تلك السنة كذلك سينان امام الاسمعيليين في مصريات وخلفه الناصر الفارسي . وكان ملوك العرب والفرنج يهابونه . وقد اعد سكاكين كتب على كل منها اسم واحد من الملوك . وعندما كان يدفع سكيناً الى احد اصحابه كان لا بد له من انجاز مرامه ولو طوّح بذاته في البحر. وتضلع سينان من شتى العلوم وعلّم تناسخ الارواح طبقاً للرأي الافلاطوني ولقنه لاصحابه . ولهذا السبب كانوا يستخفون الموت زاعمين انهم يبقون احياء بعد ان يُقتلوا. وكان يختفي مرارًا ويذاع عنه انه قد مات ثم يظهر ثانية . ولهذا اعتقد اصحابه بعد موته انه حي يرزق .

وفي السنة ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) احتال لاون صاحب قيليقية على البرنس بوهيموند صاحب انطاكية وقبض عليه . ذلك ان بغراس كانت في حوزة لاون كما ذكرنا آنفاً ولما تركها العرب وانهزموا استرجعها ولكن حاكمها الارمني ان يحدث البرنس سرًّا ويبلغه انه يحاول الانتقاض على لاون مولاه ويسلمه القلعة ويعود الى انطاكية ويقيم بها. فارسل الحاكم الى البرنس ووعده بتسليم بغراس وصدّقه البرنس وخرج كمن يقصد القنص وخرج معه ابنه وامرأته ولما وصلوا الى العين المجاورة للبلد دلّى لهم الحاكم (٣٩٨) طعامًا وخمرًا وقال لهم : لا يتيسّر لكم ان تدخلوا القلعة نهارًا ولكن اذا جنّ الليل واقبلتم وجدتم الابواب مفتوحة ودخلتم خفية . ولا حاجة ان تحضروا معكم من

الفرسان احدًا لئلا يشعر الحرّاس ويفتضح السرّ . بل اتركوهم يكمنوا قريباً .
صدّق البرنس كلام الحاكم وغادر العين متظاهرًا بانه متوجه الى انطاكية .
ولما كان المساء رجع هو وامرأته وابنه وخدامه الصغار ووصلوا الى الباب وشاهدوه مفتوحاً ودخلوا مسرورين . وقال لهم الحاكم : ناموا الان واستريحوا حتى الضحى فنتشاور ونستدعي الفرسان شيئاً فشيئاً ونقبض على الحراس . ولما ناموا ارسل الحاكم الى لاون وكان كامناً هناك فاقبل مع جمهور من الارمن ودخل بغراس وقبض على البرنس واعتقله بالقيود واعتقل كذلك امرأته وابنه بالسلاسل ونكّل بالبرنس تنكيلًا شديدًا انتقاماً منه لانه سبق فنكل بروفين اخيه . وظلّ البرنس معتقلًا ريثما اقبل هنري ابن اخت ملك انكلترا واعتقه بالوعد والوعيد .

واشتدّ ساعد لاون على اثر موت السلطان قلج ارسلان واحتل اثنين وسبعين حصناً بعضها من الاتراك وبعضها من اليونان واحرز النصر في كل مواقعه .

اما عز الدين مسعود صاحب الموصل فلمّا بلغه خبر وفاة صلاح الدين همّ ان يستولي على سورية . فارسل الى عماد الدين اخيه صاحب سنجار ونصيبين والى سنجر شاه ابن اخيه صاحب الجزيرة والى مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وجهزهم جميعاً ليمضوا معاً وينتزعوا البلاد من آل صلاح الدين . غير ان الملك الافضل بن صلاح الدين الاكبر وكان متولياً دمشق مكان ابيه ارسل الى عمه العادل وكان يومئذ في دمشق واستحضره قسرًا ليتولّى قيادة الجيوش ويبارز احزاب اتابك . وارسل كذلك (٣٩٩) الى اخيه الملك العزيز في مصر والى الملك الظاهر اخيه الثاني في حلب والى ناصر الدين بن تقي الدين ابن عمه في حماة والى الملك المجاهد بن ناصر الدين ابن عم ابيه في حمص وحشد الجنود منهم وسيّرها مع عمه العادل الى مرج الريحان بضواحي الرها . ولما سمع عز الدين صاحب الموصل حشد هو كذلك جيوشهُ واقبل الى نصيبين وهناك اصابه سُهال اضطره ان يعود الى بلده وما عتم ان مات . وكان رجلًا خيّرًا عفيفاً مُحسناً لم يشاهده احد يخاطب جليساً الا وهو مطرق . ولم يسأله احد شيئاً الا لبّى سؤاله . وخلفه ابنه نور الدين ارسلان شاه وكان قيّمهُ مجاهد الدين قيماز .

وفي السنة ٥٩٠ للعرب (١١٩٣ م) زحف علاء الدين تكيش خوارزمشاه الى خراسان ولاقاه السلطان طغرل بجانب الريّ وقُتل طغرل وارسل رأسه الى بغداد وعُلق برأس قصبة ونُصب بباب بلاط الخليفة . وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان واقام له نائباً اسمه قوتلغ اينايغ بن البهلوان سلطان همذان سابقاً . وهو الذي ارسل واحضر خوارزمشاه عندما افلت السلطان طغرل من حبسه وتغلّب عليه وانتزع بلاده . وبطغرل هذا انتهت الدولة السلجوقية في خراسان وبقيت دولتهم التي ببلاد الروم . وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه بن ارسلان بن داود جغري بك بن ميخائيل بن سلجوق بن توقاق .

وفي تلك السنة اقبل الملك العزيز صاحب مصر الى دمشق لينتزعها (٤٠٠) من الملك الافضل اخيه الكبير . فسار الملك العادل عمهما وصالحهما بان تبقى اورشليم للعزيز وجبلة واللاذقية للملك الظاهر صاحب حلب وبعض قرى مصر للعادل . وبعد ما تهادنوا عاد كل منهم الى بلده .

وفي السنة ٥٩١ للعرب (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشاً مع سيف الدين طغرل احد زعمائه الى اصفهان فسلّمه اياها الاهالي لشديد بغضهم للخورزميين الطغاة الذين تغلبوا عليهم . وفي السنة عينها تهيأ الملك العزيز صاحب مصر ليأتي الى دمشق وينتزعها من اخيه الملك الافضل . ولمّا سمع الافضل سار بذاته الى قلعة جعبر يريد عمه العادل واخاه الظاهر ليستنجد بهما فاقبلا معه الى دمشق واقبل كذلك الملك العزيز وارسلوا الى العادل والافضل يقولون : هلمّا الينا ونحن نسلّمكما اياه . فشعر العزيز بالمكيدة واستعجل في العودة الى مصر فتتبعه العادل والافضل الى مصر ووصلا الى بلبيس وكان في امكانهما ان يحتلا مصر لكن العادل استمهل الافضل وعقد الصلح وعاد الافضل الى دمشق وتولّى اورشليم كذلك . واقام العادل في مصر وتولّى سياسة مملكة العزيز .

وفي السنة ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) برز للملك العادل والملك العزيز من مصر واقبلا الى دمشق لينتزعاها من الملك الافضل . فاستعد هذا للحرب على اسوارها ووزّع الابواب والابراج على زعمائه . غير ان عز الدين الحمصي حارس الباب الشرقي انتقض على الافضل وادخل العادل الى دمشق وتوجه الى دار اسد الدين شيركوه عمه ثم دخل الملك العزيز كذلك وانتزعا المدينة من الملك

الافضل واستولاه على قلعة صرخد فسار اليها . وعاد الملك العزيز الى مصر واستمرّ العادل في دمشق كانه نائب مناب الملك العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز . وقد ارسل الملك الظاهر غير مرة من حلب الى الملك الافضل يقول : لا تصدق العادل لانه لن يجديك نفعاً . وانا اعرفه اكثر منك . لاني صهره وابن اخيه . ولو عرفت انه يشفق علينا لعاملني افضل من معاملته لك . فاجابه الافضل : لقد ساء ظنك في من هو قائم مقام ابينا ولا يمكن ان يؤذينا .

وفي السنة ٥٩٣ للعرب (١١٩٦ م) تحرّش العادل بالفرنج مدّعياً ان الصلح قد الغي بوفاة ملك انكلترا وصلاح الدين . فسار الى يافا واحتلّها عنوة . وارسل الفرنج الذين في ساحل البحر الى اصحابهم يقولون: الحقونا سريعاً والا احتلّ العرب كل السواحل . فوجّه الفرنج جيوشاً ضخمة وعلى رأسهم رجل من الاكليرس يقال له شنسلير وزحفوا الى تبنين وحاصروها حصاراً شديداً وكادوا يحتلونها لو لم يفاجئهم الخبر بان هنري صاحب عكة سقط من مكان عالٍ ومات . فالجأوا الحرب اذ لم يبق لهم ملك وارسلوا في استحضار صاحب قبرص وزفّوا اليه امرأة هنري . وما ان سمع العادل حتى ارسل في الصلح بشرط ان تكون بيروت للفرنج وتبنين للعرب فتركها الفرنج وانطلقوا .

وفي تلك السنة مات منكشاه بن خوارزمشاه في نيسابور وخلفه قطب الدين محمد مع ان المملكة كانت تحق لاخيه هندوخان طبقاً لوصية ابيها . ومات اذ ذاك كذلك سيف دين الاسلام طغتكين بن ايوب اخو صلاح الدين صاحب بلاد اليمن وخلفه ابنه اسمعيل ولم (٤٠٢) يكن مهذباً فوثب اليه الزعماء وقتلوه . وفي السنة ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) توفّي عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن اقسنقور صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وخلفه ابنه قطب الدين محمد وكان وصيّه مجاهد الدين بن يقش عبد ابيه .

وفي تلك السنة زحف نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين وانتزعها من قطب الدين محمد ابن عمه . ذلك لان قطب الدين توغل في بعض قرى ما بين النهرين بحدود الموصل فارسل اليه ليردّها فأبى فحشد الجنود وتوجه الى نصيبين وقاتل قطب الدين وكسره وهزمه الى حرّان . فارسل الى العادل

يستنجده . اما نور الدين فبعد احتلاله نصيبين واقامته بها اياماً دبّ المرض في عساكره وقضى على ستّة من زعماء الموصل المشاهير بينهم مجاهد الدين قيماز حاجبه فاضطرَّ ان يغادر المدينة ويعود الى الموصل فانقلب قطب الدين واسترجع نصيبين .

وفي تلك السنة سار خوارزمشاه الى بخارى وانتزعها من الخطا الصينيين وكان العرب البخاريون راتعين مع الصينيين الحكماء العادلين في بحابح السلام على رغم مخالفتهم لهم في الدين . وهذا ما حملهم على مقاتلة خوارزمشاه على الاسوار اشد ما يكون حتى انهم احضروا كلباً البسوه ثوب خوارزمشاه والقوه الى الاهالي يقولون : هذا ملككم . غير ان خوارزمشاه بعد ما احتلّ المدينة عفا عنهم ودفع لهم ذهباً واستحلفهم واحسن اليهم .

وفي السنة عينها زحف الملك العادل الى ماردين وحاربها حرباً عواناً وكان صاحبها حسام الدين فتىً صغيرًا وقيّمهُ نظام الدين بن يقش . على ان الاهالي خُدعوا وسلموا المدينة ودخلها جنود العادل وانتبهوها نهباً قبحاً وافتعلوا فيها الاهوال (٤٠٣) وظلّوا يحاصرون القلعة .

وفي السنة ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) مات الملك العزيز بن صلاح صاحب مصر . وكان قد خرج الى القنص يطارد ذئباً فسقط عن الحصان واصابته الحمّى فعاد الى القاهرة ومات فيها . وخلّف ابناً صغيرًا اسمه الملك المنصور فحصل خلاف بين الاقطاب وشاء بعضهم ان يكون الصغير خلفاً لابيه وبعضهم اختاروا العادل وغيرهم الافضل . وتغلّب احزاب الافضل وارسلوا فاستدعوه من صرخد وملّكوه . وعند ذلك لاذ خصومه بالفرار الى اورشليم واحتلّوها . اما الافضل فحشد جيوش مصر وغادرها يريد دمشق . فارسل الدماشقة الى الملك العادل وهو في ماردين فترك فيها ابنه الملك الكامل محمّدًا وسارع الى دمشق . واقبل الافضل كذلك وحلّ فيها . غير ان جيوشه اختلفوا فتركوا وانقلبوا الى مصر ولم يستفيدوا شيئاً من قدومهم .

اَمّا الكامل بن العادل فظلّ يضايق الماردينيّين الذين في القلعة حتى قلّت ذخيرتهم وانتابهم المرض . وعوّل نظام الدين وصيّ الصبي حسام الدين ان يسلّم القلعة . غير ان نور الدين صاحب الموصل وولدَي عمّه صاحب سنجار

وصاحب الجزيرة ثاروا عندما سمعوا الخبر وقال احدهم للآخر : اذا احتل اصحاب العادل ماردين احتلوا معها كل بلادنا. فاتفقوا لذلك اتفاقاً تاماً وزحفوا جميعاً الى دُنَيسر. وانحدر الكامل الى البرّية واصطدم به المواصلة وكسروه. فانهزم مع اصحابه الى ماردين ولما وصلوا اليها شاهدوا ان المحاصرين في القلعة قد انحدروا الى المدينة ونهبوا الخيام واضطر الكامل ان يعود تلك الليلة الى حرّان ومنها الى دمشق عند ابيه العادل. قيل انه : لو لم ينحدر اصحاب الكامل من الجبل الى البرّية لتعذّر (٢٠٤) على المواصلة ان يزحزحوهم عن ماردين وكادوا يحتلّون القلعة كذلك غير ان الله جلّت احكامه يصنع ما يشاء .

وفي السنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩م) حشد الملك العادل جيوشه وسار الى مصر. فسمع الافضل وجيّش كذلك جيوشه وخرج ليبارز عنه فانكسر وانهزم ليلاً الى القاهرة . وسار العادل وحاصرها واراد ان يحاربها . عند ذلك اشار الاقطاب على الافضل ان يرسل ويطلب الصلح بسبب عجزه عن مناوأته. فامتثل الافضل المشورة وسأل ان يتولّى دمشق بدلاً من مصر لكن الملك العادل رفض. ثم طلب الرها وحرّان فلم يلبّه العادل . ثم طلب ميافرقين وحاني وجبل جور فوافق العادل . واقسم احدهما للآخر وانطلق الافضل الى صرخد وبعث ذويه ليتسلّموا ميافرقين . اما نجم الدين ايوب بن العادل فقد امتنع ولم يسلّم . وارسل الافضل الى العادل يخبره فاحتجّ العادل بان ابنه متمرّد وعاصٍ . ولما عرف الافضل ان ذلك اتفاق جرى بينه وبين ابنه اغمض وعدل عن ارسال وسيط في الامر .

وفي تلك السنة مات خوارزمشاه تكش بن الب ارسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان كالري وبعض بلاد الجبل وخلفه ابن قطب الدين محمد ودُعي علاء الدين باسم ابيه . وفي السنة عينها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

وفي السنة ٥٩٧ للعرب (١٢٠٠م) الغى العادل الخطبة للفتى الملك المنصور ابن الملك العزيز فاستاء الاقطاب وكتبوا الى الملك الافضل في صرخد والى اخيه الملك الظاهر في حلب وقالوا لهما : هلمّا الى دمشق واذا برز اليكما الملك العادل فنحن نعتقله وندفعه اليكما. وقد سمع العادل شيئاً من هذا القبيل فارسل

الى ابنه الملك المعظّم شرف الدين (٤٠٥) عيسى وهو في دمشق ليستعجل الى صرخد ويحبس الافضل في قلعتها . ففرّ الافضل الى حلب عند اخيه الطاهر وزحفا معاً الى منبج وهي للعادل واحتلاها واحتلّا كذلك قلعة نجم وانقلبا الى حماة فدفع لهما ناصر الدين بن تقيّ الدين ثلاثين الف دينار صوريّ فتركاها وتوجهـا في طريق بعلبكّ الى دمشق . وقرّرا كلاهما انهما متى احتلّا دمشق تبقى للافضل ريثما يذهبان الى مصر ويحتلّانها وبعد هذا يردّ الافضل دمشق الى الطاهر وتبقى له مصر. بناءعليه حاصرا دمشق وما كادا يحتلّانها حتى حسد الطاهر اخاه الافضل وقال له : يجب ان تبقى لي دمشق وانا ابعث معك جنودي لتذهب الى مصر وتستولي عليها . وقال له الافضل : انك تعلم ان امّي واهلي هم ضيوف في حمص على باب غيرهم وقد استحضرتهم من صرخد اليها واعطيتها لزين الدين قراغا عبد ابي ليساعدني . وعليه ارغب ان تترك لي دمشق لتستتر فيها النساء. ويلزمك انت كذلك ان تدافع عنهنّ ريثما نختار مصر. لكن الطاهر اعترض ولم يرضَ . ولمّا رأى الزعماء ما حصل بينهما من النزاع تركوهما وانطلق بعضهم الى العادل وبعضهم الى دمشق . واذ ذاك اتّفق الاخوان ووجّها الى العادل عمّهما في الصلح . واضاف العادل الى الملك الطاهر ما عدا حلب منبج وافامية وكفرطاب وبعض المعرّة. واضاف الى الملك الافضل سيساط وسروج وراس العين وجملين . ودخل الملك العادل دمشق وذهب كلّ منهما الى مركزه .

ولمّا كان الطاهر والافضل يحاصران دمشق حشد نور الدين جيوشه واخذ معه ابن عمّه قطب (٤٠٦) الدين محمّدًا صاحب سنجار وصاحب ماردين وانطلقوا لينتزعوا ما بين النهرين من آل العادل . وما ان بلغوا راس العين حتى دبّ فيهم المرض في الصيف . وكان الملك الفائز بن العادل في حرّان فأرسل الى نور الدين في الهدنة . وهذا لمّا بلغه اتفاق الافضل والطاهر والعادل ولا سيّما خبر المرض وافق هو كذلك على الهدنة . وتبادل الفريقان في الأيمان وعاد نور الدين الى الموصل وعاد كذلك كلّ واحد الى بلده .

وفي تلك السنة كان معزّ الدين قيصرشاه متولّيًا ملطية فزحف اخوه ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان وحاصرها وانتزعها منه في حزيران ١٥١١ لليونان

(١٢٠٠م) . وانهزم معزّ الدين قيصرشاه يريد الملك العادل حماهُ وهذا وجّهه الى الرها واعطاه مؤونةً . وسار ركن الدين من ملطية الى ارضروم وفيها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من البيوتات القديمة المالكة تلك المدينة وخرج الى لقائه معرباً عن مودّته وطاعته . لكن ركن الدين قبض عليه وسجنه واحتلّ المدينة . وانتزع قونية كذلك من غياث الدين كيكسر واخيه. وانهزم غياث الدين الى سوريّة وقصد الملك الظاهر صاحب حلب واخبره بما وقع مؤملاً نجدته . ولكنّه لم يستفد منه شيئاً فانتقل من عنده واختفى . وجعل يطوف من مكان الى مكان حتى انتهى الى قسطنطينية . وبالغ ملكها في اكرامه جدًّا وزفّ اليه ابنة احد بطارقته العظام . وظلّ هناك الى ان احتلّ الفرنج تلك العاصمة كما سنذكر ذلك. وعلى اثر الاحتلال سافر غياث الدين يريد حماهُ وهو صاحب احدى القلاع . فرحّب به وقال له : (٤٠٧) حسبي وحسبك هذا البلد ريثما يفرج الله تعالى . واقام هناك الى حين وفاة اخيه .

وفي هذه السنة صار غلاء. فظيع في مصر لان النيل لم يفض كعادته وأكل البشر جثث الحيوانات والبشر وتبع الغلاء الطاعون . وحدثت كذلك زلزلة قوّضت دورًا كثيرة واسوارًا شاهقة في دمشق وحمص وحماة وطرابلس وصور وعكّة والسامرة وبلغت الزلزلة بلاد الروم ولكنها لم تكن قويّةً في بلاد المشرق.

وفي السنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١م) سار خوارزمشاه محمد بن تكش الى خراسان وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين ومن اخيه شهاب الدين لانهما كانتا له . ولمّا سار الى خوارزم بسبب موت ابيه اخذهما غياث الدين . وقد ارسل اليه يقول : ما كنتُ اتوقع منك هذا بل ظننتُ انك تُنجدني وتقاتل الصينيّين ولكنّك أبيت ذلك وألحقت بي الضرر . غير ان غياث الدين لم يردّ اليه المدينتين المذكورتين صفوًا فزحف واخذهما عنوةً . ولم يستطع غياث الدين ان يعارضه بسبب داء النقرس الذي انتابه . وكان اخوه شهاب الدين يبارز يومئذٍ الهنود .

وفي السنة ٥٩٩ للعرب (١٢٠٢م) وجّه الملك العادل ابو بكر بن ايّوب صاحب مصر ودمشق جيوشاً كثيفة مع ابنه الملك الاشرف موسى الى ماردين وحاصرها ايّاماً كثيرة واحتلّ القرى والضواحي . فتوسّط بين الفريقين صاحب

حلب الملك الطاهر غازي بن صلاح الدين وعقد الهدنة بان يؤدي صاحب ماردين الى العادل مائة وخمسين الف دينار فضة قيمة كلّ دينار ستة دراهم ويخطب له ويكتب اسمه على الدراهم والدنانير. وقبض الملك الطاهر عشرين الف دينار من ذلك المبلغ وانتزع منه قرية قرادي ببلد شبكتان وترك الاشرف وانطلق.

وفي تلك الغضون كان التركمان يعيثون في البلاد (١٠٨) ويغزون حتى تعذّر على الناس السفر دون جنود وسلاح . وفي تلك السنة عينها عاد العادل فانتزع من الافضل ابن اخيه سروج وراس العين وجملين وانتزع منه الطاهر اخوه صاحب حلب قلعة نجم ولم يبق له الّا سميساط فقط . ولما رأى ان عمّه واخاه قد ظلماه بعث رسولًا الى ركن الدين سليمان بن الملك قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وأبدى له الخضوع وخطب وطبع الدراهم باسمه واصبح كواحدٍ من الامراء في بلاد الروم . ثم كتب الى امّه فقصدت الملك العادل وتوسّلت اليه ان يردّ لابنها ما انتزعه من يده من البلاد ولكنّه رفض توسّلها. هكذا عاقب الله سبحانه صلاح الدين بعد موته مثلما عاقب هو آل اتابك عندما ارسل اليه صاحب الموصل امّه وابنة عمّه ورفض توسّلها). وفي هذه السنة رحّل الملك العادل الملكَ المنصور ابن الملك العزيز من مصر وجعل اقامته في الرها مع امّه واخوته خيفةَ ان يبايعه المصريون بالملكة . (لها صلة)

اقوال المتكلمين العامّة ونقد القديس توما لها

(تابع) [٠]

بقلم ماجد فخري
استاذ في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن

٣ — القديس توما ونقده لمتافيزياء الاعراض

يتضح من هذه الدراسة التفصيلية للنظام الكلامي (لا سيما في زيه الاشعري) من خلال عرض ابن ميمون له في دلالة الحائرين. ان غرض المتكلمين الاول في تشييد هذا البنيان الفلسفي هو التوكيد على قدرة الله الكاملة واستقلاله بالفاعلية . فهذا النظام الفلسفي — مهما بلغ من الغرابة — انما هو الحلّة العقلية التي ارادوا ان يكسوا بها الرؤيا القرآنية للاله الجبّار ، الذي ليس كمثله شيء ، والذي يصرف شؤون خلقه كما يشاء استقلالاً واستبدادًا « فلا يُسألُ عمّا يفعل وهم يسألون »[١]. ولا شك ان

---

٠) راجع المشرق ، الجزء الثاني من السنة ١٩٥٣ ص ١٥١—١٧٣

١) القرآن ٢١:٢٣. هاك كيف يلخص الاشعري في فقرة هامة من كتاب الابانة عن اصول الديانة (ص ٩) العقيدة الاشعرية : « ونقول ان كلام الله غير مخلوق. وانه لم يخلق شيئًا الا وقد قال له : كن ، كما قال : (انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون). وانه لا يكون في الارض شيء من خير وشر الا ما شاء الله . . . وان احدًا لا يستطيع ان يفعل شيئًا قبل ان يفعله ولا يستغني عن الله ولا يقدر على الخروج عن علم الله عز وجلّ ، وانه لا خالق الا الله وان اعمال العباد مخلوقة لله مقدرة كما قال : (خلقكم وما تعملون). وان العباد لا يقدرون ان يخلقوا شيئًا وهم يُخلقون. ... وان الله يقدر ان يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه اراد ان يكونوا كافرين كما علم وخذلهم وطبع على قلوبهم. وان الخير والشر بقضاء الله وقدره وانا نؤمن بقضاء الله وقدره : خيره وشره حلوه ومره ونعلم ان ما اخطأنا لم يكن ليصيبنا وان ما اصابنا لم يكن ليخطئنا وان العباد لا يملكون لانفسهم ضرًّا ولا نفعًا الا بالله . »

راجع ايضًا احياء الدين ج ٤ — كتاب قواعد العقائد ص ٥ و٦

اما حول الدواعي التي دفعت المتكلمين الى اختيار نظامهم الذري المارّ ذكره فهاك ما

ما دفعهم الى هذا الغلوّ في الرأي هو حرصهم على اقرار وحدانية الله المطلقة – كما تبيّن الغزالي ، ومن وراء ذلك على صيانة كمال الله التام – وتلك اغراض حرية بكل اكبار . ولكن للباحث ان يتساءل في معرض تقويم هذا النظام الفلسفي ، ما اذا كان الاقرار باصالة الغرض اللاهوتي الذي قصد اليه المتكلمون يقتضي التسليم بالمقدمات الفلسفية التي يتذرعون بها ضرورة؟. – واول ما يلاحظ في الجواب على هـذا السؤال هو ان محاولة المتكلمين اقرار جبروت الله وقدرته المطلقة تنطوي على تناقض خطير . وهو ان المتكلمين – في وضعهم لمتافيزيا الاعراض ونفيهم لقدرة المخلوق على مشاركة الخالق في الفعل -- انما انتقصوا من كمال الله وجبروته من حيث لم يشعروا . لان هذا البناء الذي شادوه مسرحاً للارادة الالهية الجبارة هو بناء واهي الاركان ركيك الدعائم . فالمشهد الكوني الذي يتجلى للناظر حينما يتمثل هذا البناء وهذه الارادة هو مشهد يثير الدهشة : فالمتكلمون قد وضعوا الهاً جباراً تنفثت ارادته الخلاقة عن عالم من الاشباح والاخيلة التي لا حياة فيها ولا حول لها..

ويتخذ القديس توما أصالة هذا الغرض اللاهوتي نفسه – اي صيانة كمال الله – كنقطة ابتداء لنقده لاقوال المتكلمين . فاقرار كمال الله وجبروته امر جليل ، والقديس توما ليس بأقل من المتكلمين حرصاً على صيانة هذا الكمال وهذا الجبروت . الا انه يخالفهم في دعواهم أن هذا الكمال يقتضي ضرورة الغض من كمال المخلوق ، ويصر على العكس على « ان الانتقاص من كمال المخلوق هو بمثابة الانتقاص من كمال القدرة الالهية »[1] . فهذه القدرة – كما يريد المتكلمون – لا يفوت تأثيرها شاردة او واردة ، دانية او قاصية ، بل تبلغ الى جميع الاشياء مهما بعدت اغوارها ودقت اقدارها اذ هي جميعها خاضعة

يقول رينان (Renan) : « وكان هدف المتكلمين الاول هو اقرار القول بخلق المادة – خلافاً لاقوال الفلاسفة – وحدث العالم ووجود اله حرّ منفصل عن العالم (او مفارق له) ومؤثر فيه . وقد بدا لهم ان نظام الجواهر الفردة يتلاءم مع القضية التي ارادوا خوضها فاختاروه» – ابن رشد والرشدية ، ص ١٠٦ و٧. وكذلك مونك (Munk) في : Dict. des Sc. phil. الجزء ١٠ ص ١٧٥ وجيلسون Gilson في : Archives d'Hist. doct. et litt. du Moyen Age ، ١٩٢٦ – ٢٧) ص ١٠ .

١) الخلاصة ضد الامم – الكتاب ٣ فصل ٦٩ . ص٢٨٥ من طبعة روما اللاتينية ١٨٩٤

« لفعل السبب الكلي » لجميع الموجودات الذي لا يخرج شيء في الوجود عن تأثيره . ما دام هو المصدر لكل وجود[1] . ولكن ذلك لا يعني، كما يتوهم المتكلمون وسواهم من الذين يجردون الاشياء من قواها الطبيعية — ان المخلوق لا نصيب له في توليد الآثار الطبيعية على الاطلاق[2] . لاننا اذا فحصنا عن الادلة التي يحتجون بها وجدناها غير كافية في تأييد هذا القول ، لذلك كانت دعواهم ان الله متفرد بالفعل نوعاً من التشبث العنادي بالرأي وحسب .

١ — واول حججهم هذه هي قولهم ان جميع « الصور » — الجوهرية منها والعرضية — لا يمكن ايجادها الا على سبيل الخلق . لانه يمتنع ايجادها عن المادة ما دامت المادة ليست داخلة في تكوينها ، فلزم اذن ايجادها عن العدم — وذلك هو الخلق ، وهو فعل مقصور على الله وحده[3] . وكذلك الحال في كل

---

١) الفصل ٦٨ ، حيث يكتب القديس توما : « ان الله في كل مكان وفي كل شيء . . لا على سبيل التحيز المكاني .. » ولكن على وجه آخر : وهو « ان قدرته الخارقة تبلغ الى جميع الاشياء المتحيزة التي هو سبب وجودها الكلي » — ص ٢٨٢ وذلك ما يثبته في الفصل ١٥ من الكتاب ٢ . راجع ايضاً « الخلاصة اللاهوتية » القسم ١ السؤال ٤٤ الفقرة ١ وحول قدرة الله (De potentia Dei) السؤال ٣ الفقرة ٥ .

٢) راجع الخلاصة ضد الامم — ك ٣ ف ٦٩ — الموسوم : « في قول الذين يجردون الاشياء الطبيعية من افعالها الخاصة » ونقد القديس توما لا يقتصر على قول المتكلمين (Loquentes in Lege Maurorum) بل يشمل ايضاً : ١) قول افلاطون « لانه يعزو وجود الاشياء المحسوسة الى الصور المفارقة (اي المُثل) كما يروي ارسطو (Met. I, 3 (990a34 وكما في .Tim c. 10 الخ) ٢) وقول ابن سينا : لانه نسب الصور الجوهرية الى فعل العقل الفعّال والصور العرضية « الى استعدادات في المادة ناجمة عن فعل الاسباب السفلى » — راجع ,Met. IX 5 fol. 105 . والنجاة مصر ١٩٣٨ ص ٢٨١) و٣) ابن جبيرول (مؤلف كتاب ينبوع الحياة : Fons Vitae والمتوفي سنة ١٠٧٠ ؟) لقوله « ان الاشياء منفعلة لا فاعلة » — اولاً : لبعدها عن الفاعل الاول (وهو الله) اقصى البعد . ثانياً : لانه ليس دونها شيء منفعل يقع فعلها عليه . وثالثاً : لاختلاطها بالكم — اي الحجم — الذي يعوق الحركة (راجع Fons Vitae ص ٤٠ وص ١٧٧ — ١٧٩ مونستر ١٨٩٥ —) قابل حول قدرة الله ، سؤال ٣ فقرة ٧ — وفي الحقيقة (De Veritate) سؤال ٥ فقرة ٩ .

٣) الخلاصة ص ٢٨٣ . العبارة « الصور الجوهرية والعرضية » هي عبارة ارسطوية يقابلها في نظام المتكلمين « الاعراض » لانهم لم يقروا الا شيئين : الجواهر والاعراض ، والمتكلمون قالوا بخلق الاعراض والجواهر باستمرار ، كما مرّ . والقديس توما يخطئ

فعل آخر ، فيستحيل اذن ان يسند الى الاشياء اي فعل كان اذ مفهوم الفعل عندهم مساوٍ لمفهوم الخلق .

٢ — وحجتهم الاخرى ان اسناد الفعل الى الاشياء مستحيل لأن الاعراض يستحيل عليها الانتقال من جسم الى جسم . وما دامت جميع « الصور » عندهم اعراضاً — كما مرّ — فانهم زعموا انه يستحيل على الفاعل الطبيعي ان يولّد (induceret) في شيء آخر ، بفعل صورته ، صورة مماثلة لها ، كما يستحيل مثلاً انتقال الحرارة من جسم الى جسم . فلزم اذن بحسب قولهم ان يقال ان الله يخلق في الجسم الحارّ عرض الحرارة عند اقترابه من النار[1] . فاذا عورضوا بالمشاهدة وهي تدل على ان الجسم يصبح حاراً اذا وضع على مقربة من النار — ما لم يكن بينهما حاجز — وان ذلك يدل على ان النار هي سبب الحرارة الذاتي (causa per se) اجابوا : ان الله قد قضى (statuit) بأن تجري الاشياء بحسب هذا السياق (cursus) وهو « ان لا يحدث الحرارة قط الا بمجاورة

المتكلمين لعدم تمييزهم بين « الصور الجوهري منها والعرضي » وقولهم ان « جميع الصور اعراض » (قابل ما يقوله ابن ميمون — المقدمة الثامنة) اذ ينتج عن ذلك ان كون الاشياء الجوهري (esse substantiale) يصبح متقوّماً بالاعراض وهو محال . ولانه يؤدي الى استحالة «الكون والفساد»—اي في الموجودات ذاتها ، اذ الكون والفساد عند المتكلمين مما من فعل الله ، ويدعونها البقاء والفناء — راجع : حول قدرة الله سؤال ٣ فقرة ٧ — الجواب (respondeo) طبعة Mandonnet ، باريس ١٩٢٥ ص ٦٦ . وهو يشير باستحسان جزئي الى قول ابن سينا — المذكور اعلاه — ان الصور الجوهرية ، تصدر عن العقل الفعّال بينما الصور العرضية : « هي استعدادات في المادة ناجمة عن فعل الاسباب السفلى » . لانه نجا بذلك من الخطأ الذي وقع فيه افلاطون واصحابه — المشار اليه . الخلاصة المرجع نفسه . وكذلك الخلاصة اللاهوتية ١ — س ٤٥ ف ٨ — الجواب وس ١١٥ ف ٤ الجواب وس ٦٥ ف ٤

حول قول المتكلمين بانفراد الله بالخلق طالع ما كتبه المؤلفون الاشعريون في الرد على المعتزلة وقولهم ان الانسان خالق افعاله . الابانه ص ٦ و٩ (المقتطفة اعلاه) والملل ص ٣٠ والارشاد ١٠٦ الخ . والاحياء ج ٤ ص ٥ و٦ الخ .

١) قدرة الله — المرجع السابق والخلاصة ص ٢٨٤ . حول استحالة انتقال الاعراض راجع اصول الدين ص ٣٨ : « والاعراض لا يصح فيها تركيب ولا مماسة ولا انتقال من مكان الى مكان » — المقتطفة اعلاه ، والدلالة ص ق ٥

النار » — ولكن هذا لا يدل عندهم على « ان للنار نصيباً في حصول الحرارة »[١]

٣ — اما حجتهم الثالثة فهي قولهم ان الاعراض لا تبقى زمانين . ولما كانت جميع « الصور » اعراضاً عندهم — كما مرّ — « فصور » الاشياء اذن بحاجة دائمة الى « سببها الفاعل » الذي به قوامها — وهو الله . وهكذا زعموا ان الاشياء لا تستغني قط عن فعل الله الذي يحفظها في الوجود ، دون واسطة اي فاعل اخر ، لان الفعل من خواص الله وحده .[٢]

ويناقش القديس توما هذه الاقوال في موضعين هامين من كتبه هما الفصل ٦٩ من الكتاب الثالث من الخلاصة ضد الامم والسؤال الثالث من حول قدرة الله (الفقرة ٧) . ولكنه جدير بالذكر انه يعود اليها في اكثر المواضع التي يعالج فيها قضية الخلق او العناية او فعل الاشياء الخ من مؤلفاته الكبرى — كما يبدو من المراجع التي نثبتها في الهامش . وهو لا يقتصر في هذه المناقشة على اقوال المتكلمين بل يتعرّض لآراء جميع الفلاسفة الذين نفوا القول بالسببية

١) قدرة الله المرجع نفسه . قارن الدلالة ق ١ : « وليس ثمّ جسم له فعل اصلاً وانما الفاعل الاخير هو الله وهو الذي احدث السواد في جسم الثوب (المسود) عند مقارنة النيلج اذ هكذا تجري العادة » . والعبارة الاخيرة تقابل لفظة القديس توما statuit اشترع او قضى . كما ان مقارنة تقابل في العبارة التومائية (nisi apposito igne) كلمة apposito . راجع ايضاً الحقيقة س ٥ ف ٤ (الرد على الاعتراض الرابع) — ص ٣٤ طبعة Mandonnet باريس ١٩٢٥ — والخلاصة اللاهوتية ١ ، س ١٠٥ ف ٥ — الجواب

٢) الخلاصة ضد — ك ٣ ف ٦٥ ص ٢٧٩ . يشير القديس توما هنا الى قول بعض المتكلمين « ان الاجزاء التي لا تتجزأ (corpora indivisibilia) والتي تتركب منها جميع الاشياء . . . يمكن ان تبقى زماناً ما لو كان الله لرفع سلطانه عن الاشياء » — اي بذاتها استقلالاً عن فعل الله . ولا يذكر ابن ميمون هذه الامكانية بعينها ، ولكنها تلزم عن قول بعض المعتزلة الذين اقروا ببقاء بعض الاعراض القائمة في الجوهر دون بعض كما رأينا — فانهم زادوا — كما يقول القديس توما — « ان الاشياء لا تنعدم ما لم يخلق فيها الله عرض الفناء (accidens decisionis) » — كما رأينا . راجع الدلالة ق ٧٣ — حيث يخص ابن ميمون « خلق عرض الفناء في لا محل » . وهو قول الجبائي وابنه من المعتزلة — كما مرّ . اما ما يقوله القديس توما فهو ينطبق تمام الانطباق على قول الفلاني من الاشاعرة — كما يروي البغدادي — اصول الدين ٦٧

او جرّدوا الاشياء من قواها الخاصة – مثل افلاطون واصحابه وابن سينا وابن جبيرول – كما رأينا – وديمقريطس أبي المذهب الذري [1].

والقديس توما يعرض لهذه الآراء من خلال مشكلة فلسفية لاهوتية عامة: هي مشكلة التوفيق بين القول بعناية الهية كلية (Providence) والقول بصلاحية الاشياء للفعل. اذ الظاهر ان التسليم بالقضية الثانية يستلزم الاقرار بصلاحية الاشياء للفعل بالاستقلال عن القدرة او الارادة الالهيتين؛ بينا يفترض التسليم بالعناية الالهية الشاملة احاطة هذه القدرة وهذه الارادة بكل ما يحدث في الكون. والمتكلمون – انما اختاروا تضحية فاعلية الاشياء الطبيعية حرصاً على صيانة الكمال الالهي – كما رأينا.

في معالجة هذه المشكلة يجد القديس توما نفسه امام خطأين اثنين: الاول خطأ القائلين بنفي العناية: ان في شكلها العام – كما نجد من اقوال قدماء الدهريين – او في شكلها الخاص – كما نجد من اقوال ارسطو واصحابه الذين قصروا فعل هذه العناية على عالم « الجواهر المفارقة » منكرين تأثيرها في عالم « الكون والفساد » [2]. والثاني خطأ القائلين باستحالة اسناد اي فعل كان الى المخلوق لان الله هو الفاعل المباشر لكل شيء – كما رأينا من قول المتكلمين.

وهذان الخطآن يشتركان في خاصية واحدة، وهي انهما يعمدان الى حل المشكلة بما يمكن ان يدعى « بالبتر » او « الحسم ». لذلك يضع القديس توما

١) يدور نقد القديس توما لديمقريطس (في الخلاصة اللاهوتية س ١١٥ ف ١ الجواب) على تأويل الاخير للفعل والانفعال – على وجه شاذ لا يتفق مع القول بان للاشياء قوى ذاتية فهو «قد قال ان الفعل ينتج عن انطلاق الذرات من الجسم الفاعل، والانفعال عن دخول هذه الذرات في مسام الجسم المنفعل» – (كما يروي ارسطو (325ª33) De Gen. 1,8. وواضح ان هذا البند من النقد التوماني لا يمت الى النزاع الفلسفي العام الذي نحن بصدده.

٢) يدخل في الفريق الاول ديمقريطس والابيقوريون – الخلاصة اللاهوتية ١، س ٢٢ ف ٢ الجواب. وفي الفريق الثاني ارسطو وابن رشد خاصة – راجع In Sent. d. 39, Q.2 a.2 وحول قدرة الله س ٦ ف ١. ويضاف اليهم مذهب القائلين بالقضاء والقدر (Fatum) والذين زعموا ان «كل ما يحدث في عالمنا هذا خاضع لسببية الاجرام السماوية» الخلاصة ضد ٣، ٩٣ و٨٦ و٨٥ الخ.

ان عناية الله تمتد الى كل شيء في العالم فلا يخرج عن قضائه كبيرة او صغيرة[1]. ومع ذلك فهذه العناية لا تعني «ضرورة حتمية »[2] مثل التي قال بها الرواقيون والتي لا يبقى معها متسع لاقرار اي نوع من الجواز (contingentia) في عالم الاشياء غير العاقلة — او من الاختيار في عالم الموجودات العاقلة . لان الله يصرّف الاشياء بحسب طبائعها : الجائز منها على سبيل الجواز والضروري على سبيل الضرورة[3] . وهي لا تستلزم كذلك ان الاشياء تفعل في الكون بالاستقلال التام عن الله . فالأشياء الطبيعية جميعها انما تفعل بقدرة الله لانها تستمد منه الوجود اولاً والقدرة على الفعل ثانياً . فليس في القول بأن الآثار الطبيعية هي معلولة لله وللمخلوق معاً اي تناقض — كما يتوهم المتكلمون . ولنتحقق من ذلك يجب ان ننظر في طبيعة الفعل وفي معنى قولنا ان الشيء سبب لشيء آخر . وهذا النظر يفيد ان لفظة «السبب» تقال على عدة معانٍ — اولاً : يدعى الفاعل سبباً للاثر الطبيعي بأن يعطيه القدرة على الفعل — كما يقال ان الوالد هو سبب الجنين : اي انه يحرك المواد التي تفعل الجنين . ثانياً : بان يحفظ هذه القدرة في الوجود — كما يقال ان الدواء الذي يحفظ البصر هو سبب الرؤية ، ثالثاً : بان يحرك الفاعل الى الفعل . وما دام يستحيل على الشيء ان يحرك نفسه فقد وجب اسناد كل حركة في الكون الى « المحرك الاول » الذي لا يتحرك »[3] — كما يقال ان الانسان هو سبب القطع اذا حرك السكين

١) «يجب ان تقرّر ان الاشياء جميعها خاضعة للعناية الالهية، ليس على وجه عام وحسب بل وفي كيانها الفردي الخاص. . .» وايضاً — « ولكن فعالية الله (causalitas) — وهو الفاعل الاول — تمتد الى كل الموجودات. . . ليس الى الاشياء الازلية (اي غير الفاسدة : وهي الجواهر المفارقة في رأي ارسطو واصحابه) وحسب ولكن الى الاشياء الفاسدة ايضاً» الخلاصة اللاهوتية ١ ، س ٢٢ ف ٢ — الجواب وايضاً الخلاصة ضد ٣ ، ف ٧٥ و٧٦ و٦٤ .

٢) والتي تدعى في اليونانية - كما يشير القديس توما : Εἱμαρμένη (اي المقدور) — الخلاصة ضد ٣ ف ٧٣ .

٣) راجع ص ٢٦١ — الفصل ٧٢ الموسوم :« في ان العناية الالهية لا تحرم (excludet) الجواز عن الاشياء » والفصل ٧٣ : « في ان العناية الالهية لا تحرم حرية الارادة » .

٣) وهو الله ، في النظام الارسطوي — راجع Met XII. 1074ª — بالتمييز عن « المحرك الاول » الذي يتحرك ، ويدعوه ارسطو « الفلك الاول » — 8—1074ª35 و 1072ª24 — او « المتحرك الاول » Phys. VIII, 260ª2 .

فحزّت الشيء المقطوع . ولما كانت حركة جميع الاجسام راجعة الى حركة « الجرم السماوي »[1] – وهذه بدورها الى فعل الله لزم ضرورة عن ذلك ان الله هو سبب فعل الاشياء الطبيعية جميعها بتحريكه اياها . رابعاً : على وجه «المساهمة» (participation) – كما تساهم ، الالة مع الصانع في القدرة . فالفأس هي سبب ما يفعله الصانع ، ولكن ليس بقوّتها او طبيعتها هي بل بقوة الصانع وطبيعته . فلزم اذن ان جميع الاشياء ، تستمد من الله القدرة على فعل آثارها الخاصة – «لانه يستحيل على اي شيء طبيعي فرد ان يولد فرداً آخر من نوعه بفعله الخاص وبالاستقلال عن ذلك السبب الذي تحيط قدرته بالنوع (species) بكليته ، ناهيك بوجود ذلك المخلوق نفسه »[2] – اي الله .

فالله اذن هو « سبب الفعل في جميع الاشياء الفاعلة » ، لان جميع الاشياء الفاعلة تفعل بمقدار ما هي سبب لوجود ما ، عَرَضي او جوهري ، والله هو مصدر الوجود او الكون (esse) في جميع اشكاله ، فاليه يجب اسناد عامل الفعل في جميع الاشياء المتكونة[3] . ولكن ذلك لا يعني ان الله مستبد بالفعل – كما يريد المتكلمون ومن حذا حذوهم ، اذ هو قد اختار لفرط حكمته وجوده

---

١) يسلّم القديس توما ان الاجسام في عالما هذا خاضعة لفعل « الاجرام السماوية » على وجه الحركة – الخلاصة ضدّ ك ٣ ف ٨٢ والحقيقة س ٥ ف ٩ ص ١٤٣ – وهذه بدورها لفعل « العقول المفارقة » (اي الملائكة) – فصل ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ من الخلاصة ، ولكن لا على وجه الضرورة : ف ٨٦ . وهو يخالف « ما يدعيه المنجمون من تعريضها لافعال البشر بالتأثير على عقولهم وارادائهم » – ف ٨٤ و ٨٥ .

٢) هذا تلخيص لفقرة هامة من *De Potentia* (قدرة الله) س ٣ ف ٧ – الجواب . راجع حول النقطة الاخيرة الخلاصة ضدّ ايضاً : ٣ فصل ٦٥ – حيث يضع القديس توما هذه القضية بوضوح اكثر . فهو يثبت ان الفرد هو سبب توليد الفرد (من حيث فرديته وحسب) لذلك اقتضى ان يكون ثمّ سبب جوهري (per se) يكون بمثابة الفاعل « للنوع » الذي ينتسب اليه ذلك الفرد (اي انسانيته) . فالقديس توما اذن يميّز بين ناحيتين في الفعل : ناحية « الصورة » او « الماهية » او «النوع» – التي تجب نسبتها الى فعل الله وناحية «الفردية» (الناجمة عن التركيب بين المادة والصورة) والتي هي من فعل الفرد : « لأن الانسان الفرد ليس سبباً لانسان آخر إلا من حيث هو سبب لكون « صورة » الانسان في هذه المادة الخاصة » . .

٣) الخلاصة ضدّ ٣ ف ٦٧ و ٦٦ خاصة و ٢ ف ١٥ – الخ .

ان يدعوَ الاشياء الى المساهمة معه في الفعل بان فوّض اليها وظائف وافعالا خاصة، لكي يضمن النظام التام في الكون ويسبغ على الاشياء المخلوقة كمالاتها الطبيعية. فمثله اذن مثل السلطان الحكيم الذي يصرّف شؤون مملكته برفق وحكمة — « ويحكم الاشياء الدنيا بواسطة الاشياء العليا »[١] — « لا لقصور في قدرته بل لفيض في جوده، كما تساهم المخلوقات في شرف الفاعلية » (Causalitas)[٢].

وهكذا فالمتكلمون انما اخطأوا القصد حين انكروا فاعلية الاشياء جملة. لانهم في اسرافهم في التوكيد على كمال الله وقدرته وحطهم من شأن المخلوق انما هددوا هذا الكمال وهذه القدرة عينها. وهم بذلك قد انتقصوا من الجود الالهي: لان الها يُسبغ على الاشياء الوجود ويحرمها الفاعلية (اي مشاركة الاشياء الاخرى في الوجود الخاص بها) اله ضنين — وليس ذلك شأن الاله الكامل الذي لم يربأ عن اسباغ كماله على الاشياء: كمال الوجود وكمال الفاعلية[٣]. اما الادلة التي احتجوا بها في تأييد اقوالهم فهي لا تجدي نفعاً بل

---

١) الخلاصة ضد ٣، ف ٧٧ — راجع ايضاً حول حكومة الله للاشياء على سبيل التفويض هذا الفصول التالية حتى ف ٨٣.

٢) الخلاصة اللاهوتية ١، س ٢٢ ف ٣ — الجواب. راجع ايضاً الخلاصة ضد المرجع اعلاه، حيث يكتب القديس توما: « لاننا نجد في الله الحكمة التامة... فهو يدبر شؤون الموجودات جميعها حتى ادناها قدرًا... بواسطة القوى الدنيا التي يفعل من خلالها... — ومن شرف الحكم ان يكون تحت الحاكم وزراء ومنفذون شتى (يقرّون) سلطته. وكلما كثر عدد مرؤوسيه، على اختلاف مراتبهم، كلما بدا اتساع سلطانه وتمامه » — الفصل ٧٧.

٣) هاك فقرة من فصل ٦٩ من الخلاصة ضد الكتاب ٣ — تلخص هذه النقطة: « كمال المفعول يدل على كمال السبب الفاعل... والله هو الفاعل الأكمل، فوجب اذن ان تستمد الأشياء التي ابدعها الكمال منه. وهكذا فمن انتقص من كمال المخلوق فقد انتقص من كمال القدرة الالهية. لانه اذا لم يقم مخلوق ما بتوليد فعل ما فقد نقص كماله نقصاً كبيرًا. لأن الشيء انما يُفيض (communicare) كماله على شيء آخر لفيض كماله هو » — ص ٢٨٥. اما في تأييد النقطة الثانية فهاك ما يكتبه القديس توما (فصل ٧٠ ص ٢٨٨): « ومع انه كان بوسع الله ان يولّد جميع الآثار الطبيعية بنفسه (اي مباشرة)... فهو قد اختار ان يُفيض على الاشياء صفة التشبه به (suam similitudinem) ليس من حيث هي موجودة وحسب بل من حيث هي اسباب لأشياء أخرى ايضاً — لا لقصور في قدرته بل لفرط جوده (او

هي تؤدي الى هذه النتيجة نفسها: خذ قولهم الذي سبقت الاشارة اليه والذي يتلخص في دعواهم انه يستحيل ايجاد « صورة » من الصور الا على سبيل الخلق فيستحيل اذن اسناد اي فعل كان الى غير « الخالق » . فالذي دعاهم الى هذا القول هو رغبتهم في اثبات قدرة الله على حفظ الاشياء في الوجود على سبيل الخلق المستمرّ . فكأنهم اضمروا ان الله لا يستطيع حفظ الاشياء الا على وجه التدخل الدائم . وهذا القول ينطوي على غضّ من قدرة الله لانه يفترض ان الاشياء لا تفتقر الى فعل الله الا في « طور التكوين »[1] . اما حجتاهما الاخريان فتعودان الى تأييد الغرض نفسه : اي القول بضرورة تدخل الله المستمر لضمانة بقاء المخلوقات ، وتنطويان على ذلك الوهم ذاته . فالله قد خلق الاشياء واسبغ عليها وجودها الخاص منذ البدء ، ولكن هذا الوجود لا قيام له قط بالاستقلال المطلق عن فاعلية الله . لان الاشياء لا تستغني عن الله (سببها الفاعل الاول) لحظة واحدة رغم ما اغدقه عليها من خاصية الوجود الذاتي ، بل هي تفتقر الى فعله في طور تكوينها وفي جميع الاطوار اللاحقة من وجودها[2] .

خيره : bonitatis » – راجع ايضاً الفصل ٢١ (من الكتاب الثالث) الموسوم : « ان الاشياء تقصد الى التشبه بالله في كونها اسباباً » – وهذا المبدأ هو من أركان النظام التوماني لا سيما في ما يمت منه بنظرية الخلق .

١) فصل ٦٥ ص ٢٧٩ . راجع ايضاً فصل ٦٩ ص ٢٨٦ حيث يفنّد القديس توما هذه الدعوى كما يلي : « الشيء انما يكون بفعل (الفاعل) . فكما إن « الصورة » لا يقال عليها « الكون » (non dicitur ens) – كما لو كانت في ذاتها ، بل لأن المُركَّب (اي الفرد) يكون بها – فهي نفسها ليست تصنع اذن بل تأخذ في الكون لدى تحوّل المُركَّب من القوة الى الفعل – لأن الفعل هو والصورة شيء واحد » – ومعنى ذلك ان دعوى المتكلمين ان ايجاد «الصور» من لا شيء على سبيل الخلق هي نفسها موضع شك بحسب مقدماتهم – لأن كون «الصورة» نفسها تابع لكون «المركّب» والمركّب (اي الكائن الفرد الحاصل من تركيب المادة والصورة) هو ما يصح وقوع فعل الخلق عليه وحسب – راجع ايضاً الخلاصة اللاهوتية ١ ، س ٤٥ ف ٤ – الجواب) . ومن المعروف ان القديس توما يسلّم بوجود « صور » « أو مُثل » ازلية في عقل الله هي بمثابة نماذج الخلق الأولية – راجع الخلاصة اللاهوتية ١ ، س ١٥ ف ١ و ٢ وس ٤٤ ف ٣ وس ٨٤ ف ٥ .

٢) يثبت القديس توما في الفصل المار ذكره من الخلاصة ضد الامم انه: «يجب ان يكون سبب الأشياء وحافظها في الوجود شيئاً واحداً : اذ ان حفظ الاشياء في الوجود

ثم انهم الى ذلك قد اخلّوا بمفهوم الحكمة الالهية في قولهم ان المخلوقات لا تلعب اي دور في توليد آثارها الطبيعية . لان قولهم هذا يفترض ان الله قد خلق الاسباب الطبيعية عبثاً ، والعبث لا تصح نسبته الى الفاعل الحكيم[1] . فان احتجوا بقولهم ان وضع فاعلين حيث يكفي فاعل واحد يقتضي محالاً ، ويخلّ بمفهوم الحكمة الالهية ايضاً — اجبنا ان افعال الطبيعة نفسها تفترض الفعل الالهي ، كما تفترض سلسلة الاسباب (السبب الاول) الذي ليس لها بدونه قيام[2] . فالله قد كان قادراً على توليد الآثار الطبيعية جميعها دون اي واسطة ما[3] الا انه قد اختار ان يفعل من خلال الطبيعة لكي يحفظ النظام في الكون ولكي يمنح الطبيعة خاصة التشبه به كما مرّ[4] . فان قيل : ولكن في ذلك اخلالاً بوحدة النظام في الكون لما يفترضه من تعدد الفعلة ، اجبنا : ان جميع المخلوقات متجهة نحو الله من حيث هو خيرها الاكمل الذي تصبو اليه بطبيعتها[5] ، وفي ذلك الضمانة لوحدة الوجود والنظام في الكون . وفي اتجاه المخلوقات هذا نحو خير الاكمل سر فعاليتها ايضاً — بل سر وجودها وتعدد اصنافها . فالله قد ابدع الاشياء بحكم جوده المحض ، ولو امكن له ان يعبّر عن هذا الجود في مخلوق واحد لفعل . إلا « انه كان من المستحيل ان يمثل شيء

ليس إلّا استمرار وجودها . . . والله بعقله وارادته هو سبب وجود الاشياء جميعها . فهو يحفظها في الوجود اذن بعقله وارادته » — ص ٣٧٧ — ويختم هذا الفصل بقوله : « بذلك ندحض قول المتكلمين في شريعة المسلمين الذين وضعوا ان جميع «الصور» اعراض كي يتاح لهم ان يثبتوا أن العالم يفتقر الى الله كي يحفظه في الوجود ، ووضعوا ايضاً أن الاعراض لا تبقى لحظتين اثنتين ، كأن الاشياء هي في «طور التكوين» دائماً وكأنها لا تفتقر الى مسببها الفاعل إلا في طور التكوين وحسب» — ص ٣٧٩ .

١) الخلاصة ضد ٣ فصل ٦٩ ص ٢٨٤ وقدرة الله س ٣ ف ٧ — الجواب .

٢) فصل ٧٠ ص ٢٨٧ والجواب على المشكلة ص ٢٨٨ : من الخلاصة ضد .

٣) كما يفعل في المعجزات — راجع الفصول ٩٨—١٠١ ، لا سيّما الفصل ٩٩ الموسوم : « ان الله قادر على الفعل خارج السياق المفروض على الاشياء بتوليد الآثار دون اسبابها القريبة » والفصل ١٠٠ الموسوم : « ان ما يفعله الله خارج سياق الطبيعة ليس مضاداً للطبيعة » (*Praeter* naturae ordinem non *contra* naturam) .

٤) راجع الفصل ٧٠ ص ٢٨٨ .

٥) راجع خاصة الفصلين ١٨ و ٦٤ من الكتاب الثالث ، الخ .

مخلوق واحد كمال الجود الالهي » لذلك اقتضى « تجليه على وجوه شتى في مخلوقات متنوعة الاصناف »[1] وهذا هو سر تعدد المخلوقات في الكون. ومع ان الله لم يكن مجبرًا على الخلق – ان على وجه التعدد او على وجه الوحدة – الا ان اختياره الحرّ لان يخلق الكون كيما يعبّر عن خيره الكامل اقتضى اشاعة هذا الخير في الكون ضرورة الى ابعد حدّ: اي على وجه التنوع والتعدّد. وهذا التنوع بدوره اقتضى اختلاف صُور الاشياء. وطبائعها وموادها واعراضها الخ[2]. لذلك فليس تعدّد الاشياء وتنوع اصنافها ضربًا من العبث الالهي – كما زعم المتكلمون حين قالوا ان علة كل شيء، ومبدأه هما الارادة الالهية البحتة « وان النار تحرق مثلًا ولا تبرّد لان الله يريد ذلك وحسب »[3] – بل ان لذلك مبدأ آخر هو الحكمة الالهية التي سنّت للاشياء.

١) الفصل ٩٧، ص ٤٣٥.

٢) نثبت هنا المطى العامة في هذا الشأن كما نجدها في الفصل ٩٧:

أ – ان كمال الله وخيره اللامتناهيين اقتضيا التعدد في الاشياء لكي تعبّر هذه الاشياء عن الكمال الالهي الى ابعد حدّ ممكن. « لأن الخير الكامل الذي يوجد في الله على سبيل البساطة والوحدة، لا يمكن (تجلّيه) في المخلوقات إلا على وجوه شتّى في اشياء شتّى ».

ب – ان اختلاف «صور» الاشياء هو بمقدار قربها او بعدها من التشبه بالله « لأن اختلاف الصور هو نتيجة لكون الواحدة اكمل من الاخرى ».

ج – إن اختلاف «صور» الاشياء، هذا يقتضي اختلاف افعالها (operatio) « لأن الاشياء تفعل بمقدار ما هي بالفعل » والأشياء هي بالفعل من جرّاء صورها. (قابل: الخلاصة اللاهوتية ١، س ٤٨ ف ٥ الجواب، حيث يدعو القديس توما الفاعلية (operatio) الفعل الثاني في الاشياء و « الصورة » الفعل الأول: (Actus autem est duplex : primus est *forma* et integritas rei, actus secundus est *operatio*) ٢ وقابل ايضًا: قدرة الله س ١ ف ١ الجواب. والخلاصة ضد ١ ف ٢٢ الخ.

د – وهو يقتضي ايضًا « اختلاف نِسَبها الى المادة » لأن من « الصور » ما يحتاج الى المادة ومنها ما لا يحتاج ولأن بين الصور وموادّها تناسبًا ما (proportio) يقتضي ان يقابل « الصورة » الواحدة مادة معينة واحدة.

هـ – وعن اختلاف نِسَب المادة الى «الصُوَر» ينشأ الاختلاف بين «الفاعل» و «المنفعل»: لأن الشيء يفعل من جرّاء صورته، وينفعل من جرّاء مادته ».

و – واخيرًا ينشأ عن اختلاف هذه معًا – اي «الصور» والموّاد والفعل والانفعال – اختلاف الخواص والاعراض.

٣) الفصل ٩٧ من الخلاصة ضد ض ٤٣٨.

سنّة عاقلة واقرّت في الكون نظاماً شاملاً يضمن وحدة المخلوقات واتساقها .

ولكي نتلافى هذا الخطأ المزدوج: خطأ القائلين بالجواز المحض – كالمتكلمين – والقائلين بالضرورة – كالرواقيين – علينا ان نفحص عن الصلة بين الارادة الالهية والخير الالهي ونقرّر وجه الضرورة والجواز في تلك الصلة . والقديس توما يضع ان الله يريد « خيره الكامل » ارادة ضرورية ، ولكنه مع ذلك لا يريد الخليقة ارادة ضرورية – كما يزعم اصحاب الضرورة – لان الاشياء لا تضيف الى الخير الالهي شيئاً قط. فقد كان الله في البدء قادرًا على الكف عن خلق الكون اصلاً ، وقد كان قادرًا ايضاً على منح الاشياء مقادير وطبائع غير التي اختار منذ البدء ان يسبغها عليها ، لانه كان حرًّا منذ البدء في ما يريد وفي ما لا يريد . ولكن ذلك كله لا يعني – كما يتوهم اصحاب الجواز – ان طبائع الاشياء وخواصها منوطة بمحض الارادة والهوى الالهيين وان اختصاص شيء ما بطبيعة او فعل ما عائد الى ان الله اراد ذلك وحسب . فقضاء الله بخلق العالم في البدء وباسباغ الكمالات الخاصة بالاشياء على الاشياء لم يكن ضرورياً في البدء ضرورة مطلقة الا انه كان ضرورياً بالافتراض (per necessitatem suppositionis) اي اننا اذا افترضنا ان الله اراد خلق العالم منذ الازل فالخليقة كانت لازمة بالضرورة لان ارادة الله لا تتغير ، وكذلك اذا افترضنا ان الله اختار ان يسبغ على الاشياء كمالاتها الخاصة فاختصاصها بهذه الكمالات عينها ضروري ايضاً[1] .

---

١) يثبت القديس توما هذه القضايا الثلاث :

أ – أن الله يريد ذاته وخيره (suum esse et suam bonitatem) بالضرورة – لان ذات الله هي « المراد الاول » بحكم كونها « الخير الاكمل » – الخلاصة ضد : ك ١ – الفصول ٤١ ، ٧٣ ، ٧٤ و ٨٠)

ب – ان الله يريد ما سواه من الاشياء بمقدار ما يساهم معه في كمال الوجود والخير وبمقدار ما يصبو الى كماله هو (الفصل ٧٥)

ج – ان الاشياء هذه لا تضيف الى كمال الله شيئاً ، فهي ليست ضرورية لكماله لان نسبتها الى هذا الكمال نسبة الوسيلة الى الغاية ، والغاية لا تقتضي الوسيلة المعينة بالضرورة إذ يمكن الاستغناء عنها بسواها – الفصل ٨١ والخلاصة اللاهوتية ١ ، س ١٩ ف ٣ – وهاك كيف يلخص القديس توما هذه القضية : –

« للارادة الالهية صلة ضرورية بالخير الالهي لانه موضوعها الذاتي (proprium ejus

وليس يقتصر الوهن في النظام الكلامي على هذا التصادم بين مقدماتهم الفلسفية ومقاصدهم اللاهوتية . فانكارهم لفاعلية الاشياء يؤدي الى انكار المعرفة الحسية والنظرية انكاراً تاماً . اذ ما دامت الحواس لا تدرك المحسوسات ما لم تؤثر عليها هذه المحسوسات ، فمن المستحيل على الانسان ان يدرك الحرارة مثلاً ما لم تؤثر النار في حاسة اللمس عنده بتوليد « شبه الحرارة » (similitudo caloris) — اي صورتها فيه ، وهكذا في سائر الاثار المحسوسة . فلو كانت الحرارة ناجمة عن تأثير فاعل آخر غير النار — كما يزعم المتكلمون في نسبتهم الاحراق الى الله — لكانت « حاسة اللمس قد تشعر بالحرارة ولكنها لا تشعر مع ذلك بحرارة النار او بان النار متصفة بالحرارة » — وكل ذلك مناقض لشهادة الحس الذي « لا يخطئ في فهم موضوعه الذاتي »[1] . وهو يؤدي ايضاً الى ابطال « المعرفة الطبيعية » في جميع اشكالها . فلو صح قول المتكلمين ان الاثار الطبيعية ليست ناجمة عن فعل اسبابها الطبيعية ، بل عن فعل الخالق وحده ، لاستحالت معرفة القوى الخاصة بشيء ما ، ومعها معرفة طبيعة ذلك

(objectum...) لذلك يحب الله خيره بالضرورة ، كما نحب نحن سعادتنا بالضرورة . . . ولما كان الخير الالهي كاملاً وكان يمكن له أن يوجد من دون الاشياء الاخرى (ما دام لا يستمد منها كمالاً ما) فيلزم عن ذلك أن ارادته للاشياء الاخرى ليست ضرورية ضرورة مطلقة . ولكنها مع ذلك ضرورية « بالافتراض » : لاننا اذا افترضنا انه يريد شيئاً ما فليس بوسعه أن لا يريده لأن ارادته لا تتغير » — الخلاصة اللاهوتية س ١٩ ف ٣ — الجواب . قابل ايضاً الخلاصة ضد ك٣ فصل ٩٧—ومعنى ذلك ان وجود الاشياء ليس ضرورياً بالنظر الى ارادة الله الحرة ولكنه ضروري بالنظر الى واقع الخلق — اي ان الله اختار منذ البدء ان يخلق العالم على الوجه الذي قد اختاره . وواضح ان هذه « الضرورة الثانية » تحد من قدرة الله بحكم استحالة تغير ارادته وتفرض على الاشياء سياقاً لازماً إلا عندما يفعل الله خارج هذا السياق في المعجزات — كما رأينا . ويجب ان نشير هنا الى ان القديس توما في تقريره لحرية الله انما يستهدف « الافلاطونية المحدثة » وقولها بانبثاق الاشياء او صدورها (émanation) ضرورة عن ذات الله : راجع الخلاصة ضد ك ٢ — ف ٢٣ .

١) قدرة الله س ٣ ف ٧ — الجواب ص ٦٦— يقيّد القديس توما هذا التأويل للاتصال بين فعل المحسوسات وبين الحواس باستثنائه لحاسة البصر (لقول بعضهم ان الرؤية تحصل بخروج شعاع من العين الى الشيء المرئي) .

الشيء التي تستلزم تلك القوى والتي يبحث عنها العلم الطبيعي

ه

وهكذا فقول المتكلمين بالجواز البحت وانكارهم لفاعلية الاشياء توكيداً على قدرة الله واستقلاله بالفعل ينطويان على مهالك فلسفية هامة لانهما يؤديان الى ابطال المعرفة جملة والى اسناد السفه الى افعال الصانع الحكيم.

---

١) «فلو لم يكن للمخلوقات أثر في توليد الآثار الطبيعية لاستحالت معرفة طبيعة الشيء بآثاره وبذلك بطل «العلم الطبيعي» الذي يستخدم «القياس السببي» خاصة « in quâ praecipue *demonstrationes per effectum* sumuntur» – الخلاصة ضد ٣، ف ٦٩ ص ٢٨٥ .

يتفق هذا البند من النقد التوماني مع ما يقوله ابن رشد (المتوفي ١١٩٨)، في الرد على نقض الغزالي والأشعريه عامة للسببية – وهاك ما يقوله في التهافت في التشديد على النتائج الشكوكية لقول المتكلمين : «العقل ليس هو شيء اكثر من ادراك الموجودات باسبابها . . : فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل» – تهافت التهافت – بيروت ١٩٢٧، ص ٥٢٢ . وهذا يبطل العلم جملة، بل يؤدي الى ابطال تميز الاشياء واحدها عن الآخر : «وايضاً فماذا يقولون في الاسباب الذاتية التي لا يفهم الموجود إلا بفهمها فانه من المعروف بنفسه ان للاشياء ذوات وصفات هي التي اقتضت الأفعال الخاصة بموجود موجود، وهي التي من قبلها اختلفت ذوات الأشياء واسماؤها وحدودها. فلو لم يكن لموجود موجود فعل يخصه لم يكن له طبيعة تخصه ولو لم يكن له طبيعة تخصه لما كان له اسم يخصه ولا حدٌ، وكانت الاشياء كلها شيئاً واحداً ولا شيئاً واحداً» –ص ٥٢٠ . وهو يضيف الى النقد التوماني بنداً آخر وهو ان ابطال المعرفة «بالقياس السببي» يؤدي الى ابطال المعرفة بالصانع نفسه . فهو يقول : «وبالجملة متى رفعنا الاسباب والمسببات لم يكن هنا شيء يرد به على القائلين بالاتفاق اعني الذين يقولون لا صانع هنا . . . وأن وجود الموجودات على احد الجائزين، او الجائزات هو عن الاتفاق» – الكشف عن مناهج الأدلة، بمصر ص ٦٨ و ٦٥ . – وهو يؤدي فوق ذلك الى استحالة تقرير صفات «الصانع» بناء على معرفة افعاله : وهاك ما يقوله في هذا الصدد : «والاشعرية (باستثناء المعتزلة ص ٢١٨) جحدوا الأفعال الصادرة عن الأمور الطبيعية ونفوا مع ذلك ان يكون للاشياء الحية التي في الشاهد افعال . وقالوا أن هذه الافعال تظهر مقترنة بالحي الذي في الشاهد وانما فاعلها الحي الذي في الغائب . فلزمهم أن يكون في الشاهد حياة، لان الحياة انما تثبت للشاهد عن افعاله . وايضاً فمن اين ليت شعري حصل لهم هذا الحكم على الغائب» – التهافت ٢٢٠ . وهو يضع – كالقديس توما – ان قول المتكلمين بالجواز يؤدي الى ابطال حكمة الصانع في خلقه . «فلو ارتفعت الضرورة عن كميات الاشياء المصنوعة وكيفياتها وموادها، كما تتوهمه الأشعرية في المخلوقات مع الخالق، لارتفعت الحكمة الموجودة في الصانع وفي المخلوقات» –ص ٩٣ – راجع ايضاً – ص ٢١٩، ٤١٣، ٤٧٦، ٥٤٠ والكشف

وواضح ان المتكلمين لم يرموا الى هذا الهدف عمدًا ، بل هو مما اقتضته اوضاعهم الفلسفية . وفي تصحيح هذه الاوضاع يجب الاصرار على ضرورة تقييد مفهوم القدرة الالهية بمفهوم آخر ليس اقل منها خطرًا — هو مفهوم الحكمة الالهية[1] . لان في الانتقاص من الحكمة الإلهية — حرصاً على صيانة القدرة الالهية — انتقاصاً للكمال الالهي وتهديدًا لاسس المعرفة العقلية بل وفيه — كما رأينا من نقد ابن رشد للاشاعرة — خطر آخر : هو استحالة التوصل الى معرفة الصانع بالادلة الفلسفية . لان الفلسفة قد تدلل على وجود الصانع من احد وجهين : اما عن طريق صلته السببيّة بالكون (اي بالترقي من الآثار المخلوقة الى سببها الخالق) او عن طريق النظام الذي يشاهده الفيلسوف في هذا الكون[2] . والمتكلمون (لا سيما الاشعرية منهم) يبطلون هذين الوجهين

٣٢ و ٧٠ . وهذه المراجع لم تكن في متناول القديس توما لان ترجمة التهافت الى اللاتينية على يد «Calo Calonymus» ترقى الى اواخر القرن الثالث عشر — راجع رينان — ابن رشد ، باريس ١٨٥٢ ص ١٧١ . ومونك — خليط (Mélanges) ٤٣٥ ، إلا ان ابن رشد يعود الى هذه القضية في « شروحه » ، راجع مثلاً « تفسير ما بعد الطبيعة » — بويج — بيروت ٤٢-١٩٣٨ ج ١ ص٤٤ ، ٨٨٦ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ .

١) راجع الفصول ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من الخلاصة ضد الكتاب ٢ وقدرة الله س ١ ف ٥ — حيث يعرض القديس توما وجه الضرورة في الكون ، كما تقتضيه حكمة الله وعدله . وهو ينتقد في الفصل ٢٩ خطأ الذين « يحدّون من قدرة الله قائلين ان الله لا يمكنه ان يفعل خلاف ما فعل لأنه كان واجباً عليه فعله » وخطأ الذين يقولون : « أن الاشياء جميعها هي نتيجة لارادة الله المحضة دون اي علة اخرى » (absque aliqua alia ratione) — ص ١٤٩ . ويرى المستشرق الاسباني المشهور ميكال آسين إن القديس توما يعني بالفريق الأول المعتزلة ، وبالفريق الثاني الاشعرية (راجع : Mélanges Mandonnet — باريس ١٩٣٠ — المجلد ٢ ص ٦٤ وترجمته الاسبانية للاقتصاد ، مدريد ١٩٢٩ — ص ١٣ و ١٤) . ولكن يصعب التسليم بهذه الفرضية لان مصادرنا لا تبرز القول بأن القديس توما كان واقفاً على المشادة بين المعتزلة والاشعرية حول مسألة « العدل » والقول « برعاية الأصلح » . والواقع ان القديس توما يشير الى صاحب الخطأ الأول بالاسم في قدرة الله س ١ ف ٥ — الجواب . وهو « بطرس المالار » (P. Almalar) وهو يعني بالفريق الثاني المتكلمين عامة — كما رأينا .

٢) راجع ما يقوله ابن رشد في الهامش اعلاه . ويقوم اثنان من الادلة التومائية الخمسة على وجود الله — كما هو معروف — على التسليم بالصلة السببية بين الله كمحرك والكون كمتحرك له (الدليل الأول) أو كسبب فاعل (causa efficiens) والكون كمسبّب

معاً ، لانهم ينكرون صحة الصلة السببية بين الاشياء وآثارها – كما رأينا – فيستحيل اذن اعتمادها مبدأ للتدليل على وجود الصانع «كسبب فاعل» للاشياء.[1] ويرفضون الى ذلك الاقرار بان الاشياء في هذا العالم المخلوق انما هي تعبير عن ارادة خالقة حكيمة – في قولهم بالجواز . وفي كلا هذين الوضعين ما فيهما من الاساءة الى مفهوم اصيل لكمال الله وروعة خلقه.[2]

له (الدليل الثاني) . والدليل الخامس يقوم على النظر في «حكومة المخلوقات» او نظامها – ويسميه ابن رشد « دليل العناية » – الكشف ص ٧٣ . راجع : الخلاصة اللاهوتية ١ ، السؤال ٢ ف ٣ . ويلاحظ ان الدليلين الاولين يفترضان مبدأ له أهمية كبرى في الفلسفة التومائية هو «مبدأ القياس» (analogia) – والذي يبرّر عملية الترقي التي اشرنا اليها، خطوةً خطوة من سلسلة الاسباب الطبيعية التي تتصف بالتناهي الى السبب الاول المتصف باللاغاية . راجع خاصة – السؤال ١٣ من الخلاصة اللاهوتية . ومؤلّف «بنيدو» الهام : T. L. PÉNIDO — Le rôle de l'analogie en théologie dogmatique, Paris 1931

١) من الغريب ان الغزالي – رغم نقضه للسببية قدوة بعامة الاشاعرة – في التهافت (سؤال ١٧) لا يتنكب عن اعتمادها اساساً لاثبات الصانع في الاقتصاد – ص ١٢ حيث يكتب : «وجوده تعالى تقدس برهانه : ان نقول كلّ حادث فلحدوثه سبب ، والعالم حادث فيلزم منه ان له سبباً» . وهو يضع في التالي ان الاقرار بهذا الاصل «ضروري في العقل» . ولكنه يشرح انه لا يعني بالسبب إلّا المرجح اي «المرجح لوجوده (اي الممكن) على العدم» . والفرق بين الدليل التومائي وهذا الدليل هو ان صحة هذا الدليل مرتبطة بصحة قضية حدث العالم او قدمه التي لا يسلّم القديس توما وابن ميمون – كما مرّ – بامكان التدليل عليها عقلياً . لذلك لا يعتمد القديس توما مفهوم الحدوث او القدم في دليله – وهو يعتبر ان اثبات وجود الله مستقل عن صحة هذا المفهوم او خطأه . راجع مثلاً الخلاصة اللاهوتية ١ ، س ٤٦ والخلاصة ضد ك ٢ ، ف ٣١ الخ . وقدرة الله – س ٣ ف ١٧ .

٢) لعله من المفيد استقصاء جميع الشناعات (inconvenientia) التي تلزم عن انكار المتكلمين لفاعلية الاشياء – كما يوردها القديس توما في الفصل ٦٩ من الكتاب الثالث من الخلاصة ضد الامم . فهو يضيف الى النقاط الاساسية السابقة التي عرضنا لها ما يلي :

أ – القول بتفرّد الله بالفاعلية يؤدي الى استحالة تنوّع الآثار الطبيعية – بحكم كون فاعلها واحدًا .

ب – ويؤدي رفع فاعلية الأشياء الى رفع النظام والتساوق بين الموجودات : «لان الاشياء المختلفة بالطبيعة لا رابطة توحّد بينها سوى كون بعضها فاعلًا وبعضها منفعلًا» .

ج – اذا كان «للصورة العرضية» فعلها الخاص فن الأولى ان يكون «للصورة الجوهرية» فعلها الخاص ايضاً . «فالصورة الجوهرية» للسبب الفاعل هي مبدأ الفعل الذي

تتولد عنه صورة الشيء المفعول الجوهرية – «كما أن الصورة العرضية» هي التي تهيء المادة لتلقي فعل السبب المولد على سبيل التغيير (per alterationem).

د – ليس يلزم عن القول ان فعل الاشياء الطبيعية يتم بواسطة «الصفات الفاعلة والمنفعلة (وهي اعراض)» انه لا يصدر عن فعل هذه الاشياء سوى اعراض لأن الصورة الجوهرية بالاضافة الى المادة هي سبب الاعراض الخاصة جميعها. فلزم عن ذلك ان «الصور العرضية» نفسها قد تولد «صورًا جوهرية» – لأن فعلها راجع الى هذه الصور، ولأن نسبتها اليها نسبة الآلة الى الصانع الذي يفعل بها – وهذا يبطل دعوى ابن سينا المارة.

هـ – من السخف ان يقال أن الاجسام لا يصح اسناد الفعل اليها لأن الاعراض لا تنتقل من محل الى آخر. لاننا حين نقول ان الجسم الحار يولد الحرارة في جسم آخر فلسنا نعني ان الحرارة نفسها التي كانت في الجسم الحار الاول قد انتقلت الى الجسم الثاني. بل نعني ان فعل الحرارة التي في الجسم الاول جعل الحرارة التي كانت في الجسم الثاني بالقوة وحسب تصبح حرارة بالفعل ايضاً. وهكذا فأثر الفاعل الطبيعي ليس هو من حيث يعطي صورته الخاصة لجسم آخر بل من حيث يحوّل ذلك من القوة الى الفعل.

ويفنّد القديس توما دعوى «ابن جيبرول» الآنفة الذكر كما يلي: أ – ليس صحيحاً ان الكم تعوق الفعل إلا بالعرض (nisi per accidens) – لانها قد تؤدي احياناً الى الزيادة في قوة الفاعل لا الى النقصان. كما تؤدي ضخامة الجسم الحار الى شدة الحرارة الناتجة عنه مثلًا. ب – ليس يلزم عن القول بأن الجسم هو ادنى الاشياء في سلّم المخلوقات (ولذلك يستحيل عليه الفعل في ذات دونه) ان الجسم لا فعل له. لأن في جميع الاجسام مها انحطت في سُلّم المخلوقات ناحيتين اثنتين: ناحية الصورة، وهي مبدأ الفعل، وناحية المادة، وهي مبدأ الانفعال، في الاشياء الطبيعية. ج – وليس صحيحاً أيضاً ان الاجسام بعيدة اقصى البعد عن الله. لأن الله هو «فعل محض» (actus purus) فكانت الاجسام قريبة او بعيدة عنه بمقدار نصيبها من الفعل، اي بمقدار ما هي بالقوة او بالفعل. لذلك كانت المادة الاولى (materia prima) ابعد الاشياء عنه. أما سائر الاجسام فهي مركّبة من المادة والصورة فهي قريبة من الله بحكم صورتها. وهو يرد على افلاطون في قوله المذكور آنفاً كما يلي: ليس من الضروري ان كل ما كان ذا صورة بالمساهمة (participation) فيجب ان يستمدها مما هو صورة بالذات (essentialiter) مباشرة. لأنه يمكن ان يستمدّها مباشرة من شيء مماثل: اي ذي صورة بالمساهمة – وان كان هذا الشيء قد يفعل بقوة «الصورة المفارقة» – اذا سلّمنا وجود هذه الصورة – والقديس توما يسلم وجود هذه «الصور» بالتحفظ الذي اشرنا اليه قبلُ.

الرسالة المشفية للامراض المشكلة

في المراقيا

رسالة طبيّة خطيّة (تابع)

تأليف
أحد العلماء المتبحّرين وأمجد الفضلاء المدقّقين
أوحد زمانهِ وجالينوس عصرهِ وأوانهِ
الحكيم فيضي مصطفى افندي
عُنيَ بنشرها
الاب انطونيوس شبلي اللبناني

الفصل السادس

في بيان تقدمة المعرفة في هذه العلّة

إعلم ان هذه العلّة هي من الامراض المزمنة ، وان المتأخرين من الاطبّاء اللاتينيّين كسترطوس وزُيور وغيرهما من الحكماء قد سمّوا هذا المرض عيب الاطباء وعذابهم لكون هذه العلّة هي خلطٌ غليظٌ سوداويٌّ ، وظهورها هو سبب وقوع السُّدد في الاعضاء الهاضمة وسوء الأمزجة، لاجل ذلك كان علاجها عسرًا . فينبغي ان يكون تدبيرها بالرفق وملاطفتها بحسن التدبير . وان اكثر المبتلين بهذه العلّة قد تكون معدهم باردةً وفي كبدهم وطحالاتهم وعروق الماساريقا سوء مزاج حارّ فان تدبير وتعديل سوء أمزجة هذه الاعضاء لأمر عسيرٌ جدًّا . والطبيب اذا كان كاملًا يلزمهُ أن يعالج المريض زمانًا طويلًا بالتدريج حتى ان العليل يشاهد نوعًا من الفائدة . والمبتلون بهذه العلّة ان كانوا رجالًا فيعرض لهم دم البواسير . وان كانوا نساء فيعرض لهنَّ دمُ الحيض . ان ذلك لعمري علامة جيّدة ، الّا انه لا يكون مفرطًا حيث ينهك القوى . والرجال فيهم استعدادٌ لهذا المرض اكثر من النساء ، لانَّ الرطوبة غالبةٌ في أمزجة النساء ولكون كل شهر يخرج منهنَّ دمُ الحيض ، فالطبيعة تدفع الفضول . فالنساء

بالنسبة الى الرجال هنَّ أقلّ استعداداً لهذه العلّة . وان كان هذا المرض يظهر فيهنّ بسبب احتباس دم الحيض يكون عسير العلاج . وان كان المريض يرعفُ من أنفه الايسر ينتفع من ذلك أحياناً . والقبضُ في هذا المرض علامةٌ رديئة.

وأمّا اللينُ فعلامةٌ جيدة . وان كان يتقيّأ المريض دائمًا ولا يصير له هضمٌ فمن حيث انه لم يحصل له بَدَل مما يتحلّل قالوا : ان المريض يُبتلى بحُمّى تُشبهُ حمّى الدقّ وبسبب الهزال يهلك . وان كان يعتري المريض في هذه العلّة صداعٌ شديدٌ ويتمادى به فيُخشى عليه من الصرع والتشنّج والعمى .

وهذه الأعراض المذكورة قد يظهر أحدهـا في بعض المرضى وفي بعضهم اكثرها . وقد يعرض للمريض السكتة احياناً . وان كانت كبد صاحب هذه العلّة ضعيفةً فتكون سبباً لظهور الاستسقاء فيه احياناً . وان كانت العلّة في الجانب الأيمن فهي يسيرة العلاج سهلة . وان كانت في الجانب الأيسر فهي عسرة العلاج . وان كانت في الجانب الأيسر والأعراض كثيرة ايضاً وخصوصاً اذا كانت السوداء ناشئة عن صفراء محترقة فيعسر العلاج بزيادة . وأن كان الشحمُ تحت المعدة الذي يُقال له صفاق وهو تحت الصدر ، وبالعربي يُقال لهُ الثَّرب ، يعرض لهُ نفوذ ريح . فذاك الريح لا يمكن تحليلهُ بوجهٍ من الوجوه اصلاً ، فان كان في هذه العلّة يكون البول غليظاً فانّه أولى من ان يكون رقيقاً ، لانه اذا كان رقيقاً فهو دلالةٌ على عجز الطبيعة عن دفع الخلط الغليظ . وان كان البول أسود بلا حمّى فهو دلالةٌ على دفع هذه العلّة .

﴿ الفصل السابع ﴾

في بيان تدبير مرض المراقيا اجمالاً

اعلم ان اسباب أصل مادّة هذا المرض هما اثنان : الاوّل من تجمّع الأخلاط الفاسدة والغليظة في الأعضاء الهاضمة . الثاني هو من سوء المزاج والسدد الواقعة في الأعضاء المذكورة . فعلى هذه الحال فقد يجب اذًا على الطبيب بان يكون عالمًا باربعة قوانين في تدبير هذه العلّة لئلّا يضرّ العليل بسوء تدبيره .

القانون الأوّل : ان ينقّي الأخلاط الفاسدة بالرفق .

القانون الثاني : ان يعطي تقويةً للأعضاء التي ضعفت بسبب سوء المزاج ،

وان يستعمل الأدوية التي تُنعش الحرارة الغريزية في الأعضاء المأوفة .

القانون الثالث : ان يعدّل مزاج الأعضاء المأوفة حتى لا يتجدّد فيها توليد أخلاط فاسدة .

القانون الرابع : إنّ الأخلاط الغليظة التي أورثت في المجاري سدّةً فعرضت اليبوسة من حرارتها، ينبغي ان تُرطّب يبوستها بالأدوية المرطبة وتُقطع لزوجتها بالادوية المقطِّعة وتُفتح سددُها بالادوية المفتّحة .

وحاصل الكلام : ان علاج هذا المرض عسرٌ جداً لاجتماع الاضداد ، لأنّ اكثر اصحاب هذا المرض تكون معدهم باردةً وأكبادهم حارّةً . فينبغي ترقيق الاخلاط الغليظة التي في المعدة وتقطيع غلاظتها بالادوية المقطّعة . ومع هذا فانّ هذه الافعال تحصل من استعمال الادوية الحارّة . فعلى هذا الحال قد تقتضي فيه المبرّدات لاجل الحرارة الحاصلة في الكبد بسبب الاخلاط الفاسدة المحترقة والتهاب فم المعدة الاسفل الذي يُقال له البواب وسوء مزاج سائر الاعضاء الحارّ . فالطبيب الذي يباشر جمع مثل هذه الاضداد ينبغي ان يكون حاذقاً لكي يُحسن تدبيرهُ فيجد العليل خفّة علّته بمدّةٍ مديدة .

﴿ الفصل الثامن ﴾

في بيان علاج المراقيا السّوداويّة على وجه التفصيل

إعلم ان المبتلين بهذه العلّة تكون اكثر أخلاطهم سوداء ، والسوداء في ذاتها يابسة فاذا قصدتَ تنقيتها ينبغي ان يكون الدواء مرطّباً وملّيناً بالرفق . فانّ المسهّل القويّ يصير سبباً لاشتداد المرض ولربّما لهلاك المريض ، لانّ الادوية المسهّلة القويّة لا بُدّ ان يكون فيها سمّيّةٌ تُخرج من الأخلاط رقيقها بالعنف وبسبب حرارتها تُغلّظ غليظ الاخلاط ايضاً وتكون سبباً لابقائه .

ومع هذا فان الادوية المسهّلة القويّة هي عدوّة المعدة والكبد خصوصاً لانّ المعدة والكبد في هذه العلّة يكونان مأوفين . فاذا أُعطي المريضَ مسهلاً قويّاً يزداد الضعف وسوء المزاج الحارّ الذي يزيد في الكبد ايضاً .

ومن القواعد الكليّة ان جميع الامراض السوداويّة لا يجوز لها مسهلٌ قويٌّ لانها تُخرج قوى الاخلاط . وأمّا غليظها فيتحجّر مثلاً في حمّى الربع اذا أُعطي مسهلاً قويّاً قبل النضج فيحرّك السوداء . ولكونه يُخرج رقيقها ويُبقي

غليظها متحجرًا تصير حمّى الواحدة اثنتين. وأحيانًا تكون الحمّى خارج العروق فيصير ذلك سببًا لادخالها داخل العروق . فعلى هذه الحالة ينبغي استعمال المسهّلات اللازمة للامراض السوداويّة بالرفق .

ه

فمن صنعة حقنة متوسطة ، وهي هذه : يؤخذ ورق الخبازي ، وورق حشيشة الزجاج ، وورق البنفسج ، وورق الخطمي ، وورق السلق ، من كل واحدة قبضة . وملء فنجان شعير مقشور ، وثمانية دراهم بسفايج أخضر طري. مرضوض ، وأجاص أماسيا عشرين درهمًا . تُطبخ هذه الاجزاء المذكورة بماء على قدر الكفاية . وبعد طبخها يُؤخذ من مائها ٥٠ درهمًا ويُضاف اليها ١٠ دراهم عسل الخيار شنبر و ٢٠ درهمًا دهن لوز حلو ويُحتقن بها .

فان كانت هذه الحقنة لا تعمل عملًا كافيًا فلتكرَّر ثاني يوم دفعةً أخرى. وبعده ان كانت قوّة المريض مساعدة فليُفصَد قدر اربعين او خمسين درهمًا دمًا من الساعد الأيمن من عرق الكبد . وبعد ان يستريح يومًا او يومين فليستعمل الاحتقانُ المذكور يومًا او اثنين ، ثمّ يُراح يومًا ويُفصد كذلك من الساعد الأيسر من عرق الطحال . واذا كان سبب المرض هو من احتباس دم الحيض فليكن الفصدُ الثاني من الرجل اليسرى من الصافن . واذا كان من احتباس دم البواسير يُعلّق على المقعدة من جانب اليمين علقتان ومن اليسار علقتان ، وتبقى هذه العلقات الى ان تسقط من ذاتها . وبعد سقوطها يوضع في لكن ماء مسخّن على قدر الاحتمال الى نصفه ، ويوضع في داخله جَنق ويجلس المريض فوقه قدر نصف ساعة . وبعد ان يخرج منه قدر ثلاثون درهم دم ، يقوم عنهُ . ويوضع موضع العَلَق هذا المرهم لاجل قطع الدم . وهذه صفتهُ :

يؤخذ صفار بيضة ودم أخوين درهم واحد ، ودرهم ملح طرطير ، ودرهم بخار . وبعد سحق ونخل هذه الاجزاء تُخلط بصفار البيضة وتُطلى على قطعة خرقة وتُوضع على موضع العَلَق .

وان لم ينقطع الدمُ دفعةً واحدة فليُستعمل هذا المرهم دفعةً أخرى . وان كان لا يمكن وضع العَلَق والكبد يكون مأوفًا ، فليؤخذ مقدار ٥٠ أو ٦٠ درهم دم من الصافن من الرجل اليمنى . وان كان الطحال مأوفًا يؤخذ من

الصافن من الرِّجل اليسرى مقدار ٥٠ أو ٦٠ درهم دم .

وبعد راحة يومين يؤخذ ثلاثون درهم مَنّ افرنجي ويُذاب بمطبوخ ويُعطى له . أو ان يؤخذ عشرة دراهم عسل الخيار شنبر ويُضاف اليها درهم أنيسون مسحوق ويُعطى . لانّ الريح الذي في عسل الخيار شنبر يُصلحه الانيسون ، فلاجل ذلك تُستعمل الادوية الريحيّة .

وبعد الراحة يوماً او يومين يؤخذ مئة درهم ماء جبن خالص ، وثلاثة دراهم سنامكي ، ودرهمان أنيسون ، ودرهمان ملح طرطير الذي يُقال له قريموطرطو ، وتُنقع هذه الاجزاء كلّها في ماء الجبن اثنتي عشرة ساعة . وبعد تصفيتها تُشرب على الريق . وبعد ثلاث ساعات يتناول الطعام .

وهذه المسهلات كلّها منها ما يكون عمله بالرفق ، وهي تُستعمل في الامراض السوداويّة وغيرها . وما كان منها مناسباً لحالة المريض فليُستعمل بعد التأمل .

اعلم ايضاً ان سبب هذا المرض هو الاخلاط المحترقة السوداويّة فانها تُصعد ابخرةً رديئةً الى القلب والدماغ فتظهر اعراض رديئة كما تقدّم بيانه . فينبغي استعمال الادوية القلبيّة والدماغيّة في الايام التي يُترك فيها استعمال هذه المسهلات المذكورة آنفاً ، كهذا المعجون الذي يقوّي الاعضاء الرئيسيّة ويمنع صعود الابخرة اليها . وهذه صفته :

كابا شكر . خميرة البنفسج . خميرة زهر لسان الثور . مربّى قشر الكبّاد السكّري . من كلّ واحد عشرة دراهم . مربّى املج درهمان . مربّى كابلي درهمان . معجون القرمز خمسة دراهم . قرن الأيّل مدبّر درهمان . بادزهر مانّي درهمان . سفوف ديارورزون درهمان . لؤلؤ مدبّر مثقال . مرجان مدبّر مثقال . عنبر درهم . مسك درهمان . ورق ذهب خمس دستات .

تُعجن هذه الاشياء بشراب التفّاح الحلو ويُستعمل منها بقدر الشاهبلّوط[1] على الريق ، ويُشرب عليها قدر فنجانين من ماء السقورزونّه ، وماء لسان الثور ، وماء البدرنجبويه . وتخلط المياه المذكورة بعضها ببعض وتُشرب على المعجون . وبعد ساعتين يُستعمل الغذاء . ويجب ان تغسل رِجلا العليل بماء حارّ الى ركبتيه وتُدلكا ، فان ذلك يمنع صعود البخار الى دماغه وقلبه .

١) الشاهبلّوط : قمح كبير .

وان لم تكن الحرارة زائدةً ، أو كانت معدتهُ باردةً بزيادةٍ ، فليأخذ من المعجون المفرّح المذكور عشرة دراهم . وعشرة دراهم من المفرّح الياقوت الحارّ . وعشرة دراهم دواء مسك . تُخلط هذه الاجزاء بعضها ببعض ويستعمل منها على الريق بقدر الشاه بلُّوط ويشرب عليها فنجانين من المياه المذكورة . وبعد ساعتين يتناول الطعام .

ه

وقد اتفق جمهور الاطباء اللاتينيين في الامراض السوداويّة وقالوا : اننا جرَّبنا كلّ المفرّحات بعد التنقية فوجدنا ان الذين داوموا البادزهر الماني وشربوا عليهِ من المياه المذكورة خلصوا باذن الله تعالى ، من كون البادزهر يقوّي القلب ويفتح السدد وهو بالاخص عظيم النفع في الامراض السوداويّة .

أمّا طريقة استعمالهِ : انهُ بعد التنقية والفصد يؤخذ نصف درهم بادزهر ماني ويُسحق في هاونٍ من فضّةٍ ويُحلّ بماء الورد ويُشرب . وعلى هذا المنوال يداوم استعمالهُ قدر عشرين يوماً او ثلاثين . وهذا المطبوخ ايضاً يُعدّل بسوء مزاج الاعضاء المأوفة فيفتح سددها وينضج الخلط السوداويّ .

صفتهُ : يؤخذ من الهليون وعِرق الانجيل ، وأصل الهندباء . من كلّ خمسة دراهم . وغافت ، وحشيشة الذهب ، وبرشاوشان[1] ، ولسان الثور ، من كلّ نصف قبضة ، ودرهم من ملح الطرطير . تُطبخ هذه الاصناف بمقدار الكفاية من الماء مع فرّوجٍ يُغلى معها سويّةً حتى ينضج ويُصفّى الماء ويُشرب سخناً كالقهوة على الريق مدة سبعة ايام متوالية .

وهذا المطبوخ يُجدَّد كل يوم . واذا عرض مع شربه قبضٌ تُستعمل الحقنة المذكورة آنفاً على ثلاثة ايام متوالية . أمّا في اليوم الثامن فليُستعمل الملين المركّب بماء الجبن المقدّم ذكره في الفصل الاول . وبعد ثلاث ساعات يُؤكل الطعام او تُستعمل عشرة دراهم من معجون الكاتاليكون ويُشرب عليهِ مقدارٌ من ماء الجبن . وبعد ثلاث ساعات يتناول الطعام . وبعدهُ يستعمل المطبوخ الذي فيهِ الفرّوج ويُشرب عليهِ ماء الجبن كالاوّل . او يُستعمل معجون الكاتاليكون كما تقدّم القول .

---

١) البرشاوشان : كزبرة البير .

وان كان المريض تناول المطبوخ الذي بالفرُّوج فليستعمل هذا الشراب .

وهذه صفتهُ : يُؤخذ من أصل لسان الثور، ومن اصل الهندباء ، والهليون ، والحماض ، من كلٍّ خمسة دراهم . وورق طرفاء ، وغافت ، وحشيشة الذهب ، وورق الخسّ ، وبرشاوشان ، وشاهترج ، ولسان الثور البستانيّ والبرّيّ ، من كلٍّ نصف قبضة . وبزر بطيخ ، وجبس ، وخيار ، وقرع مقشورة . من كلٍّ ثلاثة دراهم . ودرهم أنيسون ، ودرهم رازيانج ، وأربعة دراهم بسفايج مرضوض ، ودرهمان أفتيمون .

تُطبخ هذه الاشياء المذكورة بمقدار الكفاية من الماء ، وبعد تصفيتها ، يؤخذ درهم ونصف راوند، أو درهم ونصف قرص غاريقون، ودرهم دارصيني، ودرهم سنبل هندي . تُنقع هذه الاشياء بالمطبوخ المذكور من الماء حتى الصباح وبعدهُ تُصفَّى ايضاً ، ويُضاف اليها عشرون درهم من الشراب الديناري وتُشرب على الريق دفعةً واحدةً . وبعد ثلاث ساعات يتناول الطعام .

ف

واعلمْ انهُ اذا كانت آفةٌ في اكباد المبتلين بهذه العلّة، فيجب ان يشربوا ماء الجبن بهذه الصفة وهي :

يُؤخذ درهم ونصف راوند منقوع مصنَّع مع عشرين درهم مكرَّر الورد كما مرَّ آنفاً . وان كانت الآفة في جانب الطحال يُشرب هذه الصفة وهي :

يُنقع درهم ونصف غاريقون بماء الجبن اثنتي عشرة ساعة ويُصفَّى ويضاف اليه خمسة عشر درهماً مَنَّ افرنجي ويُسقى على الريق . وبعد ثلاث ساعات يتناول الطعام .

وقال ديزيو الطبيبُ اللاتينيُّ : ان مطبوخ الديك الهرم كثير النفع في هذه العلّة .

وصفتهُ : اصل هليون . اصل كِبَر . ورق طرفاء ، من كلٍّ خمسة دراهم . سقولو قندريون . برشاوشان ، من كلٍّ قبضة . انيسون . حبّ أترج ، من كلٍّ درهم . ستامكي اربعة دراهم . بسفايج خمسة دراهم . أفتيمون ثلاثة دراهم . دارصيني نصف درهم . قريعوطرطو درهمان . يُطبخ مع ديك هرم ويُغلى بماء على قدر الكفاية حتى يهترئ الديك ويصفَّى ويشرب على الريق .

وبعد ثلاث ساعات يتناول الطعام ويُدبَّر بعد استعماله كتدبير باقي الاستفراغات. ثمَّ يدخل الحمَّام المعتدل الحرارة فانهُ نافعٌ للغاية .

ورُويَ عن جالينوس الحكيم : ان الحمَّام القديم البناء ، العذب الماء ، المعتدل الحرارة ، ينفع اصحاب هذه العلَّة نفعاً بليناً خصوصاً اذا أُضيف الى مائهِ طبيخ هذه الاجزاء وهي : الخسُّ . وورق البنفسج . والشعير المقشور. والتفَّاح المسكيّ . وما شاكل ذلك بشرط ان لا يطيلوا المكث في الحمَّام .

ثمَّ تُدهن المعدة بهذه الادهان وهي : دهن الافسنتين . ودهن مستكي. ودهن جوزبوا مفردة ومجموعة .

واذا كانت الآفة في الكبد يُفتح كيٌّ في الساق في الجانب الايسر ، ليكون منفذاً للاخلاط الفاسدة المتولّدة يوماً فيوماً .

وان لم يفِ ذلك لتراكم الاخلاط الفاسدة فليستعمل هذا الشراب .

وهذه صفتهُ : عصارة لسان الثور البرّي والبستانيّ . عصارة هندباء . عصارة خسّ. عصارة مشهترج. عصارة حمّاض . عصارة تفّاح . عصارة بادرنجبويه. من كلّ ثلاثة دراهم . عصارة بسفايج مشة وخمسون درهماً . وبعد تصفيتها يُنتقع فيها عشرون درهم سنامكي . وأربعة دراهم افتيمون يوماً وليلةً ويُصفّى على ثمانية دراهم غاريقون ودرهم زنجبيل ودرهم قرنفل مسحوقين . ثمَّ يُترك اثنتي عشرة ساعة ويصفّى على ثمانية دراهم راوند ، ودرهم سنبل هندي وثلاثة دراهم سكّر ويُصفّى ويقوَّم شراباً . والشربة منهُ خمسة وعشرون درهماً بماء لسان الثور وماء الكرزونيا .

وان كان العليل ضعيف القوى لا يقدر على استعمال المسهّلات ، فليستعمل الحقنة المتوسطة المذكورة في اول باب العلاج ، كل ثلاثة ايام دفعة . فهي جليلة النفع لان مادَّة هذا المرض السودا، وذات السودا، يابسة غليظة. فالحقنة المتوسطة ترطّب اليبوسة وتُخرج المادة بسهولة وتعدّل الحرارة العارضة للاعضاء المأوفة ولا تضرُّ بالقوى . حتى ان ديرُيو الحكيم يقول : اننا عالجنا اكثر اصحاب هذه العلّة بالعلاجات المتنوّعة فلم تفدهم شيئاً فداومناهم بالحقنة المتوسطة الملينة فبرئوا.

٥

واعلم ان المبتلين بهذه العلّة اذا شربوا ماء الجبن بعد التنقية في فصلي الربيع

والخريف فانهُ ينفعهم غاية النفع، لانَّ ماء الجبن يغسل الاعضاء الباطنة ويسهل برفق ويفتح السدد ويعدّل سوء المزاج الحارّ الكائن في الاعضاء الباطنة. وحكماء اللاتينيّين رووا بانه يجوز الشراب من ماء الجبن مئتي درهم.

وانا الفقير[1] لم استصوب الشرب منهُ أزيد من مئة وخمسين درهماً، لانَّ زيادتهُ باعثةٌ على الكراهة. ولكنَّ البعض يقدر على شرب الكثير، وانما هذا خارجٌ عن صددنا.

وطريقة شرب ماء الجبن هو ان يوضع نصف درهم دارصيني في مئة وخمسين درهم ماء الجبن لدفع الضرر عن المعدة وليشرب منهُ فاترًا دفعة واحدة. وبعد مرور ساعة يستعمل عليهِ المعجون المفرّح المقدّم ذكره سابقًا بقدر الشاهبلوط[2]. وبعد ساعة أخرى يباشر الطعام.

وان بعض اصحاب هذه العلّة يعرض لهم الهزال. والمقول عن ديريو الحكيم وجان قوزون، بحيث انهُ يجب شرب لبن الأتن بعد التنقية قالوا: اننا سقيناهُ لكثيرين فشاهدوا من شربهِ الفائدة عيانًا.

وانا الفقير رأيتهُ مناسبًا بزيادةٍ. واستعمالهُ هكذا: هو ان تحتلب اللبن[3] وقبل ان يبرد يضاف الى كلّ اربعين درهم منهُ عشرة دراهم من السكّر ويشرب على الريق مدة اربعين يومًا فانَّ بهِ فائدةً عظيمة.

ف

واعلم ايضاً انهُ اذا لم تندفع السدد التي في الكبد والطحال وعروق الماساريقا بعد هذه التنقية فلتوضع على العضو المألوف الكمادة وهي:

يؤخذ أصل هندبا. وغافت. وأصل رازيانج. أصل هليون. افسنتين. ورد. خطمي. خبّازى. من كلّ قبضة. وتُغلى هذه الاجزاء بماء على قدر الكفاية الى ان يذهب النصف. وقبل ان يبرد الماء يُلتقط بقطعة اسفنجة جديدة وتُكمد على الكبد. ويكرّر هذا العمل دفعات متعددة. وبعدهُ يُنشّف المحلّ. ويؤخذ من هذه الادهان المخلوط بعضها ببعض ويُدهن بها سخنةً. وهي هذه:

---

١) الضمير عائد الى الحكيم فيضي مصطفى افندي مؤلف هذه الرسالة.
٢) قمح كبير، وقد مرَّ تفسيرها.
٣) اي الحليب.

دهن افسنتين . دهن ورد . دهن دجاج . دهن أوز . هذا اذا كان تحت المعدة ورمٌ او صلابةٌ فتُعمل الكمادة والدهن المقدَّم ذكرهما المختصَّين بالكبد.

واما اذا كانت العلّة في الطحال فيُعمل هذا الكماد . وهذه صفتهُ :

أصل قبّار . أصل كرفس . أصل بقدونس . اصل رازيانج . بنجنكشت . خبّازي . خطمي . من كلٍّ قبضة . طرفا . قبضتان .

تُغلى هذه الاعشاب بماء وخلّ خمر بالسويَّة على قدر الكفاية . وبعد ان يُكمَّد بها على المنوال الذي ذكرناهُ ، يُدهن بهذه الادهان وهي :

دهن كبر . دهن افسنتين . دهن ورد . دهن زنبق . دهن دجاج . دهن وز .

تُطبخ هذه الادهان بأوقيَّة خلّ خمر ويُلقى عليها مقدار قبضتين أصل خطمي مرضوض ويُطلى موضع الطحال بهذه الادهان المذكورة ، فانها تُلين السّدد وتحلّ الاخلاط الغليظة .

وفي اثناء استعمال الكماد والادهان لا بدَّ من استعمال الحقنة المتوسطة الملينة الخفيفة في كل خمسة او ستة ايام دفعةً واحدة ، حتى يلين العضو المألوف بتكرار الكماد والادهان بالتدريج وتخرج الاخلاط بالحقنة .

وان توسّعه الحكيم يمدح هذا الحَبَّ في علاج هذا المرض ، لأنَّهُ يُخرج الاخلاط الفاسدة بالرفق والسهولة ويفتح السّدد . وهذه صفتهُ :

يؤخذ سنامكي مسحوق درهم . ملح طرطير درهم . دار صيني دانق .

تُعجن هذه الاجزاء بشراب الليمون وتُعمل حبوباً . والاستعمال منها مقدار نصف درهم على الريق . وبعد ساعة او ساعتين يستعمل الطعام فيعمل مجلسين او ثلاثة .

وانا الفقير استصوبتُ هذا الحَبَّ بزيادة واستعملتهُ في هذا المرض كثيراً وشاهدتُ فائدتهُ عياناً ، لانَّ ملح الطرطير يُخرج السوداء ويُصلحها ايضاً . والدليل على ذلك هو انه اذا ألقيت منهُ مقداراً في الخلّ فانهُ يُزيل حموضتهُ بالكليَّة من حيث ان فائدتهُ تبين في اخراج السوداء .

٥

وان بعض الحكماء اللاتينيّين مدحوا عصارة الافسنتين في هذا المرض وهذه صفة عملها :

وهو ان تُصفى عصارة الافسنتين وتطبخها على نار لينة حتى تصير في قوام العسل وترفعها في مرطبان وتأخذ منها احياناً وتخلطها بالأشق وتعملها حَباً.

وانا الفقير امدحُ هذا الحَبَّ ايضاً اذا كانت العلّة في الطحال لكون الافسنتين مرّاً ، والمرُّ ينفع الطحال بمرارته خصوصاً لانهُ يناسب الكبد والمعدة ايضاً بزيادة . والاشق هو من ادوية الطحال كونهُ يفتح السدد ويُذيب لزوجة الخلط . وبعضهم رأى ان مداومة استعمال مطبوخ الافسنتين بعد التنقية مناسبٌ جداً .

وانا الفقير رأيتهُ مناسباً ايضاً . ولكن ينبغي ان يكون طبخهُ على هذا المنوال :

يؤخذ الافسنتين . وورق لسان الثور . وأصل لسان الثور . وبادرنجبويه . وهندباء . من كلٍّ قبضة . تُطبخ بماء على قدر الكفاية . ويؤخذ من الماء المطبوخ عشرون درهماً وتُضاف اليه خمسة دراهم من السكّر ويُستعمل على الريق . وفائدة هذا المطبوخ أولى وأحرى من مطبوخ الافسنتين وحدهُ . وقد يعرف ذلك من كان لهُ درايةٌ في احوال المركّبات ، لانَّ الافسنتين في هذا المطبوخ ينفع الكبد والطحال والمعدة . والهندباء تعدّل حرارة الكبد وتفتح . والبادرنجبويه ولسان الثور يُنضجان الخلط السوداويَّ ويقوّيان القلب ويحفظان الاعضاء الرئيسيّة .

وأمّا الافسنتين بمفرده فلم تكن لهُ هذه الفوائد كلّها .

واعلم ان اكثر المبتلين بهذه العلّة تكون طبائعهم مصابة بالقبض كما بيّنّاهُ آنفاً . فيقتضي اذاً لهم التليين ببعض الأدوية الملينة الخفيفة . فتارةً بالخيار شنبر . وتارةً بمعجون الكاتوليكون . وتارةً باستعمال السنامكي بماء الجبن المحرّر سابقاً .

٥

والمنقول عن منطوبا الحكيم : ان من استعمل على الريق ثلاثة دراهم من التمرتينا الساقريّة المغسولة بماء الهندباء او بماء الورد أو بالماء القراح مع ماء لسان الثور دفعةً واحدةً او اثنتين ، في كلّ سنةٍ ، فانها تنفعهُ ايضاً لانَّ التمرتينا تُلينُ وتُحلّلُ البلاغم الغليظة التي في المعدة وتنظّف المعدة وتنقي الاخلاط الغليظة التي في المجاري وتفتح السدد وتعمل إدراراً من غير ان تضرَّ بالكبد .

وان كانت السدد التي في الكبد والطحال وعروق الماساريقا لا تنفتح بهذه العلاجات المقدَّم ذكرها ، فليستعمل هذا الحبّ . وانا الفقير قد جرَّبتهُ نشاهدتُ زيادة نفعهِ في تفتيح السدَّة . وهذه صفتهُ :

يؤخذ غاريقون ابيض درهمين . راوند درهمين . سنبل هندي . دارصيني ، من كلٍّ نصف درهم . تُعجن هذه الاجزاء بمقدار الكفائة من الترتينا وتحبَّب ، والاستعمال منهُ درهمٌ في كلِّ يومين أو ثلاثة .

ه

والمنقول عن زوفوتهُ الطبيب البرتوغالي ، من عمدة الاطباء اللاتينيين المتأخرين . قال : انني عالجتُ المبتلين بهذا المرض علاجات متنوّعة ، واذ كان المرض فيهم عسر العلاج في الغاية لم يجدوا شفاء . وحيث لم يظهر اثر لتدبيري في علاجهم اصلًا ، حزنتُ لذلك كثيرًا . قال : انني عالجتهم بعد ذلك بقرص سنّ الفيل الذي يقال لهُ العاج وداويتهم بهِ مدَّة اربعين يوماً فشفى ما بهم من المرض باذن الله تعالى ، لانَّ فوائد العاج كثيرة وتفريحهُ للقلب عظيمُ التأثير ، وليس لهُ نظير في تفتيح السدَّة التي هي من اعظم اسباب هذا المرض . وهذه صفتهُ :

يؤخذ من سنّ الفيل (العاج) ثلاثون درهماً مبرودةً بالمبرد بردًا ناعماً جدًّا . ومئة وعشرون درهماً من السكّر ، تُطبخ بماء الزهر حتى تصير في قوام الرُّبّ وتُلقى عليهِ البرادة وتُعمل اقراصاً ، والاستعمال منهُ خمسة دراهم في كلِّ يوم على الرّيق ويُشرب عليهِ فنجان ماء الاسقروزنارا وماء البادرنجبونه مخلوطاً .

وقد اتفق جمهور الحكماء اللاتينيين على ان الامرأة التي لم تحمل من قبل جريان حيضها ، اذا داومت استعمال هذا القرص في كلِّ يوم خمسة دراهم على الرّيق مدَّة اربعين يوماً متوالية بعد التنقية ، فانَّها تحمل . وانا الفقير قد جرَّبتُ ذلك وصحَّ معي باذن الله تعالى من غير تخلُّف .

ه

وان كانت السدَّة لا تنفتح بهذه العلاجات المقدَّم ذكرها ، فقد اتفق حكماء اللاتينيين على اعطاء شراب الفولاذ . وبعضهم اختار معجون الفولاذ . وبعضهم حبّهُ . ولكن انا الفقير رجَّحت استعمال شرابهِ ، لانهُ اذا أُعطي

المعجون او الحبّ فمن حيث ان لهُ جرماً فيحتاج بعد تناوله الى حركة ليسرع نزولهُ عن الاعضاء ، والحركة تقتضي من العليل ان يكون قويًا ، وأصحاب هذه العلّة بخلاف ذلك لضعف قواهم . فمن هذا الوجه يترجّح عندي استعمال الشراب هذا ، عدا ما للحبّ والمعجون من الحرارة واليبوسة . وهذه صفةُ الشراب :

يؤخذ من برادة الفولاذ خمسون درهماً ، وثلاثون درهماً من ماء الدارصيني المستقطر بماء الورد . ويُطبخ على نار ليّنة في اناء فخّار مدهون ولتُحرَّك دائماً، وتؤخذ رغوتها في اناء آخر ، وكلّما نقص ماء الدارصيني يُزاد الى ان يتكرّر هذا العمل أربع دفعات . وبعدهُ تُرفع البرادة من المطبوخ ، ويُطبخ الماء المطبوخ الى ان يصير في قوام العسل . ثم يؤخذ من هذا المطبوخ ملعقتان وتذوّبان بالاشربة المفتّحة او بماء لسان الثور او بماء الهندباء ويُسقى . وبعدهُ يجب منع الحركة واذا كانت قليلةً فلا بأس منها .

ه

والمنقول عن عمدة الاطباء اللاتينيين المتأخرين وهو مرقاو الطبيب ،انهُ يمدح هذا الشراب في باب معالجة الخفقان العارض بسبب سدَّة الاعضاء الباطنة . وهذه صفتهُ :

يؤخذ ماء الهميل[1] اربعمئة درهم . من برادة الفولاذ المحميَّة جداً اربع دفعات ، وتُضاف الى المطبوخ المقدَّم ذكرهُ . وبعدهُ يوضع ستون درهماً من خبث الحديد المدبَّر بماء الورد . ويضاف اليه اربعون درهماً من الزبيب الأحمر المنقّى من نواهُ . ويُنقع ثلاثة ايام بالماء المذكور ، ثمَّ يُطبخ حتى يذهب ثلث الماء ويُصفّى . وبعد ذلك يُضاف اليه ستة عشر درهماً من فوَّة الصبغ ، وأصل الهندباء ، وأصل الرازيانج من كلّ اثني عشر درهماً ، وغافت ، وبرشاوشان[2] ، من كلٍّ قبضتان . ويُطبخ على نار ليّنة حتى يذهب نصفهُ ثمَّ يُصفّى . وقبل ان يبرد يُضاف اليه سنامكي ستة عشر درهماً ، وقرطم مرضوض ستة عشر درهماً . ويُنقع أربع وعشرين ساعة ويُصفّى . ويُضاف اليه اربعمئة درهم سكّر ويُقوَّم شراباً . ويُستعمل منهُ في كلّ يوم قدر عشرين درهماً بماء البادرنجبونه[3] واسقرزوانا ، وماء لسان الثور ويُشرب .

ه

١) الهميل : الحسَّيفة . ٢) البرشاوشان : كزبرة البير . ٣) البادرنجبونه : الترنجان .

والمنقول عن قونقه الحكيم من أطباء البرتوغال ، قال : انهُ اذا وُجد في الطحال وَرَمٌ أو صلابةٌ ولم يندفع بهذه العلاجات المذكورة ، فليُستعمل هذا الحَبّ فانهُ يفتح سدد الطحال وسائر الاعضاء الباطنة وفعلهُ في تفتيحها كالسحر . وهذه صفتهُ :

يؤخذ صبر مغسول بماء الهندباء درهم . ودرهم أشق يكون محلولاً بخل عنصل[1] . ودرهم مُرّ صافٍ . وثلث درهم مستكي . وثلث درهم من مُركّب معجون الثلاثة صنادل . وثلاثة قراريط زعفران . ودرهم ملح افسنتين .

تُعجن هذه كلّها بمكرّر الورد وتُعمل حبًّا . والاستعمال منهُ درهم عند الفجر . وان كانت قوى العليل قويّةً فيجوز الاستعمال منهُ مقدار مثقال . وهذا الحَبّ نافعٌ جدًّا في مرض سوء القنية العارضة بسبب السدّة ايضاً . وان كان العليل ضعيفاً فليُعطَ في كلّ يوم حبةً او حبّتين على الرّيق .

ه

وان كانت هذه المعالجة لا تفي في دفع سدد الاعضاء الباطنة وصلابة الطحال وَوَرَمهِ وكان المريض من أرباب شراب الخمر ، فليُسقَ خمسة وعشرون درهماً من هذا الشراب . وبعده يتحرّك حركةً خفيفة . وهذه صفتهُ :

يؤخذ مئة درهم من برادة الفولاذ فتُحلّ بخلّ خمر دفعاتٍ متعددة وتُجفّف ويُضاف اليه اربعة دراهم من القرنفل المسحوق . ثمَّ يوضع في إناء فخار مدهون ويُملأ خمرًا ويُسدّ وصلهُ ، ويوضع في الشمس نهارًا عشرة ايام متوالية ويُرفع ليلًا ان كان الوقت صيفاً . وان كان شتاء فليوضع في حمّام مدة ثمانية ايام متوالية . وينبغي ان يُفتح فمُ الإناء ويُحرّك كلّ يوم في العملين كليهما .

والمنقول عن الطبيب المذكور قال انني استعملتُ هذا الدواء في معالجة السّدد التي عُجز عن معالجتها فحصل الشفاء بهذا الدواء . وان هذه الشربة فعلها قويٌّ ، حتى انني شاهدتُ منها اسهال السّدد الغليظ .

(لها صلة)

---

١) العُنصل : بصل الفار .

تأثير العربية في لغات العالم

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

اليونانية والّلاتينية اقدم جدًا من العربية، وقد نبغ فيهما مئات من الناثرين والشعراء قبل انبلاج فجر الآداب العربية. مع ذلك لم تؤثرا على توالي الاجيال تأثيرًا جديرًا بالذكر الا في لغات اوربة والتي إنتقلت منها مع الفاتحين والمهاجرين الى اقطار اميركة واسترالية. اما الفرنسية والانكليزية، وهما اشد لغات اوربة تأثيرًا في السن الشعوب المتمدنة، فلم يقتبسوا منهما سوى عدد زهيد من الكلمات والتعابير. بعكس ذلك نرى للعربية، مع تناقص سطوع شمس آدابها عدة عصور قبل القرن التاسع عشر، تأثيرًا واضحاً غير يسير في نحو مئة من اللغات واللهجات الناطق بها ارقى الاقوام في انحاء اوربة واميركة واسترالية، ونحو خمسين من شعوب آسية وافريقية. ان هذا المجد المختص بلغة الضاد لمن العجب العجاب، فيثير قوى العقل لاكتشاف اسبابه، وقد توخينا في هذه المقالة بيان اهمها.

السبب الاول هو سرعة انتشار الاسلام بُعيد سنة ٦٢٢ — وهي ابتداء التأريخ الهجري — في كل البلاد المحيطة بشبه جزيرة العرب، محل ظهوره، ثم في اربعة العصور التالية وحتى ايامنا بين كثير من الاقوام الساكنين في آسية الوسطى والشرقية، وفي افريقية الشمالية والمركزية، بل في عدة اصقاع من اوربة الشرقية. بما ان لغة القرآن العربية تُعد مقدسة عند المسلمين، لم يسيغوا الى جيلنا ترجمة نصه الى السن الشعوب المحمدية، فتحتم على ربوات ادباء من افرادها درس لغتنا للتمكن من تلاوة القرآن وفهم معانيه.

السبب الثاني، الذي لا يكاد ينفصل عن الاول، هو كثرة فتوحات العرب المتوالية بشبه سرعة البرق الخاطف في انحاء العالم القديم، الحاوي قارات

آسية وافريقية واوربة . اليكم بياناً ملخصاً لها ، وقد جعلنا تريخ كل منها بين قوسين . ستة عشر عاماً فقط بعد هجرة نبي المسلمين فتح العرب فلسطين وسورية ولبنان (٦٣٨) ، ثم مصر (٦٤٠) ، طرابلس الغرب (٦٤٤) ، مراكش (٦٨١) ، الجزائر (حول ٦٨٣) ، تونس (٦٩٨) ، مالطة (٨٧٠). في كل تلك البلاد ما لبثت العربية ان نابت على لسان شعوبها مناب لغاتهم الاصلية ، كالآرامية في سورية والقبطية في مصر . ثم شوهوها لشدة استصعابهم اياها تشويهاً متزايداً مع مرور العصور ، فحذفوا حركات النحو من اواخر الكلمات ومزج كلٌّ منهم بها مئات عناصر من لسانه الاصلي ، ثم من لغات الاجانب الذين ربطته به علائق تجارية او سياسية . هكذا نشأت شيئاً فشيئاً نحو عشرين لهجة عربية يتكلم بها الآن معظم اهالي البلاد العربية ، البالغ مجموع عدد سكانها زهاء سبعة وستين مليوناً . هاكم جدولها ، وبعد اسم كل واحد عدد اهاليه بين قوسين على حسب احصاء حديث : شبه جزيرة العرب (٧،٧٠٠،٠٠٠) ، لبنان (١،٢٣٠،٠٠٠) ، سورية (نحو ٣،٢٥٠،٠٠٠) ، المملكة الاردنية (٤٠٠،٠٠٠) ، العراق (٤،٦٩٠،٠٠٠) ، مصر (١٩،٥٠٠،٠٠٠) ، السودان (٨،١٠٠،٠٠٠) ، مالطة (٣٠٧،٠٠٠) ، ليبية (١،١٧٤،٠٠٠) ، تونس (٣،٤٠٠،٠٠٠) ، الجزائر (٨،٥٠٠،٠٠٠) ، مراكش (٨،٧٠٠،٠٠٠).

من كل اللهجات العربية المنتشرة في تلك الاقطار لم ترتق الى مستوى الادب سوى المالطية ، مع ان اهاليها اقل من سواهم ، وفي قاموسها مزيج غريب من العربية والايطالية ، واكثر كلماتها ذات المعاني المجردة او العصرية مقتبسة من الايطالية.

لقد تجاوزت فتوح العرب من عصور عديدة حدود العالم العربي السابق ذكره . فتحوا الهند في القرن السابع ، وايران سنة ٦٥٢ ، وبالوتشستان في القرن الثامن . بعد ابتداء التاسع قد استولوا على تركستان ونشروا الاسلام في كل

انحائها. اما افغانستان فقد انتحل اهاليه هذا الدين في النصف الاول من ذلك العصر . ثم نشره في جزيرة جاوة العظيمة تجار عرب وايرانيون سنة ١٢٠٠ ، فزاد انتشاره على توالي الاجيال وكاد يصير الدين الوحيد فيها سنة ١٥١٠. اما الجزائر الفيلبية فان العرب من اهم عناصر شعبها ، مع الهنود والصينيين والاوربيين ، وقد اذاعوا الاسلام في قسم منها . هكذا انتشر القرآن وامتد نفوذ العربية في كثير من بلاد آسية ، بل في افريقية ايضاً حيث فتح العرب شطراً كبيراً مما نسميه الآن السودان المصري والسودان الفرنسي ، فنشروا دينهم بين سكانها ، وانشأوا دولاً كبيرة لم يبق لها اثر . اما التتر ، الذين انتحل الاتراك منهم الاسلام ، فقد فتحوا سنة ١٢٢٦ اهم مدن روسية وظلوا مستولين على قسم كبير من تلك البلاد الى سنة ١٣٨٠ . تلك العوامل الدينية والسياسية قد افضت حتماً الى شدة تأثير العربية في كثير من البلاد الخارجة عن حدود العالم العربي . نجد فيها عشرات الالسن المكتوبة بحروف عربية ، وقد دخل قاموس كلها تقريباً عدد كبير من الكلمات العربية . هاكم جدول سبع وثلاثين منها مرتباً على حسب القارات ، وقد ذكرنا عند اللزوم بين قوسين ، بعد كل لغة ، موطن الناطقين بها :

في اوربة — ١ً القازانية (روسية الشرقية). ٢ً النوكائية (روسية الجنوبية). ٣ً الكوموكيا (ساحل بحر الخزر الشمالي الغربي).

في آسية — ١ً التركية. ٢ً الايرانية. ٣ً الازربيجانية (شمال ايران الغربي). ٤ً الكردية ولها عدة لهجات (كردستان الواقعة اراضيه في العراق وتركية وايران). ٥ً الافغانية (افغانستان). ٦ً البالوتشية (بالوتشستان الواقع في جنوب افغانستان). ٧ً البراهوئية (بالوتشستان الشرقي). ٨ً الاردوئية (الهند الشمالية) ؛ يتكلم بها خمسة وعشرون مليوناً من المسلمين وعدة ملايين غيرهم بجانب لغاتهم الخاصة. ٩ً الداخينية ، لغة المسلمين في الهند الغربية والجنوبية ، وهي شديدة الشبه بالاردوئية. ١٠ً الكشميرية (ولاية كشمير في اقصى

شمال الهند) . ١١ الكورازية (الولاية ذاتها). ١٢ البلتية (بلتستان الواقع في شمال تلك الولاية). ١٣ البنجابية (ولاية بنجاب في شمال الهند). ١٤ المتانية (الولاية ذاتها). ١٥ السندية (الاقليم الشمالي من ولاية بومباي في الهند)، ولها عدة لهجات. ١٦ التاملية (جنوب الهند وجزيرة سيلان). ١٧ اللهندية (بشاور، مدينة في ولاية من الهند على الحدود الشمالية الغربية). ١٨ الملايالامية (ساحل مالابار في الهند الجنوبية الغربية). ١٩ الأزبكية[1] (تركستان وآسية المركزية). ٢٠ الجاكاتائية (واحة مرق في تركستان الروسي). ٢١ الكرغيزية[1] (تركستان الصيني وآسية المركزية الروسية وسيبرية الغربية)، وهي ذات لهجات عديدة. ٢٢ الكشغرية[1] (تركستان الصيني). ٢٣ الجاوية (جزيرة جاوة). ٢٤ السُندانية (جاوة الغربية). ٢٥ الملائية (في عدة اقطار من مالازية[2])، ولها لهجات كثيرة. ٢٦ السولوئية (جزائر سولو)، وهي من الجُزر الفيلبية).

في افريقية — ١ القبائلية (بعض انحاء بلاد الجزائر)، ولها عدة لهجات. ٢ الشلهائية (جنوب مراكش)، وهي كثيرة اللهجات. ٣ السواحلية (افريقية الشرقية). ٤ البمبارية (السودان الفرنسي). ٥ الفولية (غينية الفرنسية). ٦ الهوسائية (نيجارية وغيرها). ٧ الفنية (غينية، وهي مستعمرة انكليزية في افريقية الغربية). ٨ النيادجية (بين درّ وكرمة في حوض النيل).

اكثر هذه اللغات اقتباساً للكلمات العربية هي الايرانية والتركية والاردونية واشباهها، فان قاموس كل منها حافل بالآلاف من الفاظ لغتنا، بحيث لا يكاد يمكن العثور على جملة طويلة في تلك الالسن لا تحوي عدة عناصر عربية. في الاربع والثلاثين آية الاولى من انجيل القديس يوحنا قد وجدنا من كلمات لغتنا

١) لغة شديدة الشبه بالتركية.

٢) هذا الاسم يدل على شبه جزيرة مالاكة وعدة جزائر إوقيانية، من اشهرها بورنيو والجُزر الفيلبية.

١١١ في الايرانية ، ١٠٤ في التركية و ٨٠ في الاردوئية .

اما سبب تأثير لغة العرب في كل لغات اوربة تقريباً فهو فتوحاتهم فيها . لم يمض على ظهور الاسلام بينهم ردح من الزمان حتى فتحوا النربونية (la Narbonnaise) وهي ولاية من فرنسة القديمة واقعة على ساحل البحر المتوسط . ثم حاولوا غزو ذلك القطر ، فانتصر عليهم الملك شرل مرتل (Martel) انتصاراً جازماً سنة ٧٣٢ في معركة مجاورة لمدينة بواتيه (Poitiers) . اما اسبانية فقد اتوها سنة ٧١٠ فغزوها وجعلوها مملكة خاضعة خليفة بغداد ، ثم صارت مملكة مستقلة تناقص اتساعها بانكسارهم في عدة حروب اصلاهم الوطنيون نارها ، فلم يبق لهم سوى مملكة الاندلس الصغيرة في جنوب اسبانية ، وقد غُلبوا عليها سنة ١٤٩٣ ولاذ بالفرار ابو عبدالله آخر عواهلهم . اما البرتغال فقد فتحوه سنة ٧١٢ ، فظل تحت سيطرتهم الى سنة ١١٣٩ ، اذ انتصر الفونس على خمسة من اقيالهم المتحالفين لمقاومته ، فأعلنه جنوده في ساحة القتال اول ملك لبلادهم .

لقد ضاعف تأثير تلك الفتوحات في لغات اوربة سمو ثقافة العرب . كانوا قد اقتنوا حصة كبيرة من علوم فئة من ارقى الشعوب القديمة ، ولا سيما اليونانيين ، واقتبسوا من هؤلاء . ومن الايرانيين اصول الفنون الجميلة ، وحسّنوا صناعات سورية وايران ، واضافوا الى تلك الثروة التالدة ، الّا طارفاً من ثمار جهودهم ، فصاروا من قادة تمدن اوربة في القرون الوسطى .

هاكم جدول ست وخمسين من الكلمات العربية التي اقتبست كثيراً منها اشهر لغات اوربة ، مع بعض ما يقابلها فيها[1] ، فاننا عاجزون عن ذكر قسم وافر من المقابلات ، لقلة اتساع قواميس معظم لغات اوربة التي تحت يدنا .

---

[1]) يندر جداً اختلاف معنى المقابل عن معنى الكلمة العربية الاصلية ، وقد حدث ذلك التباين للكلمة « صفر » التي صارت بمعنى رقم في عدة السن اوربية .

الهولندية	الالمانية	الانكليزية	الرومانية	الايطالية	الفرنسية	البرتغالية	الاسبانية	اصل الكلمات العربي
		alembic	alambic		alambic	alambique	alambique	الانبيق
abrikoos	aprikose	apricot		albicocca	abricot	albricoque	albaricoque	البرقوق
·lcali	alkali	alkali		alcali	alcali	alcali	alcali	القلي
alchimie	alchimie	alchemy		alchimia	alchimie	alchimia	alquimia	الكيمياء
alcohol	alkohol	alcohol	alcool	alcool	alcool	alcohol	alcohol	الكحل
alkoof	alkoven	alcove	alcov	alcova	alcôve	alcóva	alcoba	القبّة
	alfa	alfa		alfa	alfa			حلفاء
algebra	algebra	algebra		algebra	algèbre	algebra	algebra	الجبر
	alhidade				alidade		alidada	العدد
amber	amber	amber	ambra		ambre	ambar	ambar	عنبر
admiraal	admiral	admiral		ammiraglio	amiral	almirante	almirante	امير البحر
rsenaal	arsenal	arsenal	arsenal	arsenale	arsenal	arsenal	arsenal	دار الصناعة
		assassin	asasin	assassino	assassin	assassino	asesino	حشاشين
	azerole			azzeruolo	azerole		acerola	الزعرور
azimuth	azimut	azimuth			azimut			السمت
café	kaffee	coffee	cafea	caffè	café	café	café	قهوة
lfaten	kalfatern		calfata		calfater	calafetar	calafatear	قلف
kalief	kalif	caliph			calife		califa	خليفة
kandij	kandis	candy	candel		candi		cande	قند
kameel	kamel	camel	camila	cammello	chameau	camêlo	camello	جمل
cijfer	ziffer	cipher'	cifra	cifra	chiffre	cifra	cifra	صفر
		cipher	zero	zero	zéro	zero	cero	صفر
	dragoman	dragoman		dragomanno	drogman	dragomano	dragoman	ترجمان
gazel	gazelle	gazelle	gazela	gazzella	gazelle		gacela	غزال
giraffe	giraffe	giraffe		giraffa	girafe		jirafa	زرافة
			catran		goudron	*alcatraoun*(١	alqitran	قطران
haschisch	haschisch	hashish			hachich			حشيش
harem	harem	harem		harem	harem		harén	حريم
	hedschra	hegira		egira	hégire	hegira	hégira	هجرة
jasmijn	jasmin	jessamine	iasomie	gelsomino	jasmin	jasmin	jazmin	ياسمين
magazijn	magazin	magazine	magazie	magazzino	magasin	armazem	almacén	مخزن
matras	matratze	mattress		materassa	matelas			(٢)
minaret	minarett	minaret	minaret	minareto	minaret		alminar	منارة
moskee	moschee	musk		moschea	mosquée	mesquita	mezquita	مسجد
	musselin	muslin		mussolina	mousseline		muselina	الموصل (مدينة)
		muezzin			muezzin		almuédano	مؤذن
muskus	moschus	musk	mosc	muschio	musc	almiscar	almizcle	مسك
nadir	nadir	nadir	nadir	nadir	nadir			نظير
		narghile	narghilea		narguilé		narguile	نارجيلة
oranje	orange	orange	naramza	arancia	orange	laranja	naranja	نارنج
saffraan	safran	saffron	*chofrane*	zafferano	safran		azafran	زعفران
raceen	sarazene	saracen		saraceno	sarrasin	sarracêno	sarraceno	شرقيون
	sumach	sumac			sumac			سماق
sirocco	sirokko	sirocco		sirocco	sirocco		siroco	شرق
siroop	sirup	syrup	sirop	siroppo	sirop	xarope	jarabe	شراب
sultan	sultan	sultan	sultan	sultano	sultan	*sultaoun*	sultan	سلطان
tarief	tarif	tariff			tarif	tarifa	tarifa	تعريف
tas	tasse		tas	tazza	tasse		taza	طاس
vizier	vezier	vizier	vizir	visir	vizir	vizir		وزير
zenith	zenith	zenith	zenit	zenit	zénith	zenith	cenit	سمت الرأس
	pistazie	pistachio	fistic	pistacchio	pistache	*pistacia*	pistacho	فستق
luit	laute	lute			luth	alaude		عود (آلة طرب)
kamfer	kampfer	camphor	camfor	cànfora	camphre		alcanfor	كافور
		carob		carruba	caroube		algarroba	خروب
kermis	kermes	kermes	*carmiz*		kermès	kermes	quermes	قرمز
douane				dogana	douane	aduâna	aduana	الديوان
limoen	limone	lemon		limone	limon	*limaoun*	limon	ليمون

(١) الكلمات المطبوعة بهذه الحروف المائلة قد كتبناها على الطريقة الفرنسية لعدم وجود بعض حروفها .

(٢) الاصل العربي قد اكده الخبراء بيد انه غير واضح . على كل حال قد قال العرب فراش مدروس اي مسعد .

الفنلندية	المجرية	الأرمنية		اليونانية		الروسية	الليتوانية	الاسوجية	[illegible]
aprikka		պարկուկ	bargoug	βερίκοκκο	verikokko	abrikosse(1	abrikosas	aprikos	apriko
		ալկալի	aghgaghi	κάλι	kali	alkali		alkali	
alkemia		ալքիմիա	alkimia	ἀλχημεία	alkhimiya	alkhimia	alchemija	alkemi	
alkoholi		ալքոլ	alkol			alkagoly	alkoholis	alkohol	
	alkôr						alkova	alkov	alkov
	algebra			ἄλγεβρα	alyebra	algibra	algebra		algebı
						ambra		ambra	
amiraali						admiral	admirolas	amiral	admir
						arsinal		arsenal	arsena
		Հազորան	hazorane						
		ազիմութ	azimoute						
kahvi	kâvé			καφές	kafess	kafé	kava	kaffe	kaffe
				καλαφατίζω	kalafatizo			kalfatra	kal
kaliffi				χαλίφης	khalifiss	kalif			kalif
				κάντιο	kandio			kandisocker	kandi
kameli				καμήλος	khamîloss			kamel	kamel
						tsifra		chiffer	ciffer
		զէրօ	zeuro						
		թարգման	tarkmane			dragamane			
gaselli						gaziely		gasell	
						jirafa	*girafa*	giraff	giraf
	kâtrâgne			κατράμι	katrâmi				
		հաշիշ	hachich	χασίσι	khacîci				
				χαρέμι	kharêmi	garyem	haremas	harem	harem
jasmiini	*jázmine*	յասմիկ	hasmig			jasmine	jasminas	jasmin	jasmi
				μαγαζί	maghazi	magazine		magasin	magas
	matrats					matrats		madrass	madr
minareetti				μιναρές	minaress				minar
moskea		մզկիթ	meuzguite					moske	moske
				μουσελίνα	moucelîna		muslinas	muslin	musse
		մուշկ	mouchg	μόσχος	moskhoss	mouskouss			mosk
	nadir	նադիր	nadir						nadir
				ναργιλές	naryiless				
	narantch	նարինջ	narintch			pamiranits		orange	orang
	châfrâgne			ζαφορά	zafora		*chafranass*	saffran	safrar
	saratchane							saracen	
									sum
				σιρόκος	sirôkoss				
				σιρόπι	sirôpi	siropp		sirap	sirup
sulttani				σουλτάνος	soultânoss	soultane		sultan	sultar
				ταρίφα	tarifa	tarif		tariff	tarif
				βεζίρης	veziriss	viziry	viziris	vesir	
	zenith	զենիթ	zénite	ζενίθ	zénite	zénite		zenit	zenit
		պիստակ	bisdag	φιστίκι	fistiki	fistachka		pistacie	pistac
						lioutniya		luta	lut
	kámfor	քափուր	kapour	καφουρά	kafoura	kamfara		kamfer	kamf
				χαρούπι	kharoupi				
				κερμέζι	kermêzi				
		լեմոն	lemon	λεμόνι	lémôni	limone			limon

(1) قد تعذر علينا طبع الكلمات الروسية بالحروف اللاتينية .

بسبب احتلال العرب لاسبانية والبرتغال مدة عصور قد اخذت لغتا هذين البلدين من لسانهم مئات كلمات لا نجد لاكثرها اثراً في لغات سائر الاقطار الاوربية . قد حدث مثل ذلك في الفرنسية لتواتر علائق فرنسة مع الشرق العربي منذ نشوب الحروب الصليبية ، وعلى الاخص بعد احتلالها بلاد الجزائر منذ سنة ١٨٣٧ ونشر حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ وعلى مراكش سنة ١٩١٨. تتضح من الجداول الثلاثة الآتية درجة عمق تأثير العربية في الاسبانية والبرتغالية والفرنسية . الكلمات المسبوقة بنجمة في كل الجداول الآتية ، قد كتبناها على على الطريقة الفرنسية لعدم وجود بعض حروفها .

بعض الكلمات الاسبانية المقتبسة من اللغة العربية

الدفلى	adelfa	العربية (اللغة)	algarabia	الكراء	alquiler
الخزانة	alacena ١)	القطن	algodon	الترمس	altramus
البرص	albarazo ٢)	الحركة	alharaca ٥)	اللوبياء	alubia
البردعة	albarda	الحلبة	alholva	الرز	arroz
البيطار	albéitar	الخزامى	alhucema	الربض	arrabal
البرنس	albornos	الجبة	aljaba	السفط	azafate ٧)
الخرشوف	alcachofa	الجب	aljibe	ازهر	azahar ٨)
العقرب	alacran	اللوز	alloza ٦)	الصفر	azofar ٩)
الكبر ٣)	alcaparro	المصطكى	almaciga	الزئبق	azogue
عرق السوس	alcazuz	المردقوش	almaraco	السوط	azote
القصر	alcazar	معصرة زيت	almazara	السكر	azucar
الضيعة	aldea	الزيت	aceite	السوسنة ١٠)	azucena
الحبق	alfabega	الزيتون	aceituna	السد ١١)	azud
الفقيه (عند المسلمين)	alfaqui	المخدة	almohada	الطبل ١٢)	atabal
الفخاري	alfarero	المحسة	almohaza	الطاحونة ١٣)	atahona
الفيل ٤)	alfil	المد (مكيال)	almud	التابوت	ataud
الخرج	alforjas	القنبرة	alondra	الدليل ١٤)	adalid

١) خزانة مندمجة في حائط – ٢) نوع من البرص يسمى البرص الابيض بالفرنسية – ٣) شجيرة يستخرج من برعمها نوع من التوابل – ٤) قطعة معينة من قطع لعب الشطرنج – ٥) صريخ – ٦) لوز اخضر او مر – ٧) سلة صغيرة مسطحة – ٨) زهر البرتقال – ٩) مزيج معين من النحاس والتوتيا المعدنية – ١٠) السوسن الابيض – ١١) سد في نهر – ١٢) طبل بشكل نصف كرة – ١٣) مطحنة يحركها الخيل – ١٤) رئيس جنود.

انطوب	adobe(١
الدف	adufe
الشرف(٣	ajarafe(٢
الجلجلان(السمسم)	ajonjoli(٤
فُلان	fulano
شراب	jarabe(٤
مملوك	mameluco(٥
منديل	mandil(٦
مطرقة	matraca(٧
مسكين	mezquino(٨
مخاطرة	mohatra(٩
مستعرب	mozarabe(١٠
رهن	rehén
سرطان	zaratan ١١
البنّاء	•albagnil(١٢
النيل(نبات)	•agnil(١٢
الحمراء	Alhambra(١٣

بعض الكلمات البرتغالية المقتبسة من العربية

الحصان	•alazaoun(١٤
البردعة	albarda
القصر	alcaçar(١٥
الخُرشوف	alcachofra
عرق السوس	alcaçus(١٦
القائد	alcaide(١٧
الكبر(نبات)	alcaparra
الكرَوان (طير)	*alcaravaoun
الكرَوياء (نبات)	alcaravia
البُحيرة	albufeira(١٨
القطيع	alcateia(١٩
القطيفة(٢١	alcatifa(٢٠
الشملة(٢٣	alchemila(٢٢
القفّة	alcôfa(٢٤
القرآن	•alcoraoun
الكُنية	alcunha(٢٥
الضيعة	aldea
الضبّة	aldrava(٢٦
الاكليل	alecrim(٢٧
الخس	alface
الخيّاط	alfaiate
الخنجر	alfange(٢٨
الفقير	alfaqui(٢٩
الخُروبة	alfarrôba
الحبقة(نبات)	alfavaca
الخُزامى	alfazêma
الحلوى	alféloa
الفارس	alféres(٣٠
الخُرج	alfôrge
الحُرية	alforria(٣١
العربية(اللغة)	algaravia
الجُب	algibe
الجيب	algibeira
القطن	•algodaoun
الوزير	alguazil(٣٢

١) طوب غير مشوي– ٢) القسم الأعلى من مدينة– ٣) المكان العالي– ٤) شراب مركب من السكر الممزوج بعصير الفواكه او بمواد طبية – ٥) احمق – ٦) مئزر (tablier) – ٧) نوع من النواقيس اليدوية (crécelle) – ٨) بخيل – ٩) عقد قرض بربا فاحش– ١٠) مسيحي اسباني خاضع قدماً لسلطة العرب – ١١) سرطان في الصدر– ١٢) قد كتبنا هذه الكلمة على الطريقة الفرنسية لعدم وجود حرف تختص بالاسبانية يُلفظ مثل gn بالفرنسية – ١٣) اسم قصر ملوك العرب في غرناطة – ١٤) حصان اشقر – ١٥) قصر محصن ، قلعة – ١٦) رُب السوس – ١٧) حاكم مدينة – ١٨) بحيرة ماء مالح في جوار البحر – ١٩) قطيع وحوش– ٢٠) طنفسة– ٢١) دثار تُحمل للرجال– ٢٢) رداء للنساء – ٢٣) كساء واسع – ٢٤) سلة مصنوعة بغصون الصفصاف – ٢٥) موصوف او نعت يُضافان الى اسم شخص – ٢٦) مزلاج – ٢٧) اكليل الجبل (نبات) – ٢٨) سكين كبير مقوس – ٢٩) ناسك مسلم – ٣٠) الملازم الثاني sous-lieutenant – ٣١) إعتاق عبد – ٣٢) شرطي في اسبانية القديمة.

الاساس	alicerce
الجوهر	aljôfar(١
المغرة(٢	almagre
المنشر	almanchar(٣
المرج	almargem
المفرشة(٤	almatricha
المصطكى(شجر)	almécega
المنارة	almenara(٥
المحفر (المعول)	almocafre
المقبرة	almocavar(٦
المكاري	almocreve(٧
المزايدة	almoéda(٨
المحسّة	almofaça
المخدّة	almofada
المهراس (الهاون)	almofariz
النُشادر	almoxatre(٩
المُد (مكيال)	almude
الكيل	alqueire(١٠
الكاكنج (زهر)	alquequenge
الكِراء	alquiler
البنّاء	alvanel
البراءة	alvara(١١
البيطار	alveitar
البركة	alverca
البشارة	alviçaras(١٢
النيل (نبات)	anil
الربض	arrabalde
الرطل	arratel(١٣
الرز	arrôz
السُكّر	assucar
السوسنة	assucêna(١٤
أوج	auge(١٥
الطاحونة	atafôna
الطليعة	atalaia(١٦
التابوت	ataude
الزحمة	azafama(١٧
الزيت	azeite
الزيتونة	azeitôna
الزاملة	azêmala(١٨
الزئبق	azougue
مسكين	mesquinho
رُمّان	roman

بعض الكلمات الفرنسية المقتبسة من العربية

حب المسك (نبات)	abelmosch
الكُراز	alcarazas(١٩
الحصان	alezan(٢٠
حلفاء (نبات)	alfa
الخنجر	alfange(٢١
الوزير	alguazil(٢٢
الزعرور	azerole
قاضٍ	cadi(٢٣
غرفَ	carafe
قِرطِم (نبات)	carthame
كَرَوِيا (نبات)	carvi
شيخ	cheik(٢٤
زباد	civette
قرمزي	cramoisi(٢٥
ديوان	divan(٢٦
جِن	djin
الإكسير	elixir(٢٧

١) لؤلؤة صغيرة— ٢) نوع من الطين الاحمر يُصبغ به— ٣) محل يُنشر فيه التين لتجفيفه— ٤) مِفرش يوضع على الرحل ويُقعد عليه— ٥) نار تشعل بصفة دلالة على شيء ما— ٦) مقبرة المسلمين او اليهود في الزمن القديم— ٧) بغّال— ٨) بيع بالمزاد— ٩) ملح النشادر— ١٠) مكيال للجوامد وآخر للسوائل— ١١) وثيقة او امر صادران من الملك— ١٢) هدية للآتي ببشارة— ١٣) وحدة وزن قديمة مقدارها ٤٥٩ غراماً— ١٤) زنبق ابيض— ١٥) اعلى قمة— ١٦) حارس— ١٧) جم غفير— ١٨) دابة يُحمل عليها— ١٩) وعاء من فخار لتبريد الماء— ٢٠) حصان اشقر— ٢١) سيف عريض متقوس— ٢٢) شُرطي في اسبانية القديمة— ٢٣) قاضٍ شرعي مسلم— ٢٤) واعظ مسلم، شيخ قبيلة— ٢٥) احمر مُشبع— ٢٦ مقعد طويل بدون مسند للظهر— ٢٧) دواء مصنوع بتحليل مادة في الكحول.

امير	émir	حِنّاء	henné	راحة الحلقوم	rahat loukoum
فقير	fakir[1]	حور	houri[8]	سموم	simoun
يربوع	gerboise	جُبّة	jupe	شربة	sorbet[17]
خان	kan	مهبول[10]	maboul[9]	طلق (ذرور معدني)	talc
خنجر	kandjar[2]	مِطرقة	matraque[11]	طِلسم	talisman
خمسين	khamsin[3]	مطرة[13]	matras[12]	وال	vali[18]
كُحل	kohol	مدرسة	medersa[14]	ولاية (في تركية)	vilayet
قُبة	koubba[4]	مسكين	mesquin[15]	زاوية	zaouïa[19]
غزل	gazel[5]	مستعرب	mozarabe[16]	ضبطية	zaptieh[20]
حمّام	hammam[6]	مُفتٍ	mufti	جلجلان	zinzolin[21]
فرس	haras[7]	بطيخ	pastèque		

نجد في كل لغة من ست على الاقل من لغات البلاد البلقانية – بغض النظر عن التركية – مئات من الكلمات العربية ، مما يدل اجلى الدلالة على كون لغتنا قد اثرت فيها مثل تأثيرها في الاسبانية والبرتغالية . تلك الالسن الستة هي : ١ً الرومانية ، لغة رومانية اللاتينية الاصل ؛ ٢ً الصربية القرواطية ، وهي أنم لغة صقلبية ينطق بها معظم اهالي يوغوسلافية ، بيد ان الصربيين المحتد منهم يكتبونها بالابجدية الروسية ، والقرواطيون بالحروف اللاتينية ؛ ٣ً السلوفانية ، لغة قسم من اهالي يوغوسلافية ، شديدة الشبه بالسابق ذكرها ، وذات ابجدية لاتينية ؛ ٤ً البلغارية ، وهي لا تُكتب بسوى الحروف الروسية ؛ ٥ً الالبانية وهي من اللغات الهندية الاوربية وذات شبه غير يسير باللاتينية التي اقترضت حروفها ؛

١) ناسك مسلم – ٢) سكين طويل ضيق وضخم المقبض – ٣) اسم السموم في مصر – ٤) بناية على قبر ولي مسلم من اولياء الله – ٥) شعر غزلي عند العرب والايرانيين – ٦) حمام شرقي – ٧) محل تربية فحول وحجور لتحسين جنس الخيل – ٨) امرأة جميلة في جنة المسلمين – ٩) مختل العقل – ١٠) بمعنى فاقد العقل في عدة لهجات عربية عامية – ١١) عصا ضخمة – ١٢) وعاء من زجاج طويل العنق مستعمل في الكيمياء – ١٣) قربة – ١٤) مدرسة اسلامية عالية – ١٥) بخيل، عادم النُبل – ١٦) مسيحي اسباني خاضع قديماً لسلطة العرب – ١٧) شراب مثلج من عصير فواكه مخلوط بالسكر ومشروب كحولي عطري – ١٨) حاكم ولاية في تركية – ١٩) معهد تعليم اسلامي في افريقية الشمالية الفرنسية ٢٠) فرقة من الجيش التركي كانت تقوم مقام الشرطة – ٢١) حب السمسم .

٦ اليونانية الحديثة ، الفصحى والعامية ، ولا يخفى عن ذوي الثقافة ان لها الجدية خاصة .

لم تؤثر العربية في تلك اللغات الست على وجه مباشر ، بل بواسطة التركية المقتبسة آلاف كلمات من لساننا ، وقد انتشرت فيها بسبب احتلال الاتراك بلاد الناطقين بها مدة قرون عديدة . بقيت صربيّة تحت حكم الاتراك من سنة ١٣٨٩ الى ١٨٧٨ ، السنة التي تحررت فيها ايضاً رومانية من نيرهم الفادح لها منذ سنة ١٣٩٢ . اما بلغارية فقد خضعت لهم من اواخر القرن الرابع عشر الى سنة ١٩٠٨ اذ اصبحت مملكة مستقلة . البانية قد ظلت تحت سيادتهم من عام ١٤٦٧ الى ١٩١٢ ، وبلاد اليونان من سنة ١٤٦٠ الى ١٨٢١ .

قد اوضحنا في الجداول الآتية شدة تأثير العربية في خمس من لغات تلك البلاد البلقانية ، بواسطة التركية ، وقد اهملنا السلوفانية لشدة شبها بالصربية القرواطية . معظم الكلمات المذكورة في تلك الجداول ، ان لم نقل كلها ، قد اندمج في الالسن المذكورة بعدما اقتُبس رأساً من التركية وبلفظ مماثل للفظها ، وقد ادى ذلك الى تشوه بعضها وتنكره علينا .

بعض الكلمات الرومانية المقتبسة من العربية

قطيفة	catifea(١	جلّاد	gelat	مشعل	masala
قنطار	cîntar	كافر	ghiaur		mascara(١٠
قرمز	cirmîz	جوهر	giuvaer	مسخر (استهزاء)	
قصور	cusur (٢	حضور	hεzur(٥	ما شاء الله	•machala(١١
دخان	dohan(٣	إبريسم	•ibrichim(٦	مزراق	mazdrac(١٢
دكان	dughiana	محلة	mahala (٧	مرض	•meuraz(١٣
الإكسير(٤	elixir	مُخمار	mahmur		*mehenguiyou
فتيل	fitil	ميدان	maidan(٨	محك (حجر يُحك به للاختبار)	
جامع (مسجد)	geamie	معرفة	marafet(٩	مرمّة (ترميم)	meremet

١) دثار مُخمل للرجال — ٢) عيب — ٣) تبغ — ٤) ما توهم الكيماويون القدماء تحويل المعادن الدون الى ذهب باضافته اليها — ٥) سكينة — ٦) خيط حرير — ٧) حي من احياء مدينة — ٨) ارض معدة للبناء — ٩) وساطة — ١٠) شنيعة ، اهانة — ١١) معنى هذه الكلمة : وقال الله من العين الشرير ! — ١٢) رمح — ١٣) السوداء mélancolie

مسكين	meschin
مترس	meterez
مزاد	mezat(١
ميراث	miraz
مُفلس	moflus
مُفت	muftiu
مسافر	musafir(٢
مُسلم	musulman
مُشمَّع	•muchama
مشتر	•mouchteriyu(٣
نظر	nazar(٤
رف(٥	raft
رذل	rizilic(٦
رُشوة	•rouchfett
صبر (نبات)	sabor
صحن عميق	sahan
ساطور	•sateur
صدَف	sidef(٧
سنَد (وثيقة)	sinet
سسم	susan
صُفّة(٩	sofa(٨
سروال	•chalvari
طِلّسم	talisman
تمَن	temenea(١٠
ترتيب	tertip(١١
تذكرة مرور	•techkéréa
ضيق النفس(مرض)	tecnefes
حق	hac (١٢
حاج	hagiu
حال	hal
حلال	halal(١٣
حلقة	halca(١٤
حمّال (عتّال)	hamal
خان	han(١٥
حب	hap(١٦
حرام	haram
حركة	harcat (١٧
حد	hat(١٨
خط	hat(١٩
حوض	havuz
خزنة	hazna(٢٠
خدمة	huzmet(٢١
كبريت	chibrit (٢٢
كِراء	chirie
شراب	•cherbet(٢٣
وكيل	vekil
وزير	vizir
ذخيرة	zaharea(٢٤
زنبيل	zambil
صرّاف	zaraf
ظرف	zarf(٢٥
ظريف (حسن)	zarif
ضابط	zapciu(٢٦
ضيافة	ziafet(٢٧
عباءة	aba(٢٨
عَقار	acaret
عادة	adet
حلقة	alca(٢٩
حلوى	alva(٣٠
امان	aman(٣١
امانة	amanet(٣٢
عرض	arz(٣٣
بقّال	bacal
بركة	berechet(٣٤
بناء (بناية)	bina
بستان	bostana(٣٥
قاضٍ	cadiu(٣٦
قفص	cafas(٣٧
قائم مقام	caimacam
قالب	calup
قصّاب (لحّام)	casap
قطائف (حلوى)	cataif

١) بيع بالمزاد – ٢) ضيف – ٣) زبون – ٤) إنعام – ٥) لوح توضع عليه الاشياء – ٦) احتقار – ٧) عرق اللؤلؤ (في اللغة العامية) – ٨) مقعد طويل ذو مسند للظهر – ٩) صُفّة الجامع : مقعد بالقرب منه – ١٠) خفض الرأس احتراماً – ١١) خيلة – ١٢) اجر العامل ونحوه – ١٣) تحية ، بركة – ١٤) حلقة من معدن – ١٥) فندق – ١٦) دواء بشكل حب – ١٧) ضجيج – ١٨) حجر منصوب يدل على حد ارض او نحو ذلك – ١٩) خطوط من كتابة سلاطين تركية – ٢٠) حزينة دولة – ٢١) وظيفة – ٢٢) ثِقاب – ٢٣) شراب مرطّب – ٢٤) ذخائر حربية – ٢٥) صينية – ٢٦) حاكم جزء من ولاية sous-préfet – ٢٧) وليمة – ٢٨) رداء الفلاحات في رومانية – ٢٩) كُلّاب – ٣٠) الحلوى المعروفة بالحلاوة في اللغة العامية – ٣١) رُحماك ! – ٣٢) وديعة – ٣٣) عريضة – ٣٤) خصب ، سعادة – ٣٥) مبقلة – ٣٦) قاضٍ شرعي عند المسلمين – ٣٧) حاجز مصنوع بقضبان خشب او حديد.

بعض الكلمات القرواطية المقتبسة من العربية

عادة	adet	جلاد	•djelate	ايمان	iman
القرآن	alkuran	جيب	•djep	عناد	inad[٢٠]
آلة	àlât	جن	•djinn	انسان	insan
امّا	ama	دكان	doganja	عقرب	jakrep
حمّال	amal	دعاء	dova[١٢]	يمين (قسم)	jemin
امان	aman[١]	دخان (يعني التبغ)	duhan	اذان	jezan
امانة	amanet[٢]	اولاد	evlat[١٣]	قادر	kadar
حب	ap[٣]	فيل	filj	قاض	kadija
خردل	ardalija[٤]	خبر	haber	قلم	kalem
بقّم (شجر)	bakam	حيوان	hajvan	قالب	kalup
بارود	barut	حق	hak[١٤]	جمل	kamila
براءة	berat[٥]	حلقة	halka[١٥]	قنطار	kantar
بركة	•beritchet[٦]	حمّام	hamam	قرنفل	karanfil
بلور	biljur	خان	han	قصبة	kasaba[٢١]
بناء	bina[٧]	خنجر	•handjar	قصّاب	kasap
بستان	bostan	حبس	haps	قاتل	katil
بلبل	bumbul	حرامي	haramija[١٦]	قطران	katram
شراب	•cherbé[٨]	خراج	•haratch[١٧]	قهوة	kava
شيطان	•cheytane	حريم	harem[١٨]	قفص	kavez
دعوى (شكوى)	dava	هاون	havan	كيس	kesa[٢٢]
دين	din[٩]	خزنة	hazna[١٩]	قيامة	kijamet[٢٣]
دينار	dinar[١٠]	حاضر	hazur	كراء	kirija
ديوان	divan[١١]	خندق	hendek	قربان	kurban
جامع	•djamiya	حساب	hesap	قصور	kusur[٢٤]
كافر	•djawour	إمام	imam	مشعل	machala

١) عفو ، نعمة– ٢) وديعة– ٣) دواء بشكل الحب– ٤) الحرف z يلفظ كالياء– ٥) وثيقة لمنح امتياز– ٦) إقبال ، تقدم ، غلة الارض– ٧) بناية كبيرة– ٨) شراب مركب من الماء والعسل– ٩) ايمان– ١٠) قطعة نقد كالفرنك في فرنسة– ١١) مجلس شورى– ١٢) صلاة المسلمين– ١٣) نسل– ١٤) اجر العامل ونحوه– ١٥) حلقة من حديد– ١٦) سارق– ١٧) ضريبة مفروضة على كل فرد من افراد الامة– ١٨) مسكن نساء احد المسلمين– ١٩) صندوق المال ، كنز– ٢٠) خصام– ٢١) ضيعة كبيرة– ٢٢) كيس الدراهم– ٢٣) عاصفة ، آخر الاجيال– ٢٤) تقهقر.

محلة	mahala[1]	رعية	raja[3]	كتاب	•tchitab
مقص	makaze	رمضان	ramazan[4]	دفتر	tefter[5]
ميدان	mejdan	صندوق	sanduk	فائدة	vajda
مصر	Misir	ساعة	sahat	وقف	vakup[6]
مؤذن	mujezin	سلطان (عاهل)	sultan	والله	vala
منارة (مئذنة)	munara	كاتب	•tchata	صنعة	zanat[7]
معمار	neimar[2]	جواب	•tchévab	ظلم	zulum[8]

بعض الكلمات البلغارية المقتبسة من العربية

تنبيه — لم نستطع استعمال الحروف البلغارية ، فحتم علينا طبع تلك الكلمات بالابجدية اللاتينية .

شراب(مرطب)	cherbète	بركة الله	bereket	حريم	kharem[13]
غزال	gazéla	بلور	biliour	عُناب	khinab
غُربة	gourbète	بستان	bostane[10]		khouria[14]
كافر	guiyaourin	دعوى (في محكمة)	davia	حُور (جمع حوراء)	
ميدان	megdan	جورب	'tchorab	وقف	vakeuf[15]
منارة (مئذنة)	minaré	جيب	djeb	وال	valiya
مِسك	mouskouss	صندوق	sandeuk	ولاية	vilayet
مؤذن	miouézine	فتيل	fitil	ورق	varak[16]
بقال	bakaline	حاج	khadjiya	وصي	vassiya
بارود	baroute	حمّال (عتّال)	khamaline	ورم	vérem[17]
بطّال	batal	خنجر	khandjar	وزير	vézir
بحار	bakhar	خان (فندق)	khan	ميزان	vezni
بدل (مبادلة)	bedel	حب	khap[11]	جمل	kamila
بلاء	belia	حرامي	kharamiya[12]	وكيل	vékil
براءة	berate[9]	خردل	khardal	وكيل الخرج	vékil khardj

١) حي من احياء مدينة — ٢) مهندس البناء — ٣) تابع لدولة ما — ٤) صوم رمضان — ٥) سجل الحسابات — ٦) مال موقوف على شؤون دينية عند المسلمين — ٧) حرفة يدوية — ٨) استبداد — ٩) وثيقة لمنح وظيفة او وسام او نحو ذلك — ١٠) مبقلة — ١١) دواء بشكل حب — ١٢) قطاع الطرق — ١٣) مسكن نساء احد المسلمين — ١٤) امرأة بديعة الجمال من نساء جنة المسلمين — ١٥) مال موقوف على مشروع خيري او نحوه — ١٦) ورقة رقيقة جدًا من الذهب او الفضة للتذهيب او التفضض. — ١٧) مرض السل .

غائلة	gajle[١]
غيرة	gajret[٢]
عذاب	gazèp
خبر	habèr
خادم	hadum[٣]
عقرب	hagrèp
خير	hajr[٤]
حق (حقيقة)	hak
خالة	halla
خلق	hallk[٥]
حلوى	hallva[٦]
حمّال	hamàll
حمّام	hamàm
خان (فندق)	han
حب	hap[٧]
حبس	haps[٨]
خراب	haràb[٩]
خراج	•haratch[١٠]
حرام	haràm[١١]
خردل	hardàll
خرج (نفقة)	harxh[١٢]
محاصل	hàsel[١٣]
خصم	hasm
حسرة	hasrèt[١٤]
حاشا !	hasha[١٥]
خاطر	hater[١٦]

هواء	hava
خزينة	hàzen[١٧]
حاضر (مستعد)	hàzer
خنجر	haxhar
قرض	haxhèt
حاجّ	haxhi
هلاك	helaq[١٨]
البتّة	helbèt[١٩]
خندق	hendèk
حكيم	heqim[٢٠]
حركة	hereqèt[٢١]
حساب	hesap
حيلة	hile
حصة	hise
حدود	hudud[٢٢]
خُرج	hurxhe
حُكم (سلطان)	hyqëm
حكومة	hyqymèt
خدمة	hyzmèt
حُجة	hyxhèt[٢٣]
اقرار	ikrar[٢٤]
علاقه	ilaka[٢٥]
علاج (دواء)	ilaxh
علة (عيب)	ilèt
إمام	imami
عناد	inad[٢٦]

انسان	insani
أكرام	iqiram[٢٧]
إثبات	ispati[٢٨]
استعفاء	istifa[٢٩]
ان شاء الله	ishalla
اعتبار (إجلال)	itibar
إذن	izen
يهودي	jahudi
يعني (بمعنى كذا)	jani
اسير	jesir
يتيم	jetim
قبول (استحسان)	kabullë
قطيفة (مُخمل)	kadife
قهوة	kafe
قهر	kaher[٣٠]
قلعة	kala
قلم	kalèm
قلب	kallp[٣١]
قرنفل	karajfil
قرار	karar[٣٢]
قصّاب (لحّام)	kasap
قساوة	kasavèt[٣٣]
قصد	kast
قاتل	katil
قول	kaull[٣٤]
كافر	kaurr

١) م– ٢) غيرة ، نشاط– ٣) خصي– ٤) فائدة– ٥) جمهور– ٦) نوع من الحلوى يضاف اليه الجوز واللوز– ٧) دواء بشكل حب– ٨) سجين– ٩) مُقفر– ١٠) ضريبة– ١١) عاهر– ١٢) الحرفان xh يُلفظان كالجيم في لبنان– ١٣) النجيليات graminées – ١٤) بغض، حسد– ١٥) sh تُلفظان كالشين– ١٦) مراعاة شخص– ١٧) كنز– ١٨) خامر ماله– ١٩) بلا شك– ٢٠) طبيب– ٢١) فائدة– ٢٢) حد– ٢٣) وثيقة تملك، عقد مخطوط– ٢٤) وعد– ٢٥) قريب كالعم ونحوه– ٢٦) بغض ، حقد– ٢٧) ترحيب– ٢٨) شاهد– ٢٩) تخلٍ ، استقالة– ٣٠) م– ٣١) زائف (نقد)– ٣٢) حد– ٣٣) م– ٣٤) اتفاق ، عقد.

قيامة	kjamèt(١
قُبَّة	kube
كلّه	kulihû(٢
قُمري	kumri (٣
قُرعة	kura(٤
قرآن	kurâ
قربان	kurbân
قصور	kusur(٥
قيمة	kymèt
قوة	kyvèt
لذة	lezèt
مادة	made
محلّة	mahllë (٦
مائي	mavi(٧
مرهم	mehlem
ميدان	mejdan
ممكن	mymqim
مهندس	mendiz
محكمة	meqeme
مرعى	mera(٨
مرام	meram
مرمّة (ترميم)	meremèt
مُركب	mereqèp
مرجان	mergjàn
ميّت	met(١٠
معدة	mide
منارة (مئذنة)	minare
مصر	Misir
مجلس	mishlis
محبة	muhabèt(١١
مسافر	musafir(١٢
مُفتٍ	myfti
مُلك	mylk
مملكة	mymleqèt(١٣
مُشمَّع	myshamâ
مِسك	myshk
مُشترٍ	myshteri(١٤
نافلة	nafile (١٥
ناحية	nahije(١٦
نيّة	najèt
نفر	nefér(١٧
كِبر	qiber
رابطة	rabitàh(١٨
رديف (بالمعنى العسكري)	radif
رائحة	raha
راحة	rahàt(١٩
رجاء	rixha(٢٠
صباح	sabàh(٢١
صبر (اصطبار)	saber
صبي صغير	sabi
ساعة	sahàt
سلطنة	salltanèt(٢٢
سبب	sebèp
صدف	sedèf(٢٣
صفاء	sefa(٢٤
سلامة	selamèt
صندوق	senduk
ثواب	sevap (٢٥
شرط	shart
شيطان	sheitan
شريعة	sherjat(٢٦
شر	sherr(٢٧
شهرة	shyhrèt(٢٨
شكر	shyqyr(٢٩
سلطان (عاهل)	sulltàn
تابوت	tabut(٣٠
تخمين	tahmin(٣١
طاقة (مقدرة)	takàt
تعليم	talim(٣٢
طمع	tamah
تمام	tamàn (٣٣
توبة	tobe
وعد	vade(٣٤
وقت	vakth
وقف	vakuf
وطن	vatàn
وكيل	veqil

١) مصيبة– ٢) على وجه كلي– ٣) يمام هندي– ٤) نوبة tour – ٥) ذنب–
٦) حي من احياء مدينة– ٧) لازوردي– ٨) مرعى مشترك بين الاهالي– ٩) حِبر–
١٠) جثة– ١١) محادثة– ١٢) ضيف– ١٣) اقليم، وطن– ١٤) زبون– ١٥) سُدًى–
١٦) اقليم– ١٧) جندي– ١٨) واسطة– ١٩) مستريح– ٢٠) توسل، عريضة–
٢١) فجر– ٢٢) اجمة– ٢٣) عرق اللؤلؤ (في اللغة العامية)– ٢٤) راحة، لذة–
٢٥) عمل صالح، حسنة– ٢٦) الشرائع التركية– ٢٧) خيانة، خداع– ٢٨) عيد–
احتفال– ٢٩) الشكر لله تعالى– ٣٠) محمل جثة ميت– ٣١) ارجحية– ٣٢) تدريب،
تمرين عسكري– ٣٣) على وجه الدقة، بالضبط– ٣٤) اجل معيّن لدفع دين او نحو ذلك.

وسوسة	vesveses ١)	جلاد	xhelàt	زعفران	zafràn
ولاية (اقليم)	vilajèt	جيب	xhep	ضعيف	zahif ٥)
وجود	vixhud ٢)		xhevahir	زنبق	zamàk
جادة	xhade ٣)	جوهر (حجر كريم)		زمان	zamàn
جاهل	xhahil ٤)	جواب	xhevap	صنعة	zanatë ٦)
جامع (معبد)	xhami	جزاء	xheza	ضبط	zapt ٧)
جنة (دار النعيم)	xhehnèt	جن	xhin		
جهنم	xhehenèm	عمر	ymer		

بعض الكلمات اليونانية المقتبسة من العربية

تنبيه – قد طبعناها بالابجدية اليونانية ، وبجانب كلٍ منها تعيين لفظها بالحروف اللاتينية بقدر الامكان .

هاون	khavâni	χαβάνι	حب	khâpi ١٣)	χάπι
حوض	khavouza	χαβοῦζα	حرامي ١٤)	kharâmiss	χαραμής
حظ	khàzi ٨)	χάζι	حرام	kharâmi ١٥)	χαράμι
حاضر	khazîri	χαζίρι	خراج	kharâtsi	χαράτσι
حيوان	khayvâni ٩)	χαϊβάνι	خروب	kharoupi	χαρούπι
خير	khayri ١٠)	χαΐρι	قصاب (لحام)	khaçâpiss	χασάπης
حلال	khalâli	χαλάλι	خزنة	khasness	χασνές
حلوى	khalvâss ١١)	χαλβᾶς	خسارة	khaçoura	χασοῦρα
حال	khâli	χάλι	حاج	khatzîss	χατζῆς
خليفة ١٢)	khalifiss	χαλίφης	حبس (سجن)	khapsi	χάψη
حلقة	khalkass	χαλκᾶς	خدمة	khousmêti	χουσμέτι
حمال (عتال)	khamâliss	χαμάλης	بقال	bakâliss	μπακάλης
حمام	khamàmi	χαμάμι	بهار	bakharikâ ١٦)	μπαχαρικά
خبر	khabâri	χαμπάρι	بلاء	bélâss ١٧)	μπελᾶς
خان (فندق)	khâni	χάνι	بستان	bostâni ١٨)	μποστάνι
خندق	khandaki	χαντάκι	بخار ١٩)	boukharîdha	μπουχαρίδα
خنجر	khandzâri	χαντζάρι	ابريق	brîki	μπρίκι

١) شك ، تهمة – ٢) داخل الجسم – ٣) طريق كبير – ٤) قاسٍ – ٥) مراض – ٦) حرفة يدوية – ٧) تسلط الانسان على ذاته – ٨) لذة ، ملهى – ٩) ما يحصل عليه من الدواب – ١٠) فائدة، تقدم – ١١) نوع من الحلوى مصنوع بالدقيق – ١٢) من خلفاء المسلمين – ١٣) دواء بشكل حب – ١٤) سارق – ١٥) لعنة – ١٦) التوابل – ١٧) هموم، كروب – ١٨) مبقلة – ١٩) مدخنة . الحرفان dh يدلان على الذال .

إبريسم	briçimi[١]	μπρισίμι
امير	amirass	ἀμιρᾶς
زمان	zamâni	ζαμάνι
زهر (في لعب النرد)	zâri	ζάρι
ظريف	zarifiss[٢]	ζαρίφης
ذوق	zevki[٣]	ζεύκι
ضيافة	ziyafêti[٤]	ζιαφέτι
زوج	zighoss[٥]	ζυγός
إمام	imâmiss	ἰμάμης
عِناد	inâti	ἰνάτι
قاضٍ	kadhîss	καδῆς[٦]
قنطار	kandâri	καντάρι
قيراط	karâti	καράτι
قساوة	kasavêti	κασαβέτι[٧]
قطيفة	katifess	κατιφές[٨]
قفص	kafâci	καφάσι[٩]
كساد	kéçâti	κεσάτι
كأس	kécêss	κεσές[١٠]
قبر	kivouri	κιβούρι
حِناء	kîna	κίνα
قرآن	korâni	κοράνι
قُربان (تضحية)	korbâni	κορμπάνι
قُماش[١١]	koumâci	κουμάσι
قُبة	koubess	κουμπές
قصور	kouçouri[١٢]	κουσούρι
حلقوم	loukoum[١٣]	λουκούμ
مائي	maviss[١٤]	μαβής
محصول	maksouli[١٥]	μαξούλι
مخصوص	maksouss[١٦]	μαξούς
معرفة	marafêti[١٧]	μαραφέτι
مَسخَر	maskarêvo	μασκαρεύω
شمعدان	samtâni	σαμτάνι
محلّة	makhalass[١٨]	μαχαλᾶς
ميدان	meïdâni	μεϊντάνι
مرمّة (ترميم)	meremêti	μερεμέτι
مرجان	mertzâni	μερτζάνι
مُرتد	mourtâtiss[١٩]	μουρτάτης
مشمّع	mouçamass	μουσαμᾶς
مسافر	mouçafîriss[٢٠]	μουσαφίρης
مُشترٍ	moustérîss[٢١]	μουστερής
مُفلس	mouflouziss	μουφλούζης
مُفتٍ	mouftiss	μουφτής
نارنج	nérandzâki	νεραντζάκι
نشاء	nicestess	νισεστές
طبل	daouli[٢٢]	νταούλι
دولة	devlêti	ντεβλέτι
دلّال	délâliss	ντελάλης
دف	dêfi	ντέφι
ديوان	divâni[٢٣]	ντιβάνι
دنيا	douniass	ντουνιᾶς
راوند	ravendi	ραβέντι
رعية	raïyâss[٢٤]	ραγιᾶς

١) خيط حرير — ٢) لبق — ٣) لذة، ملهى — ٤) وليمة — ٥) شفع. الحرفان gh يدلان على الغين — ٦) قاضٍ شرعي عند المسلمين — ٧) غم — ٨) مُخمل — ٩) شُباك، حاجز مصنوع بقُضبان حديد او خشب — ١٠) طاس — ١١) بمعنى نسيج في اللغة العامية — ١٢) عيب — ١٣) الحلوى المسماة راحة الحلقوم في اللغة العامية — ١٤) أزرق مُشبع — ١٥) محصول الارض، حصاد — ١٦) بتعمد — ١٧) واسطة، حيلة — ١٨) حي من احياء مدينة — ١٩) كافر — ٢٠) ضيف — ٢١) زبون — ٢٢) طبل طويل رقيق — ٢٣) مقعد طويل ذو مسند للظهر او بدونه — ٢٤) اسم كان يطلق على رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين.

راحة	rakhâti	ραχάτι
رذيل	réziliki(١	ρεζίλικι
رجاء (التماس)	ritsass	ριτσᾶς
رُشوة	rousfêti	ρουσφέτι
سقّاء	sakkàss(٢	σακκᾶς

في ختام هذه المقالة الطويلة التي اقتضت نحو مئة ساعة ، اكثرها موقوف على البحث المملّ في قواميس عدة لغات اوربية ، للعثور على ما فيها من الكلمات العربية ، يسوغ لنا التصريح بدون ادنى ريب ، بان لغتنا الجميلة المجيدة قد اثرت تأثيرًا ذا درجات متباينة من الشدة في نحو مئة من لغات العالم ولهجاته ، ومن جملتها ارقى اللغات الاوربية. فحسبنا ذلك فخرًا يدوم الى منتهى الاجيال ويحثنا على زيادة التعلّق بلساننا وبذل اقصى الجهد لتحسينه وتوسيع نطاق آدابه . والحمد لله تعالى ، الينبوع الفيّاض لكل انواع الخير ، فانه قد خصّ لغتنا بذلك التأثير العجيب في عدد كبير من الالسن.

١) استهزاء ، عار — ٢) حامل الماء في السِقاء الى البيوت في الزمن الماضي.

وصف اناجيل سطرنجيلية سريانية مصورة

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

تفرّغ رهطٌ من احبار السريان واكليروسهم ورهبانهم لنساخة كتاب الاناجيل الاربعة المقدّسة بحروف سطرنجيلية سريانيّة غاية في الرونق والبهاء. وتأنقوا التأنق كله في تدوينها. فنمقوا عناوينها وفصولها بماء الذهب وضروب المداد. ودبجوا بعض صفحاتها برسوم ظريفة دقيقة ذات الوان زاهية أنيقة تدهش الأبصار وتخلب الألباب. ورصعوا دفة الكتاب بالذهب والفضة وطعّموها باللآلئ والجواهر الكريمة. وحلّوا اطرافها برسوم الانجيليين الاربعة. ووشحوا وسطها بالصليب الخلاصي مع آية المزامير «بك ننطح مضايقينا. وباسمك ندوس القائمين علينا» (مز ٤٣: ٦). وفرضوا على الشماس او الكاهن ان يبخر الكتاب حين التطواف به في الكنيسة وحين ترتيله في واتنا. الصلوات الاستغفارية ܣܘܓܝܬܐ. اخيرًا استعرضوه في منصة عالية خصوصية ليقبله المؤمنون ويتباركوا به. ذلك كله يبرهن عمّا للمؤمنين خاصتهم وعامّتهم من التجلة والتكريم لكتاب الله عزّ وجلّ. وعمّا تفرّد به الخطّاطون الافذاذ من التأني والبراعة والذكاء في فنّ الرسم الجميل.

ولم يقتصر السلف الصالح على ذلك كله بل أحصوا آيات الاناجيل الاربعة احصاء مدققًا وضبطوها في ٩٢٢٤ آية. منها ٢٥٢٢ آية لانجيل متى الرسول. و١٦٧٥ آية لانجيل مرقس البشير. و٣٠٨٣ آية لانجيل لوقا البشير. و١٩٤٤ آية لانجيل يوحنا الرسول.

وبعد هذا كله نظموا الفصول تنظيمًا دقيقًا محكمًا طبقًا للطقس السرياني القديم موزعًا على الاحاد والاعياد السيدية وتذكارات الرسل والشهداء. والملافنة والقديسين والقديسات والاصوام واسبوع الالام. فأفرزوا لكل منها ثلاثة فصول: لصلاة المساء. والصباح والقداس.

بيد ان عددًا صالحًا من تلك المصاحف الثمينة النادرة المثال قد اخذته يد الضياع بسبب الحروب والفتن والغوائل وسائر حوادث الدهر. ولم يبق منها

الّا النادر العزيز . ونحن بدورنا اطلعنا على مخطوطتين نفيستين من الاناجيل الكريمة المصوّرة توخينا ان نصفها على صفحات المشرق الاغر وهما ١ً – مخطوطة مكتبة فلورنسة ٢ً – مخطوطة المكتبة الفاتيكانية :

اولاً – مخطوطة مكتبة فلورنسة

هذه التحفة الانجيلية النفيسة قد رقشها الراهب رابولا السرياني اللوذعي ببراعته الدقيقة ووشّاها برسوم لطيفة انيقة وجداول متقنة في دير مار يوحنا بجانب زغبا او زغبة احدى مدن سورية الواقعة غربي الفرات . وانتهى من كتابتها وتنسيقها عام ٥٨٦ م . وكانت تلك النواحي يومئذ خاضعة لامراء غسّان النصارى حلفاء ملوك الروم[١] وعلى كرور الاحقاب حصلت تلك الخريدة البهية في حوزة بطاركة السريان الموارنة بلبنان نحو القرن الثالث عشر للميلاد . اذ ورد فيها ذكر ستة منهم وهم : البطريرك دانيال الحدشيتي (١٢٧٨–١٢٨٢) والبطريرك ارميا الدملصاوي (١٢٨٢ – ١٢٩٧) والبطريرك يوحنا الجاجي (١٤٠٤ – ١٤٤٥) والبطريرك يعقوب الحدثي (١٤٤٥ – ١٤٦٨)[٢] والبطريرك بطرس حسّان الحدثي (١٤٦٨ – ١٤٩٢) والبطريرك شمعون الحدثي (١٤٩٢ – ١٥٢٤) .

وبعد هذا التاريخ انتقلت هذه المخطوطة الثمينة الى فلورنسة بايطالية وُضِعت الى مكتبتها الشهيرة . واستوفى وصفها عام ١٧٤٢ العلّامة السيد اسطفان عوّاد مطران افاميا الماروني في صدر مؤلفه المشتمل على وصف المخطوطات السريانية والعربية المصونة في تلك المكتبة العامرة . ووشّى وصفه هذا بما انطوت عليه تلك المخطوطة الجميلة من الصور الشائقة والجداول او اللوائح المحكمة . والى القرّاء وصف تلك الصور البالغة ٢٦ صورة :

الصورة الاولى

تمثّل هذه الصورة البهيّة سيّدنا يسوع المسيح عز شأنه يحدق به رسله الابرار . وقد كتب رابولا الناسخ اسماء كلٍّ من بطرس ويعقوب وتوما في السريانية ورسم في اسفلها صورتي مرقس ولوقا البشيرين

١) مخطوطة لندن ١٢٥٤ صفحة ٧٠٦ وفيها ذكر بولس رئيس دير مار يوحنا في زغبا .

٢) روى البطريرك الدويهي في تاريخه ان البطريرك يعقوب توفي عام ١٤٥٨ وخلفه البطريرك بطرس (تاريخ الازمنة . طبع الاب فردينان توتل اليسوعي : ٢١٠ و٢١١) .

الصورة الثانية

تمثل سيدتنا مريم العذراء المغبوطة حاملة طفلها يسوع الحبيب على ذراعيها وهي واقفة ضمن هيكل يعلوه نسران في ناحيتيه كلتيهما .

الصورة الثالثة

امونيوس الاسكندري واوسابيوس القيصري واقفين . وقد اثبت الناسخ النجيب صورتيهما لانهما يُعدّان في طليعة الذين ضبطوا فصول الاناجيل وعناوينها .

الصورة الرابعة

اورد الناسخ تحت اسم « قانون » ما اتفق في كتابته وتدوينه الانجيليّون الاربعة او الثلاثة او الانجيليان . وكسّر ذلك على عشرة قوانين : فالاول انطوى على ما اجمع الانجيليون الاربعة على اثباته . ونقش هناك صورة موسى الكليم وصورة اهرون اخيه . ثم صور جبرائيل رئيس الملائكة وزكريا الكاهن وحمامتين وخروف يرعى .

الصورة الخامسة

يشاهد في الوسط رسم سيدتنا مريم العذراء وآية « ها انا أمةٌ للرب » . ورسم جبرائيل رئيس الملائكة وآية « السلام لك يا مريم يا ممتلئة نعمة ». ثم صورة يشوع بن نون وسموئيل الكاهن . واشكال حمام وحجل وأيائل

الصورة السادسة

تمثل هذه الصورة الانيقة الدقيقة ميلاد سيدنا يسوع المسيح . وداود الملك وابنه سليمان . وفي اسفل الصورة اطفال بيت لحم واربعة فتيان

الصورة السابعة

القانون الثاني . يتضمن ما اتفق في تدوينه ثلاثة انجيليّين . ويشاهد في الوسط رسم العذراء مريم وخطيبها القديس يوسف . وفي العلو صورة هوشع ويوئيل النبيّين . وهناك ست اجاجين عرس قانا الجليل وصورة رجلَين .

الصورة الثامنة

تمثل النبيَّين عموس وعوبديا وشجرتين لطيفتَين. والى اليمين شخصان واقفان. والى اليسار شخصان كذلك وامرأة.

الصورة التاسعة

يونان النبيّ راقدًا في ظلّ خروعةٍ والى يساره ميخا النبيّ وفي وسط النبيّين صورة العذراء المغبوطة ومار يوسف خطيبها . ثم صورة العذراء كذلك واليشباع نسيبتها . وهناك اشكال حمامات وغزلان وما اشبه ذلك من الطيور .

الصورة العاشرة

صورة ناحوم وصفنيا النبيّين . وعبارة ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ بسم الله الحيّ » وفي الوسط صورة سبعة فتيان . وعلى هذه الصفحة كتب البطريرك ارميا الدملصاويّ (١٢٨٢ — ١٢٩٧) بخطّ يده في السريانيّة يصف زيارته للبطريرك دانيال سالفهِ وسيامتَه مطرانًا ثم بطريركًا . وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد .

الصورة الحادية عشرة

القانون الثالث . ينطوي كذلك على ما اتّفق في تدوينه ثلاثة انجيليّين . وهناك قبّة بديعة حولها اربع حمامات . وصورة ايّوب الصدّيق واشعيا النبيّ . وثلاثة فتيان في اسفلهم صورة ثور .

الصورة الثانية عشرة

القانون الرابع . يحوي كذلك ما اتّفق في كتابته ثلاثة انجيليين . وهناك قنطرة الى يمينها حبقوق النبيّ والى يسارها حجّاي النبيّ . وفي الوسط شخصان واقفان وفي اسفلها صورة وعل .

الصورة الثالثة عشرة

القانون الخامس . يتضمّن اتفاق انجيليّين في ما كتباه . وتشاهد صورة ارميا وزكريا النبيّين وقنطرة حولها حمامتان واربعة اغصان زنبق . وفي الاسفل ثلاثة فتيان وسوسنة .

الصورة الرابعة عشرة

حزقيال ودانيال النبيّان يعلوهما شكل طاووسين جاثيين بينهما اناء زهر (مزهريّة) وزنبقتان . ثم ثلاثة فتيان وشخص يبارك بيمينه .

الصورة الخامسة عشرة

القانون السادس . يتضمّن كذلك اتّفاق انجيليّين في ما دوّناه . وصورة

النبيّن ملاخي واليشاع . وفي الوسط الانجيلي يبارك بيمينه . وبيساره كتاب الانجيل . وهناك رجل آخر جالساً وبيده درج . ويُشاهَد كذلك قبة فوقها حجلتان يتوسّطها اناء زهر .

الصورة السادسة عشرة

القانون السابع . يتضمّن كذلك ما اتّفق في اثباته الانجيليان . والى اليمين متّى الرسول يبارك بيمينه وفي يساره صحيفة مرقومة بالسريانيّة . والى اليسار يوحنا الرسول وبيديه كلتيها دَرْج دُوِّن فيه الآية الاولى من انجيله : ܒܪܫܝܬ ܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܡܠܬܐ . ܘܗܘ ܡܠܬܐ ܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܠܘܬ ܐܠܗܐ في البدء كان الكلمة . والكلمة كان عند الله » .

الصورة السابعة عشرة

القانون الثامن يشتمل على ما رواه البشيران مرقس ولوقا . وقد رسم الخطّاط رابولا صورة البشيرَين المومأ اليهما . فمرقس يبارك بيمينه وكتاب الانجيل بيساره ، ولوقا يبارك بكلتا يدَيه حاملًا كتاب الانجيل .

الصورة الثامنة عشرة

القانون التاسع . يتضمّن ما اتّفق في تدوينه لوقا ويوحنا . والى اليمين ثلاثة اشخاص والى اليسار شخصان . وهناك قبة مستديرة تكتنفها اشكال حمام وحجل .

الصورة التاسعة عشرة

ما تفرّد في كتابته متّى الرسول دون الانجيليين الثلاثة . وقد رسم رابولا النجيب بريشته الدقيقة ثلاثة فتيان فوق زنبقة . وثلاثة اشخاص بيد الوسطاني كتاب الانجيل الشريف وكلا الشخصَين يصغيان اليه . وفي اسفل الرسم شخص بيمينه عصا وقد وضع يسراه على كتف صبي .

الصورة العشرون

القانون العاشر . ما تفرّد بكتابته مرقس البشير . وتشاهَد صورة سيّدنا يسوع المسيح عزّ شأنه ممتطياً جحشاً والى يمينه بطرس رئيس الرسل وامامه اربعة فتيان يفرشون سعف النخل في الطريق . والى يسار المخلّص الرسل الاحد

عشر وقد مدّ يسوع يده لينهض احدهم. وحول القبّة صنوف طيور مجنحة. وهي صورة غاية في الروعة والبهاء والجمال.

الصورة الحادية والعشرون

القانون العاشر ايضاً. يتضمّن ما تفرّد بكتابته لوقا البشير. وتُشاهَد صُوَر الانجيليين الاربعة في يد احدهم سعف نخل وفوقهم قبّة مستديرة حولها اشكال زهور وطيور. والى اليسار صورة يهوذا الدافع وكتابة سريانيّة تعريبها: «ذهب يهوذا الاسخريوطيّ واشترى مخنقة وخنق حلقه في شجرة» وتُشاهد تحت يهوذا حبال ضخمة.

الصورة الثانية والعشرون

القانون العاشر ايضاً. يشتمل على ما تفرّد في تدوينه يوحنا الرسول وتشاهد صورته والى جانبه فتى واقفاً والى يساره شخص يبارك. وهناك قنطرة حولها سنابل ملتفّة وفوقها حمامات جاثمة.

الصورة الثالثة والعشرون

أجمع الأثريّون البيعيون على ان هذه الصورة التي رسمها الراهب رابولا السرياني ليسوع فادي العالمين معلّقاً على الصليب هي باكورة صور يسوع المصلوب على الاطلاق[1]. فقد رسم هذا المصوّر الحاذق الورع صورة المخلّص عزّ شأنه موشحاً بثوب ارجوانيّ مذهّب وهامته المقدّسة مزدانة بشعاع منير بهيّ فوقها كتابة كلمتين سريانيّتين ܡܫܝܚܐ ܡܠܟܐ ܕܝܗܘܕܝܐ وتعني ملك اليهود». والى يمين الكتابة ويسارها الشمس والقمر. وصوّر ذراعي الفادي معرّين ويديه وقدميه مسمّرة باربعة مسامير والى يمين المصلوب ويساره اللصّان عليهما ازار يستر عريهما فقط. ثم يشاهَد الى يمين المصلوب العذراء الحزينة ويوحنا الحبيب. والى يساره ثلاث نساء.. وتحت المصلوب ثلاثة رجال يُلقون القرعة على ثيابه. ويشاهَد كذلك لنجينوس القائد الى يمين المصلوب يطعنه بحربة واسمه مكتوب بحروف روميّة. والى اليسار جنديّ يقدّم ليسوع اسفنجاً مبتلاً بخلّ ومرارة.

وتحت هذه الصورة المؤلمة المؤثرة يشاهد في الوسط ملاك يدحرج الحجر عن

1) المشرق ٧ (١٩٠٤) ٢٩٨-٣٠٠

باب القبر. وفي اسفل القبر جنديّان راقدان . والى اليمين يسوع المخلص يبارك امرأتين جاثيتين. والى اليسار ملاك يبشّر العذراء. والمجدلية بالقيامة المجيدة.

الصورة الرابعة والعشرون

قيامة يسوع المخلّص وصعوده ممجدًا ظافرًا. والى يمينه ويساره اربعة ملائكة، وهناك جماعة الرسل الاصفياء. بيد احدهم عصا يعلوها صليب. وفي وسط الرسل ملاك متوشحاً بحلة لطيفة يخاطبهم عن صعود الربّ الى السماء.

الصورة الخامسة والعشرون

يسوع الفادي مستوياً يبارك الحضور بيمينه . يكتنفه انجيليّان الى يمينه وانجيليان الى يساره بيد احدهما كتاب الانجيل المقدّس. ويعلو الصورة شكل طاووسين غاية في الروعة والجمال.

الصورة السادسة والعشرون

تمثل الروح القدّوس هابطاً من السماء بشكل حمامة بديعة على سيّدتنا مريم العذراء. في علّية صهيون يحفّ بها آباؤنا الرسل الاثنا عشر فوق هامة كلّ منهم شكل لسان ناريّ. وقد رفعت العذراء يمينها تباركهم. وفوق القنطرة يميناً وشمالاً ثماني سنابل خضراء جميلة. وتُعدّ هذه الصورة من أبدع الصور وأروعها وألطفها.

٥

تاريخ نساخة المخطوطة معربة عن السريانية

اثبت الراهب رابولا في الصفحة ٢٩٢ من مخطوطته هذه البديعة ما تعريبه:

« المجد للآب والابن والروح القدس . الذي عضد عبده الخاطئ الذليل ربولا الناسخ فكتب هذا الكتاب . اني انوسّل الى كلّ من يطالعه ان يصلي لاجلي كي يتحنّن الربّ عليّ تحننّه على اللص اليمين بشفاعة القديسة مريم والدة الله الدائمة بتوليّتها وبأدعيتكم يا اخوتي رهبان دير مار يوحنا . انتهى الكتاب في نصف شهر شباط سنة ٨٩٧ للاسكندر (٥٨٦م) . . في دير مار يوحنا في زغبا . بأيام محبّ الله القسّ سرجيس رئيس الدير . وتوما المفيف والقسيسين توما وسرطور . والشمامسة حبش وناطلقنا ودديان وسائر الرهبان . نسأله تعالى ان يصون الدير وساكنيه من الاضرار الخفيّة والجليّة . ويجعل الامن والسلام سائدًا في الدنيا كل الايام بجاه الشهداء محبّيه ومحبّي ظهوره وقد ماتوا على رجائه .

« فليكن بتذكار صالح امام الله ومسيحه وروحه الحيّ القدّوس لمن تعب في هذا الكتاب وكتبه. فليؤهّله المسيح الاهنا في مجد ملائكته للقيامة المباركة من بين الاموات ويُسمه

العبارة المنمة بهجة وهي : « نعمّا يا عبدًا صالحًا وامينًا . كنتَ امينًا في القليل . انا اقيمك على الكثير . ادخل الى فرح سيّدك » بجاه الرسل المنبوطين والقدّيسين الذين اكملوا مشيئته تعالى آمين

« كلّ من يطالع هذا الكتاب فليصلِّ لاجل أصفياء الله الاعفّاء المستأهلين الذكرى الصالحة : القس يوحنا والشماس يوحنا المتوفّيين . لانه بجهودهما تمّ انشاء مكتبة الدير . ولاجل كرسطفور الفاضل الزاهد والقس مرطور والفقيه دميان الذين انجزوا العمل بهمّتهم ونظّموا وقابلوا وجلّدوا هذه الكتب ووضعوها في دير مار يوحنا في زغبا . ولاجل كلّ من شاركهم في ذلك . فليبارك ربنا والاهنا ومخلّصنا يسوع المسيح كلّ ما لهم حاضرًا وغائبًا . ويجعل ذكرًا صالحًا لامواتهم ورجاء مباركًا لخلاصهم . ويبلغهم نصيب القدّيسين عندما يدعوهم ويقيمهم من التراب قائلًا لهم : « هلمّوا يا مباركي ابي رثوا الملكَ المعدّ لكم منذ انشاء العالم » . بصلوات الكنيسة المؤمنة جماء المنتشرة في اقطار الارض كلّها وبشفاعة سيّدتنا مريم والدة الله الدائمة بتوليّتها .

« هذا الكتاب يخصّ رئيس دير مار يوحنا المعدّس في زغبا . كلّ من يأخذه او يطلبه ليطالعه او ينقل عنه او يقابله ويستبدّ به او يقطع منه ورقة مكتوبة او غير مكتوبة تكون حصّته مع سرّاق المقدس .

« بعد وفاة القسّ رومانس زائر انطاكية قد وُهب هذا كتاب الانجيل لكنيسة مار جرجس . ليكون ذكرًا صالحًا للقس رومانس المذكور ولقسطنطين رفيقه . نسأله تعالى ان يجعل لها ذكرًا صالحًا في قيامة الابرار والصدّيقين . بشفاعة الام المباركة وجميع القدّيسين آمين . واذا تأسّست كنيسة غيرها في المدينة فليكن هذا الكتاب لها في كلّ حال » .

وجاء في الصفحة ١٧ من مقدّمة الكتاب عند الصورة العاشرة بخطّ يد البطريرك ارميا الدملصاوي ما تعريبه :

« في السنة ١٥٩٠ يونانيّة (١٢٧٩ م) في ٩ شباط جئتُ انا الحقير ارميا من قرية دملصا المباركة لزيارة البطريرك بطرس (دانيال الحدشيتي بطريرك الموارنة (١٢٧٨ – ١٢٨٣) في دير سيّدتنا مريم (العذراء) بيقوق بوادي ايليج ببلد البترون . فوضع اليد عليّ ونادى بي مطرانًا على دير كفتون المقدّس المؤسس على ضفّة البحر . ومكثت هناك (أيّامًا) . وكان يسكن الدير يومئذ الرهبان : حزقيّال واشميا ودانيال ويشوع وايليا وداود ورفاقهم وهم ٣٢ راهبًا .

« وبعد اربع سنوات (سنة ١٢٨٣) استدعاني ملك جبيل مع الاساقفة والمتوارنة والقسّان والقوا القرعة فوقعت عليّ ونصبوني بطريركًا في دير حالات المقدّس . ثم ارسلوني الى رومية المدينة العظمى فالتقتُ اخانا الاسقف ثيودورس ليسوس الرعية ويحافظ عليها » .

وبعد ذلك ورد ما مفاده :

« في ٨ ايلول ١٤٦٥ ؟ (١٤٦٥ م) حضر عندي انا بطرس بطرك الموارنة (بطرس

يوحنا الحاجي ؟ (١٤٠٦ — ١٤٤٥) الجالس على الكرسي الانطاكي والمقيم في دير سيدة ميفوق بوادي ايليج: ولدنا الراهب اشعيا من دير قزحيا فنصبته رئيساً على الرهبان المقيمين في دير مار يوحنا دير الكوزبندو بجزيرة قبرس . حسبما ورد من اولادنا الرهبان بخط ايديهم وهم : جبرائيل وشمعون وحبقوق وميخائيل . وللرب المجد آمين ».

يلي ذلك بخط البطريرك يوحنا الحاجي عينه :

« انا بطرس يوحنا الحاجي بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي والقاطن دير سيدتنا مريم (العذراء) بميفوق . حضر عندي من دير كوزبندو القس متى الجليل الفنيف . فدفعت له ثلاثمائة دينار وزجاجة ميرون لاجل ذلك الدير . وكتاب توراة موسى باللغة العربية . وكتاب الناموس وكتاب الايمان . ولله المجد الى الابد » .

ثم ورد كذلك ما خلاصته :

« لما كان تاريخ ١٧٧٢ لليونان (١٤٦١ م) اوقف الخوري جرجس والخوري هلال القيمان في دير حوقا . . . لدير سيدة قنوبين المبارك دستاً كبيراً . . . وكان الوقف في زمان ابينا ومعلمنا ورئيسنا وتاجنا ومدبرنا البطريرك مار يعقوب (الثالث الحدثي) ، (١٤٤٥ — ١٤٦٨) . . .

ثم ورد ايضاً :

« لما كان تاريخ سنة ١٧٧٣ من سني اسكندر (١٤٦٢ م) اوقف البطرك يعقوب العصا البلور لدير قنوبين المبارك عن روحه وعن الاب البطرك بطرس (يوحنا الحاجي) . من يخرجه من الدير المبارك او يدعي انه له او يرهنه او يبيعه يكون محروماً مفروزاً مغضوباً ومسخوطاً من الله ومن كرسي مار بطرس ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا » .

وجاء في الصفحة ٢٠ من المقدمة :

« لما كان تاريخ سنة ١٨٠٤ يونانية (١٤٩٣ م) اوقف البطريرك بطرس بن داود بن حسان (١٤٦٨ — ١٤٩٣) من قرية الحدث : البدلة الحمراء والعصا الفضة .. عن نفسه لدير سيدة قنوبين . . . وشهد على ذلك الاب المطران جرجس من قرية حاج . والخوري سمعان ابن عميد من قرية الحدث وكاتبه دانيال . . . »

اخيراً ورد في ذات المخطوط ما نصه :

« لما كان تاريخ سنة ١٨٢٧ يونانية (١٥١٦ م) ارسل بابا رومية (لاون العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) الى البطريرك بطرس بن داود المكنى ابن حسن من قرية الحدث المباركة على يد الراهب فرنسيس رئيس القدس وترجمانه : غطا مذبح وكفاً مزركشاً . . . وحللاً كهنوتية مقصبة بذهب . . . وبدلة مزركشة بذهب وفضة . وغفارتين مزركشتين وتاجاً مرصعاً باللؤلؤ . وثلاث بدلات جوخ . وبدلتين جوخ لالياس بن يوسف مقدم الموارنة . وعشر بدلات جوخ لرهبان الدير » .

وهناك عدّة كتابات تنوّه باوقاف دير قنوبين في كفرشيخنا وداريا وكفرزينا وكفرفو وسرعل أضربنا عن اثباتها .

فيتحصل من كل ما سبق ان هذا كتاب الانجيل المصوّر ظل اكثر من ثلاثة قرون في حوزة البطريركية السريانية المارونية ثم انتقل في القرن السادس عشر الى فلورنسة . ولا يزال يزين مكتبتها العامرة حتى يومنا .

ثانياً – مخطوطة المكتبة الفاتيكانية

حصلت هذه مخطوطة الاناجيل السطرنجيلية الموشّاة باربع وخمسين صورة انيقة دقيقة ملوّنة في حوزة احبار السريان الكاثوليك الطيّبي المآثر في الموصل. انتقلت اليهم من بلدة بغديدا او خوديدا (قرقوش) العامرة . فحافظوا عليها محافظتهم على اقدس كتاب واثمن تراث . وفي السنة ١٩٣٧ تخوّف راعي الابرشية السيد قرلّس جرجس دلال الجليل ان يصيب الكتاب ما اصاب غيره من المخطوطات النفيسة. فاتفق مع الاكليرس والاعيان ونقله الى عاصمة الكثلكة ورفعه هدية بنوية باسمه واسماء اولاد رعيته الى حبر احبار بيعة الله المقدسة البابا بيوس الحادي عشر الذي امتاز بشغفه بالمخطوطات القديمة النادرة . فطالعه ورقة فورقة وابتهج الابتهاج كله بتضامينه ورسومه المزركشة اللطيفة . ثم اهداه الى المكتبة الفاتيكانية العامرة وسجّله مديرها الفاضل تحت رقم ٥٥٩ .

ثم اوعز الحبر الاعظم البابا بيوس الثاني عشر الى المستشرق اليسوعي الافرنسي الشهير G. de Jerphanion فتولّى وصف المخطوطة يساعده في عمله رهط من اساطين المكتبة فاكب على ذلك حتى السنة ١٩٤٠ ونشر مجلّدين بعنوان « تصاوير فنية » ضمّن احدهما وصف الكتاب وثانيها وصف الصور . فجاء مؤلفاً فريداً خطيراً يجدر بمكتبات الغرب والشرق ومحبي الآثار الدينية ان يقتنوه كي يقفوا على براعة الخطاطين السريانيين وعبقريتهم .

على اننا اطلعنا نحن على تلك المخطوطة النفيسة قبل نقلها الى رومية وقلّبنا صفحاتها ولحصنا مضامينها . وهي تنطوي على ٢٣٨ ورقة اعني ٤٧٦ صفحة في كل صفحة ٢٣ سطراً. طولها ٤٤ س. في عرض ٣٢ وسمك ١١ كتبت عناوينها بحبر احمر ومتونها بمداد اسود . ما عدا عشرة فصول ترتل في المواسم الكبيرة

دوّنها الناسخ العبقري بحروف ذهبية طريفة وهي ١ – فصل احد تدشين الكنيسة ٢ – احد بشارة العذراء المغبوطة ٣ – ميلاد المخلص ٤ – عماده ٥ – دخوله اورشليم بحفاوة اوشعنا ٦ – قيامته المجيدة ٧ – ظهوره للرسل في علية صهيون ٨ – صعوده الى السماء ٩ – حلول الروح القدس ١٠ – تجلي الفادي في طور تابور .

امّا نص الاناجيل فأغلبه منقول عن النسخة المشهورة بالبسيطة ܦܫܝܛܬܐ القديمة العهد . وبعضه منقول عن الترجمة المنسوبة الى توما الحرقلي (+٦٢٨م) التي تفرّد بها السريان اليعاقبة دون سائر الملل السريانية كالملكيين والموارنة والسريان الكاثوليك والكلدان والنساطرة .

اما صور المخطوطة فهي من ادق الصور واجملها واتقنها . منها ما يتجاوز حجمه ٣٠ س طولًا و٩ عرضاً . وطول اغلبها ١٠س في عرض ٨ س. وتشاهد بعض تلك الصور مشوّهة لكثرة تقبيل المؤمنين او لسبب ما لحقها من الرطوبة ومنها ما يسترها قماش رقيق صيانة لرونقها والوانها . وهي تمثل سيدنا يسوع المسيح وتدبيره الخلاصي وعجائبه الباهرة منذ الحبل به حتى صعوده وارساله روحه القدوس .

والى القراء الاعزاء تعداد الصور مع وصف وجيز :

١ – صورة موسى الكليم وامامه مكتب كأنه متأهب ليدوّن اسفاره الخمسة . والى جانبه دلبة يعلوها شكل يد . وفي الاسفل صورة يوحنا الانجيلي الرسول منتصباً وامامه كذلك مكتب والى جانبه ارزة . وهي من ابدع ما رسمته ريشة نقاش . وفي اعلى هذا الرسم ايضاً يدٌ ممدودة كأنها تشير الى الوحي . فموسى يشير الى العهد القديم ويوحنا الى العهد الجديد .

٢ – زكريا الكاهن واقفاً في مذبح البخور والى يمينه جبرائيل رئيس الملائكة وبين كليهما حمل قد احضره زكريا ليقرّبه ضحية كالمألوف العادة في العهد القديم .

٣ – مريم العذراء المغبوطة واقفة ضمن خدرها وجبرائيل منتصباً يخاطبها . وبين كليهما حمامة لطيفة اشارة الى الروح القدس .

٤ — العذراء مريم واليشباع نسيبتها تتصافحان .

٥ — ثلاثة كهنة يتقدمهم زكريا بيده لوحة رقم عليها « ܝܘܚܢܢ ܗܘ ܫܡܗ
اسمه يوحنا » .

٦ — يوسف خطيب العذراء والملاك يخاطبه قائلاً : لا تخف ان تأخذ مريم خطيبتك . لان المولود بها هو من روح القدس .

٧ — يسوع الطفل مضطجعاً في مذود . ثم صورته كذلك يرحب بثلاثة مجوس حاملين اليه الهدايا يعلوهم نجم وملاكان . وهناك كذلك بعض الرعاة .

٨ — مريم العذراء المغبوطة وعلى ذراعيها يسوع الطفل ابنها وهي من اتقن الصور واجملها .

٩ — جنود بيدهم سيوف ليفتكوا باطفال بيت لحم .

١٠ — اطفال وامهاتهم وقد استل الجنود سيوفهم ليذبحوهم .

١١ — يسوع المخلص هارباً الى مصر . فالعذراء راكبة جحشاً وعلى ذراعيها نجلها المجيد . ويوسف خطيبها يسبقها ماشياً .

١٢ — يسوع الشاب يشتغل في بيت الناصرة .

١٣ — اسطفانس رئيس الشمامسة يرجمه اليهود . ويعلو الصورة يسوع المخلص يشجع الشهيد على احتمال العذاب .

١٤ — عماد يسوع مخلصنا . فوق هامته حمامة اشارة الى الروح القدس . والى جانبيه ملاكان بيد كل منهما منديل . وبالقرب من يوحنا دلبة لطيفة .

١٥ — يسوع الفادي يحادث تلميذي يوحنا وهما يسألانه : أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر ؟

١٦ — قطع هامة يوحنا المعمدان . فيشاهد السياف منتضياً سيفه والملاك بيده اكليل ليتوج هامة الشهيد .

١٧ — انطونيوس ابو الرهبان يحيط به اربعة منهم . فالراهبان متوشحان بالاسكيم والآخران بحلة حبرية . كأن المصور الذكي يشير الى اصطفاء الاحبار توًّا من فئة الرهبان طبقاً للتقليد البيعي القديم .

١٨ — شمعون الشيخ في هيكل اورشليم وملاك جاثم فوق شجرة دلب .

١٩ — شمعون الشيخ حاملاً يسوع الطفل على ذراعيه والى يمينه العذراء واقفة .

٢٠ — يوسف الصدّيق حاملًا زوجَي حمام . وحنّة النبيّة بيدها درج .

٢١ — يسوع المخلّص والعذراء والدته في عرس قانا الجليل .

٢٢ — المدعوّون الى العرس وبيد احد الخدّام جرّة يصبّ منها الماء في الاجاجين .

٢٣ — يسوع الفادي يشفي الابرص والابرص جاثٍ امامه .

٢٤ — قائد المائة جاثياً امام يسوع يلتمس منه ان يذهب ويشفي فتاه (متى ٨ : ٦) .

٢٥ — يسوع المخلّص يبعث ابنة يوارش من الموت .

٢٦ — قائد المائة يلتمس من يسوع ليذهب الى بيته . وتُشاهد كذلك المرأة النازفة الدم تلمس طرف ثوبه فتبرأ للحال .

٢٧ — يسوع باسطاً يديه ليفتح عينَي الاعمى .

٢٨ — يسوع في نائين يبعث ابن الارملة من الموت والجماهير تكتنفه .

٢٩ — خصّص الراهب مبارك البرطلّي صفحتَين من الكتاب دبّجها برسوم الشهداء الاربعين بيد اغلبهم سعف نخل ذو ثلاثة صلبان او صليبَين او صليب واحد . وهذه الصورة محفوظة حفظاً جيّداً .

٣٠ — يسوع المخلّص في بيت سمعان الفرّيسي . ومريم الخاطئة جاثية امامه تغسل قدَميه .

٣١ — مريم ومرتا جاثيتَين امام يسوع .

٣٢ — يسوع يبعث لعازر حيًّا من القبر ملفوف اليدَين والرجلَين

٣٣ — صورة مهيبة جميلة جدًّا تمثّل يسوع الفادي مستوياً على جحش . فالرسل والتلاميذ والجموع يحتفون به بترانيم اوشعنا . والاطفال جاثمون فوق اغصان الشجر وبيد بعضهم سعف النخل . وهناك قوم من اليهود يتفاوضون . وفي أعلى الصورة اشجار زيتون جاثمة بعض الطيور في اغصانها .

٣٤ — يسوع عند بركة بيت حسدا . والمخلّع حاملًا سريره . والملاك يرفّ فوق البركة .

٣٥ — القبض على يسوع المخلّص . ويشاهد شيخان الى اليمين ويهوذا الى اليسار يتشاورون .

٣٦ — يسوع يغسل اقدام الرسل وهو جاثٍ امام بطرس رئيسهم .

٣٧ — يسوع على مائدة العشاء السرّي . وَحَسَل وأباريق ورسم ديك .

٣٨ — يسوع والرسل وبيده كأس يقدّمها لبطرس ليشربها .

٣٩ — اليهود يقبضون على يسوع مخلّصنا .

٤٠ — اليهود يوثقون يسوع فادينا .

٤١ — بطرس رئيس الرسل جالساً عند الباب منتحباً باكياً تتحدّر الدموع من مقلتيه . ثم صورة جنديّ ويهوديّ وامرأة . وفي العلو ديكٌ يصيح .

٤٢ — يسوع المخلّص مسمَّرًا على الصليب وبجانبه العذراء والدته ولونجينس يطعن جنبه . وشرذمة من اليهود حوله .

٤٣— يسوع ينزّل عن الصليب بحضور العذراء والدته ويوحنا الحبيب والمجدليّة .

٤٤ — يوسف الرامي ونيقوديمس ينزّلان المخلّص عن الصليب .

٤٥ — يسوع عزّ شأنه منبعثاً من القبر وبيده صليب . ثم العذراء . وبعض الرسل .

٤٦ — ملاك هابط من السماء واقفاً عند القبر . ونسوة حاملات الطيوب . وقد ظهر لهنّ المخلّص . وبعض الحرّاس . واللفائف والعمامة

٤٧ — يسوع ولوقا وقليوفا تلميذا عماوس .

٤٨ — ظهور المخلّص للرسل في العلّية وتوما جاثياً امامه وقد مدّ يده ليضع اصبعه في جنب يسوع الاقدس .

٤٩ — يسوع الفادي صاعدًا الى السماء يحيط به أجواق الملائكة . ويشاهد الرسل الاحد عشر تتوسّطهم العذراء المجيدة باسطة ذراعيها . وجميعهم يتفرّسون في يسوع صاعدًا .

٥٠ — يسوع المخلّص مستوياً على العرش يبارك بيمينه وعكاز بيساره . وثلاثة رسل الى يمينه وثلاثة الى يساره .

٥١ — صورة بديعة شائقة جدًّا تمثّل الرسل الاثني عشر في العلّية وهم جالسون بهيئة مستديرة . والروح القدّوس هابطاً عليهم وألسنة ناريّة مندفقة كأشعّة الشمس فوق هامهم .

٥٢ — يسوع الفادي جالساً عند البئر يحادث السامريّة وبيدها جرّتها . وثلاثة رسل قادمين ليشاهدوا يسوع .

٥٣ – تجلّي الربّ في طور تابور الى يمينه موسى والى يساره ايليّا . وفي اسفل الصورة بطرس ويعقوب ويوحنا راقدين .

٥٤ – قسطنطين الكبير وامّه هيلانة الرهاويّة يتوسّطها الصليب الكريم وقد قبض كلٌّ منهما عليه . وهي من أجمل صور الكتاب وأحلاها .

هذا مجمل وصف الرسوم المزيّنة هذا الانجيل المبارك . على ان الناسخ النجيب بعدما نقش فصل عيد قيامة الربّ العجيبة بحروف ذهبيّة اثبت ما يلي معرّباً :

« لا يلُمني المطالع فقد كتبتُ على قدر قوّتي . واسأل محبّتكم الالهيّة التي قبلناها جميعاً بالمحبة المسيحيّة ان توجّهوا الصلوات عند مطالعتكم هذه الاسطر المشوّشة الى الرئيس عبدالله المقدسي . لانه هو الذي اهتمّ بهذا الانجيل . . . ثم وثب بشهامة كغزال حادّ النظر من فخّ هذا العالم ومن هذا البحر العجاج وأنقذ سفينته وبلّغها الى ميناء النفوس . وصار راهباً وأخاً معنا . نسأل الله تعالى الذي لاجل محبّته دخل الباب الضيّق ان يفتح امامه ابواب السماء آمين . اللّهم اغفر لنفس ابيه عبد الاحد ولاخوته المحروسين : الراهب شمعون والراهب يشوع وسليمان وسرجيس ومنصور وبهنام وهابيل مع سائر ابنائهم المحبوبين واغفر لراحيل أمّهم » .

وختم الناسخ كتابتهُ بهذا التاريخ معرّباً :

« المجد للآب والابن والروح القدس . على رجائهِ بدأنا وبعونه انتهينا . انتهى نسخ فصول قراءات الانجيل المقدّس المتخبّة والمرتّبة من الانجيليّين الاربعة للسنة كلّها . اكتمل يوم السبت اوّل ايّار سنة ١٥٣١ لليونان (١٢٢٠ م) بيد مبارك احقر عبيد ورهبان دير مار متى ابن داود بن صليبا بن يعقوب من بلدة برطلّي الشهيرة في ولاية نينوى . عُني بنسخ هذا الانجيل تلبيةً لغيرة الربّان عبدالله يشوع بن شمعون فوقف هذا الكتاب مع امتعة اخرى لكنيسة دير مار متى . . . بجبل الفاف . لاجل نجاة نفسه ونفس قرينته التي ترهّبت . نسأل المولى تعالى الذي حبا له احتقر الكرامات العالمية وتبعه بكلّ استعداد . وأبدى علامة حسنة بامانة ارادته ان يتنعّم في الملكوت السماوي الذي يخطفه الناصبون . انوسّل اليكم ايها النجباء ان تقولوا : اللّهم اغفر له وللكاتب » .

وقرأنا في آخر الفصل الذي يرتّل في احد الثمانين وهو موشّى كذلك بحروف ذهبيّة ما تعريبه :

« هذا الانجيل المقدّس يخصّ بنديدا (قرقوش) وقد زحف الشيخ ملك الى البلدة ونهب جميع القرى المجاورة لها . وانتزع هذا الانجيل من كنيسة بنديدا . . . ثم توجّه سهدو بن حنا خوشابا المشهور بآل قلمايا وزار الشيخ ملك واسترجع الكتاب منه واحضره الى بيته . وبعدئذ تمّ الصلح ما بين هولاء النسور » .

هذا ما توخينا اثباته بشأن هذا كتاب الانجيل البديع. وانّنا نهنّئ بكل قلبنا المكتبة الفاتيكانية البابويّة بهذه الجوهرة الثمينة. امّا ناسخ الكتاب فقد حلّت وفاته عام ١٢٣٩م.

تتمّة

نختم وصف مخطوطتيّ فلورنسة والفاتيكان بذكر بعض اناجيل سريانيّة ممتازة او مصوّرة قرأنا عنها في بعض الصحف:

ثالثاً — كتاب الاناجيل المنقول الى العربيّة طبقاً لطلب الامير عمرو بن سعد

ذكر ابن العبري والرهاوي ان عمرو بن سعد الامير استدعى يوحنا الثالث بطريرك السريان (٦٣١ — ٦٤٩) المعروف بمؤلّف الصلوات الاستغفاريّة ܣܘܓܝܬܐ وكلّفه ان ينقل الاناجيل الاربعة عن السريانيّة الى العربيّة. فاستحضر البطريرك فريقاً من جهابذة التنوخيّين والكوفيين النصارى الملمّين بكلتا اللغتين السريانيّة والعربيّة واوعز اليهم ان يتفرّغوا للترجمة. وبعد عناء جسيم ومقابلات جمّة عرّبوا الاناجيل وقدّموا الكتاب للبطريرك فراجعه وأمر احد الخطّاطين الممتازين فنسخه على رقّ نقيّ خالص. ثم رُصعت دفّتاه ترصيعاً منمّقاً مستبدعاً وقدّمه البطريرك هكذا للامير المذكور[1].

رابعاً — مخطوطة دير مار مرقس بأورشليم

انطوت هذه المخطوطة السطرنجيلية المكتوبة على رقّ الغزال والموشّحة بصور اثريّة مزخرفة على فصول الاناجيل طبقاً للمواسم والآحاد والتذكارات وهي محفوظة حفظاً جيّداً وموسومة بالرقم ٢٧ نسخها الراهب سهدو الرهاوي عام ١٤٦٠ للاسكندر (١١٤٩م) في دير مار سمعان القرنيسي ومريم المجدليّة الذي كان يخصّ الرهبان السريان. وتمّت نساخته وزخرفته في عهد البطريرك اثناسيوس الثامن (١١٣٩ — ١١٦٦). وتوفّي ناسخه عام ١٢٠٧م. ومـا برح هذا الكتاب النفيس محفوظاً في دير مار مرقس حتى اليوم.

---

١) تاريخ ابن العبري البيعي: جزء ١ في كلامه عن البطريرك يوحنا. وتاريخ الرهاوي ١٣٩: ١٦٧ و١٦٨

خامساً – مخطوطة دير الزعفران

شاهدنا عام ١٩١١ في قلاية كنيسة الشهداء الاربعين بماردين مخطوطة لطيفة ظريفة مكتوبة بالقلم السطرنجيلي ومموّهة بصنوف التصاوير الملوّنة الانيقة . وقد كتبها بخط يده ثاودرس مطران حصن زياد (خربوط) المتوفى نحو السنة ١٢٧٥ م . وهذا الكتاب البديع محفوظ حتى اليوم في البيعة المذكورة نُقل اليها من مكتبة دير الزعفران القديمة العهد .

سادساً – مخطوطة دير مار يعقوب في صلح (طور عبدين)

مخطوطة نفيسة اشتملت على فصول الاناجيل الاربعة طبقاً للترجمة الحرقلية التي تفرّد بها السريان اليعاقبة . زيّنها ناسخها برسوم دقيقة انيقة في جملتها صورة صعود يسوع المخلّص الى السماء . فيشاهد بطرس زعيم الرسل منتصباً وسط الرسل متوشّحاً بحلّة كهنوتيّة دون سائر الرسل . وهذا الكتاب المحلّى بمختلف الصور الملوّنة كان في السنة ١٩١٢ محفوظاً عند شيخ القرية . ولسنا ندري ماذا حلّ به بعد هذا التاريخ[1] .

سابعاً – مخطوطة البطريرك ميخائيل الكبير

ذكر المؤرّخ الرهاوي المتوفى نحو السنة ١٢٣٤ في الجزء الثاني من تاريخه ان البطريرك ميخائيل الكبير (١١٦٧ – ١٢٠٠) نسخ بيده انجيلاً لطيفاً بحروف سطرنجيلية على الرقّ ودبّج صفحاته جميعها بماء الذهب والفضّة وغلّفه بغلاف مفضّض . وكان المؤمنون يقبّلونه كالمألوف العادة كلّما زاروا البطريرك .

ثامناً – مخطوطة يشوع الكاتب

ناسخ هذه المخطوطة الجميلة هو يشوع الراهب المشهور بخطّه وكتاباته . وهو الذي نُصب بطريركاً دخيلاً باسم يوحنا السادس عشر (١٢٠٨–١٢٢٠) مزاحماً البطريرك ميخائيل الثاني (١٢٠٨–١٢١٥) . وقد وشّى مخطوطته النفيسة بماء الذهب . وظلّ كتابه هذا محفوظاً في دير الصليب المطلّ على قرية باقيان بطور عبدين . ثم اختفى أمره .

تاسعاً – مخطوطة حلب

ذكر الاب انطون ربّاط اليسوعي في كتابه « الآثار الخطّية عن الكنائس

١) المشرق : سياحة في طور عبدين ١٦ (١٩١٣) ٦٧٢

الشرقيّة » ان السائح الروماني بطرس ديلّا ڤالي وصل الى حلب عام ١٦٢٥ وزار البطريرك هداية الماردينيّ (١٥٩٨ — ١٦٤٠) وشاهد عنده مخطوطتين بديعتين من الاناجيل السريانيّة كُتبتا على جلد عجل ابيض أملس وصف احداهما بقوله : أُرجّح ان ناسخها ترتقي الى ما قبل اربعمائة سنة . حروفها بأسرها مرقومة بذهب وفضّة . وذكر لي البطريرك ان الاتراك لقوها في قبرس عندما احتلّوها ثم نقلوها الى قسطنطينية واشتراها احدهم واحضرها الى حلب . ولستُ ابالغ ان قلتُ انه يتعذّر ان يكون خطّ اجمل وأبدع من خطّ هذا الانجيل . وهو فوق ذلك مدبّج بالذهب وموشّى برسوم لطيفة انيقة جدًّا . امّا غطاؤه فهو من المخمل المرصّع بالفضّة المذهّبة . وقد انتزع الاتراك غلافه الاصليّ الذي كان مزدانًا بلآلئ ثمينة شتّى .

امّا كتاب الانجيل الثاني فهو مكتوب بالحبر ورسومه اقلّ من رسوم الكتاب المشار اليه[1] .

عاشرًا — مخطوطة دير الشرفة

ضمّت مكتبة دير الشرفة العامرة مخطوطة لطيفة ظريفة اشتملت على الصلوات القانونيّة اليوميّة وعلى الانغام البيعيّة . كتبها السيّد ديونيسيوس رزق الله امين خان مطران السريان الكاثوليك في حلب عام ١٦٩٠ وحلّاها بأربعين صورة صغيرة ملوّنة لا يتجاوز حجم الصورة ١٠ س . فالاولى صورة يسوع المخلّص فصورة العذراء المغبوطة ومار بطرس ومار بولس وموسى وزكريا والبشارة والزيارة الخ . طبقًا لنظام انجيليّ فلورنسة والفاتيكان . وختمها بصورة مار يوليان الشيخ الذي وشّح ابانا مار افرام الملفان بالاسكيم الرهبانيّ[2] . على ان بين رسوم الانجيلين المشار اليها ومخطوطة دير الشرفة فرقًا كثيرًا من حيث الظرافة ودقّة الصناعة . هذا ما توخّينا ان نطرف به قرّاء المشرق الاغر بشأن فنّ التصوير الجميل لدى السريان في سالف الزمان والسلام .

---

١) *Documents inédits*. Par le P. A. Rabbath, p. 389.

٢) مخطوطة دير الشرفة ٥ — ١٤ صفحة ١٠٠—١٠١

انتقال مريم العذراء الى السماء بالنفس والجسد

للاب نقولاوس قادري ق

« ان مريم والدة الاله التي حُبل بها بلا عيب توجد حية في السماء بجسدها ونفسها المجدَّين منذ رحيلها عن الارض ».

هذه هي العقيدة الايمانية التي أعلنها قداسة الحبر الاعظم وحدّدها بسلطانه الاعلى بما انه نائب المسيح ورئيس الكنيسة المنظور والمؤتمن على وديعة الايمان.[1] وقد جاء هذا التحديد الحاسم ملائماً لحاجات العصر الذي طغت عليه سيول المادة الجارفة والانانية الجشعة واهانة الامومة واحتقار الطهارة وهدم العفاف . جاء دواء جديداً لهذه الازمة الروحية التي نشعر بها في ايامنا . جاء صوتاً من السماء يُسمع ابناء الارض هذا الانطلاق والانفلات من المادة ويرفع بالقلوب الى ما فوق هذا التراب . فالعالم هو بحاجة ماسة الى هذا الانطلاق السوي ومريم المجدة بجسدها ونفسها تجاوب على هذا التحفز بامطار غزيرة من النعم تدفقها على ابنائها الشبان والشابات وعلى المرتبطين برباط الزواج المقدس وعلى غير المتزوجين.

وهذا السر الاخير الذي ختم حياة مريم العذراء في هذا العالم يُسمى سر الانتقال سرَّ التمجيد . ويعني ذلك الفعل الذي به اصعد الله الى السماء العذراء القديسة لتتمتع بالنفس والجسد بمجد الخلود الذي لم يحصل عليه القديسون بعد وانما ينتظرون القيامة العامة وبعد يلبسون اجسادهم المجدة وينعمون بهذا الخلود الدائم لا بنفوسهم فحسب بل باجسادهم ايضاً .

فالانتقال بالمعنى الحصري يقوم بهذا الانتصار على الموت الذي يتم في آخر الازمان بالنظر الى مجموع الناس وهذا الانتصار على الموت هو حالة مريم التي تنعمت وحدها بهذا الانتصار بعد نهاية حياتها الارضية .

وانتقال العذراء يُشبه صعود المسيح الى السماء. غير ان هذا الصعود قد تمَّ بفعل ارادة شخصية وبقدرة يسوع الذاتية . بينما ان انتقال مريم صار بقدرة الله وهو انعام خاص بمريم ونعمة من الابن لامه . صعد المسيح بذاته واما

1) اول تشرين الثاني ١٩٥٠ ، براءة البابا بيوس الثاني عشر

العذراء. فأصعدتها ملائكة العلي وخدام الكلمة[1] الى السماء. صعد الرب يسوع بعد ان مرّ بباب الموت ولم يدع الفساد يقترب منه ولا من جسده الطاهر فقام ونفض عنه غبار الموت وطحن حجر الضريح كقشرة بيضة العصفور وأبان قوة جناحيه وفتح عرينه بعد ان صرع الموت عدوه وخصه فتح قبره بذاته وصعد الى السماء. بذات سلطانه وبقي على الارض مدة اربعين يوماً يتردد بين تلاميذه ويكلمهم عن ملكوت ابيه[2] واخيراً دعاهم الى جبل الزيتون[3] ومن هناك صعد على مرأى من رسله وباركهم ثم حجبته سحابة عن عيونهم . غير ان حظ الام لم يكن بأقل من حظ الابن. الا اننا لا نعرف شيئاً بتأكيد مثبت اذ ان الاناجيل المقدسة ورسائل بولس واعمال الرسل لم تذكر شيئاً عن هذه الآخرة المقدسة التي قضتها والدة الرب فيما بين تلاميذه . انما نتساءل الآن كما تساءل المسيحيون في القرون الاولى للنصرانية : هل وجب على العذراء ان تمر بالموت قبل ان تصل الى الحياة المجيدة بالجسد والنفس ؟ وكم من الوقت لبثت تحت سيطرة الموت ؟ وهل دفنت حقيقة ؟ واذا كانت قد دفنت هل اقترب منها البلى والفساد المسيطران على ابناء آدم ؟

على هذا السؤال الاخير يمكننا ان نجاوب باثبات : اذا كانت مريم العذراء قد ماتت فجسدها لم يعرف البلى والفساد . اما عن تحديد الزمن الذي مرّ بين موتها وقيامتها فلا نعرف شيئاً على الاطلاق . واما حقيقة موتها فقد سلمت بها الكنيسة الشرقية والغربية وخصوصاً حين عينت عيداً لموت وانتقال العذراء المجيدة في الخامس عشر من آب وهذا العيد يرقى الى ما قبل القرن السادس وبعد مجمع افسس سنة ٤٣١ الذي حدد امومة العذراء الالهية واثبتها عقيدة ايمانية .

العقيدة اللاهوتية

كان اللاهوتيون والآباء يعتقدون بأن مريم العذراء انتقلت الى السماء بالنفس والجسد ولكن لم يكن لديهم البراهين الكافية لاثبات هذه العقيدة من الوحي المقدس فكانوا اذاً يعتقدون مع الكنيسة المؤمنة ولو لم تحدد بسلطانها الاعلى هذه الحقيقة الايمانية فتركت للاجيال ولعبقريات القرون ان تشحذ قرائحها

١) ميناون ١٥ آب غروب كانين ص ٨٢٥
٢) أعمال ١-١ و ١٢ ٣) لوقا ٢٤ : ٥٠

وفكرها حتى تتصل الى اثبات اكيد يرتكز على مبادئ علم اللاهوت وعلم الكتاب والمنطق فيرتاح العقل ويطمئن الفؤاد ويتقوى الايمان النيّر ولو لم يكن هناك شك او ضعف ايمان .

وهذا الاعتقاد النيّر اخذ نشأته عنـد نضوج الفكر المسيحي الذي بدأ يُحلل نقاط التعليم المريمي الموحاة بين حقائق اخرى منزلة ويستنتج منها الانعام الخاص بتمجيد جسد مريم وذلك بعد موتها بقليل من الزمن .

وقد علم اللاهوتيون ان الموت شريعة عامة تشمل الانسانية كلها كما يوحي ذلك الكتاب المقدس والليتورجيا وكما يعلم الآباء. وهذا معتقد الكنيسة الذي يُثبته اختبار القرون والاجيال .

يعتقد اكثر اللاهوتيين ان مريم العذراء ماتت وهذا الشعور بموتها قد سادَ بين العلماء. حتى اصبح موتها حادثاً تأريخياً مثبتاً بالكفاية وحادثاً ايمانياً يضمنه التقليد.

ان موت مريم العذراء حادث تأريخي والاعتقاد بانتقال جسد العذراء اخذ نموّه مع الأيام ولربما وُجد من قاوم هذا الاعتقاد لعدم وجود شهود عيانيين على قيامة العذراء غير ان الكنائس كلها قد اعتقدت تمام الاعتقاد واتحدت آراؤها — وان كانت قد اختلفت في مسائل اخرى — فقد اتحدت كلها بايمان واحد وصرَّحت بان العذراء قد انتقلت بعد موتها الى السماء بجسدها ونفسها .

وقد لاحظ بعض علمـاء اللاهوت ان مسألة موت العذراء مسألة ثانوية والكنيسة ولو كانت تعتقد بالاجماع بموت العذراء فمع ذلك لم تحدد موقفها اذ ان الموت غير ضروري للمجد السماوي فيسكن لجسد العذراء مريم ان يتمجد بدون ان يمرَّ بسرادب الموت كما كان مقرراً لكل انسان قبل ان يخطأ آدم .

اجل ينفصل الجسد عن النفس بالموت ولا يبقى بينهما من اتحاد قريب ولا يتم الاتحاد من جديد الا في الدينونة العامة. والعذراء مريم ذهبت من هذا العالم ونأت عنه بعد ان عاشت فيه مثل سائر البشر غير ان الموت لم يستطع ان يقيدها بسلاسله ولم يدنُ البلى والفساد من ذلك الجسد الطاهر وذلك ، يعلم القديس توما الاكويني ، لاسباب عديدة اهمها ان الاله الكلمة اتخذ امه واعتقها من ثلاث لعنات[1] :

(1 Somme, III P. q. XXVII et commentaire du «Benedicta tu in mulieribus».

انقذها من اللعنة الخاصة بالمرأة وحدها وخلصها من ألم الولادة .
انقذها من اللعنة الخاصة بالرجل وحده وهي بعرق جبينك تأكل خبزك .
اخيرًا انقذها من اللعنة المشتركة بين المرأة والرجل وهي « انت تراب والى التراب تعود » .

تحررت العذراء مريم من هذه اللعنة الثالثة لانها ما رجعت الى التراب الذي جبلت منه ولكنها ارتفعت الى السماء بجسدها وارتفعت فوق التراب وصعدت الى السماء على اجنحة الملائكة .

واسباب هذا الانتقال كما يعلم اللاهوتيون هي طهارة مريم وامومتها الالهية . فالعذراء انتقلت الى السماء وتمتعت بجسدها الطاهر بمجد الخلود لان هذا الجسد حُبل به بلا خطيئة أصلية . اذن لها حق على الخلود الجسدي .

انما يبقى حلُّ المسألة هذه : هل يمكننا من دوام بتولية مريم المحددة في المجامع عقيدةً ايمانية هل يمكننا من دوام هـذه البتولية ان نستخلص بوضوح عقيـدة الانتقال المجيد كما يستنتج المسبب عن علته . فالاب مرتين جوجي Martin Jugie [1] لا يعتقد بامكانية كهذه ولا يقبل بهذا التسلسل السديد دون ان نمر بالامومة الالهية والحبل بلا عيب فالاهتمام الذي بذله الكلمة الالهية ليحافظ بنوع عجيب على بتولية امه ودوام هذه البتولية لا يوصلنا الا الى هذه النتيجة وهي صون الجسد من الفساد والبلى .

مع ذلك كثير من آباء الآباء واقوالهم اذ يتكلمون عن الانتقال يضمّون هذه العقيدة الى عقيدة « البتولية الدائمة » وما حقيقة الانتقال سوى طهارة سامية وامومة مقدسة اعني بتولية مخصبة وامومة عذراء . فعلم اللاهوت وجد صلات متعددة بين سر البتولية الدائمة في مريم وبين سر انتقالها بالنفس والجسد الى السماوات .

فالبتولية في اطوارها الثلاثة تقود الى الانتقال المجيد . بتولية في الحبل بها البريء من العيب بتولية في الحبل بيسوع المسيح دون علاقات زواجيـة . ونفي الشهوة ضروري لينفي عن يسوع دينَ الخطيئة الاصلية ويبعد عنه الابوة البشرية . فالحبل البتولي يتطلب اعجوبة كبرى من قبل الله واذا ما تمت هذه الاعجوبة فلا بد من القول ان الله حفظ مريم وصان جسدها البتولي من الفساد

[1] Maria, T.I. p. 653-654. *Etudes sur la Sainte-Vierge.*

اذ الفساد هو نتيجة الخطيئة والشهوة والميل غير المرتبين . وبما ان الخطيئة الاصلية لم تملك على مريم ولا برهة من الزمن فهي لم تملك حتى في نتائجها وعاقبتها التي هي الفساد والبلى الجسدي .

واما الميلاد البتولي فلا تتطلبه الاسباب القصية اذ ان اللعنة امتدت على أوجاع الميلاد فقط . ففي حالة البرارة الاصلية كان على المرأة ان تلد كما في النظام الحالي ولكن بدون ألم . فالاعجوبة الثانية لبتولية مريم تفوق كثيراً حالة البرارة الأولية . مع ذلك يقول العلامة فريتوف « في الميلاد البتولي تحررت مريم من اللعنة القائلة « بالأوجاع تلدين »[1].

فالبتولية الدائمة التي حافظت عليها العذراء كل حياتها حتى في وبعد ميلاد المسيح فهي انتصار خالد على الموت (القديس غريغوريس نيصص) . فليست بتولية مريم بتولية حرب وعراك كما هي فينا بل هي بتولية البرارة الاصلية التي تولي حقاً رفيعاً على النجاة من البلى والفساد في القبر . وهذا التخلص من الفساد والبلى لا يحسب انتقالا بل طريقاً تؤدي الى الانتقال المجيد . وجدت الكنيسة المقدسة في درسها لبتولية مريم انه من المستحيل على هذا الجسد الطاهر والمختص بالأم النقية ان يرضى بالفساد ويخضع له فمن اللائق اذن ان هذا الجسد الطاهر في الحبل وفي الولادة وبعد الولادة[2] . من اللائق به ان لا يمسه فساد ولا يلبث رهن الغبار . وكما ان النفس الطاهرة تتحد ضرورة بالله هكذا من الضروري ان الجسد الطاهر في هذه الحالات الثلاث يبقى بعيداً من الفساد ومصوناً من كل بلى وغبار وبالنتيجة ينتقل من هذه الأرض ويصعد ليتحد بالله بكمال الكيان .

سر الانتقال والكتاب المقدس

هل نجد في الكتاب المقدس اثراً للانتقال الذي ختم حياة ام الاله على الارض؟ ان اللاهوتيين يعلمون باتفاق الرأي ان عقيدة الانتقال هي غير مذكورة بوضوح وبنوع صريح في الكتب الموحاة بحيث لا نجد لا في العهد القديم ولا في العهد الجديد شهادات صريحة على النوع الذي به غادرت مريم العذراء. هذه

١) تكوين ٣ - ١٦

٢) القديس يوحنا الدمشقي اوكطيخوس لحن سابع صفحة ٢٤٣ من طبعة دير مار يوحنا الشوير ١٨٦٦

الأرض لتذهب الى السماء. لا نتعجب من صمت كهذا حتى في العهد الجديد وخصوصاً في الاناجيل الاولى الثلاثة والاعمال ورسائل بولس لانها قد كتبت قبل موت العذراء. كذلك لا نجد أثراً على الانتقال في العهد القديم لانه سابق الاوان وقد كتب قبل ميلاد العذراء.. وبالنتيجة لا يتكلم شيئاً وضعياً لا عن موتها ولا عن انتقالها . قلنا لا يتكلم العهد القديم شيئاً لا بالنص الحرفي ولا بالمعنى المادي ولكنه تكلم بالاشارات والرموز وبالمعنى الروحي. فالآباء القديسون والخطباء والوعاظ استعاروا بعض الآيات والرموز الكتابية وطبقوا معانيها على مريم البتول « اذ كان كل شيء يحدث برموز » .

لقد استخدم الآباء بعض الآيات من كتاب المزامير ونشيد الاناشيد ليثبتوا انتقال العذراء. واختاروا المعنى الروحي وفضلوه على المعنى الحرفي لأن فيه ملائمة مع الحقيقة . وقد دلوا على انتقال مريم بالجسد والنفس الى السماء وعلى انتصارها على الفساد بقول داود النبي : « قامت الملكة من عن يمينك بذهب اوفير»[1] . وشبهوا مريم بالتابوت الناطق الحي الذي هو اجمل بكثير من تابوت العهد فقالوا : « قم ، يا رب ، الى راحتك انت وتابوت قدسك»[2] وفهموا ان معنى كلمة « تابوت » يعني جسد مريم العذراء. الذي كان بمثابة هيكل لجسد يسوع المسيح في حين تجسده في احشاء البتول .

واكثر الخطباء المسيحيين يتغنون بانتقال والدة الإله بآية سليمان في نشيد الاناشيد : « من هذه الطالعة من القفر كعمود من بخور معطرة بالمر واللبان»[3] فالطالعة من القفر هي مريم الصاعدة الى السماء بالجسم والنفس «من هذه الطالعة من القفر المستندة الى حبيبها ؟»[4] ولا يغيب عن فكرهم ذلك النور الوضاء الذي تنعم به مريم العذراء. بجسدها فيصرخون مع سليمان : « من هذه المشرقة كالصبح الجميلة كالقمر المختارة كالشمس ؟ »[5] . من الصعب جداً ان نرى في هذه الآيات تحديداً واضحاً لليوم الذي فيه صعدت مريم العذراء الى السماء. انما نجد مطابقة تقية عاطفية لا غير .

وقد وجد بعض اللاهوتيين تلميحاً الى انتقال مريم في سفر الرؤيا ليوحنا

---

١) مزمور ٤٤ – ١٠
٢) مزمور ١٣١ – ٨
٣) نشيد ٣ – ٦
٤) نشيد ٨ – ٤
٥) نشيد ٦ – ١٠

الحبيب ، بحيث يجدون مطابقة سديدة لهذه العقيدة في ذلك الصراع القائم بين المرأة والتنين. ففي الفصل الثاني عشر نرى الآية العظيمة : « وظهرت في السماء آية عظيمة امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً[1] » . رأى كثير من الآباء في هذه « الاية العظيمة » مريم العذراء الملتحفة بالشمس والمتوجة باثني عشر كوكباً وهذا من الاعتقاد الأولي بين المفسرين والآباء. من أريس اسقف قيصرية ومتوديوس اسقف اورشليم والقديس اغستينوس وكلهم يؤكدون ان هذه المرأة هي مريم ام الله ففي هذا الفصل يرى يوحنا ام الله القديسة ترتفع الى المظال السماوية وتتمتع بمجد الخلود ويرى في هرب المرأة من وجه التنين تلميحاً الى الانتقال : « وهربت المرأة الى البرية وقد اعطيت جناحي النسر العظيم لتطير من وجه الحية الى البرية الى موضعها حيث تُعال زماناً وزمانين ونصف زمان»[2] . فالنسر هو الله هو السيد المسيح الذي خلص امه من اضطهاد ابليس بنقلها الى المكان المعد لها في السماء . ونحن نعتقد ان هذه المطابقة التي فهمها كثير من الآباء. واللاهوتيين هي جديرة بمريم التي تخلصت من يد ابليس ومن يد التنين بانتقالها بالجسد والنفس الى السماء .

وربما استخدم اللاهوتيون بعض الاشارات الضمنية وفسروها بالمعنى الروحي وطبقوها على شخص مريم ومن هذه الاشارات المضمرة قول الله للحية التي تجسم الشيطان عدو البشر : « اني أجعل عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وانت ترصدين عقبه »[3] . فالمرأة التي تسحق رأس الحية هي مريم العذراء. تسحقه في الحبل بها البريء من الدنس وفي موتها وانتقالها اذ تتملص من سطوة الفساد والبلى الذي هو نتيجة الخطيئة ومريم بريئة من الخطيئة اذن لا يدنو منها الفساد . واستنتج العلماء انتقال العذراء من قول الملاك لها : « السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة الرب معك » . فهذه الممتلئة من نعم الرب هي حائزة ايضاً على النعمة الكبرى على تمجيد جسدها في مجد الخلود ولانها مباركة في النساء ومباركة ثمرة بطنها[4] . مع ذلك لا يمكن للاهوتيين ان يبرهنوا على ان هذه الايات تعني بنصها الحرفي على انتقال البتول بل مطابقة معناها الروحي على صعود العذراء بالنفس والجسد وهكذا تمك الآباء في

١) رؤيا ١٢-١ ٢) رؤيا ١٢-١٤ ٣) تكوين ٣-١٥ ٤) لوقا ١-٤٢

تفسيرهم واستخلاصهم عقيدة الانتقال من الاشارات والرموز الكتابية فحسب.

ماذا يعلم الآباء عن انتقال مريم العذراء الى السماء

ان الشهادات على موت وانتقال مريم لقليلة ونادرة في القرون الستة الاولى للمسيحية فقبل المجمع النيقاوي سنة ٣٢٠ وما لدينا شهادة واضحة الا جملة صغيرة جاءت عرضاً في تعليم اوريجنوس حيث قال: « ان مريم العذراء لبثت بتولًا حتى موتها.» وهكذا قال المعلمون افرام وايرونيموس والقديس اغسطينوس وغريغوس نيصص اخو باسيليوس الكبير. وفي القرن السادس راجت احدوثة سماها المؤرخون المتأخرون «الاحدوثة الافثيمية Histoire Eutymiaque» الموجودة في الخطبة الثانية على الانتقال ليوحنا الدمشقي. وملخص الاحدوثة ان الملك مركيانوس طلب سنة ٤٥١ من المطران جوفينال اسقف اورشليم يوم كان في القسطنطينية في مجمع خلكيدونية طلب منه ذخيرة من جسد والدة الاله ليضعها في الكنيسة التي شيدها الملك في فلاشرناس على اسم والدة الاله. فاجابه الاسقف ان العذراء ماتت وانتقلت بجسدها الى مكان غير معلوم بحيث يتمتع بعدم البلى قبل القيامة. وذلك لان قبر العذراء وجد فارغاً وليس لدينا ولا ذخيرة من جسد العذراء.»[1].

والتقليد الموجود في الكتب المزيفة يخبرنا انه بعد موت العذراء بثلاثة أيام وصل توما من جهات الهند الى اورشليم وطلب من الرسل ان يشاهد لآخر مرة جسد العذراء ويودعها قبل ان يغادر اورشليم فذهب الرسل مع توما وفتحوا القبر وازاحوا الحجر فلم يجدوا جسد البتول انما وجدوا الكفن والثوب والزنار. وهكذا انتشرت في الاجيال المتأخرة التي فيها ظهرت هذه الكتب المزيفة انتشرت احدوثة انتقال العذراء. وكرسها العيد الرسمي الذي تعين بنوع ثابت في الخامس عشر من آب وبمناسبة العيد ظهرت خطب الآباء في انتقال العذراء واناشيد الشعراء والمرنمين الذين ملأوا الكون من صدى انغامهم ووثبة ايمانهم فكان لهذه الاصداء الوقع الحسن في قلوب المؤمنين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم فأنشادوا على كل تلة وفي كل صقع كنيسة تعبر عن وحدة ايمانهم في

(١) P. G. t. XCVI col. 248 et 752

موت العذراء وانتقالها الى السماء . لنسمع الان بعض اقوال الآباء في انتقال العذراء : قال القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية مخاطباً العذراء الوالدة : «كيف تقدرين ان تعانقي الفساد وانت بجسدك الذي اعطيته لابن الله خلصت الجنس البشري من الفساد. انت غبت عن معاشرة الناس فكان موتك ضرورياً ليثبت حقيقة جسد الكلمة الذي منك صار انساناً ... وقد اراد هو نفسه ان يموت وهكذا اكمل معجزتين الاولى في قبره الحي والثانية في قبرك الحي فكلاهما تقبلا جسد الابن وجسد الوالدة فلا هذا ولا ذاك استطاع ان يحفظ ضمنه الجسد حتى يفنيه الفساد . اذ لم يكن لائقاً ان تابوت جسدها الذي استوعب من الله يسقط تراباً كباقي الاجساد اجل كان ينبغي ان الحياة تسكن مع الحياة انها ارتاحت بالموت لكي تنام لحظة وتقوم بعدها»[1].

والقديس يوحنا الدمشقي لفظ في ليلة واحدة من ليالي العيد ثلاث خطب في موت العذراء وانتقالها المجيد وهو مؤمن بهذه الحقيقة الايمانية لانها المجد الاثيل لمريم والدة الرب الدائمة البتولية والدمشقي يثبت ايمانه بهذه العقيدة على برهان اللياقة ويزيد عليه سبباً آخر يستخلصه من دوام بتولية مريم اذ يقول : اذا كان الابن لم يسمح بأن يتغير بالامومة كمال والدته الطبيعي فما سمح ايضاً بفساد جسد امه بالموت . كان من اللائق ان الأم تتحد بالابن لانها جعلت نظرها ثابتاً الى ابنها المصلوب وكان من اللائق ان تبصره في مجد الآب بأبصارها ومن اللائق ان يشرك الكلمة مريم في عرشه ليكرمها الكون كله » . ثم يزيد افكاره وضوحاً اذ يقول :« بعدل أسلمت حواء للحزن والموت بما انها اصغت لمشورات العدو الخداع غير ان البتول المباركة كانت خاضعة كل الخضوع لصوت الله وصارت اماً بفضل روح الله القدوس فلم يمكنها ان تحتمل طغيان الموت ولا التفكك في الرمس.»

« بماذا اسميك ايتها البتول الكلية القداسة وبماذا اسمي السر هذا المكتمل فيك ? ان نفسك انفصلت عن جسدك حقاً ولكن جسدك وان استودع القبر فلا يلبث فيه لئلا يتفكك . ان امومتك لم تعدمك طهارتك وعدم الفساد يقاوم الموت وكما ان الشمس اذا حجبها القبر لا تفقد من بهائها هكذا انت

(1) P. G. t. XCVIII col 345 , 348

ابنها العذراء. وان كسفت قليلًا في ظلمات الموت مع ذلك لم تتوقفي عن دفق الضيا. فمبورك لم يكن سوى نعاس قصير »[١] .

وقبل الدمشقي نجد شهادات في خطب القديس اندراوس اسقف اقريطش وهو من طليعة القرن الثامن مات سنة ٧٢٠ قال: « يعتقد كل انسان ان الاعجوبة التي تمت في ايليا واخنوخ والذين ارتقوا الى السما. بدون ان يروا بباب الموت قد تحققت في العذراء المجيدة فهي وحيدة لا مثيل لها لانه لمشهد جديد حقاً مشهد امرأة اطهر من السما. تلج بتابوت جسدها الى السماوات مشهد عجيب جديد هو ان العذراء ارتفعت بميلادها فوق السيرافيم وصعدت بالقرب من الله مشهد عجيب جديد مشهد ام الحياة التي كانت نهاية حياتها الارضية كآخرة ابنها يسوع الحبيب[٢] .»

وبين القرن السابع والسادس عاش القديس موديستوس البطريرك الاورشليمي وهو شاهد على التقليد الحقيقي الذي كان سائدًا في ايامه ويشهد ان جماهير غفيرة كانت تؤم زيارة قبر العذراء في الجسمانية مع علمهم بأن القبر كان فارغاً فيقول: «عندما اكملت السفينة الحية التي حملت في احشائها الاله اكملت مسيرها رمت المرسى في ميناء أمين هادئ الى الابد حيث كان بانتظارها ملك الكون الذي ولد منها وخلص الاسرة البشرية من طوفان الاثم وقد ارسل الاله من علو السما. جوقة من الملائكة لتحمل اليه تابوته المقدس الذي تغنى به النبي داود حين قال: « قم يا رب الى راحتك انت وتابوت قدسك » فهي تابوت لا مثيل له اذ لم يصنع بيد انسان بل هي صنع الله انها غير موشاة بالذهب ولكنها تسطع ببهاء الروح القدس الساكن فيها والمسيح الذي اخذ منها الطبيعة البشرية الكاملة دعاها اليه وعلى سبيل المقايضة ألبس جسدها ثوب عدم الفناء وتوجها بمجد فريد قامت الملكة عن يمين الملك»[٣] . انها تملك الى الابد حائزة على الحياة التي لا تنتهي وقد اتحدت بابنها الذي دعاها من القبر .

شهادة الليتورجيا والكتب الطقسية

بهذه الشهادات من الآباء والكتبة الاقدمين نتصل بالقرون الاولى بحيث

١) P. G. t. XCVI col. 728

٢) P. G. t. XCVII col. 1081

٣) P. G. t. LXXXVII col. 3392

نقف على لمحة من تقوى المؤمنين فتقدم لنا برهاناً على انه منذ انتشار الدين المسيحي ونضوج الفكر اللاهوتي وانتصار الكنيسة اخذ المؤمنون يفكرون بانتصار العذراء. ويتغنون به في صلواتهم واناشيدهم الدينية التي هي صدى ايمانهم بهذه العقيدة التي اخذت اليوم غايتها وملأها من التعليم الرسولي والسلطة الكنسية العليا التي ارتكزت في تحديد العقيدة على صلوات الليتورجيا لانه بحسب المثل السائر « شريعة الصلاة هي مطابقة لشريعة الايمان » والليتورجيا لا تخلق الايمان بل هي ثمرته .

ولو تصفحنا كتاب الفرض في الطقس اليوناني لوجدنا ان خدمة عيد الانتقال في الخامس عشر من آب غنية بالعقائد والحقائق اللاهوتية وهي مسبوكة بقالب شعري لذيذ وواضح : نرى ان العذراء « البارزة من حقو مائت قد ماتت بحسب سنة الطبيعة »[١] وانها لم تأب الدفن لان يسوع المسيح ابنها قد دفن ، ويوحنا الدمشقي شاعر العذراء وبوق الكنيسة وقيثار الروح القدس يقول : اذا كان ثمرة البتول غير المدرك قد احتمل الدفن باختياره فكيف تأبى الدفن تلك التي ولدته بغير زواج[٢] . ثم يزيد توضيح معتقده «انها خضعت لنواميس الطبيعة مضارعة ابنها وخالقها وماتت معه لتنهض معه الى الابد[٣] . وماتت لما بلغت الى منتهى العمر[٤] .

على ان الموت الذي هو سبب غيار وفساد للجميع لم يكن سوى ممر لذلك الجسم الذي لم يعرف الخطيئة ولم يخضع لسطان الفساد : فالذي صان العذراء في الولادة صان جسمها في الرمس بغير فساد[٥] . ولم يشترك جسدها الطاهر في خبرة المنية[٦] لان في رقادها اذن موتاً بغير فساد وهذا الموت اصبح للعذراء الأم أفضل من حياة دائمة ، لانه نقل البتول من الوقتيات الى الحياة الالهية[٧] .

اجل لبث الجسم بعد الموت مصوناً بغير اذى « وصار انتقال من الأرض الى السما. بطريقة مستغربة بالحقيقة وقد تمّ هذا الانتقال بسرعة « لان البتول

---

١) ميناون ١٥ شهر آب ٨٣٩ قانون يوحنا الدمشقي اودية ٣ — ٢

٢) اودية ٤ — ٤

٣) قانون اول اودية ١ — ٢

٤) ١٤ آب قانون اودية ٨ — ١

٥) قانون اول ٦ — ٢

٦) اودية ٦ — ٣

٧) اودية ٤ — ٢

لكيما تشاهد جمال ابنها عمدت اليه سريعاً »[1] . فاصبح رمسها الالهي شهياً ومملوءاً من نعمة جسدها يتدفق لنا بجداول الشفا. كأنهار تزيل الاوجاع كلها »[2] .

وموضوع العيد في الكنيسة البيزنطية يدور على هاتين العقدتين اننا نعيّد لتذكار رقادك الموقر ولارتقائك بمجد الى ابنك وإلهك »[3] . والقديس ثاوفانوس المرنم يقول للعذراء : « ان رمسك الشريف يكرز الآن بدفنك وبانتقالك بالجسد الى السماوات »[4] .

Ὁ Τάφος σου Κηρύττει, Πανάμωμε, τὴν ταφήν σου, καὶ τὴν μετὰ σώματος πρὸς οὐρανοὺς νῦν Μετάστασιν.

Ménées. p. 400.

وهذا الارتقاء قد تم بالنفس والجسد . انتقلت نفسها ولكن ليس من العجب الكبير ان تنتقل روح العذراء الى السماء فهذا انعام شامل لكل الذين عاشوا بالتقوى والقداسة ولكن الانعام الخاص بمريم انها انتقلت الى السماء بنفسها وجسدها ولكن لا بقوتها الذاتية بل بقوة يسوع ابنها الالهي . ففي القانون الموضوع لتقدمة عيد انتقال العذراء . نجد هذه الشهادة الصريحة بانتقال جسد العذراء : « لنسبح الرب الذي نقل امه الطاهرة والكلية البر والقداسة بالجسد الى بلدة الأحياء »[5] .

وهناك تصريحات اخرى : « ايتها البتول ان جسدك قد صعد من القبر وابقى لنا فيه البركة »[6] . ثم اننا نحس من خلال الاناشيد « ان الملائكة

---

١) ١٤ آب قانون ١ — ٣

٢) ١٤ آب قانون اودية ٧ — ٣

٣) اكسابستلاري ١٤ آب

٤) قانون تقدمة ٥ — ١

٥) ١٤ آب قانون ١ — ١

Ἄσωμεν τῷ Κυρίῳ, τῷ ἐν χώρᾳ ζώντων μεταστησάντι τὴν αὐτοῦ κατὰ σάρκα Παναγίαν Μητέρα.

٦) ١٤ آب قانون ٧ — ٣

Ἤρθη τὸ σῶμα μὲν τοῦ τάφου παραμένει δὲ ἡμῖν. ἡ εὐλογία. Παρθένε ἁγνή (402).

والمراتب غير الهيولية قد وافت من السماء الى صهيون يعتنون بجسدها[١] . وان الاجناد والملائكة في حين الانتقال ستروا جسدها الرحب القابل الاله بأجنحتهم الموقرة بخوف وفرح[٢] وافوا ليشيعوا الجسم القابل الاله الفائق الكرامة[٣] . فهذا الجسد الذي لم يشترك بخبرة المنية ولا بفساد القبر قد صعد من تشويش وجلبة العالميات بأسرها[٤] .

انتقلت العذراء الى السماء بنفسها وجسدها على ايدي الملائكة وهي الآن قرب ابنها الالهي لان البتول الملكة وعروس الاله تنتقل الى ابنها وترتقي من الارض لتنتظم في المملكة الالهية[٥] . وقد تقبلتها «المظال السماوية بما انها سماء حية ومثلت هناك مزدانة بالبهجة كعروس الاله الملك المنزهة عن كل وصمة »[٦] واذا بها الملكة التي قامت من عن يمين الملك موشاة بزينة الذهب الموشى[٧] . وتصبح انذاك حسب القول الليتورجي « البرج المرصوف بالذهب والمدينة ذات الاثني عشر سورًا والكرسي المنقط بالشمس وسدة الملك »[٨] التي هي وحدها مباركة وممجدة بجسدها .

ان صوت الحبر الاعظم البابا بيوس الثاني عشر سُمع في كل اقطار العالم قد اعلن وجدد بسلطانه الاعلى بما انه رئيس الكنيسة المنظور والمحافظ الدقيق على وديعة الايمان حدد تلك العقيدة التي شغلت فكر العلماء حقبة طويلة من الزمن حدّد انتقال العذراء الى السماء بالنفس والجسد وجعلَ من هذه الحقيقة قوة حياة وشعلة مجد فدعا بصوته الوالدي ابناء المسيحية ليكرموا البتول في تمجيدها وحض الجميع على السير على هدي هذه الأم التي اصبحنا اليوم بحاجة الى نورها ومثالها الاعلى لتقود الآباء والامهات الى احترام الامومة الطاهرة وحتى تعلم العذارى والشبان جمال البتولية المكرمة فيكون تحديد هذه العقيدة الايمانية حافزًا لنا جديدًا لترتفع عن المادة التي تطغو على وجه الانسانية المتألمة فنخفف نحن بقداستنا شدة هذه السيول الجارفة ونرفع بالنفوس الى الاله الحي مصدر المجد وينبوع كل فرح وسعادة .

---

١) ١٥ آب قانون ١ — ٢

٢) ١٥ آب قانون ٤ — ٢

٣) ذكا كانين غروب سادس .

٤) ١٤ آب قانون ٦ — ٢

٥) ٥ آب قانون ٧ — ٢

٦) قانون الدمشقي ١ — ٢

٧) مزمور ٤٤ — ١٠

٨) ٣٠ ك٢ أكابستلاري ٣

وثائق تاريخية عن المجمع اللبناني

مقال الاب اغسطينوس تشاسكا (تتمة)

بقلم الخوري باخوس الفغالي
المأذون في اللاهوت
والدكتور في الحق القانوني ، والمحامي الروتالي

الفصل الثالث

فيما اذا كان البطريرك الماروني يحق له ان يفسح من الدرجة الثانية من القرابة الدموية الاهلية بناء على حكم المجمع اللبناني او على غير ذلك من مستند مهما كان نوعه او تفويض

٦٧) والجواب على السؤال المطروح هو موضوع الفصل الحاضر . ولا يمكن ان يكون الا سلبياً . وذلك استناداً الى مبادئ الحق القانوني العامة : وقد اثبت ذلك بادلة متينة المستشار الشهير المحامي القانوني كركاني عندما فحص السؤال الثاني المطروح في تلخيص كانون الثاني المذكور سنة ١٨٨٢ فترجو نيافاتكم السامية ان تراجعوه . واذا اعتبرنا العبارات التي استعملها ، في صوغ سؤاله ، سيادة امين السر للامور الشرقية الشهير والجزيل الاحترام يتوجب علينا الآن

Capo III

Se il Patriarca Maronita abbia la facoltà di dispensare nel secondo grado di consanguinità ed affinità sia per disposizione di quel Sinodo (*Libanese*), sia per altro qualsivoglia titolo o concessione.

67. La risposta all'enunciato quesito, che forma l'oggetto del presente capitolo, se si consultano le massime generali del diritto canonico, non potrebbe essere che negativa, come fu provato con solide ragioni dall'illustre Consultore Con. can. Avvo. Carcani, nell'esame del secondo dubbio della citata Ponenza del Gennero 1882, che le EE. VV. sono pregate di riassumere. Stando però all'espressioni usate dall'Illmo e Rmo Mons. Segretario per gli AA. OO. nel formulare il preaccennato quesito, sarebbe ora da cercarsi, se al Patriarca dei

ان نبحث فيما اذا كان للبطريرك الماروني السلطان المشار اليه استناداً الى احكام هذا المجمع او الى غيرها من مستندٍ او تفويض .

٦٨) والمستندات التي يعتمد عليها بطاركة الموارنة ليثبتوا حصولهم على هذا السلطان المزعوم قدا برزها سنة ١٨٣٠ البطريرك الحبيشي[1] وسنة ١٨٥٦ سيادة بولس مسعد البطريرك الحالي[2] ومآلها : نص المجمع اللبناني بطبعتيه العربية واللاتينية وعادة لا يذكر بدؤها . ولنبحث الآن في المستند الاول باعتبار النص اللاتيني حيث جاء[3]: اما سلطان السيد البطريرك السامي الاحترام في اعطاء رخصات التفسيحات فان كان غاية في السعة لتبوّء ذروة مقام البطريركية الانطاكية .. مع ذلك فقد صرح البابا اكليمنت الثامن بدرجات القرابة الدموية والاهلية التي يمتد اليها سلطان السيد البطريرك في رسالته المنفذة بشكل موجز الى يوسف بطريرك كنيستنا سنة ١٥٩٩ للرب . فانه بعد ان عدد موانع الزواج الواجبة رعايتها بمقتضى ارادة المجمع التريدنتي منح البطريرك المشار اليه سلطاناً على رخصة التفسيح لكل المرتبطين معاً بالقرابة الدموية والاهلية في الدرجة الثالثة والرابعة باعتبار الاصل الجامع وفي الرابعة ولو تضاعفت او تعددت الدرجات » . وهذه

١) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٣١ (من هذا المقال)

٢) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٣٥ (من هذا المقال)

٣) حاشية المؤلف : باب ١١ في سر الزواج عدد ١٦ (تعريب نجم صفحة ١٣٦-١٣٧)

Maroniti competa la suddeta facoltà per le *disposizioni del Sinodo* stesso o per altro *titolo o concessione*.

68. I titoli su cui si appoggiano i Patriarchi Maroniti, per provare aver essi la pretesa facoltà, furono prodotti nel 1830 dal Patriarca Habaisci (§. 31), e nel 1856 dall'attuale Patriarca Mons. Paolo Massad (§. 35). Essi si riducono: al testo del Sinodo Libanese secondo la doppia edizione araba e latina; ed alla consuetudine immemorabile. Esaminiamo il primo titolo secondo il testo latino. Nel cap. XI: *De Sacramento matrimonii*, n. 16 dell'edizione latina si legge: *Quamquam autem Rmi Dni Patriarchae potestas in concedendis dispensationibus amplissima sit ex eo capite, quod Patriarchalem Antiochenam dignitatem obtinet... Clemens Papa VIII, quo illa in gradibus consanguinitatis et affinitatis sese extendat, expresse declarat in suis litteris in forma Brevis ad Josephum Ecclesiae nostrae Patriarcham anno Domini* 1599 *datis: ubi postquam impedimenta matrimonii ex mente Concilii Tridentini observanda enumerasset, eidem Patriarchae facultatem concedit dispensandi cum quibusvis personis* tertio *et* quarto *a communi stipite, ac quarto etiam duplicibus, vel multiplicibus consanguinitatis, vel affinitatis gradibus invicem coniunctis, vel sese attinentibus*. Queste parole, colle quali si dichiara limitarsi la cosidetta amplissima potestà derivante dalla patriarcale dignità antiochena, sono letteralmente trascritte dal testo del Breve

العبارات التي يعلن بها حصر السلطان المشار اليه والذي هو غاية في السمة لتبوّ ذروة مقام البطركية الانطاكية قد نقلت حرفياً عن نص الموجز الوارد ادناه وفيه يقول الحبر :« لاننا . . . لاي كان من المرتبطين معاً بالقرابة الدموية والاهلية في الدرجة الثالثة او الثالثة والرابعة باعتبار البعد عن الأصل الجامع وفي الرابعة حتى في الدرجات المتضاعفة او المتعددة» وينتج عن ذلك ان الانعام المعطى للبطريرك الماروني بقي محصوراً في ان يفسح فقط من الدرجتين الرابعة والثالثة حساباً لاتينياً .

٦٩) الا في المقطع الثلاثين من الباب المشار اليه[٤] من الطبعة اللاتينية وضعت صيغة يتوجب على كهنة الرعايا رعايتها في تسجيلهم الزيجات في السجل الخاص بها وهاك ما جاء فيها :« اما لو اكتشف بالمناديات ان بين الزوجين قرابة دموية او اهلية قد ترخص لهما فيها تفسيحاً البطريرك السامي الاحترام فليكتب كاهن الرعية درجة القرابة المرخص فيها تفسيحاً وملخص مرسوم رخصة التفسيح مع ذكر تاريخه يوماً وشهراً وسنة على الصورة الآتية : « انه في يوم كذا من شهر كذا السنة كذا قد اجريت المناديات وعثرت على مانع قرابة دموية او اهلية في الدرجة الثانية او الثالثة او الرابعة الخ». ان هذه العبارات بما تشتمل عليه من قول انه قد ترخص لهما فيها البطريرك تفسيحاً وبما تذكره من ان الدرجة الثانية تدخل في نطاق الدرجات المفسح منها قد توجب استنتاجاً لصالح البطريرك

٤) حاشية المؤلف : صفة ٩٣ (تعريب نجم صفحة ١٥٠) .

che vi si sottopone, in cui il Pontefice dice: *Nos enim tibi cum quibusvis personis* tertio, *seu* tertio, *et* quarto *a communi stipite, ac quarto etiam duplicibus, vel multiplicibus* etc. D'onde risulta che il privilegio concesso al Patriarca Maronita rimane ristretto a poter dispensare soltanto dal quarto sino al terzo grado inclusivamente, secondo la computazione latina.

69. Se non che, al paragrafo 30 dello stesso capo p. 93 dell'edizione latina, prescrivendosi ai Parrochi la formola per notare i matrimonii nell'apposito libro, si legge: «*Si ex denunciationibus compertum sit, coniuges aliquo consanguinitatis, aut affinitatis gradu coniunctos esse, nihilominus ad contrahendum fuerit cum ipsis a Rmo Dno Patriarcha dispensatum, adnotetur gradus consanguinitatis, vel affinitatis dispensatae, et compendium decreti super ea relati; cum die, et anno hoc modo. Anno N. Mense N. die N. praemissis denunciationibus, ac comperto impedimento* secundi, *vel tertii, vel quarti gradus consanguinitatis, vel affinitatis etc...*». Dalle quali espressioni, dicendosi prima: *si... ad contrahendum fuerit cum ipsis a Patriarcha* dispensatum, e notandosi poi tra gradi dispensati anche il *secondo*, parebbe doversi conchiudere a favore del Patriarca, se le

لو وجدت ضمن الاحكام ولكنها قتّة في صيغة تسجيل ليست حكماً او قانوناً من قوانين المجمع . وعليه يجب فهمها دائماً وفقاً للحكم المصرح به في مقدمة الموجز الحبري المذكور ومتنه. وهذا المقطع الذي لا وجود له في النص العربي يحتوي على قول غير صحيح بالنظر الى مضمون الموجز وبالنظر الى القسم التأويلي منه ولذلك لا يمكن فهمه تاماً. ان باستطاعتنا التنبيه الى ان هذا التعبير، مهما كان سببه ، قد درج عليه السمعاني وانك لتجده حتى في المشروع اللاتيني الاول المكتوب في رومة وتجده ايضاً في النص الآخر اللاتيني الذي ترجم في الشرق عن النص العربي . وقـد اصلح الآن في النصين اللاتينيين المذكورين وذلك في مقدمة موجز اكليمنث الثامن وفي متنه وربما لم يُنتبه الى وجوب اصلاحه في المحل المشار اليه . وهناك برهان آخر انما اضعف من السابق يمكن بطاركة الموارنة ان يستخلصوه من الصفحة ٢٦١ (٥ من الطبعة اللاتينية حيث يؤتى على تعداد انعامات البطريرك الانطاكي فيقال في العدد الثامن عشر : « ان يفسح في الدرجات المحرمة سواء كانت مبطلة او مانعة للزواج » انما يجب ان يحمل ذلك على الحوادث والدرجات التي له السلطان لان يفسح منها . واذا استثنينا هذين المحلين اللذين يمكن الاستناد اليهما خاصة ، ولكن بدون فائدة ، لصالح

٥) حاشية المعرب : تعريب نجم صفحة ٥٣٥ .

dette espressioni si trovassero in una parte dispositiva, e non già, come sono, in un formulario (sic), il quale non costituisce un decreto ó canone del sinodo; perciò devono spiegarsi sempre in conformità del dispositivo, espresso nel preambolo e nel testo del Breve Pontificio surriferito. Come poi in questo paragrafo, che non esiste nell'arabo si trovi tale inesatta dicitura in opposizione al tenore del Breve ed alla parte esplicativa del medesimo, non potrebbe adequatamente spiegarsi. Soltanto puo avvertirsi che questa espressione, qualunque ne fosse il motivo, era familiare all'Assemani, perchè si trova fino nel primo schema latino scritto in Roma, come anche nell'altro testo latino fatto in Oriente sull'arabo. Al presente si trova corretto ne' detti due testi latini tanto nel preambolo quanto nel tenore del Breve di Clemente VIII. forse non si è avvertito di correggerlo in questo luogo. Altro argomento, ma più debole del precedente, potrebbero desumerlo i Patriarchi Maroniti dalla p. 261 dell'edizione latina, ove enumerandosi i privilegi del Patriarca Antiocheno, al numero 18 si dice: *in gradibus prohibitis ac matrimonium dirimentibus vel impedientibus dispensare.* Ma ciò si deve intendere di quei casi e gradi, in cui ha la facoltà di dispensare. Fuori di questi due luoghi che *specie tenus* ma senza frutto potrebbero invocarsi a favore del Patraiarca, non si è trovata espressione nel testo latino che possa comunque

البطريرك لا نجد عبارة في النص اللاتيني يمكن ان تعاد بأي نوع كان الى صالح السلطان المزعوم للتفسيح من درجة القرابة الاهلية والدموية الثانية .

٧٠) ولا يصح نفس القول في النص العربي. فقد ذكرنا[٦] المغايرة الخطيرة القائمة بهذا الشأن في النص العربي حيث حُذف اولاً: « من لدن الحبر الروماني » من العبارات التالية من النص اللاتيني[٧] : « للسيد البطريرك السامي الاحترام دون غيره ان يترخص تفسيحاً بقوة ما له من اطلاق اليد الموكول اليه من لدن الحبر الروماني في الموانع المبطلة للزواج وفي نذر العفة الدائمة ودخول الرهبانية الموصوفين بالبساطة والاطلاق ». وثانياً حُرفت النبذة التالية من النص اللاتيني[٨] : « وان . . . وكان مريدا الزواج متقلبين في حالة الفقر وجب على الرئيس المحلي ان يسعى لدى الكرسي الرسولي او لدى معتمده في التماس رخصة التفسيح لهما مجاناً كما يطلب للفقراء، وتصح ايضاً بل تجوز . . . لانه في مثل هذه الضرورة يُقدر ان الحبر الاعظم او معتمده لا يريد الاستئثار برخصة التفسيح ». اما النص العربي فانه يبدل بلفظة البطريرك ونائبه العبارات المشار اليها بخط والمتعلقة بالكرسي الرسولي . وقد جاء في النص العربي ما يلي : « يجب الاشارة الى انه متى فُقد احد هذه الشروط المبسوطة سابقاً وكان الخطيبان متقلبين في حالة

٦) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٤٠ عدد ٣ فقرة ٥ (من هذا المقال) .
٧) حاشية المؤلف : صفحة ٨٤ (تعريب نجم صفحة ١٣٥) .
٨) حاشية المؤلف : نفس المحل (تعريب نجم صفحة ١٣٦) .

favorire la pretesa facoltà di dispensare nel secondo grado di consanguinità ed affinità.

70.- Non così può dirsi del testo arabo. Al §. 40, III, 5 si è notata la grave variante occorsa in proposito nell'arabo, in cui primieramente si è soppresso «*ex concessione Romani Pontificis*» nel periodo del testo latino, p. 84, che suona come appresso: *Solus Patriarcha ex concessione Romani Pontificis dispensare potest circa impedimenta dirimentia, et circa votum simplex et absolutum perfectae castitatis et religionis.* In secondo luogo è stato alterato il seguente brano del desto latino: *Si vero partes penuria laborent, debebit Ordinarius dispensationem apud Sedem* Apostolicam *vel* Delegatum *prosequi in forma pauperum ut gratis obtineatur... valet etiam et licita est... in illis enim angustiis censetur* Summus Pontifex *aut eius* Delegatus *dispensationem sibi minime reservare velle.* L'arabo all'espressioni rimarcate, e riguardanti la Sede Apostolica sostituì le parole Patriarca e suo Vicario: «E d'avvertirsi, così esso legge: *che mancando una di queste condizioni sopra esposte essendo i sposi poveri è obbligato il Vescovo della Diocesi di cooperare appresso del* PATRIARCA, E SUO VICARIO *per la dispensa gratis... ed è lecito ancora... perchè in simili calamità conviene a* MONS. PATRIAR-

الفقر فانه يتوجب على اسقف الابرشية ان يسعى لدى البطريرك او لدى نائبه للتفسيح مجاناً ... ويجوز ايضاً ... لانه في مثل هـذه الضرورة يوافق ان يتنازل البطريرك ونائبه للاسقف عما حُفظ لهما من سلطان ». وثالثاً اهمل النص العربي في مقدمة موجز اكليمنت الثامن العبارات المصرحة بالدرجات التي منح البطريرك سلطان التفسيح منها وهو خلافاً للنص اللاتيني[٩] يشتمل على ما يلي: « ومع ذلك فان البابا اكليمنت الثامن في رسالته الى البطريرك يوسف الرزي بتاريخ سنة ١٥٩٩ صرّح بما يمتد اليه سلطان السيد البطريرك في التفسيح من درجات القرابة الدموية والاهلية . وبعد ان اعلن موانع الزواج بمقتضى المجمع (التريدنتي) منح البطريرك المشار اليه سلطاناً لان يفسح منها » . ويبدو واضحاً من مضمون هذا الكلام ان البطريرك الماروني له السلطان لان يفسح من جميع الموانع التي اعلنت وفقاً لارادة التريدنتي .

٧١) وكان من الطبيعي بعد ان تمهد السبيل بواسطة الحذف والتبديل ان يُنتهى اخيراً الى تحريف موجز اكليمنت الثامن الرسولي. وفعلاً ان النبذة المشار اليها من ذلك الموجز والتي اوردت في المقطع ٦٨ قد عرّبت بما يلي : « اننا نمنحك... لكل ذوي قرابة في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة باعتبار الاصل الجامع وفي الرابعة المختلطة من درجات القرابة الدموية والاهلية معاً». ويوافق

٩) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٦٨ (من هذا المقال) .

ca, E Suo Vicario *di accondiscendere col Vescovo riguardo alla potestà riservata a Lui.* In terzo luogo sono state omesse dall'arabo nel preambolo al Breve di Clemente VIII le espressioni dichiarative dei gradi nei quali era stata accordata al Patriarca la facoltà di dispensare, poichè esso, contrariamente al testo latino (§. 68) legge come segue: *Nihilo autem secius Clemens Papa Octavus in sua epistola ad Patriarcham Josephum El-rezzi anno* 1599 *expresse declarat amplitudinem potestatis Dni Patriarchae in dispensandis gradibus consanguinitatis et affinitatis. Postquam enim declaraverat impedimenta matrimonii secundum sacrosanctum Concilium* (Tridentinum), *tribuit praefato Patriarchae facultatem ea dispensandi.* Dal tenore delle quali parole risulta evidentemente avere il Patriarca Maronita la facoltà di dispensare da tutti gl'impedimenti dichiarati secondo la mente del Tridentino.

71. Preparato così il terreno colle mutilazioni e colle sostituzioni, era naturale di divenire finalmente alla interpolazione del Breve Apostolico di Clemente VIII. E per vero, il tenore del brano relativo del medesimo Breve, riferito al §. 68, viene così tradotto nell'arabo: *Omnes qui propinquitatem habent cum aliis in gradu* Secundo *et tertio, et quarto a communi stipite; et in quarto etiam mixtis in gradibus consanguinitatis et affinitatis simul Nos tibi concedimus* etc. Al qual proposito

ان نذكر هنا ملاحظة صائبة ابداها سيادة ڤالرجا بهذا الصدد . قال : « انه واضح الآن ان اول تعريب كان مطابقاً في ذلك لنصّ البراءة او الموجز الرسولي اللاتيني . وقد أُصلحت فيما بعد اللفظة العربية « الثالثة » وأُبدلت بلفظة « الثانية »[١٠] ووضعت لفظة « الثالثة » في الهامش . ويجب الاشارة الى ان تلك اللفظة « الثانية » كتبت فوراً في اول السطر الاسفل ثم شطب فوقها . وهذا يحمل الى الافتراض ان لفظة « الثالثة » هذه قد أُدخلت في النص مرتين[١١] وعليه قد يكون شطب فوقها قبل التحريف ثم أُبدلت لفظة « الثالثة » الاولى بلفظة « الثانية » ولذلك احتيج الى زيادة لفظة « الثالثة » مرةً اخرى في الهامش[١٢]. ومهما يكن من ذلك فانه ثابت ان التحريف مقصود كما رأينا في المقطع

٧٠ ويظهر ايضاً ان الذي هيّأ السبيل لذلك هو السمعاني بعينه . ويستند هذا الافتراض اولاً الى كون القاصد المشار اليه وليس غيره عرّب المجمع عن

١٠) حاشية المؤلف : يظهر حالياً ان هذه اللفظة « الثانية » قد جدد ابدالها حديثاً بلفظة « الثالثة » ولا يصح الاعتقاد ان ذلك قام به سيادة ڤالرجا .

١١) حاشية المؤلف : وقد كتبت فعلاً مرتين في النص اللاتيني : الثالثة او الثالثة والرابعة .

١٢) حاشية المؤلف : يحمل عدد ٣ صفحة ٤١ .

giova qui riportare la giusta osservazione di Mons. Valerga: «È ancora presentemente evidente, egli dice, che la primitiva versione era in ciò conforme al testo latino della Bolla o Breve Apostolica. Poscia la voce araba *tertio* venne correta, e mutata nella voce *secundo* (1), e fu apposta al margine la voce *tertio*! È da notarsi però che questa voce *tertio* era stata scritta immediatamente a. principio della linea inferiore, e venne poscia cancellata; il che lascerebbe supporre che questa voce tertio era stata inserita nel testo due volte (2), quindi sarebbe stata cancellata la seconda anteriormente alla interpolazione. Dopo l'interpolazione poi, cambiato il primo *tertio* in *secondo*, fu d'uopo aggiungere un'altra volta il *tertio* al margine». (*Som. N.* III, p. 41). Checchè sia di ciò, è positivo che l'interpolazione venne preparata, come si è veduto al §. 70, e parrebbe anzi venisse preparata dallo stesso Assemani. Il fondamento di questa ipotesi sarebbe I. perchè lo stesso Ablegato, e non altri, tradusse il Sinodo dal latino in arabo (§. 11); 2. perchè il manoscritto latino portato seco da Roma, (sul quale fu redatto il testo arabo) tanto nel preambolo, quanto nel testo del

(1) Attualmente però questa voce *secundo* si scorge da recente mano nuovamente mutata in *tertio*. Non sembra credibile che abbia ciò fatto Mons. Valerga.

(2) Ed in vero nel testo latino è scritta due volte: *tertio, seu tertio et quarto*.

اللاتيني[١٣] . وثانياً الى كون المخطوط اللاتيني الذي اتى به من رومة[١٤] قد كُتب فيه : « الثانية او الثالثة والرابعة » ثم شُطب فوقها وذلك في مقدمة الموجز المشار اليه وفي متنه . وكذلك في نفس المخطوط المعروف ذي المجلدات الثلاثة الذي فحصه وثبته المجمع المقدس يُرى بوضوح الى اليوم ايضاً « الثانية او الثالثة » وذلك في مقدمة الموجز الا انه شُطب فوقها . اما في متنه فقد كُتب بصواب ما تحتوي عليه الطبعة اللاتينية . وهذه القرائن لا تطلق الحق بان ينسب الى الشهير سمعان السمعاني اعمالاً سيئة النية انما لا تجرده من كل تهمة تواطوء اذ ان هذه القرائن تدل على ان التحريف لم يحصل بدون معرفته .

٧٢) وبناء على ما اثبتنا من تحريف في النص العربي ومن شرعية النص اللاتيني اصبح ثابتاً ان البطريرك الماروني لا سلطان له بقوة المجمع اللبناني لان يفتح من درجة القرابة الدموية والاهلية الثانية. اما شرعية النص اللاتيني فقد ثُبتت بما اورد من ادلة عامة في البحث السابق . وهنا يكتسب هذا الاثبات قوة قاطعة من مقابلة نسخة موجز اكليمنت الثامن التي اخرجت حديثاً بصورة صحيحة من امانة سر الموجزات وضُمت الى المجمل[١٥] وهي مطابقة كل المطابقة لنص الطبعة اللاتينية المذكورة ما عدا هذا الفرق بين ما يلي من الطبعة

١٣) حاشية المؤلف : مقطع ١١ (من هذا المقال) .
١٤) حاشية المؤلف : وعنه حرر النص العربي .
١٥) حاشية المؤلف : عدد ٦ .

citato Breve trovasi scritto, sebbene poi cancellato, *secundo seu tertio, et quarto*: anzi nello stesso noto manoscritto in tre Tomi, esaminato ed approvato dalla S. C., è chiaramente visibile anch'oggi, *secundo seu tertio* nel preambolo del Breve, quantunque sia cancellato, e quantunque nel testo dello stesso Breve si legga rettamente come nell'edizione latina. Sebbene quest'indizii non diano diritto assoluto ad ammettere nell'illustre Simonio Assemani atti di mala fede, pure non lo esimono da una qualche taccia di *connivenza*, giacchè i medesimi provenebbero che l'interpolazione non venne fatta a sua insaputa.

72. Provata l'interpolazione del testo arabo e l'autenticità del latino, — la quale in questo luogo non solo risulta dalle ragioni generali riferite nell'articolo precedente, ma acquista forza perentoria dal confronto della copia del Breve di Clemente VIII recentemente avuta in *forma autentica* dalla Segreteria dei Brevi, che si esibisce in *Som. N.* VI, colla quale, meno la differenza tra il seguente comma dell'edizione latina: *vel ubi mulier in proprio castro, vel loco sibi non attinente, cui honeste nubere possit* ed il corrispondente della detta copia, che suona: *vel ubi mulier in proprio castro, vel loco virum sibi non attinentem, cui honeste nubere possit*, ed

اللاتينية : « او فيما اذا كانت المرأة لا تجد في وطنها او محلها . . .[١٦] اهلاً لان تتروج منه ». وما يوافقه من نسخة الموجز المشار اليها وهو :« او فيما اذا كانت المرأة لا تجد في وطنها او محلها رجلاً من غير ذوي قرباها اهلاً لان تتروج منه » وما عدا غير ذلك من مغايرات قليلة وتافهة وضعت في حاشية.

٧٣) وقد بقي علينا ان نبحث في المستند الثاني وقوامه كما يقول البطريرك الماروني عادة لا يعرف بدؤها . وقد توقف على هذه النقطة محكماً الحجيج المحامي القانوني المستشار المذكور كركاني وذلك في تلخيص كانون الثاني المذكور سنة ١٨٨٢[١٧] . واثبت بأدلة متينة انه لا يمكن في هذه الحالة ان تعتبر العادة المشار اليها شرعية[١٨] لانها لا تتحلى بالمقتضيات الضرورية . ويجب

١٦) حاشية المعرب : ما يتبع هذه اللفظة لا سبيل الى تعريبه لانه لا معنى له بسبب ما حُذف وحُرّف من الفاظ في النص اللاتيني .

١٧) حاشية المؤلف . راجع المقطع ٢٣ (من هذا المقال) .

١٨) حاشية المعرب : هذا ما يقوله المؤلف وقد اثبت عكس ذلك الاب شيبريانو ڤاغادجيني في اطروحته : « في سلطان البطاركة الشرقيين الكاثوليكيين لان يفسحوا من موانع القرابة الدموية والاهلية » وقد دحض فيها ما ادعاه الاب تشاسكا وغيره من ان هذه العادة التي بموجبها اكتسب البطريرك الماروني سلطان التفسيح من الدرجة الثانية ليست شرعية لعدم حصول سلامة النية فيها وذلك لان الكرسي الرسولي لم يرض لا ضمناً ولا صريحاً بقيام تلك العادة وقد اشار مراراً الى البطريرك بوجوب التقيد بالنص اللاتيني للمجمع اللبناني . ولكن الاب تشاسكا ومن يرى رأيه نسوا ان البطاركة الموارنة كانوا يجيبون دائماً على رسائل الكرسي الرسولي بهذا الصدد ويبرهنوا عن حقهم باتباع النسخة العربية لكونها وحدها اصلية وشرعية . وكان الكرسي الرسولي يمتنع لاسباب ما عن رد الجواب على هذا الاعتراض ولذلك كان البطاركة يعتقدون انه اقتنع لما اوردوه من اسباب تجيز عملهم وتثبت نظريتهم . وهذا كاف لاثبات سلامة نية البطاركة الموارنيين وبالتالي لاثبات حصولهم بقوة العادة التي لا يُعرف بدؤها على سلطان التفسيح من الدرجة الثانية من القرابة الدموية والاهلية (راجع عدد ٣٤ و ٣٥ من هذا المقال) .

altre poche insignificanti varianti, che si sono collocate in nota, è pienamente conforme al testo della suddetta edizione latina — rimane evidentemente provato, non avere il Patriarca Maronita in forza del sinodo libanese la facoltà di dispensare nel secondo grado di consanguinità ed affinità.

73. Rimarrebbe ad esaminare il secondo titolo fondato, come dice il Patriarca Maronita, sulla consuetudine immemorabile. Intorno a questo s'intrattenne a ragionare saviamente il predetto Consultore Can. Avv. *Carcani* nella citata Ponenza del Gennaro 1882 §. 23, provando con forti ragioni non potersi nel caso ritenere come *legittima* detta consuetudine, perchè mancante dei *requisiti*

ان يشار ايضاً الى ان مجمع الانتشار قد شدّد الامر بوجوب الاعتماد على النص اللاتيني ليس في السنتين ١٨٣٢ و١٨٤٦ فقط كما اشير اليه في التلخيص المذكور بل انه اصدر ايضاً هذا الامر سنة ١٨٣١ [١٩] وجدّده للبطريرك الحالي سنة ١٨٥٥ [٢٠] وكتب له اخيراً سنة ١٨٦٦ انه سيخضع مطلبه (وهو ألّا يحرمه الانعام المزعوم اي سلطان التفسيح من الدرجة الثانية) لحكم الآباء السامية نيافتهم في اجتماع يعقدونه قريباً [٢١] . ويمكن ان يستخلص من كل ذلك ان العادة المزعومة لا اساس لها البتة لا واقعاً ولا شرعاً .

٧٤) وبالرغم من ذلك فانه لا سبيل الى اخفاء ما يتولد من ريب في هذا الشأن عن بعض عبارات ملتبسة استعملها الفاحص رودونا في تقريره عن المجمع المذكور . فانه في ملاحظاته العامة يقول : « الكنيسة المارونية تعد درجات القرابة لحد السابعة كاليونان ولكنها خلافاً لهم لا تتمسك بالموانع بل تتفسح فيها في الزواج الذي يعقده فيا بينهم الاخوة والاخوات المرتبطين بالقرابة الاهلية ». واكثر التباساً هو كلامه المضاف الى تقريره [٢٢] حيث يشير الى القانون

١٩) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٣٢ (من هذا المقال) .
٢٠) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٢٨ (من هذا المقال) .
٢١) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٢٩ (من هذا المقال) .
٢٢) حاشية المؤلف : راجع المجلد الثاني عشر المذكور من المخلفات المحفوظة في الخزانة .

necessarii. Anzi è da notare che la Propaganda non solamente nel 1832 e 1846, come ivi si osserva, insistette per l'adozione in proposito del testo latino ma avea già inculcato gli stessi ordini nel 1831 (§. 32), e ripetutoli all'attuale Patriarca nel 1855 (§. 28), cui finalmente nel 1866 scriveva, che ciò ch'egli domandava (di non esser cioè privato del preteso privilegio di dispensare nel secondo grado) sarebbe stato sottoposto al giudizio degli Emi Padri in una prossima Congregazione generale (§. 29). Da tutto ciò si potrebbe conchiudere, non aver realmente la pretesa consuetudine alcun legittimo fondamento. . .

74. Ciò non ostante, non dee nascondersi un dubbio che potrebbe nascere in proposito da alcune ambigue espressioni usate dal revisore Abbate Rodotà nella sua relazione sul Sinodo in parola. Nelle osservazioni generali egli dice: «Enumera (la Chiesa maronita) li gradi della parentela fino al settimo come i Greci, e di poi contro il rigore de' medesimi dispensa nel matrimonio, che si voglia contrarre tra *Fratelli e Sorelle* affini». E più ambiguamente parla nel supplemento della sua relazione (1), (sic) ove alludendo al canone 16 ,cap. XI,

(1) Nel citato T. XII, delle *Miscellanee* d'Archivio.

١٦ باب ١١ قسم ٢ قائلاً : تُدخل في هذا القانون براءة اكليمنت الثامن التي يمنح بها البطريرك الماروني السلطان لان يفسّح من بعض درجات القرابة . ان التفسيحات الزواجية تتعدى حالياً حدود السلطان الذي يمنحه البابوات البطاركة[٢٣] وعليه يجب ان ترسل الى الموارنة تعليمات خاصة ويؤمروا بتعداد الدرجات التي يمتد اليها سلطان التفسيح وان يعيّن رسم الدفع » ويظهر من قول رودوتا « ان الكنيسة المارونية تفسّح في الزواج الذي يعقده فيما بينهم الاخوة والاخوات المرتبطين بالقرابة الاهلية . وان التفسيحات الزواجية تتعدى حالياً حدود السلطان الذي يمنحه البابوات البطاركة »[٢٤]. انه شاء تنبيه المجمع المقدس الى ان البطريرك يتوسع اكثر من اللازم في السلطان الذي منحه اياه اكليمنت الثامن. انما المجمع المقدس المشار اليه لم يعر اهتمامه ملاحظة رودوتا ولم يُشر اليها البتة في تلخيص الكردينال بطرا «للتخفيف عن المصوتين السامية نيافاتهم»[٢٥]. وعليه فانه يعود الى نيافاتكم السامية ان تقرروا بمقتضى حكمتكم الرفيعة ما اذا كان مجمع الانتشار بسكوته عن ذلك اراد ان يثبت ضمناً امتداد السلطان الممنوح في الموجز الرسولي كما قام به البطريرك من تلقاء نفسه . هذا مع

٢٣) حاشية المعرب : اما النص الطلياني فيقول : السلطان الذي يمنحه البابوات والبطاركة .

٢٤) حاشية المعرب : راجع الحاشية السابقة .

٢٥) حاشية المؤلف : راجع المقطع ٥١ (من هذا المقال) .

Parte II, dice: «S'inserisce in questo Canone la Bolla di Clemente VIII nella quale s'accorda la facoltà al Patriarca de Maroniti di dispensare di alcuni gradi di parentela. *Le dispenze* (sic) *Matrimoniali eccedono al presente li limiti delle facoltà da Pontefici* (sic) *e Patriarchi concedute.* Onde sarebbe d'uopo con particolar istruzione (sic) prescrivere loro l'enemerazione (sic) de gradi fino a qual termine s'estenda l'autorità di dispensare e formare una tassa del pagamento». Dicendosi dal Rodotà che la *Chiesa maronita dispensa nel matrimonio, che si voglia contrarre tra fratelli e sorelle affini, e che le dispense matrimoniali eccedono al presente li limite delle facoltà da Pontefici e* (sic) *Patriarchi concedute,* pare che egli abbia voluto mettere sull'avviso la S. C. che il Patriarca de' Maroniti estendesse più del dovere le facoltà a lui concedute da Clemente VIII. E siccome la stessa S. C. non fece nessun conto dell'osservazione del Rodotà; anzi questa non venne punto menzionata nel Ristretto fattone dal Card. Petra *per minor incommodo degli Emi Votanti* (§. 51), le EE. VV. nell'alta loro sapienza giudicheranno, se la Propaganda, servando su ciò il silenzio, abbia voluto tacitamente approvare l'estensione delle facoltà concesse nel Breve Apostolico, fatta arbitrariamente dal Patriarca, sebbene, per conchiudere a favore del Patriarca, sarebbe stato necessario che

العلم بان الاستنتاج لصالح البطريرك يقتضي حتماً موافقة البابا عن معرفة على الامتداد المشار اليه وليس هناك من وثيقة تثبت ذلك .

الفصل الرابع

فيما يجب اتخاذه من تدابير

٧٥) انه لا سبيل الى الارتياب من التباين الجوهري القائم بين النصّين العربي واللاتيني للمجمع اللبناني كما انــه واضح ايضاً ان تثبيت الكرسي الرسولي تناول النص اللاتيني لا العربي . انما أرسل الى البطريرك المـاروني بواسـطة وكيله[٢٦] موجز التثبيت والنص العربي وحده مع الامر بنقله وارجاعه . والموجز المذكور لا يميّز بين النصين وهذا ما حمل البطريرك الى الاعتقاد بتثبيت النص العربي . وعليه فلا يمكن ان يُخطّأ الموارنة الذين استعملوا هذا النص واعتبروه شرعياً ومثبتاً . ويمكنهم اذا نسب هذا الخطأ اليهم ان يلقوه على المجمع المقدس الذي ارسل النص العربي وحده دون ما اشارة الى النص اللاتيني او تنبيه آخر من اي نوع كان يتعلق به . ولا يمكن المجمع المقـدس ان يتحاشى هذه الشكوى فيما اذا اعلن مغايرة النص العربي وامر كما يحق له بان

٢٦) حاشية المؤلف : راجع المقطع ١٤ (من هذا المقال) .

il Papa avesse approvato *scientemente* l'arbitraria estensione: il che non risulta affato dai documenti.

Capo IV

Dei provvedimenti da prendersi.

75. La difformità sostanziale tra i due testi arabo e latino del Sinodo Libanese non può mettersi in dubbio, come può ritenersi evidente che l'approvazione della S. Sede cadesse sul testo latino e non sull'arabo. Al Patriarca Maronita per mezzo del suo Procuratore (§. 14) fu mandato il Breve di approvazione col solo testo arabo, coll'istruzione di prenderne copia e rimandarlo. E siccome nel citato Breve non si distingue tra i due testi, così il Patriarca poteva credere che fosse stato approvato l'arabo. Quindi l'aver ritenuto ed usato questo come autentico ed approvato non ascriversi a colpa ai Maroniti; i quali, se venisse loro attribuita, potrebbero farla *ricadere* sulla S. C. che mandò il solo testo arabo, senza far menzione del latino e senza altro qualsisia analogo avvertimento E (sic) da questa recriminazione non potrebbe esimersi la S. C. qualora, proclamata l'irregolarità del testo arabo, n'esigesse come di ragione la correzione a norma del latino. Nè occorre rilevare i disgusti, le dicerie, cui si farebbe luogo a discapito certamente della causa cattolica, quando anche non fosse a temersi resistenza

يُصلح وفقاً للنص اللاتيني . ولا حاجة بنا الى الاشارة الى ما قد يحدث من جراء ذلك من نفور وتذمر مما يؤذي ولا شك بالمصلحة الكاثوليكية الى الخسارة . هذا وان لم يكن هناك خوف من مقاومة قد يُحافظ فيها تقريباً على الاحترام لكنها تكون على كل حال حازمة ومستمرة . والخروج بأخف شر ممكن من هذا الموقف الشديد الصعوبة له طريقة وحيدة ، وهي ليست خالية من كل عقبة ، وذلك ان يعقـد مجمع جديد يحل محل المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦ وتزاد فيه قوانين مجامع الموارنة المتأخرة ، فتقل بذلك قيمة الاول وتعدم فائدته فيبطل استعماله عملاً كما ان للكرسي الرسولي ان يبطله شرعاً ، بحكم جديد يبطل ايضاً الحكم الذي ثبت به بنديكتوس الرابع عشر الطيب الذكر مجمع سنة ١٧٣٦ المشار اليه . فليسمح لي بعرض هذا المشروع ، وان كان تنفيذه غير هيّن ، لانه يبدو وحده ممكناً وضرورياً كل الضرورة لما نحن بصدده .

٧٦) لقد ذكرنا[٢٧] كيف ان الاساقفة ، بعد عقد مجمع غوسطا الماروني سنة ١٧٦٨ ، ارسلوا اعماله الى المجمع المقدس ملتمسين بالحاج تثبيت قوانينه واضافتها الى المجمع اللبناني المثبت . وقد طلبوا ايضاً من المجمع المقدس ان يأمر بطبع المجمع اللبناني باللغتين اللاتينية والعربية بحرف سرياني[٢٨] ولو تم في

٢٧) حاشية المؤلف : راجع المقطعين ١٩ — ٢٠ (من هذا المقال) .

٢٨) حاشية المؤلف : قد اعتاد المسيحيون السوريون منذ الفتح الاسلامي ان يكتبوا ثم يطبعوا كتبهم المقدسة والطقسية بالكرشوني اي بلغة عربية حرفها سرياني . وذلك ليمنعوا الاتراك من قراءتها وامتلاكها .

più o meno rispettosa, ma sempre ferma e costante. Per uscire il men male possibile da questa difficillima posizione, è sembrato unico partito, benchè non scevro di qualche difficoltà, la celebrazione di un nuovo sinodo, il quale surrogando il Libanese del 1736, e aggiungendovi i canoni dè posteriori sinodi maroniti, rendesse il primo non solamente meno pregevole ma inutile, e così ne inducesse l'abrogazione di fatto, come la S. Sede potrebbe farlo di diritto in una nuova Costituzione, che dovrebbe riuscire anche all'abrogazione della Costituzione con cui la sa. me. di Benedetto XIV approvò il detto sinodo del 1736. Siane permesso di svolgere questo progetto, che se pure non è di facile esecuzione, sembra però unico possibile, e nel caso onninamente necessario.

76. Si è già riferito (§§. 19-20) come celebratosi nel 1768 il Sinodo Maronita di *Agosta*, i Vescovi, mandandone gli atti alla S. C. domandavano istantemente, che i Canoni in esso fatti fossero confermati, *e aggiunti al Concilio Libanese* già approvato. Di più domandarono, che la S. C. ne ordinasse la impressione,

ذلك الوقت الطبع الملتمس لكان ظهر التباين القائم بين النصين والذي ، كما هو واضح ، لم يكن احد شعر به البتة . ولكن المجمع المقدس لم يتقبل الطلب واننا نغض النظر عن السبب الذي نجهله . وقد يكون هذا الرفض هو الذي أدى الى اخراج طبعة المجمع اللبناني العربية .

٧٧) وما لم يعمل في ذلك الوقت يمكن عمله اليوم. وهو ان يعقد مجمع جديد يحتوي في اعماله على كل المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦ ، بجوهره على الاقل، ويغير فيه اذا ارتأى المجمع المقدس موافقاً بعض الاحكام التي يُقال انها تخالف الطقس قليلاً[٢٩] وذلك بحسب ما يرتأي . ويزاد في المحلات الموافقة منه قوانين المجامع المتأخرة والقوانين التي يراها مناسبة الاساقفةُ المارونيون . فتسنى هكذا للموارنة ان يحصلوا على دفترٍ واحد جامع لكل ما يغني عن المجامع السابقة بأجمعها . ومتى فُحص المجمع المذكور الاخير وقرره الكرسي الرسولي يصار الى تثبيته تثبيتاً رسولياً حافلاً يُمنح به السلطة والشهرة معاً بحيث تُبطل ، بسديد الكلام وقاطعه ، كل المجامع السالفة بما فيها مجمع سنة ١٧٣٦ وحكم بنديكتوس الرابع عشر المتعلق به . ومتى طبع ذلك المجمع باللغتين

٢٩) حاشية المؤلف مجمل عدد ٣ صفحة ٢٦ وعدد ٤ مقطع ١٢ .

la quale desideravano *fosse fatta in due lingue latina ed araba col* carattere siriaco (1). Se allora si fosse fatta l'implorata edizione, sarebbe stata riconosciuta la difformità dei due testi, di cui par chiaro che non si avesse sospetto veruno. Ma la S. C. qualunque ne fosse l'ignoto motivo, non volle accogliere la domanda; e forse questo rifiuto fu la ragione della edizione araba del Sinodo Libanese.

77. Ciò che non si fece allora, potrebbe farsi oggi. Tenere un nuovo sinodo, trasfonderne negli atti del medesimo almeno in sostanza tutto il Libanese del 1736: modificare, se e come la S. C. stimerà più opportuno, qualche disposizione che si dice men conforme al rito (*Som. N.* III, p. 26, *en.* IV, §. 12); aggiungervi nei luoghi convenienti i canoni dei posteriori sinodi, e quegli ulteriori che l'episcopato Maronita credesse opportuni. Così avrebbero i Maroniti un codice unico in cui tutto fosse riunito, che renderebbe inutili tutti i precedenti sinodi. Riveduto ed approvato quest'ultimo dalla S. Sede verrebbe confermato con solenne atto pontificio, il quale conciliando autorità e rinomanza al nuovo, dovrebbe abrogare in termini prudenti ma decisivi tutti i precedenti sinodi inclusivamente a quello del 1736, e della relativa costituzione di Benedetto XIV. Stam-

(1) I Cristiani Siri, per impedire che i turchi leggessero e s'impadronissero dei loro libri sacri e liturgici, fin dall'invasione dell'Islamismo usarono scrivere e poscia stampare i suddetti libri in Kârsciûnî, cioè in lingua arabica con lettere siriache.

العربية واللاتينية معاً يُبطل تباين النصين المشين الذي يثام شرف الموارنة وشرف الكرسي الرسولي ايضاً .

٧٨) ولا يخفى ما قد يلاقيه تحقيق ذلك المشروع من عقبات انما لايبدو مستحيلاً التغلب عليها ولذلك ينبغي ان يبقى طي الكتمان الشديد ما قد يكون اعتمد عليه المجمع المقدس في ذلك الشأن. ويمكن ان يُعلم به القاصد الرسولي في سوريا فقط ، وذلك باعتباره سر شخصي . وان يعطى علماً له وللبطريرك بان المجمع المقدس قد حكم ان النص اللاتيني وحده لا العربي ثبته بنديكتوس الرابع عشر . وينبغي ان يضاف الى هذا الحكم اوراقاً تثبت بوضوح صحة الامر الواقع وتشير معاً الى التباين الجوهري القائم بين النصين . ثم يصدر امر صريح بازالته بالطرق التي يكون قد حكم بانها اكثر سداداً وموافقة على ان لا تكون بسبب ذلك اقل وضوحاً ونجوعاً . والمناقشة في هذا المشكل العسير يجب ان يقوم بها البطريرك والقاصد اولاً ومن ثم يتسنى للقاصد ان يفاتح البطريرك بفكرة عقد مجمع جديد .

٧٩) ومتى نجح المسعى ورضي البطريرك والاساقفة الاكثر نفوذاً على الاقل بذلك المشروع يبقى هناك عقبة غير سهلة تتعلق بشتملات المجمع الجديد . من يدري كم ينبغي ان يحذف من النص اللاتيني في المقدمات التاريخية القانونية

pato questo sinodo *contemporaneamente* nelle due lingue araba e latina, farebbe cessare la sconcia discrepanza dei due testi, poco onorevole à Maroniti e alla stessa S. Sede.

78. Non si dissimulano le difficoltà che può incontrare l'esecuzione di questo progetto, ma sembra non sarebbe impossiblie superarle. A tal'effetto dovrebbe restare segretissima la risoluzione che su questo punto venisse adottata dalla S. C., e solamente esser communicata sotto personale segreto al Delegato Apostolico della Siria. A questo e al Patriarca si comunicherebbe, che la S. C. ha deciso che il solo testo latino, e non l'arabo, fu approvato da Benedetto XIV; e alla risoluzione dovrebbero aggiungersi fogli, che all'evidenza dimostrassero la verità del fatto, e in pari tempo rilevassero la sostanziale difformità dei testi. Quindi verrebe esplicita ingiunzione di farla disparire nei modi che venissero giudicati più prudenti e decorosi, ma non per questo men chiari ed efficaci. Nella discussione dell'arduo problema, che in principio dovrebbe passare fra il Patriarca e il Delegato, potrebbe questo insinuare la progettata celebrazione di un nuovo Sinodo.

79. Quando si fosse riuscito a far gradire tale progetto al Patriarca ed ai Vescovi almeno più influenti, resterebbe anche la difficoltà non lieve della estensione del nuovo sinodo. Chi sa quante cose vorrebbero espungersi dal testo

التي تتقدم فصولًا كثيرة والتي لا اثر لها في المشروع العربي الذي عرض على الاساقفة ليفحصوه . وعليه فان هولاء يجهلونها تماماً . من يدري ما يجب ان يقام به من تغيير في نفس النقاط المنصوص عليها في الاحكام المثبتة. لقد قيل انه مجمع شرقي بلباس لاتيني او بالاحرى انه مجمع لاتيني بلباس شرقي . انما لا ينبغي لذلك ان نقطع الامل من الوصول الى نتيجة صالحة وقد اعتاد على ذلك الكرسي الرسولي بسداد رأيه وطول اناته وحزمه وتساهل الطرفين الذي يحسن اللجوء اليه بوقته وواجب حدوده . ويظهر ان الوقت الحاضر موافق جدًا لذلك .وقد عرضت اسبابه لامين السر السامي الاحترام على ورقة منفردة.

آمل من نيافتكم السامية صفحاً اذا كنت توسعت كثيرًا في هذا الموضوع وقد شجعني على ذلك عطفكم من جهة ودفعني اليه من جهة اخرى واجب لازب صادر عن المهمة الموكولة الي . واني اخضع مقالي هذا لحكم المجمع المقدس واتشرف بكل احترام بتذييل توقيعي مستشار نيافاتكم السامي الاحترام .

في ٢٠ ايار ١٨٨٣

الاخ اغسطينوس تشاسكا
مستشار

---

latino, specialmente nei preamboli storico-canonici che vi si trovano premessi a molti capitoli, ed i quali per la maggior parte non si trovano nello *schema* arabo presentato all'esame dei Vescovi, e perciò da questi del tutto ignorati: chi sa quale modificazioni si vorrebbero anche su punti dispositivi. Si è detto esser quello un sinodo orientale vestito alla latina, o piutosto un sinodo latino vestito all'orientale. Ma non per questo dovrebbe disperarsene l'esito felice, come suol ottenerlo la S. Sede colla sua prudenza, longanimità, e fermezza, e coll'*hinc inde remissum* che nei dovuti limiti sa usare all'oportunità. E il momento presente parebbe opportunissimo, di che in altro foglio al Rmo Segretario espongo le ragioni.

Perdoneranno le EE. VV. se tanto mi sono inoltrato su questo argomento; ma da un lato la loro bontà mi ha confortato, dall'altro mi ha spinto lo stretto dovere derivante dall'incarico affidatomi. E sottomettendo al giudizio della S. C. questo mio voto ho l'onore di segnarmi con profonda venerazione.

Dell'EE. VV. RR.

Fr. Agostino Ciasca Agostiniano
Consultore

Li 20 Maggio 1883

اليزيدية *

نشرها الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي

لقد اتيح لنا في اثناء مؤتمر المستشرقين الثاني والعشرين الذي اشتركنا فيه وانعقد في اسطنبول ان نزور مكتبات العاصمة التركية الغنية. وفي مكتبة الجامعة حيث تحفّى باستقبالنا حفاوة بالغة حضرة مديرها والسيد احمد أتش واعجبنا بما تشتمل عليه من ثروة قد استطعنا ان نشتغل ساعات طويلة اذ باشرنا فورًا تصفح مخطوطاتها ونسخنا قسمًا لا بأس به من عناوين مؤلفيها الذين لم نكن نجهل اسماءهم كما تصفحنا ايضًا المخطوطات التي تهمنا والمجهولة اسماء اصحابها.

ولم يخوّلنا الوقت القصير الذي كان لدينا لنقضيه في تلك المكتبات للقيام بما كنا نرغب في ان نقوم به ومع ذلك فقد كان بمستطاعنا ان نقتصر على بعض المخطوطات الصغيرة التي بدت لنا عظيمة الاهميّة.

واننا لن نضنّ على الجمهور بان نتحفه بمحتويات مخطوطة على اليزيدية شبيهة بشكل مجموعة قواعد دينية وبما فيها من مقتطفات عن الكتب المقدسة لهذه الفئة لانها تعرّفنا الى تعاليم نكاد نجهلها.

والمخطوطة التي نشرها منذ وقت قريب حضرة الاب العلّامة انطونيوس شبلي اللبناني في المشرق[1] وهي لاحد اليزيديين الذين اعتنقوا الكاثوليكية وتذوّقها — كما نعلم — القراء لما فيها من الفائدة التاريخية من الوجهة الدينية قد جعلتنا نفكّر في القيام بالخدمة نفسها فننشر في مجلّتنا المخطوطة التي وقعنا عليها في اسطنبول مع اسدائنا الشكر لمدير مكتبة جامعتها والسيد احمد أتش على حسن صنيعهما.

وهاك وصف المخطوطة:

نُسِخت هذه المقالة على ورق عادي بخط نسخي منتقى وجُلّدت بورق وحوت ثلاثة مقاطع (ص٢ — ٣٦ ؛ ٣٦ — ٤١ ؛ ٤١ — ٤٨) . تقع في ٤٨ صفحة

* Cf. *Journal Asiatique*, 9e série, t. VII (1896), l'article de J.-B. Chabot, pp. 100-132.

١) راجع المشرق ٤٥ ص ٢٦٥ — ٢٨٠ و ٤٦ ص ١٤٧ — ١٦٠ ، ٢٥٧ — ٢٧٤

وتعد الصفحة ١٥ سطرًا والسطر ٨ كلمات . طولها ١٨٠٦ سنتمترًا بعرض ١٢ سنتمترًا . في آخر الكراس ورقتان لم يُكتب عليهما . في الصفحة الاولى كتب باللغة التركية ما يلي « عربجه . ادبيات كتبخانه س٢٨٥ » وبعدئذٍ في اطار : « ترجمة السريانية في احوال الفرقة اليزيدية الشيطانية » . وفي اعلى الصفحة النمرة ١٤٨٥٢ وفي آخر الكتاب بعد النجاز D25522 . — لا تجد لهذا الكراس اسم ناسخ ولا اسم مؤلف .

ه

ترجمة السريانية في احوال الفرقة اليزيدية الشيطانية

ابتدأنا ان نكتب جزء من قصة اليزيدية

(٢) اولًا سبعة الهة يوجد . واحد منهم نزل للارض وخلق جهنم والفردوس وبعد ذلك خلق آدم وحواء وكل حيوان يقولون ان آدم وحواء تخاصما وصار خصومة بينهما على تناسل الجنس الانساني وكل واحد منهما يقول انه مني يتناسل . اذ نظرا هنا شركة الذكر والانثى بتناسل الحيوان . وبعد البحث الذي بينهما كل واحد منهما القى شهوته بجرة وسد فمها بختمه . وبعد تسعة اشهر فتحاهما ونظرا ان جرة آدم (٣) بها زوج صبيان ذكر وانثى اللذان منهما تناسلت امّتنا . ولمّا فتحا جرّة حواء نظرا دودًا منتنة مكروهة نجسة وانبع الله لآدم ثدياً وارضعهما مدة سنتين . وحينئذ صار للرجل ثدياً . ومن بعد هذا عرف آدم حواء وولدت جنينين توماً ذكرًا وانثى اللذين منهما تناسلت النصارى واليهود والاسماعيليون شيث وانوش ونوح اناس ابرار . اباؤنا الاولون من آدم فقط تناسلوا . اذ وقع خصومة بين رجل واحد وامرأته بذلك الزمان . اذ الرجل يقول انها امرأتي والمرأة تقول ليس هو بزوجي . واحد من امتنا الابرار داناهم وارسلهم وامر ان يكون بكل عرس طبل وزرناي من اجل الشهادة على الزواج لكي يسمع الناس ان فلاناً اخذ فلانة (٤) ناموسياً يقولون من بعد طوفان نوح صار طوفان آخر بهذا العالم . وامتهم اليزيدية تناسلت من نعمى . لوجه الملك المكرم السلام الذي يدعى عندهم ملك ميزان . والباقي من حام الذي أهان اباه تناسلوا . الله بلسان الكردي تكلم مع آدم . والسفينة قامت في

قرية عين سفينة التي تبعد من موصل نحو خمسة فراسخ . من اجل استهزاء وضحك جنس البشري الذي تناسل عن زواج آدم وحواء على امتنا جاء عليهم طوفان الثاني . فلمّا تعالت السفينة فوق الماء على جبل سنجار مكثت بجدة وصدمت بحجر فتمزقت . الحية تكعوكت ومسكت الثقب ومضت اتكت على جبل جردى . فلما كثر جنس الحية وكان يلذع البشر . امسك نوح الحية واحرقها بالنار ومن رمادها صارت البراغيث في العالم . من الطوفان الى الآن سبعة آلاف سنة مضت . ولكل (٥) الف سنة اله واحد من السبعة ينزل الى الأرض يضع آيات وقوانين وشرايع ثم يصعد لمكانه . بيت القدس والمكانات المقدسة عندنا هم . نزل الله ازيد بهذا زماننا وثبت وبيّن لنا الاولياء . محمد نبي الاسماعيليين الله اوحى اليه كان يوجد له خادم اسمه معاوية نظر الله محمدًا لان يسلك مستقيماً امامه . اوجع رأسه فقال لمعاوية اذ هو كان بزبرًا ان يحلق رأسه فحلق بصعوبة حتى جرحه وجرى منه دم . فمعاوية لسح الدم ان لا يسقط على الارض فلما رفع رأسه محمد قال ماذا صنعت يا معاوية . اجاب ان لا يسقط دمك على الارض لسحته بلساني . قال له محمد اخطأت تجذب امة واحدة وراءك وتلقب لأمتي . قال له معاوية لا ادخل العالم اعني لا اتزوج قطعاً . وبعد زمان (٦) سلّط الله على معاوية عقارب ورشّ بوجهه سمّهم والاطباء جزموا عليه ان يتزوّج او يموت وحينئذ اتوا له بامرأة عجوزة بنت ثمانين سنة وعرفها . وفي الغد ترآت بنت خمسة وعشرين سنة . حبلت وولدت لالهنا الذي يدعى يزيد اسم القريبة يظنون ويقولون ان الهنا نزل الارض مطرودًا لا محقورًا من الاله الكبير بسبب هذا يدعون عليه التحريف غلطوا وضلّوا بذلك . هو اتى واسلم لنا الآيات والسناجق وصعد ايضاً للسماء . خلقت جهنّم من زمن آدم الاول وبذلك الزمن ولد ابناً ودعى اسمه ابريق الاصفر . من اجل اكرامه كانوا رفقائه ست سنين وبكل هذه المدة عينه مكتائبة ومنخاره ويده ورجله . كان يوجد له بقبوق اصفر . ابتدأ ينوح ويبكي ودموعه كانت تنزل بذلك (٧) البقبوق فامتلى بمدة سبع سنين طرحه بنار جهنم فطفيت لئلا يتعذب بها ايضاً جنس الانسان يقولون ان كل واحد من السبعة الآلهة صنع سنجقاً وبقوا عند سليمان الحكيم . ومن بعد موته اسلمهم بيد ملوك امتنا .

يوم الذي ولد الهنا البربري اخذهم لامّتنا بتبجيل عظيم ووضع لهم مداحين يرتلون ويزيّحون قدامهم بلسان الكردي المقبول والقديم ويضربون بالدفوف والطبول والشابات ويضاعفون بقولهم ولفظهم الغير المعروف هلم هلّلوا لااله الغيور . الآن هؤلاء السناجق هم عند امير الشيخان الجالس على كرسي يزيد يجتمعون القوالون عند الامير والشيخ الكبير والعمولي ووكيل عوض الشيخ ناصر الدين اعني نسروك اله الاتوريين الاولين يصنعون بينهم افتقادًا على السنجق . سنجق الواحد على الحليّة اعني اسم الناحية . واخر (٨) على بلاد حلب . وآخر على المسقوف واخر بسنجار هؤلاء الاربعة سناجق بالضمانة يتضمنونهم ويذهبون بهم . الشيخ ادى هنـاك يعتدوهم بترتيل ورقص عظيم ويأخذ كل واحد منهم حملًا واحدًا من تراب الشيخ ادى ويجبلون ذلك التراب اولئك المضمنون الذين اخذوا السناجق ويصنعونه طينًا اجزاء صغارًا كقدر الغص (؟) ويأخذونه معهم للنواحي المذكورة ويعطوه كالبركة بفضة . فلما يقترب السنجق لمدينة واحدة او قرية يرسلون قدّامهم مناديًا ينبّه اهل ذلك المكان ليستعد لقبوله بالاكرام والتبجيل يخرجون جميعًا عمومًا للقائه اذًا لابسين ومزينين مع بخور وتعطّر والنساء يهللون آية الفرح . تكون مزايدة المشير في بيت الذي يحل فيه . وبقية اهل المكان يقدمون له فضة كل واحد على قدر طاقته . واولئك السناجق الثلاثة بقوا (٩) بالذي هو سبعة يحفظون بمكانات مقدسة للشفا . اثنان بشيخ ادى وآخر بقرية نجراني وكل اربعة اشهر يدوّرون واحد منهم بولاية الامير كل سنة واحدة بالهجمة والترتيب اذ يجتمعون لخروجه يبنون ملأ حفنة سماقًا حامضًا لاجل غسله مع دهن زيت وفتل السراج . وكل صنم يوجد له حجرة واحدة يدور الخادم ويضع تحت كل حجر فتلة ويعلقها . رأس السنة هو شهر نيسان يوم الرابع في الاسبوع الاول بليلة السرسالي اعني راس السنة كل بيت يوجب ان يوجد به لحم . الاغنياء يذبحون غنمًا وثيرانًا والمساكين وغيرهم يطبخوهم بليلة الرابعة وبالفجر يباركون للاطعمة ويصنعون صدقة عوض انفس امواتهم . والشابات والبنات يدورن بالجبال يجمعن الورد والزهور . والسوسنات من كل جنس لون الاحمر ويشدّونهم باقات (١٠) اذ يلطخونهم بالحائط ثلاث مرّات ويضعوهنّ بالابواب مسودية للبيت ففي الغـد

جميع الابواب يتراَون مزينين بالسوسنات الحمر . النساء يضعن اطعمة على القبور والقوالون والدفوف يرتلون على القبور كردياً ويعطون لهم فضةً . والاطعمة لعابري الطريق والمساكين الذي ليس لهم اطعمة وفضة. العارف يدور ويترحم القبور . بيوم السرسالي لا يدقّون الدفوف لان الله جالس على الكرسي ويأمر ان يجتمع اليه العارفون والقريبون اعني الشوشينات يقول لهم انا انزل الى الارض بالتبجيل والتسبيح يقومون جميعهم ويفرحون قدام الله.يلقون قرع التعشير عليهم يختم الله والمتهينين عنده.ويعطى اليه الكبير صكاً لان الذي ينزل على الارض ويسلم بيده السلطان ان يصنع كل شي. كارادته الله لا يشاء بالصوم والصلاة لكن بالخير والصدقة (١١) يريد . لما يصوم واحد من الكواجكة اربعين يوماً من الصيف او الشتاء . واحد من العلماء يجيب له وليمة . ينحل صومه‌ان يقول هذه الصدقة سنجق فلان.سجادين او شيخ شمس وآخر واحد من الاصنام اصلح هو من الصوم حينئذٍ . وجعل السنة اعني عشار تلك السنة لما ينظر الصدقات ناقصة يضربهم بعَصوات كالموت والفزع ولما يعطى لهم فضة وغير الكواجكة يتقاتلون مع الجنود الروحانيين ويرجعون غضبه من عليهم . كل جمعة يقربون للصنم حملاً واحداً من الصدقات يقف الخادم على سطح الكوجك ويصرخ ثلاث مرات بصوت عال ويقول دعوة نبي اعني ولية فلان هي وجميعهم ينصتون باهتمام والجاب لهذه . وكل واحد منهم يقبل الارض او الحجرة التي عندها تتكئ . وايضاً لما تشرق الشمس حيث تتراءى يقابلوها (١٢) وايضاً بغروب النهار يصنعون هكذا . وايضاً للقمر يسجدون بشروقه وغروبه . يظنون بكثرة الصدقات والهدايا يدحضون منهم الضربات والتأديبات . كتبنا قلوبنا هم يقولون. اذ يعترفونا كل شيء من آدم الاخير ولفوق حتى الى الآن. وعلى زمن الحاضر والمستقبل يوجد شكوك وتقسم كثير بين الكواجك.واحد يخرّب رفيقه . لكن يقولون فكيف يظهر لهم بالاكتشافات وروايات يظهرون وجوهاً متغيرة وازماناً . والباقي يقولون المسيح هو شيخ شمس . وفي كل حين يوجد عندنا انبياء اعني كواجك . واحد منهم قال كنت بسفينة يونان النبي لما طرحوه في البحر اربعين ليلة مع ايامها مكث بالبحر ..آخر قال بالمجلس مع الله كنت جالساً سألني الله وقال لي عيسى اليس زمان ان ارسل المسيح للعالم .

قلت له نعم . ثم ارسله من بعد ما صنع له آية بالشمس نزل للارض . اروى فقط لامتنا ذخائر سبعة الموضوعين الآن بشيخ ادى . (١٣) الغرباء لا يحفظون الترتيب مثلنا وليس لهم جنس معلوم ومسمّى كمثل ما يوجد لنا . ولا يتغير القضا . الامير ابن الامير وشيخ ابن شيخ وكوجك الباقي . لكن النصارى والاسماعيلين يعملون قسوس وملالي من الذين قطعاً ليس كان بجنسهم وقبيلتهم . القوالون لا يعتبرون موسى على وجههم قطعاً . بوقت الزواج يجيبون رغيف خبز واحد من بيت الشيخ يعطون نصفه للختن ونصفه الآخر للعروس ويأكلوه كناموس الزواج او قليل من تراب شيخ ادى عوض الخبز يأكلون . اما العارف اعني الشيخ بعيد منهم . بكل بيت يحفظ من تراب شيخ ادى للبركة كالحنة هو عندهم . اذا وجد منهم يخطف امرأة رفيعة وغيره يلزم ان يعطى عرضها فضّة او امرأته الاولى او اخته او امه . والى آخر شهر نيسان محرم الزواج بالذي هو راس السنة سوى من الكواجك وغيرهم اذ يتزوجون به ما اذن لهم . لا يطيق واحد علماني يأخذ بنت الكوجك (١٤) والباقي الا كل واحد من قبيلته وجنسه ودرجته سوى من امرهم مأذن له ان يأخذ كل من يشتهيها بغير منع . من ابن عشر سنين حتى ثمانين سنة مأذن الزواج لامتهم . ومن امرأة واحدة للسنة يأخذون واحدة بعد واحدة . البنت ليس لها وراثة عند ابيها الا يبيعها كالبستان وان كان لا تريد ان تتزوج ترفى لابيها فضة شيئاً من الخدامة وتعب ايديها تنعتق . بالخدور يشربون مسكراً وخمراً فقط الكوجك واثنان او ثلاثة شيوخ لا يشربون . الرقص الباغي والتشوّق للذكور والاناث يباح لهم ان يرقصوا من قبل ان تأتي العروس لبيت الختن يلزم ان تفتقد كل شخص اعني قائمات الاصنام . وايضاً بيعة النصارى ان كانت مستقبلة بطريقها لما تبلغ بيت الختن يضربها بزلط اعني حجرة صغيرة يبيّن ان تحت سلطانه يجب لها ان تكون (١٥) ويكسرون رغيف خبز على رأسها اعني ان تكون محبة للمساكين . وليلة الجمعة والاربعا يمنع من المضجع مع العروس . اذ يموت واحد من اليزيديين اذ يوجد عنده كوجك . اولاً يجيبون قليلاً من تراب شيخ ادى يضعونه بفيه وايضاً على وجهه يمسحونه قبل دفنه . ويضعون قليلاً من بعر الغنم على قبره . ذلك الذي مات ويقربون اطعمة عوض الاموات الكواجك

يتزينون بين القبور ويصلّون لكي يأخذون فضة . ويسهرون ويهمرون بالروايات والاحلام والاكتشافات ان يعترفوا لاهل الميت ماذا صار بعد موته . او بأي صورة رشه او ايضاً رجع او يأتي لهذا العالم مرة ثانية . منهم اشرار ارواحهم تحلّ بالكلب والخنزير والحمار والفرس . تتعذّب مدّة من الزمان وبعد ذلك تحلّ ايضاً في البشر . ويوجد منهم يخفون الفضة تحت الارض .(١٦) ومنهم يظنون انه توجد ارواح الابرار والصديقين منهم تدور بالهواء يعترفون ويكشفون لهؤلاء الذين في عالمنا الخفيات للكوجك يلزم قدر شكرهم يميت ويحيي ايضاً لمن يريد . محمد رشان هو وراء جبل شيخ مار متى فظن انه قوي وشديد جداً يقسمون به اقسامات اذ انسان منهم يتمرض يلتجئون بالحاسين اعني قائمات الاصنام . واحد منهم يدعى ست نفيسة . الذي هي شجرة توت في قرية بعشيقة . وآخر على حجر عبدى رشو . الشجرة هي توت في قرية خرابك اسمها . واذا واحد منهم يقع في مرض اصفر الذي يدعى ابو صفار يمضي على عين ماء الصفراء التي تدعى عندهم كاني زر . والذي يكون به اورام يمضي لبيت البير الذي في قرية مام رش . واذ يجتمعون لشيخ ادى لا يأذن لواحد منهم ان يطبخ سوى من مائدة شيخ ادى . الكواجك كل(١٧) واحد منهم يوجد له حجرة واحدة يجلس هناك كمن يصلي . واناس اخر منهم يمضون عنده يلتجئون به بالشفاعة ويعطون له فضة . وينذرون لتلك الحجر ثيراناً وغنماً والباقي . وكل من يأخذ وصلة لحم من قدر الشيخ ادي يوفي عوضها فضة دون من شيخ ادى وشيخ شمس الدين وملك فخر الدين . هؤلاء تضمّنوا من رأس السنة واخذ فضتهم اميرهم . فلمّا يجتمعون بيم يأكلون ويشربون ويرقصون ويلعبون . خادم الامير مع الشيوخ يهدّون المقاتلات والخصومات التي تصير في الاجتماع . محرم الاجتماع الزواج عند الشقوحي لانها مكان مقدسة تظن . اذ يأكلون كبد رش اعني لحم ثور المنذور المطبوخ يمضون ويسبحون بماء الزمزم الذي ينبع من تحت هيكل العتيق الذي بشيخ ادى بلقلقة واستعجال وبغير ترتيب يخطفون من القدر اللحم فمنهم يوجد(١٨) الذي عدّ يده تحترق . وبعد ذلك يصعدون لجبل عال ويضربون تفنكات وينزلون لشيخ ادى ويأخذون من كل واحد منهم تراب للبركة لوقت الموت والزواج . ثم يلبسون احلاتاً مشتبكة اعني رباط الظهر يعتدون بماء

الزمزم السناجق والخ. واحد الذي يدعى جاويش يلبس هرارًا منسوجاً من شعر الماعز وجاكونة تسعة اشبار طولها منسوجة من مرعز الماعز ومصبوغة بقرمز او اسود حوله معلقة سلاسل . ولما يتمون يجيبون جميع الفضة المجموعة عند الامير ويقسم عليهم بينهم كارادته بقدر درجتهم وخدمتهم والباقي خاصته وله هو . ايضاً يوجد اجتماعان آخران واحد في عيد الحجاج الذي به يصعدون للجبل الذي يسمّونه جبل عرفات . يمكثون هناك ساعة واحدة ويسرعون لشيخ ادى بجدة وكل من يصل اولاً يقبل ازيد من(١٩) رفيقه وهكذا الواحد بعد-واحد بقدر القوة والخفة والطاقة. ايضاً يوجد اجتماع آخر يدعوه طريق الكواجك يربطون حبالاً برقبتهم ويصعدون للجبل هناك يجمعون خشباً ويجيبون الى شيخ ادى اذ حاملين على ظهورهم الوقود ولاحماط الاسير يقولون انه كان لهم ملوك اوليون من قديم بكل ارض في روسية وفرنسة ونمسة ومستوف وصين وعجم .

يوجد عندهم شخص عظيم يسمّونه يبربوب يظن انه عذبوب . احاب بني اسرائيل وبختنصر لبابل واحشوراش للفرس واغريقالوس لقسطنطنية وغير . وهؤلاء ملوك امتنا هم كانوا بوقتهم . نسردك هو ناصر الدين . كاموش هو فخر الدين اوطيس هو شمس الدين محسوبين عندهم . شلدبر ويرام تناسلوا من تواليد ملوكهم حتى لزماننا هذا الذي هو الفان ومائتان لليونانيين(٢٠) والقوثمانماية وتسعة وثمانون لربنا . والف وثلاثمائة وخمسة لمحمد يحرمون مأكولات كالحمص واللوبيا وكل لباس مصبوغ نيلة سوداء. يغسلون اصنامهم بماء السماق الحامض لانهم مسبوكون من نحاس اصفر وماء غسالة الاصنام يسمّونه بني امتهم شفاء بالفضة . واذ يأتي صنم لقرية واحد يجتمعون اذ هم مزينون الصغار مع الكبار والذكور والاناث يخرجون للقائه . اذ القوالون بالشبابات والدفوف يعيّدون لذاك اليوم. يدخلون الصنم لقريتهم بزياح واكرام ويحلّوه في بيت انسان غني الذي بهم . يذبحون له قرابين ثيراناً وغنماً وغير ذلك ويبيتون اطعمة ويعطون فضة.

ايضاً تاريخ اليزيدية في الموصل واطرافها

في زمن المقتدر بالله سنة ٢٩٠ هجرية كان منصور الحلاج وشيخ عبدالقادر الكيلاني ظهر شيخ عادي (٢١) من جبال الحكاوية اصله من اطراف حلب

او من بعلبك جاء وسكن جبل لاموش قريب في مدينة الموصل نحو تسعة ساعات . وبعض قالوا انه من اهل حران . ونسبته الى مروان بن الحكم فانه شرف الدين ابو الفضائل عادي بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسين بن مروان .

وفاته سنة٥٥٨ وقبره الآن معلوم يزار قرب قرية باعذرى من الموصل احد عشر ساعة . اليزيدية هم نسل الذين كانوا مريدين وتلاميذ الشيخ عادي المذكور . وغيرهم ينسبوهم الى يزيد ومنهم الى حسن البصري . وينقسمون الى سبع طبقات وكل طبقة منهم لها وظيفة مختصة بها غيرها ما يمكن ولا يقدر بان يعملها . اولًا الشيخ الذي هو خادم التربة ونسبه من امام حسن البصري لا احد يفترى او يمضى الى الشيخ الذي هو خادم (٢٢) تربة الشيخ عادي . وعنده علامة يضعها على جسده كالزنار وعلى يده شبكة كرشة الجمل . فاذا احضر بينهم يخضعون له بالذلّ والاحترام والانكسار ، ثانياً الامارة وهي منسوبة ومخصوصة بذرية يزيد . وبيدهم شجرة النسب من الاباء والجدود الى يزيد . وهم يتصرفون بجمال جسداني وسياسة وحكومة وشرف وامر ونهي ثالثاً القوال مختص به خدمة الدفوف والشبابات والمدايح . رابعاً البير مختص به الصوم والتزين والافطار . خامساً الكوجك مختص به تلقين وتكفين دينية وتبيّن مكاشفات حلمية كالنبوية سادساً الفقير مختص به جميع البنين والبنات يعلّمهم دق الدفوف والرقص ولو ديني وخدمة الشيخ عادي سابعاً الملّا مختص بتعليم الاولاد وحفظ الكتاب واسرار دينية وامور الملّية.(٢٣)الشيخ مختص بالانبياء والاسر مالك رقابهم وامورهم . اخذوا الصوم والصحيّة من الاسلام . والتعميد من النصارى . وتحريم مأكولات من اليهود . والسجود من الوثنيين . والمخالفة من الروافض . وذبح الاشخاص من الجاهلين . وسلوكاً وتناسكاً من الصابيين . يقولون اذا خرجت روح الانسان من جسده تدخل في غير انسان اذا كانت صالحة وفي الحيوان اذا كانت طالحة . اليزيدية يسجدون للشمس والقمر . ومشايخهم يبيعون لعوامهم من الجنة مكاناً وذلك بدراهم . لهم كتاب واسمه جلوة ينسبوه لشيخ عادي . وما يقبلون احدًا من غير ملتهم بان يقرأه او يراه .

ومن خرافات وحكايات غريبة وشاذة عن كل مذهب . يذكر فيه بانه يوجد سبعة وواحد من السبع(٢٤) آلهة هو السيفوري رئيس ملائكة السلاطين العاصين وهم يسمونه ملك طاوس ويعملون له صورة مسبوكة من النحاس شبه طير في الاغلب يشبه ديك الدجاج الهندي ويسجدون له ويعدحون ويدقون دفوفاً قدامه . وبنوع الحيلة يرقصونه كأن هو يفرح معهم لما يجتمعون حوله في المدن او القرى لانه يفتلونه ويجمعون بزيارتـه دراهم من العوام . اذا دخلت هذه الصورة في بيت احدهم يصير مباركاً ويتشرف . وبعضهم يقولون شيخ عادي هو من لاهوت . غيرهم قالوا لا بل هو مثل وزير عظيم ومعتبر عند الله .وكل الامور تصير بشوره وتدبيره والخ. ويذكر في كتابهم بان علة الاولى هو الله اكبر قبل خلقه هذا العالم كان يتنزه على البحر وبيده درة كبيرة كان يلعب بها ثم اراد القائها في البحر وتكونت منها هذه الدنيا ويزعمون بانهم ليس هم من نسل باقي بني اسرائيل بل ولد كان(٢٥)لآدم من تفلته وصاروا وتناسلوا من ذلك الولد كان جبلتهم هي اشرف وانظف واقدم بالقبول عند الالهة.وهذا دور ملك ونوبة ملك طاوس الله هو يدبر هذا الكون من مدة ستة الاف سنة ويكون التدبير بيده الى عشرة الاف سنة اله الثاني يبدي يدبّر الكون الى عشرة الاف سنة اخرى . وذلك الى ما لا نهاية له . ويوجد اتفاق بين هذه الالهة السبعة . ويذكر في كتابهم المسمى الجلوة بانه في مدة الله عزم الشيخ عادي الى السماء هو مع مريديه وهناك اعني في السماء ما كان يوجد تبن ليأكلوه دوابهم . فأمر الشيخ عادي مريديه بان يأتوا بـالتبن من بيادره فلما كانوا ينقلون التبن سقط بعض وبقي علامة في السماء الى زماننا هذا . وهو معروف مسجد الكبش.التبن يصير من المشرق الى المغرب ويبان قريب كل سنة(٢٦) ويزعمون بان الصلوة هي القلب لذلك ما يوجد قانون او فرائض الصلاة بكتبهم. على زعم البعض ان شيخ عادي ذهب لزيارة مكة مع شيخ عبدالقادر الكيلاني وبقي هناك اربع سنين . وبعد غيابه تمثل وتشبّه الشيطان كصورته وقال لهم كذا وكذا ورتب لهم قانوناً وغاب. وبعد مدة اربع سنين جاءا الشيخ عادي ورذلوه وما قبلوه لزعمهم بانه غاب او مات او راح الى السماء. وبعد موته ظهر الشيطان وقال هذا هو الشيخ عادي عينه لذلك رفعوه وجعلوا تربته مزاراً لزياده

افضل عندهم من مكة. وكل يزيدي يلزم ان يزوره اقل ما يكون مرة واحدة في كل سنة . والذي ما يزوره ولا يعطي ترضية مبلغ معلوم من الدراهم على يد شيوخ بحضور صورة ملك طاوس هو كافر. يفضلون جبل لالش على الكعبة (٢٧) يقولون ان الذي يزور تربة الشيخ عادي في جبل لالش هو افضل قبول عند الله من الكعبة وغير ذلك يقولون بان في يوم القيمة شيخ عادي يحمل في طبق على رأسه جميع اليزيدية ويدخلهم الى الجنة بلا حساب ولا كتاب ولا دينونة ولا ولا. شيخ عادي هو واحد الذي اتخذ له مريدين واعطى لهم طريقة ومنه بدأت المشيخة . وكان موصوفاً بالعبادة والرياضة . وكان يسمع وعظ الشيخ عبد القادر الكيلاني من بغداد وهو في جبل لالش وكان يخط دائرة في الارض ويقول للمريدين كل من يريد ان يسمع وعظ الكيلاني فليدخل هذه الدائرة . ومنه بدت هذه العادة عند اليزيدية اذا وقع امر مشكل يلزم منه قسم ويمين يخط الشيخ دائرة ويدخل فيها الذي يحلفونه يميناً . لا يأكلون الخس لانه على زعمهم مرّ شيخ على البستان فسئل عنه فلم يجبه (٢٨) فقال الشيخ عادي هُس فلهذا لا يأكلوه يقولون شهر رمضان كان اصمّ واطرش. فلما امر الله صوماً على النصارى والاسلام امر اليزيدية وقال لهم بلسان الكردي رسى معناه ثلاثون وهو افتهم رسى اعني ثلاثة فقط لذلك يصومون ثلاثة ايام من شهر سيزوز الرمضان. ويوجد قبب كثيرة حوالى الشيخ عادي وكل قبة تناسب شيخاً واحداً من المشايخ مثل شيخ عبد القادر الكيلاني وشيخ قضيب البان وشيخ شمس الدين وشيخ منصور الحلاج وشيخ حسن البصرى ويجعلون على كل قبة من هذه القبب علماً من الخام علامة غلبة ونصر المشايخ . ما يأكلون لحم الغزال . بقولهم عيونها تشبه عيون شيخ عادي . ولهم اعتقاد بانه في عالم المزمع يوجد اكل وشرب وتنعم باللذات اللحمية الجسدية . بعضهم قالوا ان حكم السما بيد الله وحكم الارض بيد شيخ عادي . وغيرهم (٢٩) قالوا ما هو شريك الوهاب بل مقبول وعزيز وذو خاطر متى ان يضع مرامه بكل شيء . يعتقدون بالحلول واسكان ارواح مع ارواح او تحوّل من مكان الى غيره جيد او ردي حسب استحقاقها والانعام عليها يقولون لما خرجت روح منصور الحلاج من جسده حتى امر حاكم بغداد بقتله طافت الروح على الماء

فاتفق ان اخته اتت بجرتها وقت المساء للماء. وملئتها من ماء الدجلة ولم تشعر بالروح حين دخلت جرّة المملوة فاتت بها الى الدار واصابها الظماء. وشربت بلا اشعار فدخلت الروح المذكورة في بطنها وهي لا تدري من عاقبة امرها الى ان ظهر الحبل وبان وتمت مدّة حملها فوضعته بعينه كما كان فصار الشيخ اخاً لها من النسب وابناً لها في الحسب. لذلك ما يستعملون شربات التي يكون فمها ضيقاً او بها شبابيك لاجل توصيتها اكراماً للشيخ منصور المذكور (٣٠) حين القوا رأسه في الماء. وهو يغور فصار للماء هدير وصوت على زعم البعض انهم ينتظرون نبياً من العجم يأتي وينسخ شريعة محمّد ودينه بسنة ١٢٨٦ هجرية جاء من قسطنطنية من طرف سلطان الاسلام مأموراً اسمه طاهر بك ميرالاي لكي يأخذ نظرات (نفرات) نظام للعسكرية من الموصل واطرافها من ملة اليزيدية المذكورة فقدّموا اميرهم وپيرهم وشيخهم والباقي بعذر واسباب بانهم ما يمكن ان يصيروا عسكراً ولا يختلطون مع ملة الاسلام وهذا العذر. اولاً حسب ديانة اليزيدية لازم على كل نفر منهم صغير وكبير امرأة او بنت في كل سنة ثلاث مرات ان يزور شكل الطاوس الملك. وذلك من ابتداء شهر نيسان الرومي الى آخره. ومن ابتداء شهر ايلول الى آخره ومن ابتداء شهر تشرين الثاني الى آخره. واذا ما صار كما قيل اعني يزيدياً ما اراد ذلك كفر. ثانياً يلزم كل شخص ونفر من طائفة (٣١) اليزيدية ان يزور تربة الشيخ عادي بن مسافر في كل سنة مرة واحدة. وذلك من خامس عشر شهر ايلول الى العشرين. واذا ما ادّى ذلك كفر. ثالثاً يلزم على كل نفر يزيدي كل يوم بوقت طلوع الشمس بان يزور موضع شروق الشمس عليه بشرط ان لا يكون يراه مسلم او نصراني او يهودي واذا ما صنع ذلك كفر. رابعاً يلزم كل نفر يزيدي كل يوم بان يقبل يد اخيه اخ الآخرة اعني خادم المهدي ويد شيخه وپيره وان لم يزد ذلك كفر. خامساً ما يمكن ان يسمح ويحتمل يزيدي صلاة مسلم لانه يقول اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. اذا سمع يزيدي ذلك حسب قواعد ديانته يلزم بان يقتل القائل والّا يقتل نفسه وان لم يفعل ذلك يحسب عندهم كافراً. سادساً لما يموت واحد يزيدي يلزم ان يكون موجوداً عنده اخوه الآخرة وشيخه

وبيره (٣٢) وواحد قوال يقول عليه ثلاثة اقوال وهي يا عبطاوس ملك يلزم بان تموت على دين معبودنا وهو طاوس الملك ولا تمت عـلى دين غيره . واذا جاءك واحد وقال مت على دين الاسلام او النصارى او اليهود او غيره ذلك من الملك فلا تصدقهم ولا تؤمن بهم . واذا صدّقت او آمنت من دون دين معبودنا تموت كافرًا. سابعاً عندهم شيء يسمّونه بركات الشيخ عادي اعني تراب تربة الشيخ لازم على كل نفر يكون موجود عنـده مقدار موضوع في جيبه ويأكل منه عند كل صباح وان لم يأكل تعمدًا يكون كافرًا في وقت موته . ثامناً يلزم على كل نفر من طائفة اليزيدية بانه اذا صام يكون يصوم بمحلّه لا بمكان آخر لانه كل يوم من الايام يصومه وقت الصباح يلزم بان يروح لبيت شيخه وبيره يمسك صيامه(٣٣) الى وقت الافطار. وايضاً يلزم ان يروح عندهم ويفطر من يدهم من خمر مقدّس واذا ما شرب ذلك من يدهم يكون صومه غير مقبول ويحسب كافرًا . تاسعاً اذا سافر واحد يزيدي وبقي في بلاد آخر نحو سنة برجوعه تحرم المرأة عليـه وما يعطوه امرأة غيرها واذا اعطوه صار كافرًا . عاشرًا من طرف الملبوس اخ الآخرة او اخت الآخرة يلزم بان تفتح زيق القميص الجديـد لكل واحد واذا لم تفتحه ويلبسه يكون كافرًا . الحادي عشر كل يزيدي الذي يعمل له ثوباً جديدًا او لباساً يلزم بان يعمّده في ماء مبارك الموجود في حضرة الشيخ عادي وان لم يفعل ذلك كفر. الثاني عشر مـا يمكن يزيدي بان يلبس ملبوساً كحلياً قطعاً ولا يتمشّط بمشط مسلم او نصراني او يهودي او غير ذلك ولا يمكن ان يحلق رأسه بموسى هؤلاء المذكورين. واذا الجأت الضرورة يلزم غسله بماء شيخ عادي وخلاف(٣٤) ذلك يكون كفرًا. الثالث عشر اليزيدي حسب اعتقاده ما يدخل الطهارة ولا يدخل حماماً ولا يأكل بملعقة مسلم ولا يشرب بشربته او غير ملل السائرة . واذا عمل خلاف ذلك يكون محسوباً كافرًا. الرابع عشر يوجد اختلاف كثير بمآكيل اليزيدي عن باقي الملل اليزيدي ما يأكل سمكاً ولا قرعاً ولا بامية ولا فاصولية ولا لهنة ولا خساً حتى ان المكان الذي يكون مزروعاً خساً هو حرام ونجس عندهم لاجل هذه الاسباب وغيرها ما يمكن يزيدي بان يكون عسكرياً فلمّا قدموا

عرضحالًا بهذه الصورة واعطوا مبلغًا من الدراهم للحكومة رضى طاهر بك ميرالاي وان كان ضرب بان يكون يعطون بدلًا اعني عوض كل نفر الذي يقع عليهم مأة ليرة اعني عشرة الاف غرش . وبقوا على هذا الاسلوب الى يومنا هذا وهي سنة ١٣٠٥ هجرية (٣٥) يوجد يوم معلوم تجتمع طائفة اليزيدية من مكانات كثيرة بعيدة وقريبة الى تربة الشيخ محمد في قرية بعشيقة ويسمّون هذا الاجتماع طوافة . ومدة ثلثة ايام مع لياليها يصرفونها هناك بالاكل والشرب مع شرب الخمر والعرق وسائر مسكرات السجة وفي طبول وزرافي آلة الطرب ورقص الرجال والنساء سوية ويصير خطأ بذلك لا كفارة كما يزعمون . ويقولون كان شيخ عادي مجاهدًا وعابدًا وتقيًا حتى كانت الحيات تألفه والهوام والسباع والنغ . وكان يكشف لمريديه مكاشفات واسرارًا كما ان الآن بعض من مشايخهم ينطقون في علم الغيب وامور الماضية والمستقبلة كالنبوات والوحي ومكاشفاتهم هي بخلاف كتب الالهية وضد عقول البشرية . كما زعم شيخ من شيوخهم بأنه رأى شخصًا طويلًا طوله نحو ستين زراعًا . وغيره رأى زي جاموس (٣٦) وغيره حية وهذه عن اوليائهم ومشايخهم وزياراتهم يرون لهم بهذه الاشكال وغيرها يزعمون ان شيخ عادي كان يسكن جزيرة السادسة عن البحر المحيط وكان يأمر الريح ان تسكن فتسكن لوقتها . تمت تواريخ اليزيدية .

ه

وايضًا نكتب ملتقطات من كتاب اليزيدية المسمّى جلوة الموجود قبل كل الخلائق ملك طاوس ارسل عبطاوس على هذا العالم لكي يميّز ويفهّم لشعبه الخاص من التيه . اولًا ذلك بالتسليم وثم بالكتاب هذا الجلوة . الذي ما يجوز للخارجين ان يقروه (احمر) .

كتاب الجلوة – الفصل الاول

انا كنت وموجود الآن وابقى الى النهاية بتسلط على الخلائق وتدبير مصالح وامور لكل الذين تحت حوزتي . حاضر انا سريع للذين يثقون بي ويدعونني حين الحاجة ما يخلو عني مكان من الامكنة (٣٧) مشترك انا بجميع الوقائع التي يسمّونها الخارجون شرورًا . لانها ليست مصنوعة حسب مرامهم . كل زمن له مدبّر وذلك بشورى كل جيل يتغيّر رئيس هذا العالم حتى الرؤساء

يكون كل واحد بدوره ونوبته يكمّل وظيفته . اعطى رخصة حسب حق الطبيعة المخلوقة باخلاقها . يندم ويحزن الذي يقاومني . الآلهة الاخر ليس لهم مداخلة بشغلي ومنعى عن حبها قضية مهما كان .

الكتب الموجودة بين الخارجين ولو كتبوها الانبياء والمرسلون لنا لكن زاغوا وباغوا وبدلوا . وكل واحد يبطّل الآخر وينسخه . الحق والباطل معلوم حين وقوعهم من التجربة . وَعدي للذين يتكلون على ميثاقي او اخالف حسب رأى المدبّرين الحذاق الذين وكّلتهم لاوقات معلومة مني .

اذكر اموراً واحرك اشغال اللازمة بجينها (٣٨) ارشد واعلّم للذين يتّبعون تعليمي ويجدون لذّة وفرحاً بمرافقتهم معي .

الفصل الثاني

اكافي واجازي نسل هذا آدم بأنواع اعرفها . بيدي اتسلط على كل الارض وفوقها وتحتها . ما اقبل مصادمة غير عوالم وما امنع خيرهم خصوصاً للذين هم خاصتي وبطوعي . اسلم شغلي بيد الذين جرّبتهم وهم حسب مرامي . اترآني بنوع من الانواع وشكل من الاشكال للذين هم امينون وتحت شوري . آخذ واعطي اغني وافقر اسعد واشقي حسب الظروف والاوقات . وليس من يحق له ان يتدخل ويمنع شيئاً من تصرّفي . اجلب الاوجاع والاسقام على الذين يضاددونني . ما يموت الذي هو من حسبي لسائر بني آدم . ما اسمح لاحد بان يسكن بهذا العالم . وهذه الدنيا اكثر من الزمن (٣٩) الذي هو محدود مني . واذا شئت ارسلته تكراراً ثانياً وثالثاً الى هذا العالم او غيره بتناسخ الارواح .

الفصل الثالث

ارشد بلا كتاب . اهدي غيباً احبائي وخواصي بتعليمي . هو بلا كلفة . موافق للحال والزمان .

اقاصص الذين يخالفون شرايعي لعوالم الاخر . بنو آدم هـذا ما يعرفون احوال المزمعة لذلك يسقطون اوقاتاً كثيرة بغلط . حيوانات كثير وطيور السماء وسمك البحر جميعهم بيدي وتحت ضبطي . الخزائن والدفائن المطمورة تحت قلب الارض معلومة . واخلفها من واحد للآخر . اظهر معجزاتي وعجائبي للذين يقبلونها ويطلبونها مني بحينها . مضاددة ومخالفة الاجنبين لي ولاتباعي هو

ضرر لفاعليها لانهم ما يدرون العظة والثورة هما بيدي . واختار من يليق لها من نسل بني آدم . تدابير (٤٠) العوالم وانقلاب الاجيال وتغيير كل مدبّريهم منظومة شيء من القديم .

الفصل الرابع

حقرتي ما اعطيها لاحد غيري من الآلهة. اربعة عناصر واربعة ازمنة واربعة اركان سمحت بها لاجل ضروريات المخلوقين . كتب الاجنبيين مقبولة نوعاً بالذي يطابق ويوافق سنّتي . وما يخالفه هم غيّروه . ثلثة اشياء هي ضدي وثلاثة اسماء ابغضها . الذين يحفظون اسراري ينالون لا بد ان اكافيهم بأحد العوالم . اريد بان يتّحدوا برباط واحد كل ما تبقى لاجل مضاددة الاجنبيين لهم . يا الذين تبعتم وصاياي انكروا اقوال وتعاليم التي ليست من عندي . لا تذكرون اسمي وصفاتي لئلا تذنبوا. لانكم لستم تدرون كما يفعلون الاجنبيون.

الفصل (٤١) الخامس

اكرموا شخصي وصورتي لانهم يذكرونكم بي مـا اهملتموه من سنتي وشرائعي اطيعوا واصغوا لخدامي بما يلقّنونكم من علم الغيب الذي هو عندي.

ح

مصحف رش . اعني كتاب الاسود . في البداية خلق الله درّة من سرّه العزيز . وخلق طير اسمه انغر وجعل الدرة فوق ظهره وسكن عليها اربعين الف سنة . (احمر).

اول يوم خلق يوم الاحد ملك اسمه عزرائيل وهو طاوس ملك رئيس الجميع. ويوم الاثنين خلق ملك دردائيل فهو شيخ حسن . ويوم الثلاثاء خلق ملك اسرافيل فهو شيخ شمس . ويوم الاربعاء خلق ميخائيل فهو شيخ ابو بكر. ويوم الخميس خلق عزرائيل لله ميكائيل او غيره فهو سجّادين . ويوم الجمعة خلق ملك شمنائيل فهو ناصر الدين . ويوم السبت خلق ملك نورائيل فهو بدين ملك طاوس جعله (٤٢) رئيساً عليهم . بعده خلق صورة السبع سموات والارض والشمس والقمر. فخر الدين خلق الانس والحيوان والطيور والوحوش ووضعهم في حبوب الخرقة . وطلع من الدرة ومعه ملائكة . صاح صيحة عظيمة على الدرة انفصلت وصارت اربع برجات ومن بطنها خرج الماء وصار بحرًا كانت

الدنيا مدوّرة بلا فراق. خلق جبرائيل بصورة الطير وارسل بيده وضع تراني. ثم خلق مركباً ونزل بمركب ثلاثين الف سنة وبعده جاء سكن في لالش اسم جبل . صاح في الدنيا جمد . وصارت الدنيا ارضاً. بقوا يهتزون امر جبرائيل جاب برجتين من الدرة البيضاء. وضع واحدة تحت الارض والاخرى في باب السماء. فسكنت . ثم جعل منهم شمساً وقمراً . وخلق نجوماً من نثريات الدرة (٤٣) البيضاء. وعلّقهم بالسماء للزينة . وخلق اشجار مثمرة ونباتات في الارض والجبال لاجل زينة الارضين . خلق عرشاً على العرش . الرب العظيم قال يا ملائكتي انا اخلق آدم وحواء اجعلهم بشراً ومنهم يكون من سرّ آدم شهر بن سفر ومنه تكون ملة على الارض وثم ملّة عزرائيل اعني طاوس ملك وهي ملّة يزيدية ثم ارسل شيخ عادي بن مسافر من ارض الشام واتى الى لالش . ثم نزل الرب الى جبل الاسود وصاح وخلق ثلثين الف ملك وفرّقهم ثلاثة فرق وبدوا يعبدونه اربعين الف سنة ثم سلمهم الى طاوس ملك وصعد بهم الى السموات . ثم نزل الرب لارض القدس . امر جبرائيل جاب تراباً من اربع زوايا الدنيا . تراب . هواء . نار . ماء . (٤٤) خلقه وجعل منه روحاً ومن قدرته . وامر جبرائيل ان يدخل آدم الى الفردوس ويأكل من كل ثمر الشجر فقط حنطة لا يأكل . بعد مئة طاوس ملك قال لله فكيف يكون يكثر ويزيد آدم وابن نسله . قال له الله الامر والتدبير سلّمته بيدك . جاء قال لآدم اكلت حنطة . قال لا لان الله نهاني قال كل يصير لك احسن . بعدما اكل حالًا نفخ بطنه طاوس ملك اخرجه من الجنة وتركه وصعد الى السماء . ثم ان آدم تضايق من بطنه لانه ما كان له مخرج ارسل الله طيراً وجاء ونقره وفتح له مخرجاً فاستراح . وجبرائيل غاب عنه مئة سنة حزن وبكى مئة سنة . الله امر جبرائيل جاء وخلق حواء من تحت ابط آدم الايسر . ثم نزل ملك طاوس الى الارض لاجل طائفتنا المخلوقة . واقام لنا ملوكاً (٤٥) ما عدا ملوك الآثوريين القدماء . نسروخ وهو ناصر الدين . وكاموش وهو ملك فخر الدين وارطيموس وهو ملك شمس الدين وبعد ذلك صار لنا ملكان شاور اول وثاني ودان ملكهم مائة وخمسون سنة ومن نسلهم قام امراؤنا الى الآن . وبغضنا لاربع ملاك حرّمنا الخس علينا لانه على اسم نبيّتنا الخاسة . واللوبيا وسبغ

الكحل وما نأكل سمكاً لاجل احترام يونان النبي . والغزال لانهُ غنم احد انبيائنا . والشيخ وتلاميذه ما ياكلون لحم الديك احتراماً للطاوس والطاوس هو واحد من الالهة السبعة المذكورة لان صورته تمثال الديك . وتلاميذ الشيخ ما يأكلون قرعاً . وحرام علينا البول وقوفاً ولبس اللباس قعوداً وستخلاننا ادبخانه وغسل الحمام (٤٦) ما يجوز ان نلفظ شيطان لانه اسم الهنا ولا يكل اسم يشابه ذاك مثل قيطان وشط وشر ولا لفظة ملعون ولعنه ونعل وما اشبهه. قبل مجي المسيح الى هذا العالم ديانتنا كانت تسمّى وثنية اليهود والنصارى والاسلام ضاددوا ديانتنا والعجم ايضاً. كان ملوك احاب وامراه منا حتى كان يسمّون اله احاب بعلزبوب والآن يسمونه عندنا پيربوب . كان لنا ملك في بابل اسمه بختنصر . وفي العجم احشوراش وفي قسطنطنية اغريقالوس انه قبل لون السما. والارض وكان الله موجوداً على الاىجار . وانه كان صنع له مركباً وكان يسير في كينونات البحار متزهاً في ذاته . انه خلق من درته وحكم عليها اربعين سنة ومن بعد ذلك على الدرة (٤٧) غضب ورفسها . فيا للعجب من ضجيجها جبال ومن عجيجها التلال . ومن دخانها السموات . صعد الله الى السما. وجمّد السموات وثبّتها بغير عواميد . تفل على الارض اخذ قلماً بيده وبدا في كتابة الخلقة كلّها. خلق ستة آلهة من ذاته ومن نوره وخلقتهم صارت كما اذا اوقد انسان سراجاً من السراج الآخر . فقال الاله الاول لاله الثاني انا خلقت السما. فقط اصعد انت الى السما واخلق شيئاً ما فصعد وصار شمساً. وقال للآخر فصعد وصار قمر . الرابع خلق الفلك . الخامس خلق الفرع اعني نجمة الصبح . تمت.

قال مترجم هذه القصة هذا ما (٤٨) وجدناه من كتاب صورة ايمان طائفة اليزيدية ونحن ايضاً نسخناها لكي كل من يشرّف اعتقادهم يقول يعين الله. كتبت في ١٩ نيسان سنة ٣٢٢ . تمّ (احمر) .

ج

تحريراً في العشر الرابع من الثلث الثالث من شهر شعبان المعظّم المندرج في شهور سنة الخامسة والعشرين بعد الثلاثمئة والالف

الأميرة هيفاء والامير فخر الدين الكبير

رواية لبنانية تاريخية أدبية (تابع)

بقلم

الاب مبارك ثابت اللبناني

رئيس دير المخلص في البرامية

١٣

أين الاميرة هيفاء ؟

كل ما لقيه الامير في ايطاليا من الحفاوة والاكرام وكل ما احرزه من مجد وبُعد صيت وكل ما انثال عليه من هدايا الحكام والاعيان وما اقيم لتكريمه من شائق الحفلات في اماكن اماكن ـ وما تقاضاه من إعمال الفكر الاهتمام بشؤون لبنان والسعي لتعزيز مركزه وإنفاذ خطته ، كل ذلك لم يكن ليشغل قلبه عن هيفاء . لا يدري أميتة هي فيسلوها أم حيّة فيفتديها ، يجب ان يفتديها ولو بروحه ، لكن ما يصنع ؟ وهو لا يعرف خاطفيها ولا مكان منفاها وعذابها ، فبينا يكون غائصاً في لجة السياسة او منغمساً في افراح الحفلات او جالساً الى المآدب الفاخرة او مجالساً ارباب الصوالج واركان الحكومات والكبراء والاشراف يكون الغم مرمضاً جوانحه ومصلياً ضلوعه . غير انه يلبس لكل حال لبوسها ويكتم ما بقلبه من وجدٍ مذيب . وشبح هيفاء نصب بصيرته وذكرها جائل في ذهنه وكأن صوتها متصل بمسمعيه . فـاذا أصاب خلوة جلس في خلوته يناجيها وتناجيه ويرسل روحه تجوب البلدان وتطوف القفار وتغوص في اعماق اللجة وتنفذ الى السجون المظلمة والحصون المنيعة والقصور الجميلة وتدخل البيوت والكهوف حتى القبور وبطون الحيتان ينشد ضالته الغالية والمحبوبة فلا يقف لها على أثرٍ . فتتلظى نار في كبده ويتصل اوارها بدماغه وينثني قتامها على عينيه فتنصبّ دموعه ويعضّ على اصابعه ويصيح: هيفاء ! يا جنتي وسعادتي اين انتِ؟ اين انتِ ايتها الجنّة الشهية الثمار ؟ اين انتِ ايتها المرأة المسكوبة في قالب

الجمال ، المائسة في ملابس البهاء . اين انتِ ايتها الزوجة الامينة ذات القلب الطاهر والتعفف المنيع . يا جوهرة الإخلاص وملحة الوفاء. وزبدة الحكمة والرزانة والارابة والذكاء ، كيف السلوّ عنكِ وأنتِ أعزّ عليّ من مالي وولدي ونفسي ، ولولا استحيائي من نفسي لقلتُ انتِ عندي بمكانة لبنان سيدي ومعشوقي ! أما أني لو غلّبتُ العقل على القلب محاولة السلوّ في موطن توقع اليأس لنهض عليّ الشرف يطالبني بما يحق على الزوج لزوجه من الحرص على حياته وعرضه والاعانة على كوارث الدهر والسعي لارتقاءه مراتع الراحة والهناء ، ايكون فخر الدين امير لبنان وقاهر الولاة وفاتح الاقاليم وساحق الجيوش وحامي الذمار ومرسل الذئاب والغنم ترعى معاً في مروج الامن والسلام ، أيكون ذلك الرجل وتخطف زوجهُ ويُنهك عرضه وتُسلب سعادته فلا يعرف السالب ليثأر منه ولا مخبأ المسلوب ليستعيده ! أهيفاء. لئن قعدت بي الهمة عن الثأر لكِ ولنفسي ، لئن لم اهتدِ اليكِ والى ظالميكِ لأكسرنَّ هذا الحسام الذي كسرتُ به الجيوش ولاسحقنَّ هذا القلب الذي أُتّبِ بقلب الاسد ولامحونَّ اسم فخر الدين من سجلّ الشرف المنيّ فلا أكون حلقة من حديد في سلسلة اجدادي الذهبية.

لم يكتم الاميرُ عن صديقه دوق توسكانا رزءَه بالاميرة هيفاء ، بل قصّ عليه الحادث منذ يوم اتصاله به . فجهد الدوق في الكشف من غمه ، وأمّله بانقاذ الاميرة ، وارسل البعثات وبثّ الارصاد في جميع جزر المتوسط وفي سواحل افريقية وبلاد اليونان . واشتركت في ذلك عيونٌ من قبل فيليب الثالث ملك اسبانيا ، فعاد الكلّ يتعثرون باذيال الخيبة ، مما زادوا على ان اذكوا جذوة الحزن في صدر الامير وركموا على نفسه أكداس القلق والغموم . فمنهم من قال ان اعرابياً من اهل الجزائر قتل أمرأةً غريبة لابائها التزوج به ثم انتحر من بعدها يأساً وخوف القصاص . ومنهم من قال ان أمرأةً سقطت أو أُسقطت في البحر فابتلعها تمساحٌ . ومنهم من قال ان جثة أمرأة وُجدت عالقة بين صخرين على شاطئ جزيرة ارواد وقد نال منها البلى فاستعصت معرفتها على التحقيق . الى غير ذلك من الاخبار التي اوقعت الامير في الحيرة وقربت شقة اليأس اليه . وكان قد كتب الى ابيها يخبرهُ بامرها فاتاهُ جواب

مع البعثة الطليانية الآنفة الذكر مفاده انه قد بحث عنها في مواضع كثيرة فافضى بحثه الى تزيد الغموض.

وكان ان الامير جلس يوماً في شرفة قصره وارسل نظره على طول الشارع ينظر الى الناس يروحون ويجيئون . وفكره يطوف الارض لعله يعثر على الضالة العزيزة واذا بمغربي في بزة حسنة وشكل نظيف ولحية قصيرة رسم فيها المشيب خطوطاً بيضاء. وقف تحت الشرفة ورفع عينيه وتفرّس فلم ينتبه لهُ الامير حتى عطس من حرّ الشمس وسعل وتنحنح فالتفت الامير فتلاقت منهما الابصار فحيّا المغربي الاميرَ وقال : انّ لي كلاماً اقوله لسيّدي فهلّا يأذن لي بالدخول ? فاستدعى الاميرُ مملوكاً ادخله . فقال المغربيّ : انا رجلٌ من الجزائر طفتُ بلداناً كثيرة وردت اراضي لبنان وسوريا وعرفتُ بالخبر الامير فخر الدين ومكانته العالية في نفوس اهل تلك البلاد . وواجهت امه واخاه وابنه وكثيرين من آل معن والمقرّبين اليهم . واستقصيت اخبار فتوحه المجيدة وسياسته الرشيدة الى عدله وحلمه وحكمته فعشقته اذني قبل عيني . فاتيتُ هذا البلد لاراه وافتح له عن سرٍّ خفي مفتاحه عنه . لعلي اكشف من غمه واخفف من كربه . فقفل الامير حاجبيه وامتصّ مصةً من انبوب غليونه الطويل . فخرج الدخان كثيفاً من فمه ومنخريه . وقال : لستُ غرّاً فاصدّق كل ما يُقال . وحِيلُ المغاربة لا تجوز على غير الصبية والاغرار . يدّعون علم ما في الغيب وهم لما يلمسونه باصابعهم جاهلون . عدّ عن المغالاة في تبجيل الامير ، وان كانت لك حاجة مما نستطيعه مقضيةٌ لكَ .

— لستُ دجّالاً ولا ذا حاجةٍ كما تتوهم يا اميرُ . انما احبّ ان اباعد عن نفسك غمّاً لم يفارقك منذ احتلك هذه البلاد .

— مَن اوقفك على غمي ? خذ هذه المنحة وانصرف بسلام. وحلّ كيسه ونفحه ذهبين طليانيين . فشكر وامتنع عن اخذهما . فقال الامير استقللت عطاءنا . فنحنُ زائدوك . ودفع اليه ذهبين آخرين . فامتنع ايضاً وشكر . وقال : راحتك لا ذهبك ابتغي ايها الامير ! فاستغرب الامير امره . وقال : تكلم . فقال : اعلم يا مولاي لا ادعي علم الغيب ولا انا ممن تعهده من المغاربة الدجّالين الذين يتعيشون بخدع السذج والاحتيال . لا والله ، ولا مهنتي التسمة

والطلسمة واحراق البخور وكشف الخابئ والخطوط . انا ابن نعمة وترف ولي اموال كثيرة ، ولم تخرج الامارة من بيتنا منذ مئات من السنين ، مالت نفسي الى التنقل فصرت جوابة تتهاداني البلدان والاقاليم ، وقذفت بي النوى الى ارض لبنان فوقع عليَّ لصوص في دامس الظلام وقد انتهى بي المسير الى وادٍ عند راشيا فسلبوني ما معي حتى ملابسي واوسعوني ضرباً وخلوني عارياً وتواروا. فلمَّا اصبحتُ احتملني رجلٌ على دابته الى القرية وانزلني في داره وعالجني حتى شفيت . ثمَّ ارسلني الى اخيك الامير يونس وهو في دير القمر فشكوتُ اليه ما نابني فقال تنزلُ عندنا حتى ننظر في امرك ففعلتُ ، ولقيتُ ضيافةً سخية وكرامة . وبعد شهر واحد اقبل اربعة فرسان باللصوص الثلاثة وقد كبلوهم بالاغلال ومع الفرسان رسالة من الامير محمد الشهابي احد امراء حاصبيا يقول فيها للامير يونس : اليك اللصوص وما سلبوه . فردَّ السلب على صاحبه وافعل بهم ما تشاء . فامر بهم فضربوا بالقضبان واطلق سراحهم . وردَّ عليَّ مالي وزادني من كرمه . واخبرني بقصة الاميرة هيفاء . وقال لي : لعلك تعثر على اخبارها وانت تجوب البلاد . قلت ان لكم عليَّ لمعروفاً . فخدمتكم على الرأس والعين . ورحتُ اتنقل من بلدٍ الى بلدٍ اتجسس وانا متظاهر بمهنة « التبريج والتنجيم » حتى انتهيت الى قلعة الحصن في لبنان الشمالي ، فاذا في الساحة نسوةٌ لاحداهنَّ فضلُ مزيَّةٍ واشراق على سائرهنَّ . (فبصرت) لكل منهنَّ وعرفت اسماءهنَّ وكثيراً من احوالهنَّ . فاذا المرأة ذات المزيَّة هي الاميرة هيفاء . عينها . تمكنت من تحديثها على عزلة واطلعتها على قصدي فقصَّت عليَّ حديثها . هاك موجزه : ان اباها حابسٌ عليها في الحصن رهينةً يشتري بها حياته اذا عُدت تحاربه وظفرتَ عليه . قلتُ لها : انا اعمل لانقاذك . قالت : بل احذر ان تعلم بامري انساناً من اهل هذه البلاد لئلا تقع حرب بين المعنيين والسيفيين في غياب فخر الدين فتدور الدوائر على المعنيين لان الاتراك لهم بالمرصاد . غير اني احملك رسالةً تنفذها الى زوجي الامير ان شئتَ ان تصنع اليَّ احساناً ورحمة . قلت انا لخدمتك ، فاتت بصرَّةٍ اخفت فيها الرسالة عن عيون صاحباتها . وقالت على مسمعهنَّ . هذه الصورة حلوان لك استحقيته بما فرَّحتنا بغزارة علمك وظرف بيانك فاخذتها من يدها وجعلتها كحرز على

صدري . ولم ألقِ عصا السيار حتى انتهيتُ اليك .

وكان الامير يصغي اليه وقلبه ينتفض من الفرح وقد اخذ منه الدهش كل مأخذ حتى كاد لا يصدّق ما يسمعه . وصار كمن بين اليقظة والمنام ، ولما فضّ الرسالة ورأى خط الاميرة تحقق صحة الخبر وطفق يقرأ والدمعُ في مقلتيه. حتى اذا انتهى قال للمغربيّ فرّج الله عنك كما فرّجت عني يا امير . بماذا اكافي هذا الفضلَ . تالله لو وهبتك روحي لاستقلّيتها عليك . قال : بروحي انت . ما اردت الّا تفريح نفسك وتقليل غمك لتصرف همك الى بغيتك الوطنية الشريفة ، قال : لا بدّ من إثابتك — قال : ما انا بحاجة الى شيء ، حسبي صداقتك . قال : انتَ الى الموت الصديق الحميم . قال : واني من محالفيك على كل عدو . فستوافيك الى لبنان نجدةٌ من رجالي بقلوب لا يهولها الخطب ولا يدخلها الرعب . فمدّ له الامير يده وتصافحا وتحالفا وودّعه الاعرابيّ وقال : اذا عقدتَ العزم على حربٍ فأنفذ اليّ نبأً فانا ورجالي اسرع الى نجدتك من الريح — . قال : عشتَ لله دركَ من صديق وفيّ .

١٤

تقصُّر الامير

فقد الامراء المعنيون ولا سيما فخر الدين الاول وابنه قرقماس انّ التعصب الديني اذا خرج به عن استقرار الاعتقاد واقامة الفروض وخلوص العبادة الى ايثار طائفة على طائفة في الاحوال المدنية والائتلافية او الى الضغط على فريق من اهل الديانة صار من اقوى العوائق على استتباب الحكم وبسط السلطان على بلد سكانه خليطٌ من مسلمين ومسيحيين ودروز ويهود كالبلد اللبناني . فتذرعوا لخنق التعصب بالتسامح واطلاق الحرية الدينية وبسط العدالة والمساواة وتقريب المسيحيين كاخوانهم الدروز والمسلمين . فاستوزر الامير قرقماس الحاج كيوان نعمه الديراني من اعيان الموارنة وكان ذا عقلٍ ثاقبٍ وحكمة واسعة وحنكة سياسية نافذ الكلمة في ابناء ملته اميناً وفيّاً صادقاً عالي الهمة بعيد النظر . أدّى مخدومه ثمّ ابني مخدومه اليتيمين وزوجته الارملة خدماتٍ جليلة سجّلها له التاريخ بمداد الشكر والفخر وظلّ على امانته لاسياده الى منتهى ايامه .

اما الامير فخر الدين الذي ورث نبذ التعصب الذميم عن جده وابيه فجاء ابلغ منهما فيه لانه ربي في بيتٍ مسيحيٍ في قلب كسروان بلد المسيحيين وشاهد بام العين مدى سنين عديدة فضائل الموارنة واخلاصهم للوطن وللسلطة الوطنية وامانتهم في جانب حكامهم وامرائهم ، وعرف ان حياته وحياة اخيه انما هي من فضل كيوان الديراني وابراهيم الخازني صاحب العماد الرفيع والسيف الطويل فنشأ بعيداً عن التعصب الديني المفرّق ونازعاً الى الدين المسيحيّ ومحبة الموارنة منقذيه . ولما صار في ايطاليا ولاقى من حكامها واعيانها حفاوةً واجلالاً ومحبةً مع انه غريبٌ عن ديانتهم ، ورأى ما للملوك المسيحيين من من الحب لاوطانهم والعدل في رعاياهم وما يصرفونه من الهمّ الى نشر المعارف وإرقاء الصناعة والفنون وتجويد الزراعة بتعزيز مزاوليها واثابة المبرزين فيها، وما يجملون به انفسهم من خلال الخير ولوامع الفضائل التي يفرضها الدين المسيحي على جميع اتباعه من اية طبقةٍ كانوا ازداد جنوحاً الى هذا الدين واعظمه على قياس ما أُعجب بمزايا اتباعه وأُبهة كنائسهم وطقوسهم الدينية ومشاهد عباداتهم الشائقة ، فأكبّ على قراءة الاسفار المقدسة وعارض بين اسفار العهدين القديم والجديد وبين الاديان الثلاثة الموسويّ والمسيحي والمحمدي، ودرس اتلاد الدين المسيحي ونشأته وانتشاره ونقب عن حقائقه واسراره فبدا له ما حمله على رغبة الانضواء اليه ، وصار يتمنى على واضعه فادي البشر رغائب مشروطة الحصول باعتناقه فيعطى ما يلتمسه بصورة عجيبة . ومما نذره انه اذا اهتدى الى زوجته الضائعة وفاز بما يرومه من محالفة بعض الملوك المسيحيين على الدولة العثمانية توحيداً للامارة في لبنان يقبل المعمودية ومعاً شريفاً يحافظ على مجده ونصاعته الى الموت . ها قد جدّ عليه بما التمسه بنذره من ظهور الاميرة وعقد المحالفة وعما قليل يعود الى لبنانه المحبوب بالذخيرة والرجال فيجد اللبنانيين على اختلاف الرتب والنحل متأهبين لشدّ ازره وانفاذ امره ، فلمَ لا يصير مسيحياً ايفاء لنذره وسعياً الى المصلحتين الابدية والزمنية باستدامة رضا الله وتوفيقه والاستزادة من منحه وآلائه ، ويجعل حلفائه المسيحيين على فرط الركون اليه والثبوت في جانبه ، فعقد القلب على اتخاذ الديانة التي علقت بيقينه واستمالت رجاءه وشغفت قلبه منذ حداثته .

ألّا ان شريعة الانجيل لا تأذن بتعدد الزوجات ، فما يصنع الامير بزوجاته؟ تلك عقدةٌ كان في اول امره يستعسر حلها لتعلق قلبه بهن . لكنه لم يبطؤ ان اعتقد امكان الاكتفاء باحداهنّ والّا فكيف يقتصر الرجل المسيحي على زوجة واحدة وعددُ المعمور اكثر من المسلمين ، على ان الشريعة المحمدية تجيز الطلاق فبقوّتها يسرّح زوجاته الّا واحدة منهنّ ، وهنا ايضاً تصدّت له صعوبة وقف تجاهها على قدم التردّد اياماً ، وهي ايّ زوجاته يستبقي ? احبها اليه هيفاء وخاصكية فمن ايتّها ينسلخ ?

وكانت خاصكية معه في توسكانا ولها حظوة عظيمة لديه بما رزقته من براعة الحسن وجمال الخلق . فهي ممشوقة القدّ لدنة المعاطف دعجاء الحدق كحلاء الجفون معتدلة القامة طويلة العنق بضة القشر ذات فكاهةٍ ورقة ولطف ومستيقةٌ في خدمة الامير وحبه ورضاه . ولها فوق هذه المحاسن جمال الخلال العقلية ورواء الفضائل الادبية ، واسرتها مظاهرةٌ له واخوها عليٌّ مصاحبه في غربته . الّا ان محبته لهيفاء اعرق في قلبه واغلب على عواطفه لا لانها افضل من خاصكية جمالاً او اخلاقاً فهما في ذلك متماثلتان ، وانما هي ثمرة تعبه وصبره وقد ذاقت في سبيل محبته الامرّين . وتبرأت من ابيها واخوتها واسرتها لمروقهم من محالفته ووقفهم تجاهه موقف العداء . وقد اقسم لها بالمروءة والشرف انه لا يسرّحها ولا يؤثر عليها ضرّةً الى منتهى العمر . فكيف يحنث بقسمه وهو اكبر من ان يخون شرفهُ ومروءتهُ .

هذه الافكار لبثت تناصبه وتتنازع على فؤاده وامياله حتى نزل به خطب ادمى فؤاده لكنه اخرجهُ من تردده وحيرته : كانت خاصكية ظريفة المحاضرة بسّامة الثغر طلقة المحيَّا عذبة الكلام . خالطت اهل توسكانا وامتزجت بنسائهم فاحببنها حتى لم يعد بهنَّ صبرٌ على فراقها ، فكانت تزورُ وتُزارُ وصار معظم وقتها مشغولاً بالمجالسة والمؤانسة والخروج مع السيدات الى البساتين والحدائق وسائر اماكن التلهي والفرح . وكان ذات يوم انها دخلت حمّاماً في طرف المدينة مع صديقتها الغراندوقة وبعض جواريها . ثمَّ برزت منه للهواء البارد فلم تبلغ قصرها حتى احست بالمٍ في رئتها واخذتها حمى شديدة وعسر تنفس ، انتهيا بوفاتها بعد ثمانية ايام . فأقيم لها مأتم حافل مشى فيه الحكام والكبراء .

والاعيان ، وبكاها الامير حتى ابكى كل من حضر ودُفنت مكفنة بالحسرات والزفرات محنطةً في قبر ملكيّ الى ان ينقل جثمانها الى لبنان ، وامسى الامير من بعدها منكسر القلب مستوقد الصدر يصرف ليله يساور الهموم ويسامر النجوم . ولم ينفك الغراندوق عن معالجة حزنه باسباب التعزية حتى استدرجه الى الصبر والسلوان. وكان انه بعد رجوع البعثة الطليانية من لبنان جاءه كتاب آخر ملكيّ من فيليب الثالث ملك اسبانيا يدعوه لزيارته في العاصمة الاسبانية فتوجه اليه ببعض حاشيته فأستقبله الملك استقبال النظير بين صفوف من الجند وامامه الموسيقى العسكرية والملكية ، واولم اكراماً له ودعا الوزراء والاعيان واقطاب البلاد فاجتمعوا ومعهم خلقٌ كثير . وأجلس الملك الامير عن يمينه وكان بزّته الاميرية اللبنانية من سراويل قصيرة من الجوخ الازرق مطرّزةً بالذهب عن الجانبين تسترُ نصف الجسم الادنى الى الركبتين ، ومنها الى القدمين «طاقات» من جلدٍ احمر ملفوفة على الساقين بعرًى كبيرة من فضة لامعة . وعلى النصف الاعلى من البدن (دامرٌ) من جوخٍ رصاصيّ اللون مطرّزٌ بخيوط الذهب تطريزًا بارزًا باشكال جميلة من الامام والخلف وعلى الجانبين ، بكمّين طويلتين تنتهيان بترويستين الى مفرز الاصابع من اليدين ، وهما مفتوحتان من تحت الابط الى المعصم يضمها عليه زرٌ من ذهبٍ بحجم حبة البندق وشكلها. اما الزنار فمن صوفٍ ملوّن صناعة العجم. من النسيج المعروف بالشال العجميّ او الشال ترما . وعلى الرأس عمامة قاتمة اللون ملفوفة على شكل مخروط ، وفوق هذه الملابس وشاحٌ من حرير اصفر او قاتم بلا كمّين يزيد عن طول قامته زهاء ذراع الى الارض ، واحياناً يغيره بعباءة من صوف او حرير مشتبكة الالوان مطرّزة بالذهب . فهذه الملابس البهية الغير المألوفة في البلدان الغربية كانت تحوّل اليه الابصار وتوشحه جمالًا في العيون .

ولشدّ ما ادهش الناس بفصاحة منطقه وبلاغة حديثه ولطافة نكاته وفطانة اسئلته وسداد اجوبته مما ملك به ازمة القلوب وقبض على نواصي القلوب . فافرز له الملك قصرًا من قصوره وثلاث مركبات له ولحاشيته وفرساً كريماً بسرجٍ ثمين لركوبه وافراساً لركوب اتباعه . ولم يدع شيئاً من الحفاوة الا ساقهُ اليه . فاقام في ضيافة الملك مدةً طويلة تحدثا في اثنائها عن

شؤون خطيرة ناظرة الى الامارة والمملكة محالفةً تضمنت فوائد جليلة لمصلحة فخر الدين . ولما استوثقت بينهما عُرى الصداقة انفتح للملك السبيلُ الى تحبيب الامير بالدين المسيحي لعله يدين به فيكون ذلك ادعى لركون الملوك المسيحين اليه واجدى على سياسته وبلاده ورعاياه المسيحيين غير انه لم يصرّح له بالدعوة خشية ان يجرح عاطفته الدينية او يتهمه الامير باتخاذ السياسة وسيلة لمصلحة الدين ويحسب المحالفة مسوقةً الى غرض دينيّ . فافرغ كلامهُ اليه في قالب التحفظ متجافيا في بيان محاسن الدين المسيحي ما يدل على الرغبة في استمالة الامير اليه . غير ان الامير لم يفتهُ مراد الملك فقال لهُ : اعلم ايها الملك انَّ هذا الذي تحبه مني ولا تجرؤ لحلمك وادبك ان تعالنني به ، انا بنعمة الله شديد النزوع اليه وقد اخذت النفس به ولا بدَّ من ادراكه . غير اني ارقب له الفرص واتوقع ان يتم تمهيد السبيل اليه . ولو كانت السياسة وحدها تقضي بان اصير مسيحياً لما لبيتُ لها نداء لان العاقل لا يبيع دينه بدنياه . غير ان لي في الديانة المسيحية مصلحة ابدية اراها بعين الاعتقاد وليسوع المسيح كلاماً سريًّا الى قلبي لا املك ان أصمَّ دونه مسمعي ، فلا تعنَّ النفس بتزيين ديانتك انها في اعتقادي أجمل مما عليك ان يصفها به الواصفون . فطابت نفس الملك بهذا الكلام وايقن ان الامير اما ان يكون مسيحياً منذ طفولته واما ان يكون بالقصد والنية . حينئذ طوى الملك هذا الحديث واخذ في غيره . فقال الامير : ما اوقفتُ جلالة الملك عليه من أمري أحبُّ ان لا يكشف لآخر لانه اذا اتصل بعلم صحبي وحاشيتي انقلبوا عليَّ لرسوخهم في الاسلام فينفرّون عني انصاري وكلَّ العنصر الاسلامي في بلادي فينتهي امري الى الفشل . قال الملك : لك علينا ان نكون اكتم لسرك من نفسك فاسعَ انت الى الغرض من سبيل الخفاء . ونحن سنعرض عليك ان تدين بديننا فتجاهر بالرفض فلا ينكرونك بل يزداد رسوخهم اليك وليس على المرء ان يكاشف بسرّه كلّ احد .

ثمَّ ان الامير ودّعه وعاد الى قصره عند الدوق كوكوس . وبعد ذلك وقع الحادث الآتي الذي كتبه الخالدي مؤرخ فخر الدين . هاك كلامهُ بالحرف[1] :

« كان في خدمة الامير ناصر الدين وكان مقدَّماً فاتاهُ اسيرٌ وقال لهُ : لنذهب

[1] نقلنا هذا من مجلة الآثار الناقلة عن الخالدي مؤرخ الامير .

الى الجنينة فذهبا . واتى الدوق باشا نابولي فـاغتم ناصر الدين فطيّب خاطره وقال : انتَ من اين . وكم سنةً لك في خدمة الامير ؟ قال : انا من صيدا واخدمهُ من صغري : فاعطا. الدوق مكتوباً وقال : هذا من سلطان اسبانيا مضمونه ان كان فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه من الحكم على قـدر ما كان له وازيد . وان كان ما يرضى بذلك فان اراد يقعد وان اراد يروح الى بلاده . قال : نعرض لهُ ونأتي بالجواب . فحكى الشيخ ناصر للامير فقال الامير . قل للدوق وتشكر منه ومن سلطان اسبانيا قل . قال الامير : ما جئتُ الى هذه البلاد كرامة دين ولا كرامة حكم ولا حكومـة . لمّا جاء علينا عسكرٌ ثقيلٌ جئنا احتمينا عندكم وحميتو رأسهُ ورعايتو ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة . ان اردتم هو قاعد عندكم بتوابعه على حاله وان ارسلتوهُ الى بلاده فهو المراد لان له اهل وتوابع وبلاد ».

اذًا علق بذهن القارئ ما سبق لنا الكلام فيه عن تعمد الامير اخفـاء تنصره عن خادمه الشيخ ناصر وعن سائر اتباعه المسلمين على ما مرّ من حديث الامير وسلطان اسبانيا الذي رويناه لم يستغرب اعتقـاد المؤرخ ان الامير لم يخرج من الاسلام الى الدين المسيحي لانهُ لم يكاشفهُ بهذا الامر ، وقد قضت الفطنة عليه ان يكتمهُ محاذرة ان يُسخط الدولة ويفتح سبيلًا لمناوئيه الى اثارة المسلمين عليه ، وانما اعلنه لاهل بطانته من المسيحيين لركونه اليهم ثمّ لاهل بيته بعد تنصره ولمتنصر منهم من يشاء[1] .

وبعد هذه الاحداث سعى كسـوس الثاني لدى البابا اربانوس الثامن ليأذن بمواجهة الامير واوقفهُ على احواله واغراضه ووصفه له باجمل الاوصاف فاذن له بالمواجهة ثلاث مرات في مواقيت مختلفة وكان الغراندوق معه الا في مواجهة واحدة صحبهُ فيها العلّامة ابراهيم الحاقلاني[2] وهو مـاروني من قرية حاقل في

١) على ان من الوشايات التي اثارها اعداؤهُ ازدراؤه الشريعة المحمدية من انه لا يصوم رمضان ولا يحجّ ولا يدخل الجامع الّا مرةً في السنة وقد هدّم جوامع كثيرة . فهذا ادلّ على انتقاله الى الدين المسيحي من قول المؤرّخ اخذًا عن الشيخ ناصر الصيداوي . انه آثر البقاء في الاسلام .

٢) التقاء الحاقلاني بالامير ليس بالواقع التاريخي انما كان الحاقلاني يمكان متسمد له في رومية وقد سعى لاستعطاف البابا اوربانوس على الامير وزيّن له الانضمام الى المحالفة عام ١٦٣٠

بلاد جبيل تلقى علومه في المدرسة المارونية الشهيرة التي انشأها للموارنة في رومة البابا غريغوريوس الثالث عام١٥٨٤ وكان لابراهيم منزلة عالية في الفاتيكان فانتهزها فرصةً لاظهار روحه الوطنية المتمكنة فتذرع لدى الكرسي الرسولي والحبر الروماني بكل وسائل التوسل والتشويق حملًا للبابا على الانضمام الى المحالفة اعتقاداً انها تعود بفوائد جمة على مسيحيي لبنان وسوريا ، وثبت هذا اللبناني المخلص على محبة الامير وولائه والسعي لاستحصال ما يرومه من استمرار رضا الفاتيكان وانجاده الى المنتهى . فكان لفخر الدين بمثابة معتمد امين حكيم لا يني يعمل لمصلحته ومصلحة الوطن . وقد شهد التاريخ بسعي الحاقلاني لاستعطاف البابا اوربانوس على فخر الدين وحمله على الانضمام الى المحالفة عام١٦٣٠

رأى البابا في وجه فخر الدين سيماء الصدق والاستقامة وسمع من حديثه ما يشفُّ عن نفس كبيرة وهمة قصيّة المرمى وحكمة باهرة وجرأة نادرة فعطف عليه ووعده بالانجاد وسرَّ سروراً عظيماً بما ابداه له من رغبة الاصطباغ بالمعمودية عن محبةٍ للدين المسيحي اعتبار ما يترتب على تنصره من حرية العبادة للمسيحيين اللبنانيين واهتداء عددٍ من النفر المؤمنين ، فبارك عزمهُ واستحثه لانفاذه وامرَ له بتالٍ وتحفٍ واناط بعنقهِ ذخيرة الصليب المكرّم في حُقٍ من ذهب مرصّع بالحجارة الكريمة مما يُهدى الى الملوك وقال : ليقكَ الرب كل خطرٍ داخلي وخارجيّ بقوّة الصليب الكريم . فظلت تلك الذخيرة المباركة على صدر فخر الدين تحت ثيابه يحتفظ بها معتقداً قوتها الواقية الى يوم وفاته عاينها الجلادون يوم قتله في القسطنطينية . تزوّد الامير بركة الحبر الاعظم وشكر لقداسته واقسم على الامانة له وللدين الذي سيحمله وغادر رومية مخلفاً فيها قلبه ومحبتهُ واجلاله . وتحدّث الى محالفه دوق توسكانا في ما يجب من التمهيد لتنصيره .

فقال الدوق : لم يبقَ عليك بعد ما أحطتَ علماً بمبادئ الدين المسيحي وقواعد الايمان الّا ان تختار الزمان والمكان — قال : ان موقفي تجاه بلادي والدولة لا يأذن لي بالمجاهرة . فاتفقا على ان يصير ابلاؤه سرّ العماد خفية عن بعض اتباعه وفي دير رهبان مار فرنسيس الحفاة ، وضربا لذلك ميقاتاً فلمّا كان الميقاتُ اقبل الامير الى كنيسة الدير يصحبه الدوق والدوقة والحاج كيوان

الديراني والشيخان الخازنيان ابو نادر وخاطر ومن معهما من رجالها والعلّامة ابراهيم الحاقلاني الذي استدعي من رومية ليشهد حفلة العماد . أغلقت ابواب الكنيسة وصُبّ ماء العماد على رأس الامير من يد الاب ادريان رئيس الدير. وقام الدوق والدوقة زوجته بكفالة المعمود وسُجل تاريخ اعتماده في سجلّ كنيسة الدير خامس عشر آذار سنة ١٦١٥ ، ولم يعلم بتنصره احدٌ من اتباعه المسلمين مراعاة للاحوال السياسية ، ولم يكن للامير سراريّ فيسرّحهن انما سرّح بعض خادمات خاصّة لاستغنائه عنهنّ بعد وفاتهــا ، وصار قلبه من جهة النساء مصروفاً الى زوجته هيفاء وحدها اذ كان لا يقنط من لقائها ما دام لا يقنط من بقائها .

١٥

قدوم الامير الى لبنان وعوده الى ايطاليا

كان الامير على مــا عنده من الجرأة والاعتماد على النفس والولع بالفتح والطموح الى المجد حكيماً متبصراً يرسل النظر الى العواقب ولا يلهيه ما حضر عمّا غاب . لذلك لم يستفزّه النجاح الذي اصابه في ايطاليا فيقطع بصوابيـة العود نهائياً الى لبنان قبـل ان يتثبت الاحوال بنفسه ويكون على يقين من اجماع الاعيان والحكام على الالتفاف حوله ، ومن موقف الباشاوات اصحاب الولايات تجاههُ ، ويعلم ما للدولة هنالك من قوات لمناهضته ، فخطر له ان يتوجه اولًا الى بلاده ويبقى في المركب الذي يقله في موضع قريب من البرّ ويستدعي اخاهُ يونس ويستفهمهُ الاحوال ، فاذا علم ان قد حان وقت الشروع في العمل يعود الى ايطاليا فيعدّ اهبة الرجال ثم يرحل بحاشيته الى لبنان ويستأنف حكمه وحروبه ، شاور في ذلك ملك اسبانيا والدوق كسموس فاستصوبا رأيه فودعهما وركب البحر يصحبهُ الشيخ خاطر الخازني ويزبك بن العقيق وبعض رجالها ، وجاء السفر موفقاً وسعيداً لهدوء البحر وسكون الريح طول المدة حتى انتهت المراكب في شهر تشرين الاول الى ساحل عكا. فألقت المراسي بين الناقورة وصور.. واعطى الاميرُ الشيخ خاطراً ثلاثة اسهم وقال له : انطلق الى دير القمر واعلم اخي يونس بقدومي ليوافيني ببعض اهل البلاد الى الدامور ، فاذا

وانتم فاشعل الاسهم الثلاثة علامةً اعرفكم بها لئلا يفاجئنا ما نكرهُ .
فلمّا علم الامير يونس بقدوم اخيه سُرَّ سروراً لا مزيد عليه واذاع الخبر على اهل البلاد فاجتمعوا اليه ورافقوه للملاقاة الى الدامور وانتظروا حتى اقبلت مراكب فخر الدين فارسل الشيخ خاطر الاسهم الثلاثة في الجوّ فدنت المراكب من البرّ والقت مراسيها . واخذت القوارب تحملُ المسلمين الى المراكب وتردّهم الى البرّ فوجاً فوجاً على حسب رتبهم . وكان الحشد عظيماً فلم تطق القوارب حمل جميعهم . فسأل الامير يونس اخاه ان ينزل الى البرّ فيراه الجمع لانه لا يحسن ان يُحرم من مشاهدته كثيرون من القادمين لقائه من اهالي كسروان وما يلي الى الجنوب وكلهم ظماء الى مرأى وجهه وسماع كلامه. ففعل. والقى في الناس خطاباً افرغ فيه عواطف المحبة والحنوّ والوطنية والحماس ، فما اتى على آخره حتى ارعدت الاكف تصفيقاً وزمجرت اصوات الدعاء. تشقُّ الغمام الى السماء :
ليعش الامير ! ليعش لبنان . ليعش لبنان واميره الكبير ! ثم جلس معهم للطعام في سهلة فيحاء ، ولمّا استوفوا فرّق هداياه على الاعيان ونثر على الجمع فضة وفواكه وحلواء ممّا حمله لهم من ايطاليا ، وحضهم على التوائق والتأهب لطوارئ الحدثان . ومكث معهم ثلاث ساعاتٍ ثمّ ودّعهم وأملهم بقرب اللقاء . وكرّ راجعاً الى المركب . وخلا باخيه وامه وتحدّثوا ساعةً فاخبرهما بما لقيه من النجاح في اوربة وبانتقاله الى الدين المسيحي . فطابت انفسهما وهنآه وأكدا له انهما لن يكونا الا على دينه ولن ينفكا يعملان لحمل سائر الاسرة المعنية على الذهاب مذهبهُ فحبذ عزمهما وحذّرهما المجاهرة بذلك خشية ان ينقلب عليه بعض اهل البلاد قبلَ ان يستتبَّ له الامر ويبلغ من شأوه اقصاه . ثم سألهما عن الاميرة هيفاء. فاذا هما لا يعرفان من امرها الا ما انتهى اليهما من خبر اختطافها في البحر فخانه الجلد واكمد وجهه وترقرق الدمع في عينيه . فعاجلت امه ان تعزّيه بصرف فكره عنها الى ما هو يهمه والصق بقلبه من شؤون حكمه ووطنه فبسطت حديث ذلك فالتهى . وبعد التحريض والتوصية من الطرفين لحق يونس وامه بالحشد الذين كانوا ينتظرونها على الشاطئ في سهل الدامور .
وامر فخر الدين فاقلعت المراكب وجرت تطوي مسافات العباب ، وعرّجت على مالطة تخفق من فوقها اعلام لبنان . فعرف اهل الجزيرة بقدوم الامير

اللبناني الكبير وكان صيته قد طبق الآفاق وانتشر مسكاً لذيذ العرف عطر الاقطار والامصار . فخرجوا للقائه وراء حاكمهم الاستاذ الاكبر جوان مايسترو وادخلوه الجزيرة بين صفوف متراصة من جميع طبقات الناس وحيوه باطلاق المدافع واصوات الهتاف . ونزل ضيفاً على الحاكم ثلاثة ايام[1] .

فاكرم ضيافته ، وزاره اعيان الجزيرة وزار هو منهم من استطاع . وطاف اخص الاماكن ذات الشأن من الوجوه الفنية والاثرية وعقد صداقة مع الحاكم اشبه بمحالفة . ثمّ ودّعه واهل مالطة فشيّعوه بمثل ما استقبلوه من الحفاوة والاكرام وما زال في ذمّة البحر حتى انتهى الى ليغورنا واجتمع بصديقه الدوق كسموس بعد فراقه سبعة اشهر اي مدة رحلة الامير ، فاخبره بكل ما جرى له في ذلك السفر الطويل ولا سيما مبادرة اللبنانيين للقائه في الدامور واعلانهم بالاقامة على حبه والاخلاص له والنزول عند ارادته وتمام تأهبهم لمجابهة الاحداث وبذل المهج دون القضية الوطنية . فسرّ الدوق بهذه الاخبار وانفذا الى الحبر الاعظم وملك اسبانيا يوقفانها على هذه الشؤون ، وبات فخر الدين يعلل النفس بقرب الرجوع الى تخت الحكم وامتشاق الحسام لحسم دابر الاعداء الذين يحولون دون استقلال لبنان وتوحيد امارته . واستكنت آماله اللذيذة وتبلج فجرُ امانيه .

١٦

افول نجم النحس وعودة فخر الدين الى لبنان

حياة الانسان سلسلة مختلفة الحلقات ينتقل فيها من ضيّقة الى واسعة ومن واسعة الى ضيقة بين التعب والراحة واللذة والحرمان والسعادة والشقاء واليأس والرجاء . فما تدوم على حالٍ لهُ حالٌ . ولا تنسج له الاحوال على وحدة منوال.

١) كانت الجزيرة في ذلك العهد بايدي فرسان مالطة وحاكمها رئيسهم واسمه جوان مايسترو ولقبهُ الاستاذ الاكبر .

ويظهر انهم يطلقون هذا اللقب على رئيسهم الحاكم ، ويُدعون فرسان القديس يوحنا ، وهم جماعة رهبانية محاربة نشأوا في القدس واستولوا على رودس سنة ١٣١٠ واحتلّوا مالطة سنة ١٥٣٠ وحصّنوها . واولُ حكامهم فيها آدم دي ليل حكم سنة ١٥٣٢ وآخرهم هومبش انتهى حكمهُ سنة ١٧٩٨ باحتلال نابوليون الجزيرة في تلك السنة .

لم تنته سنة ١٦١٢ وهي السنة التي ارتحل فيها الامير فخرالدين الى ايطاليا فرارًا من وجه الحملة التي سيرها علية السلطان احمد الاول بقيادة احمد باشا الحافظ حتى نشبت المنية اظفارها بهذا السلطان وخلفه على عرش السلطنة اخوه السلطان مصطفى بعد نزاع على ولاية العهد . فلم يكد يستقرّ له الامر حتى ثار عليه العسكر فاسقطوه عن اريكة المُلك واجلسوا مكانه السلطان عثمان الثاني ابن اخيه. قبض الصولجان ولما يستكمل ربيعه الثامن عشر، فهذه الاحداث التي وقعت في عاصمة الاتراك مع ما صحبها من خلاف ومكائد وإحن الى ما أحدق بالدولة من معضلات ومُعقدات من جهة ممالك بولونيا وروسيا وامارات البلقان فتحت لفخر الدين مخرجاً من مأزقه وسهلت له السبيل الى الفوز بأربه لما لزم تركيا ان تعاني في حلها كثيرًا من الهمّ وإعمال الفكر والتجارب السياسية والحيل المتنوّعة ولم يُغنها ذلك عن امتشاق الحسام في حروب طاحنة. فكان هذا شاغلًا للدولة عن الاهتمام بشؤون سوريا ولبنان تقديمًا للاقرب والاهمّ ؛ وهي لا تخشى كبير خطر من جهة لبنان اذ لم يكن لها عدوٌ تخاف صولته وتطاوله على الولايات الّا الامير فخر الدين وهو في المنفى مكفوف الاذى . ولم يدرِ في خلدها ما كان يدبّره عليها من عقد المحالفات في اوربّا ومن جمع الكلمة في لبنان . وكان واشدّ ما كان من استحكام العراقل والمعضلات انما كان في السنة الرابعة لجلاء الامير عن بلاده الى ايطاليا وبعد عودته من زيارته في الدامور ؛ وفي ذلك العهد عزل السلطان عثمان الثاني الحافظ احمد باشا قائد الحملة في لبنان وهو الدُّ عدوّ للامير . فاستبشرت الست نسب بانبلاج صبح الفرج وتدحرج عن صدرها حجرٌ ثقيل . فارسلت تخبر ابنها بما كان وتستقدمه من ارض غربته اذ لم يعد في البلاد ما يخشاه[1] .

١) لمّا عُزل احمد باشا الحافظ عن منصب الولاية في الشام صار المنصب الى جركس باشا ؛ وفي الصدارة يومئذ محمد باشا الذي كان في حلب وهو صديق المعنيين فوصّاه بهم احسانًا . فاطلقَ الستَ الرهينة واعطاها رسالة الى ابنها يؤمنهُ ويستقدمهُ . فارسلت اليه الرسالة مع شهاب الدين بن عون والشيخ يوسف بن المسلاني. واخبرته بولاء الحاكم جركس باشا وألحفت عليه بالقدوم ؛ فلما وصلا كان الامير في مسّينة لزيارة ملك اسبانيا ففضّ الرسالة الحاج كيوان وقرأها فرحل بمياله الى صيدا مُمهدًا لقدوم الامير ثم ابحر الامير بعياله وحاشيتهِ فرست مراكبه في مياه عكّا . في التاسع من شهر شوّال سنة ١٦١٧ فبدر اللبنانيون

فطفق الامير يتأهب للسفر ووجه رسالةً الى ملك اسبانيا يعلمهُ بعزمه على

للقائه واتوا به الى دير القمر في موكب عظيم وابهةٍ واحتفاء . واقبل الامراء والمشايخ والمقدمون يسلّمون عليه ومعهم الهدايا من مالٍ وخيلٍ وجيادٍ وتحف وسلاح . وتعذر على بعض الامراء المجيء بانفسهم فاوفدوا اليه الوفود بالهدايا النفيسة واوفد يوسف باشا سيفا ولدهُ حسينًا صهر فخر الدين ومعهُ جوادانِ واقمشة حريرية وصوفية وصابون وغير ذلك. فقبل الامير هدايا الوفود وخلع على مقدّميها ولم يقبل هدية صهره وقال له : قلْ لابيك انا لانريد منه هدايا لكننا بحاجة الى اخشاب نعمّر بها دارنا التي احرقها حسين باشا في دير القمر والى مواشينا ومواشي تابعينا التي ارسلناها اليه وديعة من زمان الحافظ احمد باشا فضبطها لنفسه. ومن اسبابِ رفض الامير هدية ابن سيفا انه لمّا ارسل ابن المَيسوف ومحمدًا بن كاوور علي من ليكورنه لاستطلاع طلع البلاد كتب اليه جميع الاعيان يسألون عنه الّا يوسف باشا سيفا فانه كتب لاخيه الامير يونس يقول : « إن اخاك لم يصر ذا مالٍ ولا رضيت عنه الدولة ولا عرف لهُ حالٌ » فانتهى الكلام الى فخر الدين فوجد على قائله . ورأى الامير البلاد في قبضة اخيه يونس وابنه علي فخفق فؤاده جذلًا ونشط لتنظيم الادارة والحكم اقرارًا للامن وثبرًا للنهابة وحسمًا لدابر الفساد. فولّى ابا نادرٍ الخازني وذرّيته على كسروان ، وصادر المفسدين في بلاده ولا سيما المسأفيين ، وخافه المجاورون اعتقادًا انّ دوق توسكانا سيمدّهُ بالمال والرجال كما امدّه بالمهندسين والعمال .

على انّ الاميرين المنيين يونسَ وعليًّا لم يوطّئ لهما الحكم قهرهُ في غياب فخر الدين الّا لاستبسالهما في محاربة جنود الدولة ورجال احمد باشا الحافظ وسائر المناوئين من اليمنيين ، وقد ابليا في مواقع كثيرة كسروا فيها الحافظ وفتكا برجاله فتكًا ذريعًا واطلقا في اموالهم ايدي السلب فغنما شيئًا كثيرًا . ولمّا ولي الشام جركس باشا خلفًا لاحمد باشا الحافظ ردّ الى المنيين حكم صفد وصيدا تولّاهُ الاميرُ عليٌّ فكان هو في صيدا وعمهُ الامير يونس في دير القمر . وتقوى الامير عليٌّ وكان بطلًا صنديدًا وقائدًا عظيمًا فزحف برجالهِ ورجال حلفائه من الامراء والمشايخ والمقدّمين على اهل الحزب اليمني فقهرهم واستولى على املاكهم وخرّب ديارهم ، ونفذ بعسكره الى بيروت فنزلوا على نحرها وخرج اليه اهلها فأمّنهم واخذ ميرةً ومالًا . وارسل رجال الشوف الى الجرد والغرب والمتن فاطلقوا فيها ايدي النهب وسلطوا عليها النار لان اهلها كانوا قد نهبوا الشوف في عهد الحافظ ، وارسل مملوكه ذلفقار والشيخ ابا نادرٍ واخاه الشيخ يونس الى غزير فحكموا كسروان وكرّ هو راجعًا الى صيداء.

ثم ولّى عمّهُ الامير يونس على بلاد الشوف وبلاد بشارة . وقلّد الامير منذرًا التنوخيّ حكم مدينة صيدا، وحكّم على المتنِ اللمعيين مقدّمي كفرسلوان. وولى الامير عليًّا الشهابي على بلاد الحولة ومرجعيون ملحقة بوادي التيم . واسندَ حكمَ بلاد صفد وبلاد الشقيف الى حسين اليازجي، وحكمَ توابع صيدا الى الشيخ حسين الطويل، ولم يرضَ احدٌ بنصيبه. غير ان الامير عليًّا وعمه الامير يونس لم يكونا ليرهبا المصاعب بل يذللانها مهما تكن شديدة ومستعصية بعزيمة تفلّ الحديد ورأيٍ يخلّص بينَ الماء والراحِ . وما زالا على ذلك تارة يمتشقان الحسام وطورًا يمتشقانِ التدبيرَ والمداراةَ الى ان عاد فخر الدين والبلاد في قبضتهما على ما رأيتَ .

الرحيل الى بلاده ويودّعه ويذكّره بالعهد المقطوع بينها ويسأله ان لا يضنّ عليه بالنجدة حين تقتضي الحال . فاتاه الجواب على وفق ما يرومه ويطمئن قلبه اليه . ووافى رومة واجتمع بالعلامة ابراهيم الحاقلاني واخبره بعزمه على الرحيل وتحدثا طويلًا في شؤون لبنان العزيز عليها . واستأذنا على قداسة البابا ولبثا في حضرته نصف ساعة فجدّد الامير عهود امانته للايمان المسيحي وولائه للكرسي الرسولي ورعيه لمصالح المسيحيين في لبنان اسوةً بغيرهم من الرعايا . والتمس من الحبر الروماني ان يقبل الحاقلاني معتمداً من قبله لدى قداسته . فاجابه الى ذلك واملى عليه نصائح حكيمة في ما ينظر الى شؤون الحكم والتدابير السياسية والحفاظ على الصبغة المسيحية من تقلبات الاحوال . رقما الامير على صفحات صدره . ثمّ باركه البابا وامدّه بعطية مالية ذات شأن قبلها شاكراً وكرّ راجعاً الى القراندوق كسموس فاقام عنده بضعة ايام تهيأ فيها للسفر وقضى

لبانة من توديع صديقه الحميم وزوجة صديقه القراندوقة كفيلته في المعاد وسائر بيت كسموس الذين غمروه باحسانهم وحملوه فضلًا لم يغب ذكره عن ذهنه الى منتهى اجله . ثمّ وافى نابولي وواجه ملكها وخرج من امامه بحظوة كبيرة وهدايا نفيسة ، واقلع من هذه المدينة يؤمّ لبنان بحاشيته الكثيرة في ٢٧ رمضان عام ١٦١٧ . فاستقبلت مراكبه ميناء عكاء في ٩ شوال من السنة نفسها ، وكان له مملوك يُدعى سروراً عدّاء يسابق الريح فحمله رسائل الى اخيه الامير يونس وابنه الامير علي . فدفع اليه الرسائل وعنده الامير ناصر التنوخي ومقدمو بيت ابي اللمع وجماعة من اكابر الشوف ، فقرأ علي رسالة ابيه وهي بخط يده فاستطاره الفرح وكان عمه الامير يونس متغيباً فارسل يبشره بقدوم اخيه فاقبل طائراً باجنحة السرور ، ثم تُليت الرسائل على من هناك من الاعيان ونودي بالافراح فاهتزّت عاصمة لبنان وما جاورها من القرى واجتمع الناس الى ميدان البلدة الوفاً يهنّئ بعضهم بعضاً ويغنّون ويهزجون ويجرّون ويطرقون البارود يومين كاملين وزُيّنت البيوت والشوارع باغصان الارز والصنوبر والزيتون والرايات اللبنانية . وجُليت المنازل في حلة من نور وطيف بالمشاعل على ضرب الطبول والدربكات ونقر الطنابير ونغمات الناي والسبابة والزمور ، وزغردة النسا. وصهيل الخيل والعاب الفروسية والمسابقة على عادة اللبنانيين في

افراحهم ، مهرجان شائق لم يُقم مثله عظمةً وابّهةً وحشدًا الى ذلك اليوم تجلت فيه محبة اهل البلاد لاميرهم الكبير واتحادهم قلباً وقالباً على العمل يدًا واحدة لاعلاء شأن الوطن وتقرير عزّه وتعظيم قوته ومهابته بتوحيد امارته والتأهب المستمرّ للذود عن حياده وتفديته بالارواح والمهج . رأيٌ واحد وامة واحدة على اختلاف مذاهبهم الدينية يشدهم معاً رباطٌ واحد متين هو النسبة الى لبنان وطن الجميع ، هو الاسم : لبنانيّ ، يُلفظ بالكرامة والفخر والاعتزاز . وبدر لملاقاة الامير الى ساحل عكاء ابنه واخوه في موكب حافل من مشايخ الشوف ودير القمر وحشد كبير من سكان القرى ، وانضم اليهم مشايخ بلاد صفد وبلاد بشارة وبلاد الشقيف وصيدا وعددٌ كبير من الامراء الشهابيين وآل حرفوش وغيرهم ، فهنأوا الامير بسلامة الوصول وجاءوا به الى دير القمر تظللهم غمامة من دخان البارود بين الأهازيج والزلاغط والاناشيد مما لا يصنع مثله الا للملوك والفاتحين . وقد بلغ الهوس من الشباب اللبناني ان حملوه على مقعدٍ عالياً فوق الرؤوس وطافوا به ساحة العاصمة ثلاث دوراتٍ اعلاناً برفعة قدره وعلوّ منزلته واستكان محبته في القلوب .

وكان الامير في غمرة هذا الفرح ومجالي هذا الاحتفاء متهللُ الوجه مشرق الاسرّة تتفتح البسمات في ثغره وتستطع انوار البشر في عينيه ولا يملك ضبط عواطف المحبة والشكر فتفيض من فؤاده دمعاً لذيذًا كدمع محبّ يلتقي بحبيب . غير ان بين ضلوعه حسرةً يكتمها وجذوةً لا يملك اخمادها : هيفاء لا تشهد هذا الاحتفاء ، عيناها لا تريان اشراق وجه الشوف بطلوع فخره ورجوع عزه . مَن يحمل الى مسمعيها اصوات هؤلاء المغنين والمنشدين . جميع النساء يرقصهنّ الفرحُ ويُهزهز الطربُ اعطافهن ، كلهن يصفقنَ بالاكفّ وينقرنَ بالدفوف ويزغردنَ ابتهاجاً الا انتِ يا اميرة النساء . انك صامتةٌ واجمةٌ لا يفترّ ثغرك ولا تجذل نفسك ولا ينحبس دمعك . الاميرُ محفوفٌ بالكرامة والمجد والاميرةُ محبوسٌ عليها ترسف في سلاسل الهوان . ويحَ ابيكِ ما اظلمهُ وما افرغ قلبهُ من الحنان . هيفاء ظبية الوادي ولبوة الغاب لا تجزعي ولا تستسلمي الى القنوط ، فانّ الاسد متحفز للوثوب ويوم خلاصكِ قد دنا . ها أجل اغتمامك قد انقضى وميقات عزائك قد حان . وانت يا ابن سيفا لئن

اعتصمتَ بحصن الجوزا. فلاصعدنَّ اليك بجناحي نسر وقلب هصور واحتزنَّ عنقك وارويَنَّ بدمك ظمأ هذا الحسام . لاشبعنَّ من شحمك وحوش البرّية ومن كبدك طير السما . جالت هذه الافكار في خاطره وغلت في صدره مراجل الحقد وتأججت في قلبه نار البغضا . وتطاير من عينيه شرار الغضب واحسَّ بين ضلوعه باحتراق . فوضع يده على صدره فاصابت ذخيرة عود الصليب الكريم . فذكر رحمة المسيح وحلمه وقال : ما هذا الشرّ الذي افكر فيه وانا مسيحيٌّ . اليكِ عني يا شهوة الثأر والانتقام ، ليردَّ الله اليَّ هيفا. حية واغفر للظالمين البغاة .

ثمَّ اخذ الناس يتقاطرون للتسليم عليه من جميع انحا. البلاد وفيهم الامرا. والمشايخ والمقدَّمون يحملون اليه الهدايا النفيسة من ذهب وفضة وماشية وخيل وسلاح فيحسن وفادتهم ويلقاهم بما فُطر عليه من الهشاشة والبشّ ويغدق عليهم الخلع ويكرم ضيافتهم فينصرفون من عنده شاكرين حامدين مسرورين داعين . وممن قدم عليه بالهدايا الامير عليٌّ الشهابيّ وولداه محمد وقاسم ، والامير احمد بن يوسف الحرفوشيّ جاءه بعتاق الخيل ، وممن تعذر عليه القدوم في ذلك الحين فاوفدوا اليه يهنئونه ويهدون اليه خيلا.الامير احمد الشهابي اوفد ابنه الامير سلمان . والامير احمد طربيه والامير قنصوه اوفد كلٌّ منها مدبّره بخيل وسلاح . فتقبل هداياهم وارسل اليهم الخلع . ثم جال في البلاد جولةً وزار الامرا. والاقطاب والاعيان وتفقد القلاع والقوات والمعدات والمالية وسائر ما ينظر الى تعزيز السلطة واجرا. العدالة واقرار الامن . وكان في رحلته هذه يلاقي من ضروب الحفاوة والاجلال ما لا يحيط بكمال ابهته وصف . وكانت هذه الاحداث تتصل بمسامع يوسف باشا سيفا واشياعه فتقع عليهم وقع الصواعق وتصير محور احاديثهم وتتنقل على ألسن النساء الى الاميرة هيفا. فتسيل على قلبها فرحاً وتودُّ لواستطاعت ان تبعث روحها ترفرف حول الامير وتتنعم بمشهد مجده المشرق وعزّه الرفيع . وكانت على تأميلها بقرب الفرج لا تبرح نفسها هدفاً لعاملين متناقضين الحزن والفرح فهي تضحك وتبكي في آنٍ واحدٍ . ولما اتم الامير جولته عاد الى منزله في دير القمر وقد علم ان البلاد باسرها نازلةٌ عند ارادته ومجموعةٌ في قبضته .

١٧

زحفة الامير على آل سيفا وانقاذ هيفاء

لو شاء الامير بعد عوده من اوربة ان يتوسد الراحة ويتمتع بلذات الامارة وامجادهـا قانعاً بما حصل له من السلطة والسيادة في بلاد الشوف وغيرها من الاقاليم المجاورة التي دانت لسلطانه او اتصلت به بصداقة او محالفة او معاهدة، لاستطاع ان يتنعم بثمار السلام في ما بقي له من العمر ، ولما أعجزه ان يشتري رضا الباب العالي ويأمن شرّ حسّاده ومناوئيه ، لكن نفسه كانت اكبر من ان ترضى بهذا القدَر من الحظ الذي لا تَستكمل معه سعادة الوطن اللبناني ، فأبى وهو صاحب الهمّة القعساء والعزيمة الحذّاء. الا ان يجـابه الشدائد ويقتحم المخاطر في سبيل الغرض الوطني الشريف. ألا وهو من اجله ركب البحار وعانى الاسفار وعقد المحالفات . واذ كان على جانب عظيم من الحكمة لم يكن ليخطوَ خطوة واحدة في طريق الفتح الا بعد التروّي والتبصر وإعداد الاهبة لئلا يجازف بما لديه من قوة مُقدماً على حروب مستورة العواقب بستار الابهام. فتظاهر اولاً بمسالمة الدولة ليأمن صولتها . وبدأ ينظّم الجيش والمالية على نحو ما رأى في بلاد المسيحيين. حتى اذا تمّت له الاهبة على ما يروم ووثق بحصول القوة للقتال عقد القلب على محاربة الولاة واحدًا واحدًا لئلا يتضافروا عليه . وأول من صمم على قتالهم آل سيفا لما لهم من قوة الصولة وبسطة العز . وما يرمون اليه من عرقلة مساعيه واحباط جهده في توحيد الامارة في لبنان . فضلًا عمّا بنفس كبيرهم يوسف باشا من الطموح الى حكم الشوف ومدّ رواق السيطرة على اقاليم الجنوب . وكان فخر الدين قد ارسل الى يوسف يطلب زوجته المقتلة عنده فردّ طلبه وانكر كونها في حوزته. فزاد ذلك في حفيظة الامير واذكى جذوة مقته للسيفي واستعجل تسيير الحملة عليه . وكان قبل فراره الى اوربة قد عقد العزم على ضرب ذلك العدوّ المتصلف الضربة القاضية انتقاماً منه لكلمة استهزاء واستخفاف بلغه انه قالها فيه . فلم تسعده الحال في ذلك الزمان . حكاية ذلك : ان ارملة لبنانية أتت الامير فخر الدين تشكو اليه من والي حلب انه اعتقل وحيدها جورًا بتهمة التجسّس . فأنفذ الامير

رسالة الى الوالي يطلب التخلية عن الشاب . فرد الوالي الرسول بغير جواب. فحنق الامير وركب في سبعين فارساً من اشدّ رجال البأس والقتال ويمم بهم حلب لانقاذ الصبيّ . فنزلوا ليلة في بقعة من ارض عكار وجلسوا حول نار مشبوبة يصطلون، وانهم لكذلك اذ طلع عليهم شاب طويل القامة قويّ البنية بَدين . فقالوا : مَن تكون ؟ قال : لبنانياً اعتقلني والي حلب بتهمة التجسس . فراسله الامير فخر الدين فأطلق سراحي وانا ماض الى الامير لاشكره ، أبصرتُ ناركم من بعيد فقصدتها لعلي اجد حولها مَن يخرجني من وحشة الغربة والظلام . فدُهش الامير من هذه الصدفة وقال : انتَ لدى الامير مجيزك ، وها انا ماض بهذه الكوكبة من اخوانك اللبنانيين اولي البأس لانقاذك وردك الى امك الكسيرة القلب اشفاقاً عليك. فوقع الصبيُّ على قدمَي اميره يقبّلها ويبلها بدموع الشكر داعياً له بالنصر وطول العمر ، ثم انتصب قائماً وقال : مَن مثلك في حكام الارض وانت تركب المخاطر لترفع الضيم عن آخر انسان من رعيتك : انك لوالد وأحنّ من والد ، عِش يا امير الامراء مفدّى بالمهج والارواح .

كانت هيفاء في ذلك الحين عند ابيها تزور اهلها في عكّار، ورأى الامير ان يعرّج على بيت حميه فأقام عنده ثلاثة ايام فأبصر في وجه الاميرة قطوباً فسألها فقالت سأخبرك . قم بنا الآن نخرج من هذا البيت . فلمّا انتهيا الى دير القمر ، قالت له : كنتُ في مجلس أبي ومعي نساء اخذن يفاخرن بأزواجهنّ ففاخرتُ بك على مسمعه ، فهزّ رأسه وقال . ابهذا البعل تفاخرين يا هيفاء ! حترابٌ دِمّةٌ لو وقعت البيضة من قفاه الى الارض لما انكسرت . فغاظني استهزاؤه الوقح وخرجت من مجلسه وانا لا اميّز طريقي من البكاء. وعزمت على الرحيل لساعتي حتى لا أرى بعدُ وجه معيّري ولا اسمع صوته المسموم واذا بك مقبل فكظمت غيظي وحبست لساني لئلا اوقع بينكما شرّاً وانا مشفقة عليك من الغدر في ذاك البيت . فلمّا سمع الامير هذا الكلام أخذته سورة الغضب حتى ارتجت شفتاه وقال: يعيّرني بقصر القامة ودَمامة الخلق ! ما عابني ان اكون قصير القامة وانا صاحب العزم المرهَف والقلب الحديد والسيف الطويل والرأي الأصيل . انا القائل عن نفسي بلسان عنترة كبير فرسان العرب :

يعيّرني العدا بسواد جلدي وبيض فعائلي تمحو السوادَ

واقسم لينتقمنَّ من ابن سيفا ، وقال انشودة تهديد لم يبرح اللبنانيون يتغنون بها الى اليوم ، وهي :

نحن صغار وفي وجه العدوّ كبار انتم خشب خور نحنا للخشب منشار
بحق طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعمّرك يا دير الّا من حجر عكار[1]

وشاع كلامه هذا في جميع الانحاء اللبنانية وجرى على ألسن الكبار والصغار.

فلمّا اتاه جواب حميه على ما رأيتَ تذكّر عزمه السابق واقسم ليقهرنَّ ابن سيفا ويخربنَّ دياره ويحملنَّ من حجارتها الى دير القمر.

وكان على ولاية طرابلس رضا عمر باشا الكتنجي فرأى الامير ألّا يوقد الحرب على خصمه بغير رضا الوالي لئلا يصير عوناً لخصمه عليه. فأطلق عقارب السعاية وأرسل ألسن الشكاية من يوسف باشا لدى الوالي المذكور وما زال حتى استوثق من رضاه واوغر صدره على ابن سيفا وتأكد من انه سيناصره عليه. فجعل يركم للحرب وقودها ويعدّ لها معدّاتها. وأمر فحُمّص البارود وشُحذت السيوف. ثم جمع الاعوان والاعيان فقرّ رأيهم على مباغتة يوسف باشا سيفا بالرجال والإطباق عليه من كل صوب حتى لا يجد منفذاً الى النجاة.

وقبل ان يحشد الامير الرجال وينظّم الحملة اوعز الى الشيخ ابي نادر الخازني ان يُرسل رجالاً الى نهر ابراهيم يضبطون المعبر على الذاهبين الى الشمال مخافة ان يبلغ ابن سيفا خبر التدبير على هلاكه. وسار الامير من صيدا الى بيروت وبثّ منها رسائله الى الامراء والمشايخ يستنفرهم على السيفيين، واستدعى اليه

---

١) كان السيفيون يعيّرون زوجاتهم المنيات بدمامة منظر الامير فخر الدين ، وعرف الامير ان ابنته قالت لهم في احدى الجلسات من نوع المواليا :

عيّروني بقصرك قلت عود التبر والحصر خصر النزال والعنق شامخ شبر
قولوا لاهل الذكا قولوا لاهل الخُبر القلم يجمع الدنيا ولو كان طولو شبر

فبعث المنيُّ الى السيفيين يقول :

نحنا صغار وفي عين العدوّ كبار انتم خشب خور نحنا للخشب منشار
وحق طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعمّر الدير الّا من حجر عكار

(عن مجلة الآثار)

رجال الشوف والغرب والجرد وكسروان ، وكتب لابنه علي ان يمشي الى غزير برجال القتال من بلاد صفد وبشاره وصيدا والشقيف وارسل الى الامير عليّ الشهابي ليجيء برجاله الى غزير وينضمّ الى ابنه عليّ . وكتب الى الامير يوسف الحرفوشي ان يضبط ما لآل سيفا من غلال وماشية في القيرانية والهرمل . وزحف هو بمسكره على جبيل[1] فأميون فقلعة بجمون في الضنّية واحتلّ هذه الاماكن بلا مقاومة ولا قتال .

---

١) تلخيص من مجلة الآثار عن المؤرّخين : جمع الامير رجاله وقام من بيروت الى نهر ابراهيم ومنها الى جبيل فبات فيها . ووجد بكباشيّين من رجال يوسف باشا فطلب ان يسلّما قلعتها وقلعة سمرجبيل فأبيا . فسار الى اميون في الكورة وكانت من معاملة طرابلس ولما اصبح مشى بعساكره الى قلعة بجمون من بلاد الضنية ، ثم الى قرية قبولا ، ومنها سار بنفسه ومعه ثلاثمئة فارس من سكبانه لاستكشاف شؤون عكار . فصاروا مقابلها عند مغيب الشمس فلما احلولك الليل ابصروا عشرة مشاعيل خارجة من عكار الى حصن الاكراد ، فظنوا انها موقدة امام ابن سيفا . فترجّل فخر الدين ومشى قدّام رجالهِ في طريق صعب واستحلفهم ان يجدوا في طلب ابن سيفا الفارّ ولا يشتغلوا عنه بالغنائم ، فانتهوا الى عكار تحت الظلام باحثين عن ابن سيفا فلم يعثروا عليه ، وكان للحصن طريقان سار السيفيُّ على احدهما وسيَّر احمالَهُ واثقاله على الآخر . ولما سمع هرج الناس اطفاء المشاعل والتقى المنيّ ورجالُهُ بالاحمال فنشروها وهي نقودٌ وآنية ذهبية وفضّة وطنافس عجمية واسلحةٌ وملابس حريرية شيءٌ كثير وثمين . والتقوا بالحريم فلم يتصدّوا لهنّ . وسار المنيّ بنفر من جماعته الى قرية شدره وخلّى معظم رجاله في عكار فنهبوها . وقاتلوا الشيخ مظفر العنداري فقهروهُ . ثمّ عاد المني وجمع رجاله ودخل عكار صباح يوم الاحد ١٧ صفر سنة ١٠٢٨ هـ . ١٦١٨ م . فوجد عسكره قد نهب قصر يوسف باشا . وأبدى الاميرُ جرأةً غريبةً في هذه المهاجمة . وكان الامير محمدٌ بن حسين باشا ابن يوسف باشا تحمله جماعة الى جدّهِ في عكار فامسكهُ رجال المني فارسل الامير الى امه يخبرها عنه وكانت في حارة سير من معاملة الضنية . ثمّ نقلها الى عكّار وهي شقيقة صديقه علي باشا جنبلاط . وانفذ الى ابنهِ عليّ يخبره بدخوله عكّار وانهزام السيفي ويطلب ان يرسل العسكر المجموع من صفد والمتاولة بقيادة الامير عليّ الشهابيّ الى قلعة الحصن وان يبقى هو في حارة غزير ففعل ما امرهُ بهِ . الّا ان فخر الدين لبث اربعة ايام في عكّار ثمّ امرَ رجالهُ بالسير لمحاصرة السيفي . وكان يوم مطرٍ فلم يرافقهُ غير الف من السكبان وابناء العرب . فبات في شدره وسار منها الى مقابل الحصن . فرأى جميع الامراء السيفيين صافّين رجالهم للقتال فندم على تسرعهِ . وابى ان يتقهقر فهجم وقتلَ منهم خلقاً كثيراً وفرَّ الباقون ، ودخل يوسف باشا بجميع اولاده وانسبائه الى القلعة واغلقوا المدخل بلا ميرة ولا ذخيرة . امّا الامير محمدٌ واخوه سليمان ابنا اخي يوسف باشا فانهزما الى جبلة قرب اللاذقية . واما الشيخ مظفّرٌ ومقدّمو بني الصواف وكانوا ترلاء السيفيين

وكان ابنه الامير علي وحليفه الامير علي الشهابي قد أنزلا عسكرهما في غزير . وتربّص فخر الدين في قلعة بجعون وسيّر شرذمة من رجال دير القمر في طريق عكار للاستكشاف والكبس فوقعوا في الطريق على نفر من عسكر يوسف سيفا فيهم حفيده الامير محمد بن حسين . فدبّ الذعر في قلوب هؤلاء وتفرقوا عن اميرهم هاربين في كل وجه ، فأمسكه الديريّون ولاطفوه مراعاةً لحداثته ، وكان ابن خمسة اعوام واتوا به الى فخر الدين فرؤف بحداثته ورحم قلب والدته فأرسل يقول لها : لا تشفقي عليه من شرّ فانه في رعايتي .

وامر يوسف باشا بنقل حريمه وما هان حمله من ثمين المتاع الى قلعة الحصن

فدخلوها بجميع رجالهم . وأتت نجدة الامير عليّ فحاصر المعنيُّ القلعة وجعل يتفقد المتاريس بنفسه ويشدّد العسكر . ثمّ وصل عُمر باشا والي طرابلس برجاله وارسل الامير يونس الحرفوشي من بعلبك اربعة بكباشية من سكبانه ، فضايقوا السيفيّ ومن معهُ وليس لهم ميرة فاكلوا لحوم الخيل . ثم طلبوا الأمان فأمّنهم المعنيُّ والوالي على دفع ٣٠٠ الف قرش نصفها للمعنيّ لقاء دينهِ الذي بذمة السيفي من محصول بيروت وغزير والبلاد التي ضبطها وكانت لابنهِ عليٍّ ومن المواشي التي أُودعت عندهُ . والنصف الآخر لحاكم طرابلس ، وأرسل السيفي ولدهُ الاميرَ بُلُكَ يتعهد لهما بالدفع فأبيا ان يرفعا الحصار ما لم يصر المال الى ايديهم وتذكّر المعنيُّ الاساءة الماضية فتأخر عن المصالحة وسار بجنة فارسٍ من رجاله الى عكار . وترك الباقين في الحصار . وارسل الامير محمدًا الذي اعتقلهُ ووالدتهُ الجنبلاطية الى حارة الناعمة (الدامور) واستقدم بنائين امرهم بهدم قصور السيفيين ورجالهم . فبنوا نحو شهرٍ حتى قوّضوها ونقلوا حجارتها الى طرابلس ومنها الى بيروت فدير القمر فبنى بها بعض ابنية المعنيين الباقية الى اليوم ، برًّا بيمينهِ التي اقسمها . واستبقى دار الامير محمد ابنِ الامير عليّ وهو حفيده ابن بنتهِ . وكانت عكار القديمة التي هدمها اذ ذاك ، شرقي قرية (بينو) الان الى الجنوب. ولا تزال اسواقها مبلّطة . والحجارة التي نقلها الى دير القمر منحوتة ولا تزال بارزة في الطبقة الارضية من دار السيد انطون عيد البستاني وفي بناء المرج . وهو اكبر دارٍ للمعنيين في دير القمر . سمّاه « المرج » الشهابيون لحزنهم فيه الحبوب .

ثمّ طلب تسليم قلعتي جُبيل وسمرجبيل فسلّمتا ، وهدم قلعة جبيل وكانت شامخة البناء . واشتد الضيق على يوسف باشا وقد كبرت سنّهُ فالحّ على المعنيّ في مصالحته فلم يصالحهُ ، وكان السيفي قد استصرخ مصطفى باشا والي الشام والبكباشي كرد حمزه وهما من اصدقائه فقدما برجالهما الى القصير قرب حمص ، ووصل محمّد باشا أباظه والي حلب الى مدينة حماة بعسكرهِ فارسلوا الى المعنيّ والطرابلسي ان يرفعا الحصارَ فصار الاتفاق على مئة الف قرش يدفع نصفها للمعني والنصف الآخر لوالي طرابلس ، واتفق هذانِ على ارسال هذا المال الى الاستانة . فرضي السلطان عن المعنيّ لذلك .

وعزّزها بحامية قويّة وخرج واجتاز بعسكره نهر عكار وزحف فخر الدين بعسكره فتقابل الجيشان ودارت رحى القتال زهاء ساعتين فدارت الدوائر على عسكر ابن سيفا فأمر بالتقهقر الى ما وراء العدوة الاخرى من النهر وكانت المياه غزيرة غامرة فاجتازوا على جسر وهدموه لساعتهم . وجدَّ عسكر الامير في اثرهم الى النهر فوقفوا لا يجرأون على عبوره . واشفق الامير من فوات فرصة الانتصار فاستحثَّ نخوتهم فلبثوا مترددين . وكان حول الامير سبعة رجال من اشدّ رجال الحرب لا يفارقونه قدّ احدهم سراويله من الساقين وشمَّر ووثب الى النهر فعبره ، وفعل فعله رفاقه الستة ، فانبعثت جرأة العسكر وتراموا الى الماء بثيابهم ، وقال الامير : من هذا البطل الذي اقتحم النهر اولًا ؟ قالوا يوسف الحوري الديراني . قال : انه لحيّة ذكرٌ وخوّاض غمرات، والله لاثيبنّه اعظم ثواب . ثم اصطفت رجال السيفي تصليهم نارًا حامية قبل ان يتمكنوا من تنظيم صفوفهم ، فنزل التشويش في عسكر الامير واخذوا يتقهقرون الّا المشمَّر لم يتزحزح من موقفه لبث يرمي العدوّ من وراء صخرة ، فلما رأى ذلك رفاقه الستّة حسدوه وكرهوا ان يكونوا دونه جرأة وإقداماً ، فكرّوا على اعدائهم مستبسلين، وصاح الامير في عسكره صيحة ارتجت لها الارض وقال: اليوم يومكم يا حماة لبنان ، يا رجال الامير ! فانقلبوا على العدوّ كالسيل الجارف وأرسلوا من زئيرهم رعدًا قاصفاً والتحم الجيشان فصلصلت السيوف على الرؤوس ، وتسابقت الاسنة الى الصدور ، ورويت الخناجر من دم المهج . وحطّمت العظام بالفؤوس ، ووطئت الخيل بساطاً من الجثث، وما هي الّا ساعة حتى لمعت بروق النصر من سيوف المعنيين وانهزم السيفيون شرّ هزيمة وتفرّقوا مشتتين في السهل والجبل ، وخيّم الظلام فتوارى ابن سيفا عن عيون طالبيه . ولاح انه متجه ببقية عسكره جهة قلعة الحصن ، فجدَّ الامير في اثره بثلاثثة فارس من رجاله وبينما هو في الطريق يتعقبه اذا عشرة مشاعيل تظهر من بعيد خارجة من عكار ووجهتها القلعة فظنّ ان هناك عدوّه في شرذمة من عسكره فادركهم فاذا النساء والاحمال فأوعز الى رجاله ان يأخذوا الاحمال واستحلفهم بالشرف اللبناني ألّا يتصدّوا للنساء. فأنفذوا ارادته . وكان يوسف باشا ورجاله غير بعيدين من ذلك الموضع ، لكنه اطفأ المشاعيل حتى لا يُرى وتخلى عن حرمه

طلباً للنجاة . ودخل عسكر الامير عكار واطلقوا فيها أيدي النهب وترفعوا عن التصدي للنساء والاولاد ثم خرجوا في طريق الحصن وكان الامير قد سبقهم اليه بفرسانه ، فاذا أمامه امراء آل سيفا ورجالهم وبنو الصوّاف مقدّمو المتن برجالهم ، وكانوا مصطفين للقتال ، فلم يرهب كثرة العَدد بل استلّ سيفه وارسل صوته زئير اسد ، وقال : عليهم يا رجال البأس ، ليس النصر للكثرة انما النصر من الله لمن شاء ، النصر للسواعد القوية والقلوب الجريئة وللصامدين الصابرين ، وثبة السباع ومزّقوهم يا اسود المتنّ !. انقضّ هو وفرسانه انقضاض الشواهين على صغار الطير ، فارتجت ركبُ العافين ووهت عزائمهم وسالت قلوبهم خوفاً فانهزموا الى القلعة لا يلوون على شيء . ودخلوها متدافعين واقفل الباب . فأحدقت عساكر الامير بالحصن واتخذوا لهم متاريس منيعة وحفرًا وخنادق وشدَّدوا الحصار حتى عجز المحاصَرون عن صدّهم ونزل الوهن بعزيمة ابن سيفا وايقن بانه مغلوب ، فشاور مَن معه في التسليم فقالوا : ذلك اقرب الى السلامة . فأرسل علياء كنّته زوجة ابنه حسن الى ابيها فخر الدين في زمرة من النساء فدخلت يهنَّ اليه وهو في خيمته وقبَّلت يدَه وقالت : ان نلت حظوة لدى سيدي الامير فهب لي آل سيفا . فمسح بكفه على شعرها الذهبيّ وقال : ما يحملك على هذه الشفاعة وقد راموا هلاكنا ؟ قالت : الرحمة والرَّحِم . قال أما والله لو حالفَ النصر حماك واستوهبه ارواحنا كل اهل الارض لما حجب نقطة من دمنا . قالت : لا خلة افضل من العفو عند المقدرة ولا زينة لذي السلطان اجمل من الحلم ، وانت ايها الامير قمين بكل خلة كريمة وصنع جميل ، وقد اتيتك اسألك العفو عن اعدائك الذين اذلّهم الله بين يديك ، فلا تكسر خاطر امتك لئلا يقال لا شأن لابنة فخر الدين عند ابيها فأصغر في عين نفسي وفي عيون هؤلاء السيّدات . فلان قلبه وقال : وهبتهم لكِ ولصاحباتكِ ، فلن نحمل على حياتهم بأذى ، ولكن نجرِّدهم من اسباب الصولة والحول حتى لا تعود لهم قدرة على الإفساد . فقبَّلت يده ورأسه وقالت : مثل الامير حقيق بكل حلم وجود . ثم لمعت عيناه بِشرًا وقال : أين الاميرة هيفاء ؟ فبُهتت من سؤاله وقالت : ألعلّ هيفاء عندنا ؟ قال : اوليست في الحصن ؟ قالت : لم أرها ، من اتى بها الى الحصن ؟ فاربدّ وجه الامير ويبس حلقه وشفتاه

وضرب كفاً على كف وقال : أنتتم بعد ما عفونا ؟ فحزنت عليا، اذ رأت اباها على هذه الحال ، وقالت : بروحي انت يا ابي ، ماذا يغنك من جهة هيفا. ؟ ما شأنها ، أليست في احدى قلاعك او في دارك بدير القمر ، لقد كنت احسب انها الى جانبك مدة تغيبك عن البلاد ، فما هذا الذي اسمعه من سؤالك واراه من قلقك ؟ فاخذهـا من يدها الى ناحية وقص عليها القصة فتعجبت ، وقالت : لعلّها في الحصن وانا لا ادري . قال : ننظر في الامر . وصرفها مع رفيقاتها وأمن آل سيفا على ارواحهم فخرجوا اليه مسلّمين وامتلك الحصن وعرّاهم من كل قوّة للقتال وفرض عليهم غرامة كبيرة، فلمّا قبضها خلّى سبيلهم الّا يوسف باشا استوقفه وقال له: ماذا صنعت بهيفاء ما ذنبها فاعتقلتها وملأت قلبها ذعراً ونفسها غمّاً ، اين هذا من المروءة والحنان الوالدي ، لقد وقع نساؤك في قبضتي وقبضة رجالي فهل تصدينا لهنّ بسوء ، ابت المروءة إلا ان نرأف بضعفهنّ ونخلي سبيلهنّ وهنّ غريبـات عنّا وعدوّات لنا ولو شئنا لخلّيناك لا تراهنّ ، وانت تستأجر لصوص البحر ليسبوا بنتك وهي عرضك ومن لحمك ودمك ، فعلتَ ذلك نكاية لنا واستهانة بقدرنا ، وقدّر لنا ان نقصر يدًا عنك ردحاً من الدهر فصبرنا على حكم القدَر ، ولما ادركناك عفونا عنك تكرماً مع القدرة عليك افتطمع في حلمنا حتى لا تردّ علينا زوجتنا وقد اخذتها كسبيّة ، انّ روحك بدلُها فتبصّر ، هيهات ان ينفعك الإصرار .

قال الباشا وفي وجهه ولفظه امارات الندم والخشوع : اعلم يا امير اني آسف على ما فات ، ما باعدني عنك في ما مضى بغض لك في قلبي ولا ازدراء بقدرك ولا طمع في حلك وبلادك ، انما ساقني الى معاداتك حبّ السيادة في بلادي وخوفي عليها من سطوتك، أما اتهامك اياي باني استأجرت قرصاناً لقتال رجالك ونهب مراكبك وما استطاعوا الّا اعتقال ابنتي فما يزيد على ان يكون وهماً ساقه الى ذهنك ظاهر الحال، والواقع ان تلك النذالة احقر من ان تخطر لي في بال،إني لاكبر من ان اقدم على مثلها دنيئة تلبسني العار والندم والهوان، انما فعل ذلك القرصان على دأبهم من التصدي لركاب البحر لا بأمري فعلوا ولا بعلمي ولا برضاي . فلما اعتقلوا هيفاء مالوا بها الى جزيرة ارواد وارسلوا اليّ يطلبون فديتها عشرين الف دينار . فاستأجرتُ مركبين من طرابلس وسرت

عليهم برجال القتال : فلما دنونا منهم وقف زعيمهم منتضياً سيفه وقال : ألقتالنا اتيتم ؟ انّا لخطكم مستعدّون . فاعلموا اني عند اول اشارة عداء تبدونها تكون اميرتكم هيفاء اولى ضحية منكم نقرّبها على مذبح الانتقام. ابقر بطنها بهذا السيف واخضخضه في احشائها بلا رحمة والقي جثتها في البحر طعاماً للسمك . ثم نمطركم وابلاً من رصاصنا فاما نكسرهم شرَّ كسرة ونسلبكم حتى ما يستركم من ثياب واما ان ترجع كفتكم فننهزم من وجوهكم ، وفلاة البحر واسعة وسلامتنا مضمونة وسلامتكم في خطر وانتم في الحالين خاسرون . ما نحن بلصوص كما تتوهمون ، نحن جنودٌ أمرنا بتعقب فخرالدين فلما لم نجده في المركب اعتقلنا زوجته لنأخذها بدلاً منه الى الاميرال. لكنّ ما رأيته من بكائها وإعوالها والاغماء عليها من شدة الخوف والحزن ألان قلبي واثّر في نفسي فرحمتها ورثيت لحالها وقلتُ اسلّمها الى اهلها على شرط ان يؤدوا فديتها عشرين الف دينار . فلما تحققتُ انه لا يداور ولا يمزح في تهديده قلتُ له بل نؤدي الفدية ونحقن الدماء. لكننا لا نملك سوى الف دينار . قال : حسبُ . هاتها . فرميتُ اليه صرّةً فيها الف دينار . عدّها وسلّم الينا هيفاء . وعُدنا الى عكار فرحين ، ثمّ اني حسبتُ للمستقبل الف حساب . قلت : لئن عاد فخر الدين من اوروبة قوياً ووطأ له السعد كنفهُ ليبدأنّ حروبه في ارضي لانه طامعٌ في بلادي ومصمّم على هلاكي. فالرأي ان اعتقل زوجته رهينةً . فان قهرني اشتريتني منه كما اشتريتها من اللصوص. وان قهرتهُ عفوت عنه ورددتُ زوجته عليه . فادخلتها الحصن وكتمتُ امرها . فاقامت فيه مع وصيفاتها وصديقاتها لها تخرج وتدخل مخفورة. لكنها مغموسة في الترف والنعم . ذاك الى يوم تحصنت فيه برجالي هرباً من وجهك فطلبتها ولم اجدها وسألت فقيل انها توارت يوم عكار ولا يُعرف كيف خرجت ولا اين التجت. فلطمت وجهي وقلتُ ما اقل حظي ! آملتُ ان يكون اعتقالها لسلامتي فصار لعطبي . ها قد صدقتك الخبر وانا الآن في اسرك وقبضتك فان شئت عفوت والعفو اجمل والا فلك ما تشاء . هيفاء زوجتك وهي ايضاً ولدي وما كان قلب الوالد باقل حنوًا من قلب الزوج . فاطرق الامير هنيهةً يتأمل ورأى بيان حميه اقرب الى الصدق لانه لا مغنم له في اخفاء ابنته بعد ما صار اليه من ذلّ

الانكسار وتقوّض العز وخراب الديار وخسارة المال والرجال . فخلّى عنه . وامر رجاله فحملوا من خرائب عكار حجارةً صفراء اللون الى ساحل البحر فنقلت في مراكب الى بيروت ثمّ علـى عواتق الرجال الى دير القمر ذكرًا لانتصاره على آل سيفا وبرًّا بيمينه التي اقسمها . وبثّ رسله في بلاد عكار ينشدون هيفاء . فلم يعثروا عليها . فرجع بعسكره الى قاعدة حكمه متهلل الوجه بانتصاره العظيم ومكتئب النفس لخيبته من جهة هيفاء .

١٨

من قلعة الحصن الى قلعة الشام

علمت هيفاء وهي في قلعة الحصن بنشوب المعارك في عكار وان الدوائر دائرة على السيفيين ، وشاع في القلعة ان اباها مصمم على ارسالها الى حلب . حتى اذا تم النصر للمعني لا يأخذها بلا شرط،على قبوله يترتب تسليمها اليه . فاخذت تنظر في وجوه الحيلة للنجاة من هذا الخطب الجديد . وكان على رأس الحامية قائد حسن الاخلاق بكت لديه وتوسلت اليه ان يفتح لها الباب لعلها تنفذ الى معسكر المعنيين وتنفحه لقاء اخلاء سبيلها خمسة الاف قرش ، وكان القائد كبير النفس غزير المروءة فرؤف بها وقال لها : ان للامير فخر الدين فضلًا عليّ لا اجحده . ودينًا اتوق الى ايفائه . ذلك ان ابي وقع في اسر احمد باشا الحافظ والي دمشق وعزم الوالي على قتله فافتداه الامير بمئة دينار وفرس كريم وردّه سالمًا الى عياله . فانا صانع اليك خيرًا من اجل المعروف الذي صنعه زوجك الى ابي ، لا يحسن ان افتح لك باب القلعة لان بفتحه خطرًا عليك وعليّ ايضًا . اما عليك فلصعوبة البلوغ عبر الجيوش الى من ترومين . واما عليّ فلجواز ان اتهم بالخيانة او بالتقصير . غير اني فاتح لك مخرجًا آخر لا خطر فيه عليك . وتارك لك المال ايفاء لدين الاحسان الذي لزوجك الامير على ابي وعليّ . ثم انه استدعى رجلين من اهل ثقته وقال لهما: امضيا بالاميرة وجواريها الثلاث في هذا الدهليز الى آخره ، فاذا نفذتم منه الى الوادي فسيرا معهنّ الى معسكر المعنيّ وقد وكلت حياة الاميرة وراحتها الى شرفكما وجرأتكما فكونا لها اخوين وحارسين . فسارا بهن في الدهليز الى

وادٍ على مسيرة ميل من القلعة وتوجهـا بين من ناحية الشمال والشمس وراء حجاب المغيب ، وكان الوادي قصيرًا فاجتازوه قبل مداهمة الظلام ، وساروا في السهل ساعة وهم لا يعرفون طريقًا ولا يدرون كيف يذهبون . فجلسوا واوقدوا نارًا يصطلون بها ويأنسون . واذا كوكبة من الفرسان اقبلوا عليهم وكانوا من اعوان السيفي . فسألوا الرجلين من تكونان وما شأن هؤلاء النساء فلم يأخذوا جوابًا شافيًا . فقالوا انَّا من رجال المعني وهنَّ من نسائه . فقبضوا على جميعهم واستاقوهم الى القصير واتوا بهم الى مصطفى باشا الذي كان السيفي قد استنجده فوافى بعسكره الى القصير لينصره على المعني ، فخلَّى الوالي عن الرجلين وارسل النساء مخفورات الى الشام وامر باعتقالهن في القلعة الى ان ينظر في امرهنَّ . ووصى بالاميرة خيرًا فلم ينلها ورفيقاتها ضيم في معتقلهنَّ غير ان هيفاء التي انتقلت من الرمضاء الى النار تقطع قلبها غمًّا لما اصابها من فشل الخطة ، وعضت اصابعها ندمًا على مـا جرّت على نفسها من بلاء لخروجها من حصن الاكراد قبل ان تخفق اعلام النصر على خيام المعنيين ، فجلست على الحضيض وذرت على رأسها التراب وابت ان تذوق طعامًا ثلاثة ايام ، وكانت تشهق في البكاء وتندب نكد الطالع ، فتنفخت اجفانها من طول البكاء . واخذت جاريتها يعالجن كشف غمها بانواع التعزيات والتسليات والتأميل فلا تلك الاصغاء البين حتى بلغ منها الجوع والحزن واشرفت على التلف ، فبكين لبكائها حتى نضبت مجاري دموعهن . وما انقضى لهنَّ اسبوع على هذا الحال حتى نزل الوهن بقوى هيفاء ، واستحوذ عليها الشحوب ونال من نضارة شبابها الذبول وخمدت جذوتا خدّيها وامتقع لون وجهها ومال بياضه العاجي الى الكدورة والاصفرار . حينئذٍ وقفت عليها احدى وصيفاتها وقالت : رفقًا بنفسكِ وبنا يا سيدتي فانك تنتحرين وتشقين قلوبنا جزعًا عليكِ ولا تدرين . ان كنتِ لا ترحمين نفسك ولا ايانا فارحمي الامير الذي تحبينه . انه ولا ريب ينشدك وعمّا قليل يهتدي اليكِ . ولعله يقتحم لانقاذك لظى حرب ضروس . أفيركب لاجلك الاخطار ويعاني الاهوال ثم لا ينتزعك من اشداق الاسر الا وقد صرتِ جلدًا على عظم كغصن اذهب الجفاف نضارته؟ اما كفاهُ ما تجشم من وحشة الغربة واتعاب السفر ولوعة الفراق ومكائد الحساد وما يكابد من

اخطار الحرب واهوالها حتى تصدعي فؤاده بالحزن وتنغّصي عليه العيش وتعكري صفوه وتغمسي حياته في الشقاء . اين هذا من المحبة الواعية التي لا تنظر الا الى مصلحة المحبوب فتصبر على الضيم وتستعذب المرّ وتستطيب العذاب وتتلقى الملمات بالفرح ولا تبالي بالتعب والشقاء . ها انك قد استسلمت الى الغمّ وبعتِ قلبك للحزن ولم تشفقي على عينيكِ من عواقب البكاء ، ونبذتِ كل تسلية وتعزية وعفتِ الطعام والشراب وصرت من النحول على قيد خطوة من التلف ، فماذا نفعكِ ما تصنعين . فارجعي الى نفسك وتدبّري امركِ واصبري على ما نابكِ وتوكلي على الله يؤتكِ الفرج القريب . ووقع الجواري الثلاث على عنقها يقبلنها باكيات ويقلنَ ارحمينا يا سيدتنا فقد ذابت قلوبنا جزعاً وتصدعت اكبادنا كمدًا . افلا ترحمين . فافاقت هيفاء من سكرة الحزن وقالت : لتطبْ انفسكنَّ ، وطلبت ماء فغسلت وجهها . ثم اكرهت نفسها على الطعام فاكلت قليلًا وشربت . وقالت : لا أمرّ من ذل الاسر لكنه حلو في سبيل الحبيب . لقد سئمت الحياة من سجن الى سجن ومن كرب الى كرب. فان رضيتها على علاتها فلاجل فخر الدين ، وكان الحراس من اجل التوصية يطلقون لها ولرفيقاتها حرية التجول في القلعة، وكانت بعد غياب الشمس تطلع على السطح وتسرح الطرف على مشاهد المدينة الرائعة وقصورها الشاهقة وقبابها العالية ولا تشبع عنها من مشهد بَرَدى سائلًا يتلوى بين الحدائق والجنائن والغياض كذوب الفضة تحت اشعة القمر ، وكالمرآة الصقيلة تنعكس عليه صور الاغصان المتحركة بنسمات الليل المبللة بالندى ، ثم ترفع ناظريها الى ما فوق فيخلب لبها مشهد السماء المرصعة بلآلي النجوم. فتتنهد من اعماق الصدر وتصعد الزفرات ويلتف على قلبها سحابة من الاكتئاب وتتالى على ذهنها الذكريات لذيذةً ومؤلمة . تذكر سهراتها الحافلة باللذات الطاهرة على سطح قصرها في دير القمر الى جانب فخر الدين ورأسها الى صدره وعيناها الى السماء يريها النجوم باصبعه ويميّزها باسمائها العربية ويشرح لها ما يعلمه من سيرها ودورانها وسرعتها وابعادها وطلوعها ومغيبها واقترانها وافتراقها الى غير ذلك من خواصها واحوالها . فلدى هذه الذكرى تسقط من بين اجفانها لؤلؤتان تمسحهما عن ورد وجنتيها الاصفر بمنديل من حرير. وتحوّل نظرها الى الفرقدين فيختلج في صدرها

الحمد وتقول : سقيًا لكما يا فرقدان . خُلقتما متصاحبين ولن تبرحا كذلك الى الابد . لماذا لم أرزق مثل حظكما السعيد انا التاعسة التي يحرّق احشاءها وهج الفراق ؟ انك جميلة يا سماء في ما عليك من زينة النيّرات ، لكنَّ جمالك ناقص في نظري لاني لا اشاهد بين نجومك الساطعة ذلك النجم اللامع المحبوب الذي اسمه فخر الدين . اين انت يا فخر لبنان يا عزَّ ارزه وشربينه يا عماده ورافع ضيمه وقاهر اعدائه وسهمه النافذ وسيفه الباتر ومُذل المتجبرين عليه وقالع عيون الطامحين اليه ومُعلي بناء مجده ومُطلع اقمار سعده ، اين انت ايها الاسد الرئبال اب الاشبال ، الممزّق الصفوف في القتال . لماذا لا اراك اذ ارى الجوزاء وفوقها قد نصبتَ مقعدك . لِمَ لا اراك اذ اسرح الطرف على هذه الرياض الغنّاء ، وفي رياض المكارم جعلتَ مرتعك ، لِمَ لا تُسمع زئيرك هذه القلعة فتتداعى جدرانها وتتزعزع اركانها وتتحطم اقفالها ؟ لماذا لا تطلع من وراء هذه الجبال كما يطلع البدر فيتبدّد ظلام الوحشة من اشرافك وابصر انوار الانس تتألق في زوايا هذا الحصن حيث تكتنفني ظلمة القبور ؟

شهر تقضى وهي في القلعة تغالب الغمّ وتناصب الهمّ وتسطو على اسباب اليأس باسباب الرجاء . تهب على نفسها ريح التذكر الحارة فتتلظى بين ضلوعها النار الهاجعة تحت رماد التجلد والتأميل . فتصبُّ عليها مطرةً من الدمع تخمد لظاها وتخفف من الم الاحتراق .

نزلت ذات ليلة عن السطح تتهاداها الافكار المقلقة وتتعاقب على قلبها الهواجس والهموم . فاتت سريرها وذكرت الله والتمست عونه ورجت رحمته وخلاصه ، فسقط على نفسها قطر من ندى التعزية فنامت ورأت في نومها كأن يدًا ناعمة تمسح على جبينها وخديها فاحست ببرودة لذيذة مُنعشة ، وكأنها فتحت عينيها فاذا الى جانب سريرها امرأة ملتحفة بالبهاء تسرق بجمال طلعتها الابصار ، وعلى ذراعها اليسرى طفل كتمثال من لجين بهيّ المنظر باسم الثغر بعينين تشع منهما انوار النقاوة والوداعة والظرف . كلاهما يزين جبينه اكليل لامع يرجع عنه النظر وهو كليل : فطفح قلبها سرورًا وقالت : من تكونين يا سيدتي؟ لم أرَ مثلًا لك في بنات الانسان . انك لاجمل من الشمس وابهى من القمر . أهما من جواريك يا ربة الحسن والكمال ، من تكونين ؟ — قالت : انا ام

الرحمة ، انا نجمة الصبح ، وابني هذا هو الرحمة النازل من السماء ، فاحنت رأسها سجودًا لها وقالت : الا ترحميني يا سيدتي ؟ قالت بلى ، ولهذا اتيت . أحبي ابني من كل قلبك تجدي رحمة وخلاصاً . قالت كأني بقلبي مضطرم وها انه يذوب بمحبته . وادنتْ شفتيها من قدميه الصغيرتين وقبلتهما بحب لا مزيد عليه . واذا بفخر الدين يظهر فجأة وينحني امام الطفل العجيب ويلقي سيفه لدى قدميه ، فمسح الطفل بيده اللطيفة على رأس الامير وتبسم . حينئذٍ استيقظت هيفاء وهي لا تملك نفسها من فرط الفرح . ولما افترّ ثغر الصباح قصت حلمها اللذيذ على وصيفاتها فدهشن وقلن لها : أبشري بخلاص قريب . وبينا هن جالسات يتحدثن اذا جندي من حرس القلعة يجيء هيفاء « بعمي صباحاً » ثم قال لها : رفرفي بجناحيك يا حمامة الارز هوذا ساعة المطير الى اهلك وبلدك . فلمع بعينيها برق السرور . وقالت : لئن صدقت بشراك لاجزلنّ عطاءك . قال : صدقت ، والله ، فاخرجي للقاء رجالك . خرجت فاذا اربعة فرسان في طليعتهم سرور العداء مملوك فخر الدين . سلّم عليها وهنأها بالافلات من اسرها وحملها ووصيفاتها على الافراس الاربعة وساروا بهن في طريق دير القمر . وكان سرور ممسكاً بمقود فرسها فسألته عن سيده الامير واولاده وسائر آل معن وعن والدها واخوتها وعن نتيجة حرب عكار فاخبرها بكل ما جرى . واستغربت الاميرة مفاجأة انقاذها من القلعة فطلبت ان يشرح ذلك لها . فقال : ان الامير حتى الساعة ، لا يعرف من امرك شيئاً لا كيف خرجت من قلعة الحصن ولا الى اين صرت ولا انك حية ترزقين او ميتة لا ترجعين . اطلق رسله ينشدونك في انحاء البلاد فلم يهتد احد الى مثواك . ولا ظفر انسان بخبر عنك او اثر منك ، فتنغصت عليه لذات انتصاراته وتوجه بعسكره نحو دير القمر فعرج على بيروت لينظم احكامها وعمّا قليل يبرحها الى قاعدة حكمه .

اما انا فاوقفني على حالك ابوك وقد عرف ما وقع لك من مصطفى باشا والي الشام الذي وجّه الى ابيك رسالة من القصير يخبره باعتقالك وبعزمه على ضمك الى حرمه بعد عوده الى دمشق . فشقّ الامر على ابيك وحملني رسالة الى سيدي الامير فخر الدين فلم ابلغه الرسالة خشية ان ازيده قلقاً واثير نخوته لاضرام حرب في الشام قبل ان يستريح رجاله من اتعاب حرب عكار . وقلت

لابيك لي حيلة في انقاذ الاميرة احبُّ ان اعالجها فان نجحت كفينا مؤنة القوة والا فالرسالة في يدي انفذها الى سيدي الامير . قال ما حيلتك ؟ فكشفت له عمّا بخاطري فاستوعر الخطة لكنه لم ينهني عنها . فانطلقت الى صديق لي من المقرّبين الى كاتب مصطفى باشا وابحتُ له بسري واستعنت بهِ على امري واعطيته ياقوتة غالية الثمن وجدتها بين الغنائم التي غنمناها من قلعة الحصن فحملها الى الكاتب وغرّه بها فزوّر كتابة عن لسان الوالي الى قائد قلعة الشام يأمره بان يخلي عنك ويسلمك اليّ فور وصول الرسالة اليه . فاخذتها من صديقي وعليها مثل توقيع الباشا وخاتمه. واتيت بها ومعي هؤلاء الرفاق الثلاثة وجازت حيلتنا وانتهت بالفوز لسعادتك وسعادة الامير .

تعجبت هيفاء من سماعها هذا الحديث واعجبت بدهاء سرور واثنت على شهامته وولائه ، وحضر في خاطرها الحلم الذي رأته . فايقنت انه من الله سبحانه رأفة منه بحالها وجبرًا لكسرها واستالة لها الى عادته على حسب مشيئته ، فوطنت النفس على ارضائه والتمست منه ان يسهل لها السبيل بقوته وجوده وحكمته.

١٦

افراح النصر واللقاء

لمّا صار الامير على مسيرة ميل من قاعدة حكمه الى الغرب خرج اهلها للقائه ومعهم جمع غفير من سكان الشوف وغيرهم ممن اتى لتهنئته بانتصاره العظيم. فخطرت على باله هيفاء. وشقّ عليه ان يدخل دير القمر بالسلب والغنائم والرايات المنتزعة من العدوّ محفوفًا بالمجد وبالوف الهاتفين والمعظّمين ولا تكون هي الى جانبه تشاركه في فرح انتصاره وتجالسه تحت سرادق عزه، وخيّل اليه انه على باب داره وقد أُلبست الدار من اغصان الارز والزيتون والريحان ومن ازهار الحقل والبساتين حلة خضراء مفوّفة تسترق بحسنها العيون ، وانه وقف وقال : بئس هذه الزينة يا دار ، لأن اراكِ عاطلة منها وفيكِ مصباحك المنير ألذّ لعينيّ من وحشتك المرعبة في حلّتك الشائقة . انقبض فؤاده وتجهّم وجهه وأمسى في ذلك الحشد الكبير كما لو كان وحيدًا في قفر لا يسمع ولا يرى شيئًا الا اشتكاء هيفاء من تحامل الدهر والّا شبحها الكئيب يرسف في قيود

الذل، وانه لكذلك واذا بمملوكه سرور وقف لديه وقبّل ركابه وقال : بشرى يا سيدي الامير ! الظفر ظفران الاميرة هيفاء قائمة للقائك في باحة الدار. فخفق قلب الامير واوهت شدة الفرح المفاجئ قواه فترل عن فرسه في مدخل البلد الغربي « الميدان العتيق » وجلس على طنفسة فوق دكة يشاهد العاب المسابقين والفرسان المسابقين والمتراشقين بالجريد والراقصين والمنشدين، وأمر مملوكه سروراً بالجلوس في قربه وواجهه بالهشاشة والرضا وقال له : لله درّك يا سرور، ما تبشرنا الّا بخير ، قايه . فأخبره سرور بقصة انقاذه للاميرة بكل تفاصيلها واسبابها من اولها الى آخرها ، فتعجب الامير من دهائه وذكائه ولطف حيلته وتهالكه في محبة اميره . وخلع عليه وقرّبه ورفع رتبته ووعده بمنصب يحسد عليه . ودخل الامير العاصمة بابهة وعزّ عظيمين تحت اقواس النصر على نقف الدفوف واصوات الهتاف تظلله غمامة من قتام البارود ، التقى بهيفاء بعد ذلك الفراق اللاذع الطويل ، فحدّث عن بهجة ذلك اللقاء . ولا حرج ، وأمر فأقيمت الافراح ثلاثة ايام أولم فيها لاهل البلاد وفرّق الغنائم على المحاربين تحت رايته وصرفهم للاستراحة في بيوتهم بالمال والتحف موقرين. ثم استدعى رجاله السبعة الابطال وقال لهم : انكم حقيقون بالمكافأة . فليسألني كل منكم ما يشاؤه فسألوه فأعطاهم وأجزل العطاء . وقال ليوسف الخوري (المشتر) : انت يا يوسف بطل عكار على ثباتك في وجه العدوّ ترتب لنا النصر، فمن الآن تدعى ثابتاً لانك ثبتَّ دون سائر المحاربين ، لم ترهب الموت ولم تولّ العدوّ قفاك ، فدعي ثابتاً وهو الجد الاول لاسرة ثابت الديرية ، وكان ولوعاً بالمجد فلم يسأل الامير مالًا ولا أرضاً بل تقبل الخلعة بالشكر وسأله ان ينصب على باب داره راية لبنانية بين اسدين من حجر عكار الاصفر ويكون ذلك حقاً له ولذريته ذكرًا لتهالكه في محبة وطنه واميره ، فصنع له ذلك واعطاه كل الارض التي تجاه دير القمر من المعاصر الى نبع البستان شرقاً فغرباً ومن بعقلين الى النهر الفاصل بينها وبين دير القمر جنوباً فشمالًا . فكان الاسدان الحجريان على عضادتي الباب حتى تغيّر شكل الدار بعد حوادث عام ١٨٦٠ اما الارض فخرجت عن ملكه قبل انقراض سلالة المعنيين الا قطعة في المعاصر مكثت في ايدي ورثائه الى عهد الشهابي الكبير .

وبنى الامير قصره الفخم في دير القمر اربع طبقات ضخمة واسعة معقودة السقوف بالحجر الا الطبقة العليا سقوفها من خشب الارز وصنع للقصر مدخلًا عظيمًا بقوس من حجر عكار الاصفر مزين بالحفر البديع والنقش الناتئ، فجاء البناء حصنًا منيعًا عريض الجدران ضيّق النوافذ من الخارج عريضها من الداخل عالي الابواب كثير القاعات الفسيحة لكنها قليلة الضوء. ولا سيما في الطبقات التي تحت الرابعة فلا تنفذ اليها أشعة الشمس وجرّ اليها الماء في انابيب من خزف مطمورة في التراب وجعل من داخل دار الحريم منفذًا سريًا في دهليز عميق الى حمّام بديع الهندسة جميل النقش والبناء. بناه في اسفل المدينة تحت سراي الامير يوسف الشهابي التي لا تزال قائمة الى اليوم .

وكان ذلك الدهليز مهربًا خفيًا من هذا الحصن ومخبأ حريزًا مهيأً لنجاة الامراء والاميرات عند مفاجأة الحدثان . موقع هذه الدار في سوق الميدان من الشمال يميل الى الشرق تحت غابة الشربين القديمة العهد القائمة في صدر تلّ على قمة خراب هيكل يرجح كونه من بناء الرومانيين ، ولعله اقيم لعبادة القمر فدعيت المدينة باسمه (دير القمر) نقلًا عن اللغة السريانية (دَيرُ) الذي تفسيره دار او دير وقيل غير ذلك في تسمية البلد بهذا الاسم .

ولفخر الدين واخيه يونس ابنية غير هذا القصر في دير القمر ، منها الجامع والمأذنة ومنها الطبقة السفلى من دار انطون عبد البستاني وما يليها الى الغرب الشمالي ، الى غير ذلك، وبنايات المعنيين ممتازة ومعروفة بفخامتها وقوتها وزخرفها وشكلها وحجارتها وقد تسلطت على بعضها عوامل التغيير والتهديم .

روت هيفاء لفخرالدين حكاية خطفها من المركب الى آخر ما وقع لها من يوم حبَس عليها ابوها الى انطلاقها من الحصن الى سجنها في قلعة الشام وانقاذها على يد مملوكه سرور ، ولم تشكُ اليه من والدها وان كان قد حبس عليها وسدّ مخارج الافلات ولم يدع منفذًا للانباء منها واليها فقد كان على ذلك يحسن اليها قولًا وفعلًا ولا يحبس عنها شيئًا من حنانه الوالدي بل احاطها بأصناف التسليات ولم يكن شي، يعكّر صفوها الا انفصالها عن زوجها مكرهة على الفراق ، غير انها كانت تعالج هذا البلاء بترجي اللقاء . واخبرها الامير بعفوه عن ابيها واخوتها وسائر آل سيفا . فطابت نفسها بمجامله وقالت : لا

استعظم هذا العفو على سمة الامير، ولم يبيتها ما آلت اليه حالهم من قصر الباع بعد ما كان لهم من حول وطول لافضاء ذلك الى اشراق مجد الامير وهدو باله ومصلحة لبنان . واصبح ما حلّ بآل سيفا عبرة لغيرهم من ذوي السلطة وولاة الاحكام في البلاد ، وقعت عليهم مهابة فخر الدين واصبحوا على خشية من صولته فمال بعضهم الى مسالمته خاضعين، اما هو فكان معوّله على ما يرومه من بسطة العزّ والسلطان على الفطنة والروية وجودة التدبير وانتهاز الفرص ولا سيما بعد ما عرف تبرُّم الناس من حروب المعنيين والسيفيين لما جرّته على البلاد من كوارث وخسائر في المال والرجال . وقد قال في ذلك الشاعر ابراهيم الاكرمي :

خلِّ عنّا ذكرَ ابن سيفا ومَعنٍ انما يطلب الغريمَ الغريمُ
ما لنا والحروب نحن أُناسٌ ما لنا طاقة بشيء يضيمُ

٢٠

فتح وتحصين

رسم الامير لنفسه خطة فلم ينِ عن انفاذها ، ورمى الى غاية فلم تقعد همته عن إدراكها ، فبعد ان أَمِن تطاول السيفيين بكسر شوكتهم وتقويض عزمهم عبأ جيشاً لجباً وارسل الى الامير احمد طربيه ينذره بالويل والثبور اذا هو لم يَدِن لطاعته راضياً بما يشرطه عليه . ولما ذهب إنذاره ادراج الرياح زحف عليه وقاتله فكسره. ثم زحف على مصطفى باشا وقهره في واقعة المجدل ثم سار بالعسكر الى وادي التيم وكان على حكمها أحمد الشهابي فاداه الطاعة بلا قتال . وحذا حذوه الامير علي الشهابي في حاصبيا ، وسار فخر الدين برجاله الى بانياس فرمّم قلعتها ثم الى صرخد فشيّد فيها قلعة والى بعلبك فرمّم قلعتها وبنى قلعة في قب الياس .

وكان اللبنانيون معجبين باميرهم لما له من علوّ الاخلاق وجرأة القلب وبُعد الهمّة والمهارة في فنون القتال . وقد اسكرهم واسكره ما احرزوه من الظفر والفتح بجودة قيادته وقيادة ابنه الامير علي . واصبحوا وقد ارتفعت اقدارهم وعمرت ديارهم واتسعت تخومهم ، فاحاطوا به احاطة الهالة بالقمر يفدّونه

بارواحهم ويحاربون حروبه مستميتين غير هيابين ، مترابطين بوثاق المحبة الوطنية والاتحاد الاخوي على اختلاف نحلهم الدينية، وكلهم مفاخر باسم لبناني، الكل وطني ، الكل لبناني كلهم يشدون أزر حاكم الوطن وابيه .

وكان الامير معتزّاً بهذه الرعية المتحدة قلباً ومرمىً ويداً . فزحف بجيش من اشدائهم بأساً على غربي حماة فوافاه اهلها خاضعين ، فبنى قلعة تجاه حلب شمالي قلعة الشماميس واقام حصناً منيعاً فوق انطاكية . ثم قام الى بلاد الثغر وبيلان فجاءه والي حلب مسلّماً وقدّم له ثلاثين ذهباً والف حمل مؤونة لعسكره فتقبّل هديته وكفّ عسكره عن التصدي لرعاياه . واصبح لبنان في ذلك العهد مملكة قوية واسعة الارجاء منظمة الجيش والاحكام مرهوبة الجانب غنية بالمال والرجال والبقاع ، ولها السيطرة والسلطة من حدود حلب الى حدود القدس الشريف . فتربّع فخر الدين في دست هذه الامارة الكبيرة بلا منازع ولا مطاول . وذهب له صيت بعيد ولمع له مجد عظيم ، وواته الاقدار فأقرّه السلطان على فتوحه ونفحه لقب « سلطان البرّ » وكان للسلاطين من آل عثمان لقب « سلطان البرّين والبحرين » .

ومن جودة تدبيره وبُعد نظره أنه ظلّ متصلاً بين حالفهم من ملوك اوربة وأمرائها ، فكان يراسلهم ويراسلونه ويعدّونه بالمال والرجال ، فنما عرشه لتعهده اياه بكل عوامل النماء ، وجنى من قطوفه ما لذّ وشاق وطاب وكان يخبر الحلفاء بحروبه وفتوحه وما يرمي اليه من ايهان سلطة الدولة وخضد شوكتها الى هزّ عرشها هزّة تكون الكافلة بدكّه ، وقام في اعتقادهم أن اقل ما يترتب على قهره وُلاة تركيا في البلاد السورية يكون وقوع الدولة في المشاكل والمتاعب وتكبّد الخسائر مما يغلّ من عزمها ويفتّ في عضدها ويقصّر باعها فلذلك بدروا لمناصرته وشدّ أزره بالرأي والمال والرجال . اما كسموس الثاني دوق توسكانا فكان له السبق في معاضدته وانفاذ المحالفة ، ففي سنة ١٦٣٠ أرسل اليه الكافليار فراتزانو في عددٍ كبيرٍ من المراكب تحمل اثقالاً من الميرة والذخيرة والملابس وجماعة من المهندسين وحذّاق العمال مما يلزم للحرب من إنشاء الخطط وتشييد الحصون وحفر الخنادق ونصب المتاريس على الطرائق الفنية . ونهض العلّامة ابراهيم الحاقلاني يذكّر البابا اوربانوس الثامن بفخر الدين ويصف

له حروبه الظافرة ومفاخره العالية وما يترتب على نجاحه من استتباب الامن وانتشار السلام ودرء المظالم ورفع المعاثر فلم يسع البابا تجاه اقواله السائغة وبراهينه الساطعة ومساعيه البارعة الا ان يجب ملتمسه ، فأمدّ الامير وآزره وأدرَّ عليه اخلاف نعمته ، وقام فخر الدين بجرمة الصنيعة واستدام بشكره النعمة . وكان يوم عرَّج على مالطة قد عالنَ فرسان الجزيرة بما ينويه من محاربة الدولة اذا تمت له المحالفة في اوربة ولم يخذله الحلفاء . فحبَّذ الفرسان سعيه وأملوه بأن يكونوا من نصرائه ، غير انهم لم يبتّوا له عهد المحالفة حتى يروا ما يكون من أمره بعد عوده الى لبنان وامتشاقه الحسام ، فلما حصل له ما علت من توحيد الامارة اللبنانية والاستيلاء على الولايات المجاورة ببأس اللبنانيين الملتفين حول رايته وبامداد حلفائه في ايطاليا واسبانيا أخذ يراسل فرسان جزيرة مالطة مرهفاً عزمهم على محالفته رغبة في ايجاد دعوة صليبية على الدولة العثمانية . ولولا طوارئ لم تكن في الحسبان افسدت الطبخة وغيّرت وجه الحال لنجح مسعاه وفاز بمناه .

٢١
منتهى فخر الدين

تمَّ للامير ما ابتغاه للبنان من امتداد الملك ومناعة الجانب وبسطة العزّ والاستقلال بالحكم في امارة واحدة وطنية متلاحمة الاجزاء . نصب فيها قسطاس العدل ورفع منارة الحق وارتقها اخصب مراتع الطمأنينة والامن ، اصبح اللبنانيون شعباً واحداً قوياً بمجموع الكلمة والرأي لا يطمع فيه طامع ولا يجرؤ على منازعته منازع ، واقام فخر الدين عمّالاً له في البلاد من ذوي المهابة والحنكة والرأي والتدبير ولّاهم الاقاليم غير ناظر في انتقائهم الى الطائفة والمذهب بل الى الكفاءة والاقتدار وفتح عليهم عين المراقبة احتياطاً للزلل وسدّاً للخلل فاستقامت الاحكام وروعيت الحقوق وعم السلام وكان من عماله الشيخ ابو نادر الخازني ولّاه بلاد جبيل والشيخ ابو صافي اخوه ولّاه على بلاد بشري والمقدَّم يوسف الشاعر على بلاد البترون اعتباراً لمقدرتهم العقلية والادارية ومنزلتهم العالية واخلاصهم للوطن . ورسخت قدمه في الديانة المسيحية غير

مجاهر بها مخافة انقلاب الكثيرين عليه ، فاكتفى باقامة معبد في قصره واختار لخدمته الروحية كاهناً من المدينة يقيمها في مرافيها ويعود الى منزله ومعاشه من خزانة الامير . وكان للكاهن في بيته صورة تمثل العذراء النقية حاملة على ذراعيها الطفل يسوع فأتى بها الى المعبد ورفعها على المذبح وتأملتها هيفاء فاذا هي رسم السيدة الجليلة التي رأتها في الحلم وتذكرت احسانها اليها فاستكنت في الايمان المسيحي وتوفرت على عبادة القديسة ام الله وبالغت في اكرامها فكانت تزور صورتها المحبوبة مرات كل يوم وتفزع اليها من كل ضيق وتسألها الحماية والسلامة والنصر لفخر الدين واعوانه في الحروب . وتأصلت في نفسها مخافة الربّ ومحبة القريب ، فكانت تخمد بتوسلها العذب سخط الامير اذ يتّقد للانتقام من مناوئيه وتحبّب اليه الوداعة والرحمة لانها من فضائل القادي الكريم ،وملكت قلوب الجميع بلطفها ولين مقالها وبسط كفها للعطاء ومؤاساتها للضعفاء وتصدّقها على الفقراء ، وتضاعفت محبة فخر الدين لها من اجل هذه الخلال ، وكان يرجع اليها في فضّ المشكلات وحلّ المعضلات ، لما خبره من توقد ذهنها وصفاء نفسها وسداد رأيها وبُعد نظرها في الامور .

لو قنع فخر الدين بهذا القدر من السلطان لنعّم لبنان بما ابلغه اليه من العزّ والقوّة والمهابة ووفرة المرافق ورخاء العيش في استقلاله المنيع وثروته المادية والادبية دهرًا طويلًا غير انه ذهب مع سكرة السلطة والانتصار واستفزّ رواء المجد فطمحت نفسه الى السلطنة والعرش والصولجان ، ونهته هيفاء ومشيروه المخلصون عن هذا الطموح الخطر فأبى الآن يجاريه مجاهرًا بقصده الجور غير حاذر ولا حاسب لاعدائه حسابًا، وبنى في بيروت قصورًا وقلاعًا وخانًا وحديقة الوحوش تقليدًا للسلطنة،وفي صيدا خانًا للتجار الافرنج،فانبرى اعداؤه ولاسيا آل فروخ وسيفا وطربيه يرسلون الشكايات عليه والوشايات الى الباب العالي بانه نازع الى الاستقلال وخارج على السلطان ومارقٌ من الإسلام لا يكترث لشريعة الرسول فلا يصوم رمضان ولا يدخل الجامع الّا مرة في السنة وقد هدم عدة جوامع وامسى عثرة في سبيل الإسلام فاشتمّ الباب العالي من جهته ريح التطاول وبات على ترقُّب من خضوعه واشفق منه وثبة على العرش فاستفاق من غفلته وانتصب على قدم الحذر فأمسى الامير هدفاً للتهم . طمع وما درى انه وقع .

كانت الريح مواتية لسفينته والسُبل ممهّدة لاغراضه والبلاد مجموعة في قبضته واوربة تعاونه على امره والبابا وفرسان مالطة يفكرون في الدعوة الى حرب صليبية جديدة تقلب عرش تركيا وتردّ الاتراك الى منابتهم ، والدولة مغضية عنه ساعية الى مرضاته ونفسه تحدّثه بالارتقاء الى ذروة المجد والعلاء في سلالم القواضب والرماح ، فاذا بالسعد يأفل وبالاحوال تنقلب ، وبالاحلام اللذيذة تتكشف عن حقائق مروّعة .

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

تفشّى الطاعون في بلاد ايطاليا وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً فشغل كسموس دوق توسكانا عن فخر الدين ولبنانه بايجاد الوسائل لدرء الوباء عن بلاده فانقطع إمداده عن لبنان ، واستقدم منه الكافليار فراتزانو ومَن معه من عمّال ومهندسين .

واشتدت في اوربة وطأة « حرب الثلاثين عاماً » وهي سلسلة منازعات وحروب دينية سياسية شغلت اوربة من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ . عصفت فيها ريح التباغض بين الكاثوليك والبروتستانت فريعت البابوية لتفاقم الخطب ولم يعد باستطاعة البابا ان يمدّ فخر الدين بمساعدة ولا ان يدعو اوربة لحرب صليبية جديدة واوربة يومئذ غارقة في بحار فتنتها وحروبها الرائعة .

(عن كتاب « في سبيل لبنان »)

ورأت الدولة اوربة رازحة تحت اثقال تلك الحوادث فانتهزت الفرصة للقضاء على مطامع فخر الدين ، فكان هنا موضع قول الشاعر : مصائب قوم عند قوم فوائد .

قال صاحب كتاب « في سبيل لبنان » : « ففي سنة ١٦٣٢ أصدر السلطان مراد أمره الى الصدر الاعظم خليل باشا فعُبئت الجيوش وزحفت على لبنان بأمرة أحمد باشا الحافظ كجك فوصلت الى الجبل يوم كانت انقطعت عن فخر الدين مساعدة حلفائه الاوروبيين مما حسّن في مركز الحافظ الحربي فانتشب القتال بين الفريقين وظلّ مدة سجالاً بينهما تارة يبسم النصر للبنانيين

وطورًا يعبس في وجوههم حتى أصيبوا بفقد قائدهم الامير علي ابن الامير فخر الدين وهو من أمهر قوّاد زمانه ، فكان فقده فاتحة شؤم ووبال على ترمه ففارق السعد ألوية اللبنانيين وما لبث ان استظهر الحافظ كجك عليهم والتوى الامر على فخر الدين . وكان للامير في انقلاب الدهر عليه اسوة بمن سبقه ومن لحقه من قوّاد عظام وملوك كبار خانهم القدر في بلوغ ما رموا اليه من الغايات الوطنية ».

جاهد اللبنانيون حول اميرهم جهاد الابطال واستماتوا في الدفاع عن وطنهم ونفوسهم فلم يُجدهم ذلك الا الزيادة في تسخط اعدائهم واستفزاز ضراوتهم واستشرائهم . وكان هؤلاء اكثر منهم عددًا واتمّ عدّة فتغلبوا عليهم ، والكثرة تغلب الشجاعة . ورزء فخر الدين بابنه عليّ قصم ظهره وضعضع رشده وزاد في الطين بلّة ما اصابه من خسارة فتوحاته التي خرجت عليه وانضمام الذين كان قد قهرهم الى صفوف أعدائه . غير انه لرحابة صدره وفساحة صبره وكبر نفسه وعلو همته آثر الموت في ساحة الشرف على التسليم الى تركيا قاتلة جدّه وابيه وصارعة فلذة كبده ابنه عليّ . فصمد للاعداء يناجزهم القتال كرًّا وفرًّا الى ان خانته القوّة وتفرقت عنه الرجال فناله العجز عن النزال ، ولم يبق له ملجأ غير الحصون . فأرسل حسينًا اصغر اولاده مع مدبّره الشيخ نوفل الخازني الى قلعة المرقب . فلما اشتد عليهم خناق الضيق سلّموا مضطرين ولم يُقتل احد منهم ، وفرّ فخر الدين الى قلعة شقيف تيرون (قلعة نيحا) فدخلها مع اولاده منصور وحيدر وبُلك ومدبره الشيخ أبي نادر ونفر من رجال حربه وذويه . فشدّد العدوّ الحصار عليهم ، وضربوا القلعة بالقنابل المهدّمة . واهتدوا الى قناة الماء المجرورة الى بئر في القلعة تحت التراب فقيل انهم القوا فيها سمًّا وقيل القوا في القناة دم حيوانات ذبحوها ففسدت ماء البئر ولم تعد صالحة للشرب . فانسلّ الامير ومن معه ليلاً الى مغارة جزين وهي في صخرة ممتدة من شلال جزين الى نهر عزّيبة على طول نحو ٣٠٠ متر من الجنوب الى الشمال وليس لها الا مدخل وحيد مربع الشكل بقياس متر مربّع ومن تحته منحدر الى الوادي تخاف العين ان تتأمله لملاسته الزلّاقة وعظم ارتفاعه العمودي . فلا يقدر احد على الوصول الى مدخل المغارة من علٍ ولا على الصعود اليه من اسفل الّا بسلّم متنقلة ،

ورجل واحد كفوء لحماية هذه القلعة الطبيعية فتمتنع على جيش لجب . اقام فخر الدين ومن معه في هذا الحصن المنيع الذي يكاد يمتنع عن عقاب الجوّ، وقنابل المدافع تزلق عن صدره الصلب الاصمّ ولا تحدث فيه اثرًا ، مكثوا فيه مختبئين طائفة من الزمن آمنين يجيئهم بالطعام رجل من مزاري الامير من عائلة مطر في قرية وادي جزين وليس للنهر الفاصل بين المغارة والقرية جسر فكان الرجل يعبره غائصاً في الماء مستترًا بثوب الظلام خوفاً من طلّاب نفس الامير فقدّر الامير خدمته الشاقة ووهبه القرية ثواباً، وفي قرية مشموشة تقليدٌ آخر يذهب الى ان رجلا من اهلها كان يحمل الميرة الى الامير وصحبه في عتمة الليل فدُعي عتمة واطلق هذا الاسم على ذريته الى اليوم ، ثم ان المحاصَرين أُلجئوا للتسليم قيل لنفاد الميرة وقيل ان جنود الدولة احتفروا تحت الصخرة وعالجوها بالنقر من تحت المغارة حتى نفذوا اليهم فضرب الامير جبهته بيده ، وصاح : لقد خانت الحيلة ، فلا وزر مما قضى الله واقياً . ورمى بسلاحه الى الجند فاقتادوه والذين معه الى الحافظ كجك فاطلق سراح الشيخ اب نادر وابنه الشيخ نوفل وارسل فخر الدين واولاده الى الاستانة فأُشربوا سمًّا وماتوا سنة ١٦٣٥ ، ولفظ فخر الدين النفس الاخير وهو يقبّل ذخيرة عود الصليب ، وقال لهيفاء لا تجزعي ولا تبكي فانّا منتقلون من الشقاء والفناء الى السعادة والبقاء ، فاطبقت اجفانه وغسلته بالدموع وجاهرت بالايمان المسيحي وما لبثت ان شربت مثل الكاس التي شرب ممتلئة النفس عزاء بين غمرات الموت القاسية وهي تدعو باسم يسوع المخلص وامّه العذراء معزّية الحزان ، وتتوجا الحياة الخالدة مع حبيبها فخر الدين في علّيين . وكانت سنو حياة هذا الامير العظيم اثنتين وخمسين سنة ».

ولم يبقَ من ذرّية فخرالدين الا ابنه الاصغر حسين رؤف السلطان لحداثته فعفا عنه ، وعاد الى الاسلام دين اجداده واستوطن الاستانة ونال حظوة لدى الباب العالي فقُلّد مناصب الدولة وظفر بمنزلة عالية،وفي سنة ١٦٥١ ارسلته الدولة بمهمة الى الهند فعرّج على دير القمر زائرًا الامير ملحم ابن عمه الامير يونس خليفة فخر الدين في الحكم . فرحّب به الامير ملحم ودعاه للاقامة في لبنان ويتخلّى له عن الامارة فأثنى على مروءته واعتذر اليه ومكث في

ضيافته عشرين يوماً تعاقبت فيها على نفسه تذكارات حداثته في ذلك البلد المحبوب، وعاين ما هنالك من آثار والده ومفاخره الباقية على الدهر،فكان تارة يفرح حتى تأخذه هزّة الطرب وتارة يحزن حتى لا يملك حبس الدموع . ثم انجز طريقه الى الهند وقضى المهمّة المسندة اليه وعاد الى الاستانة واقام فيها الى يوم وفاته.

اما الامير ملحم ابن الامير يونس أخ فخرالدين فتولى الامارة من عام ١٦٣٥ الى ١٦٥٨ وقاتل ولاة سوريا في وقائع كثيرة فردَّهم مدحورين واخص مواقعه موقعة وادي القرن استبسل فيها اللبنانيون وراحوا يضربون في اقفية اعدائهم الى ابواب دمشق. ولمّا توفي الامير ملحم خلفه ابنه الامير أحمد من عام ١٦٥٨ الى عام ١٦٩٧ وتوفي بلا عقب فانقرضت به سلالة المعنيين[1]

اجتمع اعيان اللبنانيين وتفاوضوا في مَن يولونه الحكم بعد الامراء من آل معن فقرَّ رأيهم على الامير حيدر الشهابي الذي وُلد للامير حسين الشهابي من زوجته بنت الامير ملحم المعني سنة١٦٩٧ فانتقلت الامارة الى الامراء الشهابيين من ذلك العهد وولي الوصاية على الامير حيدر الامير بشير الشهابي الاول.

---

١) قال الموسيو ييجه دي سان بيير مؤلف تاريخ الدروز سنة ١٧٦٢ : انَّ نفرًا من الامراء العرب ولا سيما آل فروخ وطربيه وسيفا قدموا الشكايات للباب العالي مثل غيرهم من اعداء الامير مدّعين عليه انه لم يكترث لشريعة النبي محمد وانه هدم الجوامع ولم يدخلها إلَّا مرةً في السنة ولم يَصُمْ رمضان فغضب السلطان وأصدر أمرهُ الى كوجك احمد باشا والي الشام بمحاربته مع حكام الولايات المجاورة والامراء المعادين للمعنيّ . فجنّد المعنيُّ ٢٥ الف رجل وجعل قيادتها بين ولدهِ الامير عليّ واخيهِ الامير يونس وقاد هو بنفسهِ بقية الجيش فقُتل الاميران وفُشل فخر الدين . ثم جاء قبطان باشا باسطولهِ وانتهى الامر بانقلاب المعنيّ . فوضع ثلاثة شروط لتسليمهِ . ١ً ان يُمنح الحرية ليذهب الى السلطان والابواق عازفة قدامه والاعلام مرتفعة امام حرسهِ المؤلف من ٣٠٠٠ رجل. ٢ً ان يُسمَح لهُ بحمل مليون من النقود الذهبية ، وان يحمل بعض ارزاقه على اربعة عشر جملًا . ٣ً ان لا يسير ابدًا منقادًا كالعبد المدحور امام انتصار الظافر وان يكون امام السلطان مكرَّمًا كالباشاوات . فقُبلَت شروطهُ. ولاقاهُ السلطان بموكبه الى الباب . والقى السلطان عليهِ أسئلة فأجاب وهو لا يدري انه السلطان بل ظنّ انهُ احد ضباط المحكمة. وكان السلطان يتوق الى رؤية المعنيّ لما سمعهُ عنهُ من الابهة والدهاء، فوضع له كرسيًّا بجانب عرشهِ واجلسهُ، وكان المعنيُّ قد ارسل اليهِ ثماني اوانٍ مملوءة ذهبًا. ولم يطُل المقام بالمعنيّ حتى سعى بهِ اعداؤهُ وافتى المفتي بقتله مع بعض اولادهِ وحملوا رأسهُ على حربةٍ وطافوا به في شوارع القسطنطينية وتحت رأسهِ الكتابة الآتية: هنا رأس الامير فخر الدين العدوّ الثائر. (عن مجلّة الآثار)

ذيل

كان للامير ملحم ابن الامير يونس المعني ولدان قرقماس وأحمد وكانت الدولة قد اقرّته على بلاده الشوف وتوابعه وارسل ثلاثين الف قرش الى مراد باشا الصدر الاعظم فقلّده سنجقية صفد ايضاً. وبينا هو متوجه اليها ليجمع المال الاميري نزل به داء عضال وهو في عكا. فجيء به الى صيدا. ومات فيها فحزن عليه الشوفيون حزناً عظيماً لما كان متحلياً به من خلال العدل والحلم والكرم والمقدرة السياسية واقيمت له مناحة مدة اربعين يوماً ، وصار الحكم من بعده الى ولديه قرقماس وأحمد ، ولم يطل بهما العهد حتى وقع خلاف بينهما وبين ابن الكبرا حاكم طرابلس لامتناعهما عن ان يسلّما اليه بعض الشهابيين والحماديين محتجين بانهم لم يدخلوا بلادهما. فجهّز حملة عليهما وانضمّ اليه الباشا حاكم غزّة برجاله وابن علَم الدين وبنو طربيه برجالهم . فهربا الى بلاد جبيل واختبأا . وكان علي باشا الدفتردار حاكماً في مدينة صيدا من قِبل ابن الكبرا وهو عدوٌ لهما . فلمّا عُزل وتولى مكانه محمد باشا كتب هذا لهما انه يؤمّنهما وطلب ان يوجّها اليه كاخيتهما ليردّهما الى بلادهما . فارسلا اليه الكاخية فطأنه وقال له : استدعِ الاميرَين ليواجها كاخيتي في عين مزبود. فأتيا ولما شربا القهوة أمر الكاخية السكبان فضربوهما فقتلوا الامير قرقماس وجرحوا الامير أحمد بضربة سيف جرحاً بليغاً في عنقه وردَّ عنه اتباعه فلاذ بالهرب ولم يمتْ وعاد الى حكم الشوف، وكان له ولد يدعى الامير ملحم توفي ولم يُرزق سواه . ثم أُسندت ولاية صيدا الى احمد باشا التفتجي فزحف بعسكره على الشوف ففرَّ الى وادي التيم فتولى حكم بلاده الامراء آل علَم الدين اليمنيّون.

ولما عُزل احمد باشا التفتجي عاد الامير احمد الى بلاد الشوف وكان حكمه يتناول سبع مقاطعات : الشوف والجرد والمتن والغرب واقليم جزين واقليم كسروان . ثم وشى به الى الدولة أرسلان باشا والي طرابلس فأمر الصدر الاعظم بنزع هذه المقاطعات من يده وإلقائها الى الامير موسى اليمني ابن علَم الدين ، وخانه انصاره من النكديين والعيديين واليزبكيين، فهرب الى وادي التيم واختبأ . فجاء الامير موسى علم الدين الى دير القمر ونزل في دار الامير

أحمد المعنيّ وتملّك المقاطعات السبع الى ان توفي السلطان أحمد وخلفه على أريكة السلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد ، فالتمس مصطفى باشا والي صيدا من الباب العالي اعادة الحكم الى الامير أحمد المعني. فصدر عفو عنه وعاد الى دير القمر قاعدة الحكم واستقرّ له الامر الى ان حضرته الوفاة في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧ ولم يخلّف عقباً ذكرًا فانقرضت سلالة المعنيين الذكور وانتقلت الامارة الى الامير حيدر الشهابي القاصر ، وكان وصيّه الامير بشير الاول الشهابي الى ان بلغ أشدّه فتولى الحكم بنفسه. وكان هذا بدء امارة الشهابيين في لبنان موروثة عن المعنيين .

بيان عن « كتاب الكهنوت »

للخوراسقف ميخايل الرجي
حافظ الخزانة والمكتبة البطريركية

تمهيد : اهدى الينا حضرة صديقنا المفضال الخوراسقف بطرس حبيقه ، صاحب التآليف والنشرات المديدة القيّمة في الحقلين الديني والمدني، كتيباً في العربية وفي الافرنسية (١٣+١٥ صفحة بقطع ٢٠/١٦)، عنوانه : « بحث قاطع ودرس جامع » وموضوعه صحة نسبة « كتاب الكهنوت» الى مار يوحنا مارون ، وليس الى موسى بر كيفا.

وهذا الكتيّب من وضع المرحوم شقيقه الاباتي يوسف حبيقه، وكان رحمه الله قد طرق هذا الموضوع مرة اولى سنة ١٩١٢ ، ومرة ثانية سنة ١٩٢٢ . وقبيل وفاته سنة ١٩٤٦ ، اعاد النظر فيه . فشاء حضرة شقيقه الجليل ان ينشره مجدّداً بالطبع . فاستحقّ الشكر المضاعف : لامانته على إحياء ذكرى شقيقه بنشر مآثره، ولاهتمامه المتواصل ، بالرغم عن شيخوخته الوقورة ، بالدرس والنشر .

وبهذه المناسبة ، بدا لنا تعريف « كتاب الكهنوت » ببيان وضمناه عن نسخه المعروفة ، وعن النصوص المشتملة عليها النسخ ، وعن مؤلف النصوص .

١ً – نسخ « كتاب الكهنوت »

نعرف اثنتي عشرة نسخة من « كتاب الكهنوت » :

النسخة الاولى (= ا) في المصحف الواتيكاني السرياني رقم ١٠٠، وكان في بغداد في اوائل القرن العاشر ، فاشتراه فيها رئيس دير السيدة والدة الله ، المعروف بدير السريان ، في برّيه الاسقيط بمصر ، وضمّه الى مكتبة ديره سنة ١٢٤٣ لليونان (٩٣٢م) ، بعد مشتراه بست سنوات (٩٢٦م) . وكان من كتب المعلم ابرهيم الحاقلاني في رومية (✝ ١٦٦٤) ورقمه بينها ١٦. وقد سقط تاريخ نسخه بسقوط اوراقه الاخيرة. على ان العارفين يقدرون انه كُتب في اواخر القرن التاسع او اوائل العاشر .

(السمعاني: المكتبة الشرقية: مجلد٢: ص١٢١–٢ ؛ وفهرست المكتبة الواتيكانية : مجلد ٣ : ص٥٢٠ و٥٤٢ – ٥).

النسخة الثانية (=ب) هي المصحف الواتيكاني السرياني رقم ٣٦٣ ، المنسوخ عن المصحف السابق ، بخط كلداني حديث .

(ماي: المجموعة الجديدة للكتبة القدماء : مجلد ٥: جزء٢: ص٤٠).

النسخة الثالثة (= ج) في المصحف البودلياني السرياني ، رقم ١٥٢، وقد خُطَّ في رومية سنة ١٦٥٤م « عن نسخة اقدم عهدًا » .

(پاين سميث : فهرست المخطوطات السريانية في المكتبة البودليانية في أكسفورد : عمود ٤٨٦ و٤٩٣) .

النسخة الرابعة (= د) في المصحف الموصلي السرياني ، المحفوظ في خزانة المطرانية السريانية الارثوذكسية في الموصل ؛ وهو من اوائل القرن الثاني عشر .

(البطريرك برصوم : اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية : ص٣٤٢) .

النسخة الخامسة (= هـ) في المصحف المينچاني السرياني ، رقم ٥٦ ، وقد خُطَّ في الموصل سنة ١٩٠٢ م ، عن نسخة اقدم منه بسبعمائة سنة تقريباً ، تخص كنيسة مار توما في الموصل .

(مينچانا : فهرست المخطوطات السريانية في مكتبة برمنجهام : مجلد ١ : عمود ١٥٣—٥) .

النسخة السادسة (= و) في المصحف الحمصي السرياني ، المحفوظ في خزانة البطريركية السريانية الارثوذكسية في حمص .

(البطريرك برصوم : ثم) .

النسخة السابعة (= ز) في المصحف الشرفي السرياني رقم ١/٤ ، المحفوظ في خزانة دير الشرفة ، لبنان ، وقد خُطَّ في سحرايا قرب برطُلّى في بلاد نينوى سنة ١٥٣٥ لليونان (١٢٢٤م) ، وفي « السنة ٦٢٠ للهجرة » .

(الخورفسقفوس ارملة : الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : ص٧٣) .

ولما كان هذا التاريخ مكتوباً بالاحرف السريانية الاسطرنجيلية (ܐܠܦܗ)، قرأ بعضهم غلطاً النون عيناً ، والحرفان متقاربان شكلًا ، فأصبح التاريخ في زعمه ١٧٣٥ لليونان اي ١٤٢٤م .

(الاباتي يوسف حبيقه : البحث القاطع . . . ص٧) .

النسخة الثامنة (= ح) في المصحف المدياتي السرياني ، عرّفه الاب شيخو قائلًا إنه « نسخة قديمة في كنيسة اليعاقبة في مديات » .

(شيخو المشرق سنة ١٩٢٠ : ص ١٠٢٧) .

النسخة التاسعة (= ط) في المصحف القسطنطيني السرياني، المخطوط سنة ١٥٧٤م .

(البطريرك برصوم : كمّ : ص٢٥٥) .

النسخة العاشرة (= ي) في المصحف الواتيكاني السرياني رقم ١٠١، خطّه المعلم ابرهيم الحاقلاني بيده في رومية حيث تُوفي سنة ١٦٦٤م . وكان بين كتبه يحمل الرقم ٦٤

(السمعاني : المكتبة الشرقية : مجلد ١ : ص ٥٢٠ وفهرست المكتبة الواتيكانية مجلد ٢ : ص ٥٤٥ - ٥١)

النسختان الحادية عشرة (= ك) والثانية عشرة (= ل) وهما اللتان اخذ عنهما الاباتي يوسف حبيقه نصّ كتاب الكهنوت وترجمهُ الى العربية وطبع الاصل والترجمة سنة ١٩١٢ . فاحداهما ، على قوله ، « لا يتجاوز قدمها الستين سنة ، اما الثانية فهي حديثة العهد » . ولم يذكر موضع حفظها .

(الاب يوسف حبيقه : كتاب الكهنوت : ص ز - ح من المقدمة) .

٢ - نصوص « كتاب الكهنوت » .

انّ ما نعرفه عن هذه النسخ الاثنتي عشرة ليس مستوفىً لانه ليس مأخوذًا عن النسخ نفسها ، ما عدا نسخة دير الشرفة ، بل هو مستندٌ فقط مما ذكره المؤلفون . لكنه كافٍ ، على ما سترى ، لتقرير ما يأتي بشأن نصوص الكتاب .

لا شكّ في ان النسخة « ا » الواتيكانية هي الاكثر اهمية ، لانها اقدم النسخ عهدًا . وقد أبان العلامة السمعاني عن محتواها مفصّلًا . فاذا المقالات في الكهنوت اربع : فصول الاولى ٨ ، والثانية ١٨ ، والثالثة ٢ ، والرابعة ١٠ ؛ على ان هذه الاخيرة مخرومة الاخر ، فلا يُعلم ما كان بعد الفصل العاشر منها . فيكون مجموع فصولها ٣٨ .

وقبل المقالات في الكهنوت ، يرد في النسخة مقالتان : الواحدة في المراتب السماوية ، عدد فصولها ١٦ ، والاخرى في المراتب البيعية ، عدد فصولها ٦ . وقبل هاتين المقالتين ، اي في بدء الكتاب ، اربع مقالات في القيامة ، عدد فصولها (١١ و١٥ و٨ و٢٤ = ٥٨) .

(السمعاني : فهرست المكتبة الواتيكانية : مجلد ٢ : ص ٥٣٠ - ٤٥) .

النسخة « ب » الواتيكانية ، كما ذكر العلامة ماي ، « منقولة عن المصحف الواتيكاني رقم ١٠٠ القديم جدًا ، المخطوط قبل السنة ١٢٤٣ لليونان (٩٣١م (كذا)) » . . . ماي : ثم) . وبهذا دليل كاف على ان محتوياتها واحدة .

النسخة « ج » البودليانية، قابلنا ما ذكر عنها في فهرست مخطوطات اكسفورد، فاذا هو مطابق كل المطابقة ما نعرفه عن النسخة « ا » . فقد حوت مثلها اربع مقالات في الكهنوت عناوينها وعناوين فصول كل منها وعدد هذه الفصول هي هي في النسختين . على ان المقالة الرابعة فيها تنتهي بفصل حادي عشر ، لم يبقَ منه سوى شيء من عنوانه هو رقمه وكلمة « ܘܡܚܘܐ = الذي يُبين » .

وقبل هـذه المقالات الاربع في الكهنوت ، مقالة في المراتب السماوية واخرى في المراتب البيعية ، عدد فصول كل منها وعناوينها كما في النسخة « ا » . اما المقالات الاربع في قيامة الموتى فغير واردة فيها (باين سميث : ثم) .

واذ ليس في رومية، حيث خُطّت هذه النسخة «عن مصحف اقدم عهدًا»، سوى النسخة « ا » الواتيكانية ، فلا ريب ان هذه مصدر تلك .

النسخة « د » الموصلية تحوي ، على ما ذكر غبطة البطريرك برصوم ، « كتاب اللاهوت في الرتبة السموية والرتبة الكنسية ؛ والكهنوت (ثلاث مقالات) والكاهن (مقالتان) ؛ والقيامة ، والعقيدة المسيحية ، وتقدمة الاسرار الالهية ؛ وفي الابالسة . . . » (البطريرك برصوم : ثم : ص٣٤٢) .

لكن المؤلف نفسه يؤكد في محلّ آخر ان « كتاب الكهنوت » هـذا عينه هو « اربع مقالات وردت في كتاب اللاهوت » . (ثم : ص ٣٥٥) . فاذا صحّ هذا ، وهو الصحيح على ما نرجح ، يكون « كتاب اللاهوت » في هذه النسخة قائمًا بمقالات اربع ، مثله في النسخة « ا » .

وما يؤسف له ان هذه النسخة الموصلية الهامة ، قد جاء وصفها موجزًا مجملًا : « كسر الكتاب على اثنتي عشرة مقالة ومئة وتسعة واربعين فصلًا» . (البطريرك برصوم : ثم : ص ٣٤٣) . فلا يمكننا والحالة هـذه معرفة عدد فصول « كتاب الكهنوت » فيها الا بالاجمال ولا بالافراد ، ولا بالتالي مقابلتها من هذا الباب بالنسخة « ا » .

وعلى كل حال لا نستبعد ، بل نرجح كثيرًا ، ان تكون النسخة الموصلية

هذه والنسخة « ١ » واحداً ، او متماثلتين كثيراً ، كما سيبان من درس النسخة المينجانية الآتي ذكرها المنسوخة عنا .

النسخة « ه » المينچانية ، بيان بجلاء انها أُخذت عن السابقة ، لانها خُطّت في الموصل عن اصل يرتقي عهده الى ما قبل سبعمائة سنة . وهذا ينطبق على ما قلناه عن النسخة السابقة .

ثم انها ، كالنسخة السابقة تماماً ، تحتوي على مقـالة في المراتب السماوية فصولها ١٦،واخرى في المراتب البيعية فصولها ٦. وتليها مقالات فيالكهنوت، فصول الاولى ٨ ، والثانية ١٨ ، والثالثة ٢ ، والرابعة ١٣ . وبعدئذٍ اربع مقالات في قيامة الموتى ، عدد فصولها (١١،١٥،٨،٢٣ =) ٥٧.واخيراً مقالات في القداس والرتب (مينچانا : ثمّ) .

فاذا استثنينا المقالة في الابالسة ، كانت النسختان ذات محتويات واحدة بعينها ، وسياقٍ وترتيب واحد ؛ وكانت بالتالي كلتاهما والنسخة « ا » ذات نص واحد على الارجح في الاجزاء المشتركة بينها ، مع هذا الفرق ان النسختين « د » و« ه » يزيد فيهما فصلان او ثلاثة في المقالة الرابعة في الكهنوت وينقص فيهما فصل واحد في المقالة الرابعة في القيامة .

النسخة «و» الحمصية ، خاصة غبطة البطريرك برصوم ، قد لا نُخطئ اذا قدرنا ان غبطته نقلها عن النسخة « د » الموصلية التي يصفها في كتابه « اللؤلؤ المنثور » . ولو كانت الواحدة مختلفة عن الاخرى ، لكان غبطته قد اشار بدون شك الى ذلك ، اقلّه بكلمة (ثمّ : ص٣٤٢).

اما النسخة «ز» الشرفية ، التي درسناها بذاتنا ، فمن محتوياتها العديدة القيّمة كتاب في الكهنوت، مقالاته ستٌ ، ختمت الاخيرة منها بهذه العبارة: « ܫܠܡܘ ܡܐܡܪ̈ܐ ܕܟܘܡܪܘܬܐ ܕܐܝܬܝܗܘܢ ܫܬܐ ܒܥܘܕܪܢ ܐܠܗܐ ܡܪܐ ܕܟܠ : تمّت مقالات الكهنوت ، وهي ستٌ ، بمعونة الله ربّ الكل » . فالمقالات الاربع الاولى هي هي بعدد فصولها وعناوين الفصول كما في النسخة «ا» . غير ان فصول المقالة الثانية ، وهي في كلتيهما ١٨ ، شطر الفصل الاول منها فتألّف منه الفصلان ١ و٢ . وضُمّ الفصلان الاخيران ١٧ و١٨ فألّفا الفصل ١٨ . وزيدت المقالة الرابعة ثلاثة فصول بعد الفصل الرابع.

وقد يكون في عناوين هذه الفصول المزيدة دليل على انها في الاصل اجزاء من الفصل الرابع او متممة له . ودونك هذه العناوين : الفصل ٤ : في شرح كلام بولس الرسول الى تيموثاوس وطيطوس، واولًا في اسم الاسقف والكاهن. [الفصل ٥ : في اسم البطريرك والجاثليق والمطربوليت والاسقف ؛ الفصل ٦ : في الفرق بين البطريرك والجاثليق والمطربوليت والاسقف ؛ الفصل ٧ : في شرح كلام بولس الرسول].

اما المقالتان الزائدتان فكلتاهما ذات خمسة فصول ، وثانيتهما اي السادسة متخذة بكاملها من المقالة في المراتب البيعة الواردة في النسختين «ا» و«د»، قبل المقالات في الكهنوت .

وعليه يتضح ان هذه النسخة «ز» والنسختين القديمتين «ا» و«د» ، وما يتفرع عنها، ذات نص واحد في المقالات الاربع في الكهنوت والمقالة السادسة في المراتب البيعة ، مع هذا الفرق ان المقالة السادسة هذه ترد في تلك النسخ قبل مقالات الكهنوت ، مستقلةً عنها ؛ وفي النسخة «ز» بعدها ، كجزء منها، مقرونةً بمقالة اخرى.

النسخة «ح» المديانية ، لا نعرف شيئاً عن اقسام كتاب الكهنوت فيها. ولما كان مؤلفها ومؤلف النسخة السابقة واحدًا بعينه (شيخو : المشرق سنة ١٩٣٠، ص ١٠٣٧) ، فلا يبعد ان يكون موضوعها واقسامها واحدًا كذلك .

النسخة «ط» القسطنطينية ، جاء عنها في « اللؤلؤ المنثور » انها تقوم « بست مقالات في الكهنوت السموي والارضي » . فالمقالات الاربع الاولى هي هي بعدد فصولها وموضوعها كما في النسخة «ز» . وكذلك المقالتان الخامسة والسادسة ، كما اتضح لنا من مقابلة موضوعها بمثله في هذه النسخة « ز » (البطريرك برصوم : ثمّ : ص ٣٥٥) . فيقيننا انهما متماثلتان جدّ المماثلة ، اذا لم تكونا واحدًا .

ولذلك استغربنا ما جاء عن هذه النسخة «ط» في « اللؤلؤ المنثور » من انها تخالف ما وضعناه تحت اسم النسخة «ا» « بعدد فصولها وصفحاتها... والارجح انهما كتابان مختلفان » (ثمّ : ص ٣٥٥) . وقد رأينا انهما تتفقان بالاحرى تماماً بعدد المقالات وعدد فصول كل مقالة .

النسخة « ي » الواتيكانية الحديثة تقوم بمقالة واحدة في الكهنوت ، فصولها ٤٠ ؛ وبمقالة اخرى في شرح الليتورجية ، فصولها ٥٠ (ماي. ثم).

وقد وصفها العلامة السمعاني بقوله : « ان ٣٢ فصلاً بكاملها من كتاب الداراوي في الكهنوت (= النسخة ا) ترد بالالفاظ عينها في المقالة التي نسبها . . . ابرهيم الحاقلاني الى يوحنا مارون » (= النسخة ي). (المكتبة الشرقية : مجلد ٢ : ص ١٢٢ - ٢) ؛ وكذلك : « لما كان القسم الاكبر . . . من المقالة في الكهنوت [لماز يوحنا مارون] . . . واردًا بالالفاظ عينها تقريباً في [كتاب] يوحنا اسقف دارا » (فهرست المكتبة الواتيكانية : مجلد ٢ : ص ٥٥١). وقد قابلنا فهرست فصول هاتين النسختين وعناوينها ، بعضها ببعض ، فوجدنا بالواقع ان معظم فصول النسخة «ي» هي هي بعناوينها في النسخة «ا» ، ولكن بتقديم وتأخير في نظامها .

بقيت النسختان «ك» و«ل» . فالمرحوم الاباتي يوسف حبيقـه ، ناشر نصّها ومعرّبه ، لا يذكر عنها سوى انها « لا تختلفان بشيء » . وكلتاهما باربعين فصلاً ، عناوينها هي نفسها في النسخة السابقة الحاقلانية . ولا شك في انها منقولتان عنها .

بيان من محتويات النسخ ان « لكتاب الكهنوت » اربعة نصوص :

الاول في النسخة «ا» والنسختين «ب» و«ج» المأخوذتين عنهـا . وهو النص الاكثر اهمية : لقدمه ، اذ انه يرتقي عهده الى اواخر القرن التاسع او اوائل العاشر ؛ ولمصدره ، اذ انه كُتب ، او اقلّه وُجد ، في بغداد سنة ١٢٦م؛ ولقربه من عهد مؤلفه الذي توفي سنة ٨٦٠ م ، (انظر ما سبق) .

والثاني في النسخة «د» والنسختين «هـ» و«و» المنقولتين عنها . وهو يلي النص الاول في الاهمية من حيث القدم ، اذ انه يعود الى القرن الثاني عشر او الثالث عشر ؛ ومن حيث المصدر وهو الموصل العريقة ، كبغداد ، في الديار السريانية . وكلا النصين واحد ، على ما يظهر ، او على الاقل يماثل احدهما الآخر .

والثالث في النسخة «ز» والنسختين «ح» و« ط » المشابهتين لها كل المشابهة . وهو قديم كالسابق ، خُطّ في بلاد نينوى شرقي الموصل في القرن الثالث عشر . ولا يبعد أن يكون هو والنصان السابقان واحد في مقالاته الاربع الاولى ،

وفي مقالته السادسة الزائدة فيه بالنسبة الى النصين المذكورين .

والرابع لا اثر له الا في النسخة « ي » والنسختين «ك» و«ل» المتخذتين منها . وهو حديث من القرن السابع عشر . وقد خُطَّ في رومية . ومعظمه واردٌ بالحرف في النصوص السابق ذكرها ، القديمة عهدًا والعريقة مصدرًا، وان يكن مختلف السياق والترتيب .

بيان كذلك ، مما ذكرنا تصريحًا او تلميحًا ، ان نصّ «كتاب الكهنوت» هو بالتالي وبالنتيجة واحد بعينه. فذلك لا ريب فيه بشأن النصين الاول والثاني. فالمقالات الاربع في الكهنوت هي هي فيهما . وهذه المقالات هي عينها كذلك في النصّ الثالث ؛ انما زيد هنا مقالتان ، احداهما واردة بصحبة النصين السابقين، ولكن مستقلة عنهما وقبلهما . اما النص الرابع فمنحول عن النص الاصلي بتغيير وتبديل ، وزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير . لكنه لا يبطل ان يكون منه في الاصل والاساس .

٣ – مؤلِّف «كتاب الكهنوت»

من الثابت الراهن ان « كتاب الكهنوت » ، على ما عرَّفناه وشرحناه ووصفناه ، هو ليوحنا اسقف دارا المتوفى سنة ٨٦٠ م ، ودارا قرية بين نصيبين وماردين .

ففي النص الاول ، قد ورد اسمه في راس كلٍّ من المقالات الاربع في الكهنوت ، بهذه العبارة : « ܡܐܡܪ̈ܐ ܕܥܠ ܟܗܢܘܬܐ ܕܥܒܝܕܢ ܠܗ ܠܗܘ ܕܟܐܢܐ ܡܪܝ ܝܘܚܢܢ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܕܪܐ = مقالات في الكهنوت للبارّ عينه مار يوحنا مطران دارا » . (فهرست المكتبة الواتيكانية : ثم : ص٥٤٢ و٥٤٣ اعلاها وادناها و ٥٤٤ ؛ فهرست المكتبة البودليانية : عمود ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٥ اعلاه وادناه) .

وعلى هذا النحو ورد اسمه في النص الثاني : « ܟܬܒܐ ܗܢܐ ܢܗܝܪܐ ܕܣܝܡ ܠܐܒܘܢ ܛܘܒܢܐ ܟܐܢܐ ܡܪܝ ܝܘܚܢܢ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܕܪܐ = هذا الكتاب النيّر من تأليف ابينا الطوباوي البارّ مار يوحنا مطران دارا » . (فهرست مكتبة برمنجهام : ثم : عمود ١٥٤) .

اما النص الثالث فينسب الى موسى بركيفا (= ابن الصخرة) ، اسقف

بارمّان او بيت رمّان ، شرقي شمالي الموصل ، المتوفى سنة ٩٠٣م. فقد صرحت بذلك النسخة « ح » : « ست مقالات في الكهنوت السموي والارضي لابن كيفا » (البطريرك برصوم : ثم : ص ٣٥٥) ؛ والنسخة « ط » (شيخو : المشرق سنة ١٩٢٠ : ص ١٠٢٧) . وخلت النسخة « ز » في المقالات الثلاث الاولى من اسم صاحبها ، في المتن ؛ انما زيدت هذه العبارة : « لموسى بر كيفا » ، بحبر وخطّ مختلفين ، على الهامش ، قبالة المقالة الاولى . واوردت المقالات الثلاث الاخرى اسم موسى بر كيفا في عنوان كل منها وفي ختام المقالة الخامسة كذلك.

ان هذا النص الثالث ، بالرغم من نسبته بنصفه الاخير الى موسى بر كيفا، إنْ هو في الحقيقة سوى النص السابق الذي ألّفه يوحنا مطران دارا . فهذا واضح فيما يلامس مقالاته الاربع الاولى في الكهنوت ، على ما ذكرنا . وهذا ما نقوله عن مقالته السادسة فانها واردة في نسخ النص السابق قبل المقالات الاربع في الكهنوت ، واسم يوحنا مطران دارا في عنوانها : ܡܐܡܪܐ ܕܬܪܝܢ ܕܡܪܝ ܝܘܚܢܢ ܡܪܢ ܐܦܝܣܩܘܦܐ ܡܝܛܪܘܦܘܠܝܛܐ ܕܕܪܐ ». المقالة الثانية للبارّ مار يوحنا مطران دارا ..» ؛ وموضوعها « شرح لكلام القديس مار ديونيسيوس [الاريوباجي] في مقالته عن رئاسة المراتب البيعية » (المكتبة الشرقية : ثم : ص ٥٤١ ؛ باين سميث : ثم : عمود ٩٠؛٤ ؛ مينجانا : ثم).

اما نسبته الى موسى بر كيفا، فاذا صحّت، فتكون فقط من باب التوسّع. فان هذا الاسقف يكون قد اخذ المقالات الاربع ليوحنا الداراوي واضاف اليها المقالة السادسة التي هي ليوحنا المذكور عينه ، والمقالة الخامسة التي نجهل مصدرها . فنُسِب الكتاب اليه في وضعه على هذا الشكل، وليس في تأليفه.

وقد يكون هذا ما حدا بناسخ مخطوط الشرفة (= النسخة ز) الى التردُّد في نسبته اليه . فاهمل اسمه بتاتاً في المقالات الثلاث الاولى .

بقي النص الرابع . فالنسخ التي تورده ، تنسبه الى مار يوحنا مارون . وقد كتبها اولاها المعلم ابرهيم الحاقلاني بخطّ يده، بدون اشارة الى مصدرها. وقال بهذه النسبة ، بدون ان يدلي بما يثبت قوله ، فلا يصحّ الركون اليه . وقد ذكرنا ، فيما سبقنا فقلناه ، ان معظم فصول هذه النسخة يرد في كتاب الداراوي . فهل يصح اللجوء، كما فعل بعض الكتبة، الى القول بانتحال المتأخر،

اي الداراوي ، كلام المتقدم ، اي مار يوحنا مارون .

ان في هذا القول بعض التباس بل بعض تضليل . لان العبرة في التقدم والتأخر ، في باب الانتحال ، لا تكون من حيث الاشخاص — وخصوصاً متى كانوا في عصر ندرت المستندات التاريخية العائدة اليه واليهم فيه — وانما هي من حيث النسخ المحتوية على الكتاب المبحوث عن انتحاله ، او من حيث ورود ذكره عند الكتبة المحققين .

والحال ان من « كتاب الكهنوت » ليوحنا الداراوي نسخة قديمة جداً كتبت في زمن غير بعيد عن تاريخ وفاته. اما الكتاب المنسوب الى مار يوحنا مارون فلا نسخة قديمة منه معروفة ، وقبل اواسط القرن السابع عشر لا اثر لنسخ منه ولا لذكر له في الكتب والمؤلفات . فلا يمكن القول بان الكتاب الاول القديم منحول عن الثاني الحديث . وتُعكس الآية فيما لو تسنّى العثور على نسخة من الكتاب الثاني يرتقي عهدها الى القرب من عهد مار يوحنا مارون ، او اقلّه الى ما قبل يوحنا الداراوي، او فيما لوجاء ذكر له في مخلّفات تلك العصور .

اما ان يوحنا مارون متقدم عصراً على يوحنا الداراوي فليس ببرهان على ان له كتاباً في الكهنوت نحله الداراوي . مثال ذلك ان يعنّ لاحد المعاصرين وضع نسخة بتصرف قليل او كثير ، عن كتاب « منارة الاقداس» للدويهي، ونسبتها الى احد البطاركة اسلافه ، كيوحنا اللحفدي ، وبالتالي اتهام الدويهي بانتحال اللحفدي ، بحجة ان هذا متقدم على ذاك ؛ فلا يأبه احد لمدّعاه ، بل يهزأ الجميع به . إلا ان يُبرز نسخة من كتاب اللحفدي المزعوم تعود اقلّه الى ما قبل زمن الدويهي .

لهذا السبب نرى علامتنا الكبير يوسف سمعان السمعاني ينفي نفياً باتاً ، في « المكتبة الشرقية » ، صحة نسبة كتاب الكهنوت الى مار يوحنا مارون ، ويؤكد وجوب نسبته الى يوحنا مطران دارا (مجلد ١ : ص٥٢٠ ؛ ومجلد ٢ : ص١٢٢–٣)

واذا كان في فهرست المكتبة الواتيكانية ، الذي وضعه بالاشتراك مع ابن اخته اسطفان عواد السمعاني ، يعبّر عن تردّد في نسبته الى يوحنا الداراوي استناداً الى نسخته القديمة، او الى يوحنا مارون بحجة انه اقدم عهداً من الداراوي

(مجلد ٢ : ص ٥٥١) ، فلا شك في ان هذه العبارة، التي تتنافى وما سبق فأكده في « المكتبة الشرقية » ، هي من عنديات ابن اخته المذكور .

وقد ضرب العلماء المدققون على غرار السمعاني فأكدوا بـدون تردد ان يوحنا مطران دارا هو مؤلف « كتاب الكهنوت » . ومنهم العلامة ورَيت في كتابه في آداب اللغة السريانية (ص ٢٠٤ — ٥) والعالم روبنس ديڤال في كتابه في الموضوع نفسه (ص ٣١٨ و ٣٩٠) ومن جاء بعدهما .

وقد قال حضرة الخورفسقفوس اسحق ارملة ، في كلامه عن نسخة دير الشرفة : « ان كتاب الكهنوت منسوب [فيهـا] سهوًا الى موسى بركيفا ، والصحيح انه تأليف يوحنا اسقف دارا في القرن التاسع ، على ما ذهب اغلب المحققين » (الطرفة : ص ٧٣ ؛ الحاشية) .

اما غبطة البطريرك برصوم ، الذي يرى خلاف ذلك ، اي ان كتابي الداراوي وبركيفا في الكهنوت هما « على الارجح كتابان مختلفان » (اللؤلؤ المنثور : ص ٣٥٥) ، فترجيحه يحتاج الى درس اوفى لنصّ الكتابين، او تقديم ادلة وبراهين انصع ، وبانتظار ذلك يفضل القول بان « كتاب الكهنوت » ، في اي النصوص أتانا ، هو في اساسه واصله ليوحنا اسقف دارا .

دراسة في تطوّر كلمة «مقامة»

إن كلمة «مقام» واردة في القرآن ، دون صيغة «مقامة» ، إمّا مصدرا بمعنى «القيام» وإمّا اسمَ مكان بمعنى «الموضع الذي يقام فيه». ثم اذا تصفحنا دواوين شعراء العرب القدماء لاحظنا أن لفظ «مقام» لا يعثر عليه إلا نادرا اما بمعنى «المجلس والنادي» وإمّا بمعنى «الموطن الذي يظهر فيه بطش الأبطال» ورأينا ايضا أن صيغة «مقامة» أقلّ استعمالًا من «مقام» وانها واردة بمعنى «القتال». أما لفظ «مقام» في لغة بعض المؤلفين كابن قتيبة فإنه مطلق على «موضع القيام» تارة وعلى «الموعظة» أو على «المجلس الذي يُستمع فيه الوعظ» تارة اخرى. فمن ثمّ انتهت تلك الكلمة الى معنى «موعظة اهل الكدية» حتى اتّخذها بديع الزمان الهمذاني لتسمية القصص المعروفة بالمقامات .

وثيقة حبيشية

نقد وتعليق

بقلم الخوري لويس الخازن

نشرت مجلة المشرق الغراء في عدد نيسان واذار من السنة الجارية رسالة وجهها حضرة الصديق الشيخ فؤاد حبيش الى حضرة الاب العالم اغناطيوس طنوس الخوري الذي عني بنشر مخطوطة الشماس انطونيوس ابي خطار المعروف بالعينطوريني وكان قد نشر قسماً من هذه المخطوطة العلامة المرحوم الاب لويس شيخو «اصل الامراء والمشائخ في لبنان لانطونيوس العينطوريني ٤: ٧٦٩ — ٨٣٠» وتوجد نسخة عن هذه المخطوطة عند الاديب الكبير صديقنا الاستاذ امين بك نخله .

ويرمي الشيخ فؤاد برسالته هذه الى امرين الاول التنويه بكرم محتد اسرته الحبيشية وبما قامت به من جليل الاعمال تجاه الطائفة والوطن . وهذا لا نجادله به وقد اشار هو نفسه الى ضعف مصدره حيث قال بأنه يستند فيما ورد على لسان المرحوم الاباتي برزدوس الغبيره الغزيري في معرض رثا خال الشيخ فؤاد نفسه ١٩٢٦ ويطلب من المسؤولين في الرهبنة الانطونية المارونية ان يفيدوه عن مصير اوراقه . فنحن نفيده ان القس برزدوس غبيره ترك الرهبنة بأمر الكرسي الرسولي قبل وفاته بعدة سنوات وسكن في بيت اهله في اسفل غزير وقيل لنا انه توفي هناك .

والثاني لينفي كلام العينطوريني حيث قال: « وصاروا الحبيشيون من عجاويز بيت الخازن » واليك نص كلام الشيخ فؤاد: « اما انا فيرجح لدي ان العكس هو اقرب الى المنطق والواقع التاريخي . واذا اهملنا كلام الاباتي برزدوس الغبيره ولم نشأ ان نأخذ به لتعذر الوقوف على المراجع التي استند اليها فما رأيك في وثيقة احفظ عنها صورة فوتوغرافية هذا نصها :

نص الوثيقة

جناب حضرة ولدنا الشيخ طربيه بدر حبيش حفظكم الله .

غب اهداء جنابكم البركة والسؤال عن غالي سلامتكم انشاء الله تكونوا جنابكم بكل صحة انتم ومن حوى داركم العامرة وبعده نعرض لجنابكم من مدة حضر الى عندنا ولدنا الشيخ طانوس ابو النصر الخازن من قرية عجلتون واخبرنا بأنه حضر الى عندكم في غزير وطلب أن يأخذ اختكم وجنابكم عارضتم بذلك .

واخبرنا ولدنا الخوري منذر كي يعرض لجنابكم ما به كفاية . وحتى الآن ما تكرمتم في الجواب للخوري المذكور والشيخ طانيوس راجعنا في خصوص ذلك . ونحن نعرف سطونكم الشهيرة لدى العموم انوكان في القديم لم يحق الى بيت الخازن يتروجوا من عايلتكم الحبيشية . ولكن صاروا من امثالكم . والشيخ طانيوس هو من الاغنياء الكبار . فنرجو الجواب طبق المرغوب . وربنا يحفظ لنا وجودكم .

تحرير في ١٠ شباط ١٦٤٩ م

الامضاء والختم	الامضاء والختم
الداعي لجنابكم	الداعي لجنابكم
المطران حنا	الحقير المطران انطون محاسب

ثم يتابع كلامه الشيخ فؤاد قائلاً : « فهل من شك بعد هذه الرسالة البليغة في ان الشماس انطونيوس ابي خطار الذي تنشر مخطوطته قد عكس الآية » ؟

ثم يختم كلامه الشيخ المذكور بملاحظة يظنها قيمة حيث يقول : « ويغلب على ظني ان الشيخ طانيوس الخازن لم يظفر بيد شقيقة الشيخ طربيه حبيش بالرغم من ثروته الكبيرة ووساطة اثنين من احبار الطائفة المارونية ».

فنحن رغم جهلنا الفائدة التاريخية او الادبية من هذه الملاحظة نقول للشيخ فؤاد ان ظنه قريب من الصواب لان صاحب تاريخ الاعيان قد ذكر في الصفحة ٧٩ ان طانيوس بن ابي النصر الخازن توفي بلا عقب ، اذا فان مسؤولية انقطاع ذرية ذلك الشيخ الخازني تقع على الحبيشيين ؟ ... ولكن فلنترك الهزل والتأزح ولنرجع الى الوثيقة الحبيشية التي يصفها الشيخ فؤاد بانها بليغة وفيها الكلام الفصل فنقول ان هذه الوثيقة لا قيمة تاريخية لها وبالتالي لا نعلم لأي شيء تصلح لاننا لم نر نوع ورقها ... واليك الاثبات :

١ – يتضح من التاريخ انه قبل تاريخ هذه الوثيقة الحبيشية بنحو عشرين

سنة كان احد الخوازنة متزوجاً من بيت حبيش فقد ذكر الدويهي في تاريخ ١٦٣٠ ما نصه : « وفي سنة ١٦٣٠ في الخامس من تشرين الثاني نهار الاحد حدثت زلزلة مريعة وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت البرج الاوسط من جوانبه الاربعة وخربت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب على البئر . وفيها خطفت الزوبعة نوفل ابن الشيخ نادر ابن الخازن ووالدته بنت الشيخ معتوق ابن حبيش مع ستة انفس آخرين » . الدويهي . تاريخ الطائفة المارونية بيروت ١٨٩٠ ص٢٠٢ . فاذاً التزاوج بين الحبيشيين والخازنيين كان سابق الوثيقة

٢ — ان الوثيقة موقعة من مطرانين احدهما المطران حنا مجهول النسب والهوية ، والثاني المطران انطون محاسب . ونعرف من التاريخ انه وجد من بيت محاسب مطرانان الاول المطران يوحنا محاسب رقاه الدويهي الى اسقفية عرقا ١٦٩٨ وتوفي ١٧١٢ (الدبس . الجامع المفصل ص١٣٩٦ وص٣٨٠) والثاني المطران انطون محاسب رقاه الى اسقفية عرقا ١٧٤٨ البطريرك سمعان عواد وكان يدبر مار شليط وابرشية جبيل والبترون والفتوح وتوفي في ١٣ ايلول ١٧٨٠ في الدير المذكور . (الدبس : ص٤٤٣) من الكتاب المذكور فاذن سنة ١٦٤٩ أي بتاريخ الوثيقة لم يكن موجوداً مطران من بيت محاسب بل كان رئيس دير مار شليط الخوري سركيس محاسب من ١٦٤٠ الى ١٦٨١ (الدبس : ص٣٩٠ — ٣٦٦) من الكتاب المذكور . فاذاً الوثيقة الحبيشية ينقضها التاريخ .

٣ — اذا صح ما ذكره المؤرخون عن وجود بيت حبيش على مسرح التاريخ اللبناني قبل بيت الخازن اي منذ ١٥١٥ وبيت الخازن ١٥٤٥ (الدويهي والشدياق والدبس) فان بيت الخازن تقدموا بيت حبيش بالوجاهة والتولية على غزير نفسها وحقاً فقد اجمع المؤرخون على هذا القول (راجع مثلاً تاريخ الاعيان ص٨٢ حيث يقول: سنة ١٦١٣ ارسل الامير يونس المعني الشيخ ابا نادر الخازن الى كسروان والياً عليها وجعلها مقاطعة له وأمره ان يسكن في غزير وبعد اشجار كسروان مع الشيخ ابي ضاهر حبيش . ومثل ذلك قال الدبس في كتابه المذكور ص٣٣١ : ثم بعد ذلك بزمن طويل اي ١٦٨٠ كتب الامير

احمد المغني صكاً للشيخ طربيه بن موسى حبيش وللشيخ ابي شديد سيف بن طلب حبيش يوليها عــلى غزير فكانت اقطاعاً لآل حبيش (الدبس الكتاب المذكور ص٣٤٠ عن تاريخ الاعيان ص٩٩). بيد انه قبل هذا التاريخ وبعده كانت كل بلاد كسروان وحدها من الجماني الى المعاملتين اقطاعاً لبيت الخازن.

اخيراً مما يجعل الوثيقة الحبيشية بعيدة عن التصديق هو ان بيت الخــازن كانوا بزمن تاريخ هذه الوثيقة في اوج عزهم كما يتضح من قول المؤرخين فقد ورد مثلاً في تاريخ الاعيان ص٨٦ ما نصه : « وفي اول تموز١٦٤٧ توفي الشيخ ابو نادر خازن بن ابراهيم بن سركيس الخازن وله ولد يسمى ابا نوفل نادراً وقد تولى في ايام الامير فخرالدين بلاد كسروان وجبيل والبترون وجبة بشري والمرقب » . ومثل ذلك ذكر الدويهي (في الكتاب المذكور ص٢١٨)وزاد قائلاً انه بعد وفاة الشيخ ابي نادر خلفه ولده الشيخ ابو نوفل نادر وزاد غيرة ومكارم على والده . ولست في صدد نشر تاريخ بيت الخازن لأزيد عمّا تقدم بل ذكرت بعض ما قاله المؤرخون للدلالة على ان من كانت هــذه شهرتهم وصفاتهم لا يعقل ان يقال عنهم سنة ١٦٤٩ انهم صاروا من مزاويج بيت حبيش. قد اوردنا ما اوردناه لا على سبيل التبجح والتفاضل لاننا ممن يقدرون آل حبيش حق قدرهم وتربطنــا مع اكثر افرادهم روابط الصداقة والنسابة ولكن احببنا ان نبين لجناب الصديق الشيخ فؤاد الذي نقدر نبوغه انه اذا جاز له التأزح والتداعب في الكلام لا يجوز له العبث بالتاريخ والسلام على كل امرئ عرف حده فوقف عنده .

الخوري اريس الخازن

اخبار العالم

اخبار دينية

ايران والفاتيكان : على اثر عزم الحكومة الايرانية في ٢١ اذار على اقامة علاقات دبلوماسية مع الكرسي الرسولي رفع الفاتيكان درجة مفوضية القصادة الرسولية الموجودة في ايران منذ سنة ١٨٧٤ . وسوف ينتج من هذا التدبير زيادة تمكّن العلاقات الودية بينها .

كان الشاه بمناسبة مروره في ايتاليا سنة ١٩٤٨ قد قام بزيارة خصوصية لقداسه البابا بيوس الثاني عشر في مصيف كاستل غوندولفو فمنحه الاب الاقدس وسام المسيح من اعلى درجة تُمنح لملك غير كاثوليكي .

النروج والحرية الدينية : طلبت حكومة اوسلو الى المجلس الوطني ان يُلغي من الدستور النروجي البند الذي يحرّم على الرهبانية اليسوعية الاعمال الرسولية في النروج لكونه مضادًا لحرية الضمير وقد رضي بهذا الطلب ستة من الاساقفة اللوثيريين والسابع وحده قاومه . عدد سكان النروج ثلاثة ملايين وتسعون الفًا منهم اربعة آلاف ومئتان وسبعة وخمسون كاثوليكيًا لا غير .

سويسرا والحرية الدينية : قامت مقاطعة زوريخ تطالب بابعاد الرهبانية اليسوعية ومنعها من اعمالها الرسولية في سويسرا وفقًا للدستور السويسري . ما يكون يا ترى ازاء هذا التعصب الذميم موقف لجنة حقوق الانسان التي تدّعي بحماية حرية الضمير ضد كل تعنّت ديني : فهل تتجاهله ام تقوم لمعارضته .

لليسوعيين في مقاطعة زوريخ ديران وبيت للدارسين ومجلة . وعددهم فيها عشرون راهبًا .

الكنيسة الكاثوليكية في اوستراليا : في القدم كان دخول اوستراليا محرّمًا على الكنيسة الكاثوليكية . ثم شيئًا فشيئًا أغضت الحكومة عن ذلك وتركت للكثلكة شيئًا من الحرية في اعمالها الروحية والانسانية . ومنذ مئة وخمسين سنة منحتها حرية تامة فنمت وازدهرت . وقد احتفل الاوستراليون الكاثوليك هذه السنة من ١٢ الى ١٩ نيسان بالذكرى المئة والخمسين للقرار الحكومي بمنح الكنيسة الكاثوليكية في استراليا جميع الحقوق الشرعية وحرية العمل التامة .

الفاتيكان واسبانيا : بعد مفاوضات دامت ثلاث عشرة سنة وُقّعت في ٢٧ آب معاهدة بين الكرسي الرسولي والحكومة الاسبانية .

تقوم هذه المعاهدة مقام معاهدة الملكة ايزابيل الثانية والكرسي الرسولي سنة ١٨٥١ وقد الغتها الجمهورية الاسبانية عام ١٩٣١ .

سبق هذه المعاهدة الجديدة أثنتان اخريان الاولى سنة ١٧٣٧ بين البابا اكليمنتوس الثاني عشر والملك فيليب الثاني . ومعاهدة سنة ١٧٥٣ بين البابا بندكتوس الرابع عشر والملك فردينان السادس .

والمعاهدة الجديدة هي خير خاتمة لاربعة اتفاقات جزئية بدأت عند استلام الجنرال فرنكو حكم البلاد الاسبانية . وهي – كما تثبت ذلك مقدماتها – مثال يحسن اتباعه في المعاهدات التي تعقد بين شتى الدول والكرسي الرسولي لتنظيم علاقاتها المتبادلة « وفقاً لما تقتضيه الشريعة الالهية وما تلائمه الامة الاسبانية من التقاليد الكاثوليكية » .

– من أخصّ ما يجدر ذكره من شروط هذه المعاهدة الاعتراف التام بالزواج المسيحي والاهتمام بتربية الناشئة المسيحية وحرّية الكنيسة في القيام باعمال رسالتها .

اخبار عالمية

تتويج الملكة اليصابات الثانية في انكلترا ٢ حزيران : كان يوم هذا الاحتفال في لندن يوماً عظيماً ظهرت فيه انكلترا بجلال تقاليدها العريقة بعد ان رمّمت بجهود لا تني ما اصابها في الحرب الاخيرة من الدمار . فالتاج الثمين الذي وضعته في هذا اليوم التاريخي على هامة ملكتها الجديدة هو تاجها ايضاً تاج نهضتها الظافرة .

وقد زاد في مجد هذا العيد خبر نجاح الكولونل هونت في تسلّق اعلى قمة جبل هملايا اعلى جبال الارض . وصل هذا النبأ لوندرة ليلة عيد التتويج .

ان المحاولات الاولى لتسلق جبل هملايا بدأت في حزيران سنة ١٩٢٢ ولم يأتِ الانتصار النهائي الا في ٢٩ أيار من هذه السنة اذ توصل الى اعلى قمم الجبل النيوزيلاندي هيلاري وعمره اربع وثلاثون سنة ثم الخبير بتسلّق المرتفعات مرافق البعثة تنسنغ جورتيا .

بنداد وعمان : في يوم واحد ٢ ايار احتفل في بنداد وعمان بتنصيب الملكين الشابين الهاشميين بعد بلوغهما الثامنة عشرة من العمر فيصل الثاني ملك العراق وحسين الاول ملك الدولة الاردنية وفي وقت واحد أقسما كلٌّ في عاصمة مملكته بالامانة للدستور وبالخلوص للشعب وكلاهما حبيبان الى شعبيهما .

فيصل الثاني هو الملك الهاشمي الثالث الذي اعتلى عرش العراق وهو ابن غازي الاول بن فيصل الاول وقد تربّى وتعلم في انكلترا في كلية هرّو وكلية سندهورست .

وحسين الاول هو ابن طلال الذي اضطر لمرضه الى التخلي عن العرش الاردني وأمه الملكة زينة وكان الحسين برفقة جده الملك عبدالله يوم اغتيل في ٢٠ آب ١٩٥١ وبعد شهر على هذا الحادث أُرسل الى انكلترا حيث اتم دروسه مع ابن عمه فيصل .

الحكم في مصر : احد عشر شهرًا بعد الانقلاب العسكري واستقالة فاروق ومغادرته بلاده اي في ٢٠ حزيران أعلنت الجمهورية في مصر واتخذ الزعيم نجيب لذاته مهمة رئاسة الجمهورية دون التخلي عن رئاسة الحكومة وقد اعلن انه بعد انقضاء ثلاث سنوات يتوجه الى الشعب المصري لاخذ رأيه في النظام الجديد وتثبيته . هكذا اضمحل في مصر النظام الملكي بعد ان دام مئة وخمسين سنة وسقطت سلالة محمد علي الالباني الاصل .

السودان : ان الاتفاق الذي وقّعته مصر وانكلترا في القاهرة في ١٢ شباط يمنح حكومة السودان استقلالها ويجمع في شعب واحد سكان الشمال المسلمين وعددهم ستة ملايين وثمان وخمسون الفاً وسكان الجنوب من وثنيين ومسيحيين وعددهم مليونان وخمسمئة الف .

تظهر اغلبية سودان الجنوب غير راضية بهذا الاتفاق رغماً عن الجهود التي بذلها الشماليون لارضائهم فان قبائل الجنوب تفضل علي الوحدة – اذا عزم الانكليز على الانصراف من بلادهم – اتحاداً اقليمياً بين الشمال والجنوب يترك لكل منها حرية الحكم الذاتي . وقد يكون سبب ذلك عدم ثقتها بمواعيد الشمال بانصافها .

سوريا : في ٢١ حزيران صدر قرار تشريعي يعلن دستوراً سورياً جديداً يقوم مقام الدستور الذي ابطله الانقلاب الاخير في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٠ يوم الانقلاب الذي عقب سقوط الزعيم حناوي . وقد وافق الشعب على الدستور الجديد في استفتاء مباشر سري في ١٠ تموز وفيه انتخب الزعيم الشيشكلي رئيساً للجمهورية ولم يتقدم للانتخاب من يزاحمه . يعطي هذا الدستور لرئيس الجمهورية سلطات واسعة وهذه اهمها : هو الذي يعين الوزراء وهؤلاء ليسوا مسؤولين الا ازاءه . وهو الذي يعين اعضاء المجلس الاعلى .ويوقع المعاهدات وكل اتفاق ويعرض الميزانية على مجلس النواب ويعلن حالة الطوارئ والتعبئة العامة . وهو يشهر الحرب ويعقد السلم بعد طلب رأي مجلس الدفاع الاعلى وموافقة مجلس النواب . وتبقى سلطة التشريع لمجلس النواب . وينتخب الشعب نوابه بالتصويت باعتبار نائب واحد لكل خمسين الف مواطن . ويمكنه حل مجلس النواب اذا وافقت عليه الاغلبية المطلقة . ويعرض الشرائع على المجلس رئيس الجمهورية او النواب نفسهم .

كوريا : يوم الاثنين ٢٧ تموز وُقّعت اتفاقية الهدنة في بان موم جون وتوقف القتال بعد حرب دامت اكثر من ثلاث سنين ومفاوضات سنتين اي منذ ١ تموز ١٩٥١ . وجرى التوقيع في مظاهر رسمية جافة : فالهدنة ليست السلم . ان القضية الكورية لم تزل عقدة جدال صلب حلها كما يدل عليه البند الرابع من هذا الاتفاق في خصوص مصير كوريا .

وقد عبرت بعض الصحف الامريكية عن استياء مرير لعقد هذا الاتفاق وما كانت لترضى بالتوقف في القتال الا بعد الانتصار . وهي تشكو من حلفاء اميركا بانهم منعوها من الوصول الى هذا الانتصار .

ايران : بعد الاستفتاء الشعبي الذي قام به مصداق وتصميمه على حل المجلس ١٩ – ٢٢ آب غادر الشاه بلادة فجأة تصحبه ثريا قرينته الى بغداد ثم الى روما . فشنّ اذ ذاك انصاره هجوماً عنيفاً دامياً على مصداق وحزبه وتغلبوا عليها فتسلم الجنرال زاهدي رئاسة الحكومة وكان الشاه – قبل مغادرته ايران – قد عينه لهذا المنصب برسوم شرعي . فحاول مصداق ان يهرب لكنه ما لبث ان اعتُقل وهو في السجن ينتظر محاكمته .

وُلد مصداق سنة ١٨٨١ وهو ينتمي الى اسرة «قاجار» التي ملكت في ايران حتى سنة ١٩٢٥ ثم حلت محلها اسرة «بهلوي» التي اليها ينتمي الشاه الحالي . وقد تولى مصداق منصب رئاسة الحكومة في ٢٨ نيسان ١٩٥١ .

مراكش : خلعت الحكومة الفرنسية في ٢٠ آب مولاي محمد بن يوسف سلطان مراكش وقد اضطرت الى ذلك تلافياً لوقوع حرب اهلية بعد ان ثار عليه الجلاوي باشا مراكش وغيره من الباشاوات وزعماء قبائل البربر . وهو النجل الثالث لمولاي يوسف السلطان السابق . تولى السلطة في تشرين الثاني ١٩٢٧ وكان عمره ١٦ سنة .

وقد عُيّن محله للسلطة المدنية والامامة في مراكش عمه سيدي محمد ابن مولاي عرفه .

مطبوعات شرقية

المسيح — الكنيسة(1)

بقلم الاب فرديناند تونل اليسوعي

هما كتابان ضخمان وضعا باللغة الافرنسية وهما موسوعتان للمعارف الدينية المسيحية . هل من افادة بتعريفهما الى المثقفين من الناطقين بالضاد ؟

لقد انقضى عهد الانتداب الافرنسي في سورية ولبنان اما اللغة والثقافة الافرنسية تراث الجنس البشري فعهدها لا ينقضي واصولها واشجة في الشرق منذ مئة وخمسين سنة وينيف منذ حملة بونابارت الى الشرق وهي بازدهار متواصل تبدو مظاهره اليوم في العدد الوافر من اللبنانيين والسوريين والمصريين الذين يقرأون الافرنسية ويتكلمون بها فيفيدهم الاطلاع على الكتب التي تنشر بها . وقد نسمع رجالات المعارف في البلاد العربية يدعون الطلاب في المدارس الحكومية والخاصة الى استقاء الثقافة الاوربية من اقرب مواردها في اللغة الافرنسية خاصة فيتخذونها آلة لا بد منها لمواصلة الدروس الثانوية والعالية وبها تنفتح لهم الافاق على بلاد الغرب .

وهناك الناحية الدينية من الثقافة البشرية العامة ومحور الكلام فيها على الانجيل والكنيسة وهي جديرة بان تستهوي اجتهاد كل مفكر رصين .

منذ حقبات مضت دعا الدكتور طه حسين علماء الازهر الى قراءة الانجيل والى الاطلاع على الدين المسيحي في اصدق موارده لئلا يجهلوا ما يزمونه ويبيتوا مطمئنين وراء سورهم المنيع من الاعتقادات والآراء وبينهم وبين الحقيقة مراحل وفنادق فأثار في العقول مسائل لم تكن تخطر على بال الكثيرين في الماضي وقد

(1) LE CHRIST. *Encyclopédie Populaire des connaissances religieuses.* Publiée sous la direction de M. l'Abbé G. Bardy et de M. l'Abbé A. Tricot, Professeur à l'Institut Catholique de Paris... Petit in 8° 1264 pp., Bloud et Gay 1947.

ECCLESIA. *Encyclopédie Populaire des connaissances religieuses.* Publiée sous la direction du Chanoine René Aigrain. Bloud et Gay 1948. Petit in 8° 1525 pp.

ساعد على هيجانها تقارب المواصلات واحتكاك رجال الثقافة وشبانها الشرقيين بالعالم الغربي اضف الى ذلك تأثير المدنية المسيحية المستخدمة للدعاية اليها مبتكرات الفنون الجميلة في دور الاذاعة وفي الافلام السينمائية الصالحة مما يلجئ الجماعات الى التفكير والفحص والمقابلة وقد يدور محور هذه الحركة الفكرية على قضية جوهرية مركزية وهي المسيح والكنيسة التي اسسها .

والينا في الكتابين اللذان نصفهما للقراء الكلام على المسيح وعلى الكنيسة وقد وضعا خاصة لاهل الغرب من مؤمنين وغير مؤمنين لكنهما مفيدان جدًّا للقراء في الشرق فالمسيحيون منهم يجدون فيهما الاجوبة على سائر ما يحتاجون اليه للتدقيق في معارفهم الدينية والمسلمون منهم يقتبسون منهما شعلات تستلفت انظارهم الى التروي والبحث والانصاف فلا يتسرعون باتهامنا بالكفر والزندقة .

١ – من هو المسيح ؟

قد يعمد البعض في معرفته الى المؤلفات الاوروبية التي تصوره بصورة ضئيلة خيالية فيظنون لما يشاهدون مشوهاً فيها بقلم هارناك Harnack ولوزاي Loisy ورينان Renan وهي اقرب في نظرهم الى ما عرفوه مصورًا عن المسيح في المؤلفات الاسلامية من الصورة التي رسمها الكتبة المسيحيون الحقيقيون بهذا الاسم .

فمن ثم ندعوهم الى قراءة هذا الكتاب وفيه المقالات الموقعة باسماء العلماء المعتمد عليهم في المسيحية المخلصة للايمان والدين والعلم الصحيح .

من هو المسيح ؟ اهو انسان لا غير ؟ فان كان انساناً لا غير فيها قيل فيه عن عظمه وسمو واخلاق وتعاليم كان مذهباً فلسفياً لا صلة بينه وبين الحقيقة المطلقة التي لا يشوبها ضلال في زمان ومكان . وان كان المسيح ابن الله فثبت لنا ثبوت اليقين ان دين المسيحيين هو الدين الموحى به من الله ؟ وما الغرض من هذا الكتاب الا تبيان تلك الحقيقة فيقول قارئوه مع القديس بطرس : انا اؤمن يا يسوع انك المسيح ابن الله .

والبحث متواصل موسع بمعرفة حياة المسيح الخفية والعامة وفي آلامه وقيامته وبالتدقيق في تعاليمه عن الملكوت وعن سبل الحياة المسيحية وعن طرق الكمال الانجيلي وعن « العهد الجديد » الذي جاء به يسوع الناصري مفسرًا ومكملاً « العهد القديم ».

وهذا الإله الانسان تبرز صورته نيرةً وضاحةً جذابة خلابة في مظاهر وشعائر ايمان الذراري المسيحية من عهد الشهداء. والديماس الى ايام قسطنطين وهيلانة الى عهد البنايات الفخمة في ديورة فلسطين وسورية الشمالية على ايام سمعان العامودي ومار مارون ويوحنا فم الذهب الى زمان الكنائس الباقية اثارها في حوران والكاتدرائيات الفخمة كأجيا صوفية في استنبول والمؤسسات الخالدة بالحياة الرهبانية في صعيد مصر وفي باقي ما بقي من عزّ المسيحية بعد الفتح الاسلامي في بلادنا الشرقية . وهناك في البلاد الغربية مظاهر الفن المسيحي الذي لم تعتور طرق ارتقائه الاضطهادات فآثاره عامرة يزورها في باريس وروما ولندن وبرلين وموسكو اعيان المثقفين من رجالات العرب والاسلام وهناك مؤلفات المسيحيين في ناحية الحياة الروحية الكاملة وان ما جاء به المتصوفون الكبار كابن العربي والغزالي وغيرهم لم يكن الا تصدياً لصوت الكمال المسيحي المدوي في الخافقين . ومنها تتصاعد اناشيد المحبة الصيمة لهذا المسيح الاله الانسان وهو الالف والياء في سفر الكون — ما هذه الاغاني السماوية التي تطرحها على موجات الاثير محطات الاذاعات العالمية الحاملة الى العالم سنفونيات بتوفن وباخ وغونو ؟ أليست الا نغمة النفس المسيحية المخطوفة بمحبة الاله الانسان التواقة الى جذب العالم الى الذي قال: اما انا فان ارتفعت على الصليب فسأجذب اليَّ الجميع ! الجميع ! من رجال العلم والتاريخ والهندسة والتصوير والنحت وسائر الفنون .

فاقرأ هذا الكتاب كنت من تكون يا من تفقه اللغة الافرنسية واحب مطالعتها في مصنفاتها وكن مخلصاً لفؤادك وضميرك . اقرأ يا من يرتاب في امر مصيره ومصير العالم فترى الشك يتكسر على صخرة اليقين والظلام يتبدد في عالم النور وان تكن موجة الشيوعية الوثنية تتهم المؤمنين بالله وباليوم الاخير فدونها عصمة شخصية المسيح الاله الانسان الداعي الى التقيد بالشرائع الخالدة القائلة بان الرضوخ والعبادة لله عزّ وجلّ انما هي رضوخ وعبادة ابناء الملكوت .

وكفانا بهذه العجالة داعياً الى اقتنا. هذا الكتاب فيوضع في المكاتب العامة فخراً لها ويقع تحت تصرف الاساتذة في المدارس الحقيقة باسمها موردًا للطلاب ولكل عقل سليم يلتمس وجه الله .

ما هي الكنيسة ؟

وهل تتفرغ ايها القارئ اللبيب الى بحثها ؟ لربما توسّعت في اجتهادك بدروس العلوم العليا من ادب وهندسة وطب وتاريخ وفن ولعل افكارك المتفرقة في تلك الانحاء المتنائية في ميدان المعارف البشرية تاهت عن التفكير في الغاية القصوى والحقائق العظمى الراجع اليها اهم ما يجب ان يهتم به المفكرون . ما اكثر رجال الاختصاص وما اوفر عدد المتقنين وما اقل الذين يبحثون عن الدين المسيحي في اساساته ويتعمقون في بحث الكنيسة واصولها ! لقد استفرغ جهودهم التوغل في مرافق دروسهم الخاصة واغفلهم عن معرفة مقامها في بنيان العرفان البشري العام . فيجهلون ما يتوجب معرفته من امور اللاهوت والليتورجيات والتاريخ الكنائسي . وهذا الكتاب يقضي حوائجهم الى ذلك ويشفي غليلهم من تكملة ثقافتهم فيفقهون فيه اصول الفلسفة المتفرع منها فعل الايمان وينقدون به مقدرات العقل البشري في معرفة الحياة ويبحثون فيه ما وراء الطبيعة من المبادئ في علم الوجود وعلم النفس وفي شروط البلوغ في ذلك الى اليقين . فما هي النفس وما هو الله واية هي البراهين على وجوده ضحضاً للملحدين ؟ وهل للوحي معنى يرضى به العقل ؟ وهل في الدين المسيحي الجواب على كل هذه الاسئلة الخطيرة ؟ وان الكتاب المقدس وعلم الاخلاق واللاهوت النظري والروحي (ويسميه العرب التصوف) وسائر شعائر العبادات والرتب الكنائسية تدعو العاقلين الى البحث والتفكير فيسترشدون بهذا الكتاب في ابحاثهم وتفكيرهم . اضف الى ذلك ما فيه من حلّ المشاكل الناشئة عن ترقي علم التاريخ باكتشاف آثار جديدة فتنجلي فيها حياة المسيح وسير القديسين وغيرهم من الرجالات العظام وان خير دفاع عن المسيحية واسهل طريقة الى استيعاب تعاليمها والتوفيق بينها انما هو النظر الشامل سائر ما فيها من المبادئ والشرائع المرتبطة بعضها بعضاً فترضي العقل السليم وتسد حاجة القلوب الطاهرة .

وقد تؤدي هذه « الموسوعة » المواد الكافية لبلوغ المرام .

ان الرابطة الباطنية في فصول هذا الكتاب المحررة باقلام عديدة انما هي شخصية المسيح ورسالته وتعاليمه واعماله .

يبدأ الكلام فيه بدرس حالة العالم الروماني اليوناني حين ظهور الفادي ثم يتناول وصف العالم اليهودي الفلسطيني في البلاد وفي البيئة التي ظهر وعاش فيها باليهودية والجليل وشرقي الاردن والسامرة . وعلى هذه المسارح يُظهِر المؤلفون رجال التاريخ هيرودوس وبيلاطس واليهود من فريسيين وصدوقيين وكهنة الهيكل والاحبار وهم في انتظارهم قدوم المسيح الموعود به منذ الفردوس المفقود. وفي الكتاب التعليمات المأخوذة من المعاصرين كيوسيفوس وغيره ممن كتبوا في هذه الناحية . وان معالجة الاناجيل ككتب تاريخية تستدعي البحث فتسع لاقوال مدارس الاسكندرية وانطاكية ولتعاليم الآباء في الشرق والغرب والى تفاسير المعاهد السكولاستيكية المعاصرة لازدهار الفلاسفة العرب في الاندلس ونتعرف من ثم الى مؤلفات عهد النهضة في القرن السادس والسابع والثامن عشر والى حركة الدروس التي نشأت منذ نشوء المذهب البروتستنتي الى القرن الثامن والتاسع عشر الى ايامنا .

واذا تفرغ القارئ من خاصة المتقفين الى النظر في ذلك وجد فيه ضالته المنشودة ففرح به وارتاح اليه. اما العامة من قراء الافرنسية فيجدون فيه غذاء للروح ومتعةً للفؤاد . وهو قريب المنال اليهم بما في هذا الكتاب كما في الكتاب السابق من الفهارس الحافلة باسماء الاعلام والامكنة والمواد . عسى ان يحلّ هذا المؤلّف محلّه في خزائن اخواننا المسلمين الذين يفقهون اللغة الافرنسية فيقرأونه ويتحققون بصدق مقالنا . اما المسيحيون فلهم فيه عنوان الفخر ومدعاة الى النشاط والعمل في سبيل مبادئهم الشريفة .

الحركة الفكرية في القطر المصري

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

بين يدينا طائفة من المؤلفات ظهرت في المطابع المصرية في هذه السنوات الاخيرة واهديت الى « المشرق » وليست الا جزءًا ضئيلًا مما نشر من امثالها في القطر الشقيق لكنها على قلة عددها تؤدي لنا المادة للكلام على حركة الافكار في اهمّ نواحي الدروس من فلسفة وطب وتاريخ وأدب ولغة .

جدير بالذكر اولًا النشاط في نشر الآثار القديمة طبقًا للاساليب العلمية الحديثة وتنبيه الوعي القومي الى الاطلاع على امجاد السلف والى الاستفادة من الاحتكاك بالعالم الغربي لانتاج الابحاث الجديدة وقد تساعد على هذه النهضة روح الاستقلال المتعشة في النفوس منذ نهاية الحرب الكونية الثانية فاقبل رجال الخاصة على المسابقة في ميادين البحث وتهافت اهل العامة على القراءة والمطالعة وتشوقت الناشئة في المدارس من ابتدائية وثانوية وعليا الى السعي في استنباط نتائج العرفان من كنوزه فيترقى الجيل الجديد بمراحل سريعة وسنوات معدودة الى ابعد ما بلغ اليه السلف في السنين الطوال بفضل ترقي فن الطباعة وتفشّي. حملة الاقلام جمعيات تأخذ على عاتقها اصدار التآليف بحلقات متسلسلة منها «المجموعة التي يشترك فيها علماء الشرق والغرب لبعث كنوز العربية الخالدة» ومنها « مجموعة نوابغ الفكر العربي » ومنها «مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية» ومنها « مكتبة التحليل النفسي » ومنها «منشورات جماعة علم النفس التكاملي» التي يشرف على اصدارها الدكتور يوسف مراد ومنها «مجموعة الثقافة الصحية» باشراف الدكتور سليمان عزمي فتظهر منها الحلقة او الحلقات .

ان هذا النوع من السلاسل يراعي الناحيتين العلمية والتجارية ؛ العلمية لانه يوزّع على رجال اكفاء مؤنة العمل فيسعى كل واحد من طرفه بالقيام به ويتفرغ له فيتقنه ويأتي غيره بمثل ذلك طبقًا للبرنامج الموضوع من صاحب الاشراف على النشر . اما حلقات السلسلة فثمنها يكون اقرب منالًا من القراء مما يكون لو انها تظهر بمجلد ضخم يرجم الشاري عند رؤيته في المكاتب مسعرًا بالسعر

الباهظ . فضلًا عن ان المطالع يكتفي باتنا. الحلقة التي هو بالحاجة اليها ومن اجل ذلك زادت حركة النشر على النسق الذي وصفناه .

واذ نثني على هذا النشاط الجميل نستميح الاذن بابداء ملاحظة في لهجة بعض من يكتبون عن امجاد السلف . ان برنامج التعليم في الحكومة السورية يدعو المعلمين الى رفع شأن العرب وافضالهم ليفاخر بها الجيل الناشئ. ويتقفى اثارها ومع ذلك فانه يحذر من المبالغة العقيمة التي تثير الابتسامة والاستخفاف. ليس ابن رشد ولا الجاحظ وامثالها بحاجة الى الدعاية المضخمة كأننا في سوق التجارة وحسب القارئ اللبيب ان يطلع على مؤلفاتهم ليقدر قيمها الخالدة دون ان تدوخه دعاية الطبل والمزمار كما جاء عن ابن رشد انه اكبر الفلاسفة الشراح لارسطو اثرًا في الغرب من القرن الثالث عشر الى القرن العشرين !.. او عن الجاحظ ان كتبه خزانة اجتمعت فيها ثقافة العرب والاعاجم (اي غير العرب)... وما ابن رشد والجاحظ وامثالها الا نجوم بين ملايين النجوم المتألقة في سما. الفكر وكفاهم بذلك مديحًا . ويا ليت الكتبة يلهجون بلهجة اخف وطأة على الاذان في مقدمات كتبهم فلا يكيلون بالالفاظ الغريبة وبالاساليب الانشائية التي عليها زماننا الحاضر ويأتون على الغرض الذي يتوخونه باللغة التي خلدت ذكر ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة فينشرح لها الخاطر ويستطيبا الذوق السليم .

ابن سينا ــ الشفاء ــ المنطق ــ المدخل

تصدير الدكتور طه حسين باشا — مراجعة الدكتور ابراهيم مدكور

تحقيق الاساتذة : الاب قنواتي ، محمود الخضيري ، فؤاد الإهواني

نشر وزارة المعارف العمومية — الادارة العامة للثقافة بمناسبة الذكرى الالفية للشيخ الرئيس

المطبعة الاميرية — القاهرة ١٣٧١ — ١٩٥٢

Ibn Sīnā. Al-Shifā' — *La Logique* I°. — L'Isagoge etc...

ص ك + ٧٧ + ١٥٩ + ٤٥ قطع ٤ كبير

في مؤتمر المستشرقين السابع عشر المنعقد في اكسفرد سنة ١٩٢٨ في تسعه الثامن عرض الاب موريس بويج اليسوعي († ١٩٥١) مشروع درس « خزانة فلاسفة العرب » Bibliotheca Arabica Scholasticorum وقد اخذ بالعمل فيه

عن الجاء. الاب مرسل شوسا Chossat اليسوعي ١٨٦٣ — ١٩٢٦ وبتشجيع العلامة الكردينال فرنز اهرله اليسوعي Franz Ehrle ١٨٤٥ — ١٩٣٤ وانثنى اعضاء المؤتمر باجماع الراي على ذلك المشروع الخطير وسار الاب بويج من ثم بنشر ما نشره في المطبعة الكاثوليكية في بيروت : تهافت الفلاسفة للغزالي ، تهافت التهافت لابن رشد،تلخيص كتاب المقولات لابن رشد وكتاب المقولات لابن رشد وكتاب المقولات لارسطوطاليس، وتفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد، ورسالة العقل للفارابي واقبلت الجامعات العالمية على اقتنا. كتب الاب بويج. ومات ولكن المشروع حيّ وما هذا الكتاب الذي نصفه لقراء المشرق الا تابعاً لما سبقه في هذا الطريق الوعر البعيد المدى المتشعب الفروع . دعا الى السير فيه طه حسين بمناسبة الذكرى الالفية للشيخ الرئيس ومضى الناشرون وفي طليعتهم ابراهيم مدكور فحدثونا عن الكتاب ومنزلتـه في تاريخ الفلسفة وعن تسميته ونسبته الى مؤلفه وعن كيفية تأليفه في هذا العصر والبيئة وعن موضوعه الشامل المنطق والطبيعيات والرياضيات والالهيات وما اليها من علوم متعددة وعرّفونا باسلوب ابن السينا وهو الرجل الفارسي وقد اتقن العربية وتعلم السريانية واليونانية التي بلغت اليه عنها مؤلفات ارسطوطاليس ومنها الاورغانون او المنطق الذي قد طالما كان دستور الفلاسفة في القرون الوسطى فشرحه الرئيس وضمنه ما ارتضاه من مباحث ونظريات (ص١٥) .

وهذا كتاب « الشفاء » هو كالحلقة الاولى لسلسلة مؤلفات ابن سينا وان معانيه لا تستوعب الا بالمعالجة الدقيقة لتلك المؤلفات؛ عسى ان يوفق الباحثون الى التنقيب عن آثارها ونشرها النشر العلمي كالذي بين يدينا ؛ ولها ما لها من الاثر البليغ في العالم العربي وفي الفلسفة المدرسية اللاتينية . لقد جهد ناشرو الكتاب في جمع مصادره والاختيار بينها في النص الاصلح، للنشر في مخطوطات «تصعد نحو المئة» وهي موزعة في اقطار العالم شرقاً وغرباًوبين تلك المخطوطات ميّزوا احدى عشرة اصطلحوا على تسميتها بأحرف معهودة وكانت المخطوطة م المحفوظة في المتحف البريطاني نقطة البدء. لهذا النشر ولا تسأل عما تكبدوه من المشقات في تحصيل تلك الآثار الكريمة وقراءتها ودرسها والمقابلة بينها ليظهروا منها النص الاحق بان يكون قد ظهر من قلم ابن سينا .

ولم يكتفوا بمقدمات الكتاب والتعاليق بالحواشي على متونه تسهيلا لمراجعته بالضبط الدقيق لكنهم ذيلوه بمعجم جزيل الفوائد لعلماء العرب والمستشرقين وفيه الاصطلاحات الفلسفية التي تودي معنى الالفاظ بما يراد منها بلغة اللاتين المدرسية فمهدوا السبيل للمجامع العالمية ولاصحاب القواميس في ضبط المعاني فلهم الشكر في تفتيح معميات الفلاسفة العرب وحسبهم فخرًا ان اسماءهم صدرت هذا الكتاب فيذكرون بهم ما ذُكر الشفاء للشيخ الرئيس .

ابن رشد

بقلم عباس محمود العقاد

مطابع دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ص١٢٠ ق ٨

اول ما تعرف قراء المشرق (٢٧ ص١٥٦) الى صاحب الكتاب كان في ما طالعوه عن ديوانه وقد استحق به شهرة واسعة . ومضت الاعوام وجال المؤلف في سائر انحاء الادب محررًا في الصحافة ومناصرًا الاحزاب السياسية والحركة القومية المصرية بتآليفه الى ان اتانا اليوم من باب جديد بهذا الكتاب تكلم فيه اولًا عن عصر الفيلسوف وترجم له فعرفنا بحياته ونكبته ، محللا اسبابها ، ومضى يدرس شخصية ذلك الرجل العظيم وفلسفته: في قدم العالم وعلم الله بالجزئيات وخلود النفس ، وتأثيره في فلسفة القرون الوسطى وقد استفاد بما كتب المستشرقون الذين حللوا ولخصوا مذهب ابن رشد واخصّهم رينان ودي ڤولف. وهذا البحث يستغرق نحو النصف الاول من الكتيب اما النصف الثاني ففيه المنتخبات من اثار ابن رشد بكونه فيلسوفًا وشارحًا لارسطو وطبيبًا وفقيهًا . وهذه الصفحات على اقتضاب فصولها ، وعميق معانيها وجفاف تعابيرها جديرة بان تستوقف نظر كبار المفكرين فنشكر للعقاد همته باهدائها الينا .

اخوان الصفاء

تأليف عمر الدسوقي

دار احياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – ص٣٢٩ ق١٢

هذا الكتاب هو الخامس عشر من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية التي تجعل مسائل الفلسفة في متناول الجميع » صدّره المؤلف بالكلام على الحالة

السياسية في القرن الرابع الهجري ايام وضعت رسائل اخوان الصفاء. فتكلم عن الحركة الفكرية في زمانهم وعن الفلسفة التي بلغت من اليونان عن السريان الى العرب وذهب مبيناً الرابطة الدينية والسياسية التي تقيدت بها فلسفة «الاخوان» وافاد في تعريف اسمائهم واظهار سعيهم واجتهادهم ونظام جماعاتهم وهم من اهل الشيعة وروى اهم اقوالهم في طريقة الاستدلال الفلسفي ونظرية الفيض ومراتب الوجود في الله والعالم وفي حدوث العالم وازليته وفنائه وفي النفس الانسانية وما الى ذلك من المشاكل العويصة وكل عبارة من عباراتها قد تؤدي مادة للكلام وللكتابة على مجلدات ولا تسوغ قراءتها الا الخاصة من البحاثين بالرغم عن رغائب الناشرين بأن يجعلوها في متناول الجميع، وليس المقام لنقد فلسفة اخوان الصفاء بل لعرض آرائهم وربما جاء المؤلف بالايجاز ردّاً على ما قالوه مخالفاً للتعليم الاسلامي (ونراه نحن ايضاً مخالفاً للتعليم المسيحي) في نظرية الفيض والعقيدة وغير ذلك. وقد بالغ كل المبالغة في القول ان فلسفة «كانت» احدثت ثورة في الفلسفة الاوروبية... (ص٢٣١) فما مؤلفات «كانت» الا محطة من محطات المفكرين يقف عندها اساتذة الفلسفة فيستفيدون منها ما يرون الى ذلك سبيلاً وتكلم عن المذهب الجزويتي (ص٢٢ سطر١٦) اخذاً عن المستشرق توماس ارنولد فشبهه بمذهب اخوان الصفاء. فوددنا زيادة الايضاح في هذا التشبيه ونحن لا نوافقه عليه.

ووقعت بعض الاغلاط المطبعية نلفت النظر اليها لتصلح في طبعة ثانية منها ص ١/١٣ حديد = جديد . ٩/١٦ ٣٥٠ = ٢٥٠ . ٥/٣١ جحيم = حجتهم . ٢٣٢ / سطر١٦ الكلام = الكرم .

مكتبة التحليل النفسي ٣ ــ سيجمند فرويد: ما فوق مبدأ اللذة

ترجمة اسحق رمزي

ص١١١ ق كبير – دار المعارف بمصر ١٩٥٢

قال المترجم في المقدمة ص٢٠ : « واغلب الظن ان القارئ سوف يلقى عنتاً قد يثقل عليه لاول قراءة في هذا الكتاب فالحق انه كتاب صعب عويص بل لعله أغمض واعوص ما نشره فرويد من كتب كثيرة ».

فليس الكتاب موضوعاً للعامة ولا اراني مغالياً في القول ان فهمه بعيد عن الخاصة ما عدى الطائفة المحدودة المعنية في دروس الطب النفسي من قراء العربية وهي في الغالب تعتمد المؤلفات العلمية المستحدثة في هذه الناحية لا بترجمتها ولكن بأصلها في اللغة التي وضعت فيه . ومع ذلك فلم يخفق سعي المترجم لانه اقبل يروض جماح لغة الضاد على التعبير عن معاني قط لم يخطر على الاوائل التفكر بها . ولا يتحاشى ذكرها بالفاظها التي ابتكرها مخترعوها او محصلوها فقال « الميتاسيكولوجية » و « سيكولوجية الاعماق » و « الديناميكية » و « الطوبوغرافية » و « الليبيدو » و « الفيسيولوجية والماسوكية » وغيرها مما لم يجد له بالعربية مرادفاً مؤدياً المعنى حقه ما سوى اللفظة الاجنبية ـ وهو على ما ارى مصيب لان اعز لفظة نعتز بها هي التي تعبّر دون غيرها عن حقيقة المعنى سواء اكانت من اصل عربي او غير عربي وترجمان حالها الشعر المأثور :

ان الفتى من يقول هآنذا ليس الفتى من يقول كان ابي

والى متى الجدال حول الكلمات القاموسية والغير القاموسية والقاموس ينقصه الالوف من الالفاظ العلمية المستحدثة . اما السيد اسحق رمزي فقد ساقها الى كتابه بالسلامة وله الشكر . هذا وقد عرفنا بعض التعريف بفرويد الطبيب النمساوي (١٨٥٦–١٩٣٩) القائل بان اكثر اعمال الانسان انما مصدرها العوامل النفسية الجنسية ولفلسفته محاسن فانها تناقض مذهب الماديين وتؤيد القول بروحانية النفس وخلودها وقد يمهد فرويد السبيل الى البرهان عنها في تفتيشه عن النزعات النفسية في كل فرد من افراد البشر لكنه ، لسوء الحظ ، يدمغها بدمغة التشاؤم واليأس وقلما يوجه النظر الى ما تبشر به الحياة الاخرى من نور ونعيم .

الدكتور شارل بلونلدل : المدخل الى علم النفس الجماعي

تعريب الدكتور حكمة هاشم

دار المعارف بمصر – ص١٨٨ ق ٨ ١٩٥٣

نُشر هذا الكتاب بأصله الافرنسي سنة ١٩٢٨ في مجموعة ارمان كولين في باريس ومؤلفه استاذ في معهد الاداب في جامعة استراسبورغ وها انه يظهر في « منشورات جماعة علم النفس التكاملي » تحت اشراف الدكتور يوسف مراد

في مصر واننا نهنئ المعرب على جرأته في اقتحام الصعاب ونشكر لكل من يسعى في تمرين اللغة العربية على نقل المؤلفات القيمة ومنها هذا الكتاب. واليك خلاصته :

انها لحقيقة راهنة ان الانسان يتأثر بمحيطه ومن ثم اذا اردنا تحليل نفسية ذلك الانسان لا بد لنا من بحثها في نفسية محيطه وهذا ما يعنى به علم النفس الجماعي. وهل يجب ان يأخذ الباحث اولاً ببحث حالة هذه النفسية (سيكولوجية) في الفرد ليتدرج منها الى بحث نفسية الجماع ؟ او هل يكون الاصح في ان يبحث نفسية الجماع حتى يدرج منها الى بحث نفسية الفرد؟ واذا قرّ رأي البحاثة على اختيار احد الاسلوبين في البحث اقبل من ثم على معالجة الموضوع المعالجة العلمية ولكن قبل ان يقر رأيه فيه. فليس سعيه الا مدخلاً الى علم النفس الجماعي » فترى ان فحوى الكتاب بيّن في عنوانه .

ويرى المؤلف بلوندل (ص ١٥ في التعريب) « انه يجدر ان تضاف الى حساب علم النفس الجماعي طائفة من المباحث التي لا تزال تعتبر راجعة بملء الحق الى علم النفس الفردي مما هو منطوٍ تحت ابواب الذكاء والارادة والانفعال ».

ويستند الى اقوال كونت ودوركايم وتارد الفلاسفة الافرنسيين الذين يرتأون رأيه في هذا الموضوع ويقول: « ان من المآخذ على السيكولوجيا الحاضرة.. انها طالما قبعت في دراسة الانسان الراشد الابيض السوي(الصحيح نفساً وجسداً (normal) المتمدن فهي تهمل الحيوان والطفل والبدائي والمعتوه فتضيق رقعتها على خلاف الواجب ... لان الانسان الراشد الابيض السوي ... يدين بتلك الخصائص الى الحضارة التي ينتمي اليها فيخرج من حوزة السيكولوجيا الفردية .

فيجب ان تترتب العلوم الباحثة في الذهنية البشرية ومظاهرها وفق النسق التالي السيكوفيزيولوجيا ، السيكولوجيا الجماعية ، السيكولوجية الفردية .

ولعلك تضجر لقراءتك هذه الالفاظ الاعجمية المبهمة ، وامثالها كثيرة في الكتاب ، مما يزيد في عثراته ... ولكن لا بد من نقلها بلفظها الاعجمي كما هي لئلا تخرج عن معانيها واننا نتمنى للمجامع العلمية مثابرة السعي في تحصيل الضالة المنشودة وتعريف امثال هذه الالفاظ بادماجها في القاموس مع شرحها .

جاء في الكتاب (ص ١٠ سطر ١٨) و«قرروا ان كل درب صالح على شرط ان يؤدي الى روما» وعلق عليها المعرب قائلا: «تضمين للمثل المعروف عند الفرنجة Tous les chemins mènent à Rome بمعنى ان الغاية تبرر الواسطة» فهذا غلط والصواب هو كما جاء في قاموس لاروس في مادة . . . chemin ومعناه bien des procédés conduisent au même résultat : كثيرة هي الوسائط المؤدية الى هدف واحد .

صحة الطفل

بقلم الدكتور حبيب صادر

دار المعارف بمصر – ص ١١٣ ق ٨

نرحب بهذا الكتيب ونتمنى لكل عروسة ان تحمله في جهازها الى بيت عريسها فتطلع على طرق العناية بالطفل في عامه الاول وتتعلم وسائل معاملته في النظافة واللبس والتغذية ومعالجته في الامراض المعالجة البسيطة التي تغني عن مراجعة الطبيب وتساعد على الصحة .

كل هذا متصل في فصول تتخللها التصاوير المفيدة .

ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٨٤٨–١٩٤٨

مجموعة ابحاث ودراسات لتاريخه تنشرها الجمعية الملكية بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته

القاهرة – مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨ م ص ٤٠٥ ق ٤

هذا كتاب جليل موقعة فصوله باسماء رجال وطنية وعلم واختصاص الدكتور عبد الرزاق احمد السنهوري باشا وزير المعارف العمومية ، سعادة محمد طاهر باشا رئيس الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، الاستاذ محمد شفيق غربال وكيل وزارة المعارف ، الدكتور عبدالحميد بطريق ، الاستاذ محمد حونه ، الدكتور احمد الحته ، الدكتور اسد رسم ، البكباشي عبد الرحمن زكي البكباشي ، احمد فهيم بيومي .

كل منهم تناول البحث عن «ابراهيم باشا» وكتب عليه ومن مجموع ما كتبوه تبرز صورة هذا الرجل العظيم جذابة خلابة جديدة بان تستهوي قلوب المطالعين كهولا وشبانا واسلوبها السلس وطبعها الانيق على الورق الفخم الصقيل

وتصاويرها الحسنة الصنع واخبارها التاريخية الصحيحة تخطف لب القارئ فلا يفتح الكتاب ويأخذ بمطالعته الا ويلازمه الساعات بالتشوق الى ان يأتي على آخره . ومما استحسنا في فوائده الجمة لهجته الشريفة في الكلام على من حاربهم ابراهيم باشا وعاملهم معاملة الشهامة والكرامة فاستحق الثناء الذي لهج به التاريخ في انه رفع عالياً لواء المصريين فانحنت له رؤوس الاوروبيين اعتباراً واجلالاً . ان حبه وطاعته لابيه محمد علي مثالاً جديراً بان يقتدى به . . . ويا ليت احد المؤلفين تخطى من ساحة القتال او من دوائر الحكومات التي تنقل فيها ابراهيم باشا وسار بنا واياه الى حياته الخاصة العائلية وعرفنا بكيفية وفاته . . . لان المحطة الاخيرة في حياة الابطال تختم بخاتمتها اعمالهم الى الابد .
جاء في الصفحة ٤٠٣ سطر ١٨ بوليس والصواب بولس .

منادمة الحروب : ادب وحرب وسياسة الجزء الاول

بقلم احمد رمزي سفير مصر السابق بروما

١٩٥٣ مطبعة لجنة البيان العربي ق ٨ ص ٣٤٣

قال المؤلف ص ١١٩—١٢٠ في سياق الحديث عن حصن الاكراد: « لست بعالم في فن هندسة التحصين وعمارة القلاع كما انني لست مختصاً في التاريخ وعلم الآثار وانما اكتب كتابة رجل مرّ بحصن من حصون المسلمين فاخذته روعة المكان وغمرته ذكريات عن بلاده . . . فالمعلومات التي اقدمها لم احاول جميعها (كذا) على طريقة علمية منطقية ولم تكن نتيجة خطة مبيتة (كذا) او بحث قصدت به ان اظهر مقدار علمي وانما هي نتيجة مطالعات متفرقة في اوقات متباعدة » ومن امثال هذه العبارات جاء في صفحة ٢٩١ تحت عنوان « لست بخبير » ما يكفي مؤونة ما يرغب القارئ الاطلاع عليه تعويضاً عن المقدمة التي لا يجدها في صدر الكتاب . ومما يؤآخذ به صفاف الاحرف المطبعية الغلطات العديدة الواقعة في كل صفحة تقريباً من صفحات الكتاب ولا تسأل عن تشويه ما جاء فيه بالنص باللغات الاوروبية فقد تكون الملازم مرّت من ايدي الصفاف الى الآلة الطابعة دون ان يصححها المصحح . وانا نعتذر لابدا. هذه الملاحظات التي لا تحط من قيمة الكتاب عسى ان يستفاد

منها في طبعة ثانية . وان تكن بعض فصوله عن هانيبال وجيوش المغول وزحف المتصم وغير ذلك مما لا يأتي الا على هامش الموضوع فان في «منادمة» رجل السياسة قنصل مصر في بيروت والسفير بروسيا مواد مبتكرة مفيدة لمعرفة الحوادث التاريخية التي جرت ما وراء الستار على المسرح الشرقي ايام الحرب الكونية الثانية فنشكر له تدوينها ونتمنى له ان يوافينا بتكملة ما وعد به من امثالها لعهد قريب ان شاء الله .

تاريخ الادب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي

بقلم الدكتور مراد كامل المساعد للغات السامية والدكتور محمد حمدي البكري

مدرس اللغات السامية من اللغات الشرقية . جامعة فؤاد الاول

مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ١٩٤٩ ص ٢٠٨ ق ٤

صدر المؤلفان كتابها بالكلام على تقسيم اللغات السامية على الارامين ولهجاتهم وعلى الكتابات الارامية وآثارها في الجزيرة والشمال السوري وبلاد تدمر وفلسطين ومصر وتناولا البحث في الادب السرياني قبل انتشار المسيحية وبعده فيما قبل الاسلام الى القرن السادس المسيحي واستندا الى من سبقهم من المستشرقين في درس الآداب السريانية .

جا. : (ص ١٤) « وقد الف السريان في لغتهم جميع فنون الادب التي كانت معروفة في ايامهم ولكنهم لم يكونوا منشئين او مبتدعين . لم ينبغوا في العلوم ولا في الفنون بل ولم ينبغوا في الحرب وكان ينقصهم فطنة العرب وذكاؤهم فلم تنجب صوامع الرها وقنسرين ونصيبين وغيرها احدًا كالفارابي او ابن سينا او ابن رشد (كذا) ... ولكن هل كان الفارابي وابن سينا أو ابن رشد من العرب على الاطلاق – وعل من الانصاف ان يقابل بينهم وبين من سبقهم بقرون ، الذين لم يستفيدوا من الحضارات التي استفاد منها هؤلاء !

ولولا السريان هل يكون فلاسفة الاسلام حصلوا ما حصلوه ! والى السريان « يعود الفضل في نقل تراث اليونان الى العرب » .

ومما لا نوافق عليه المؤلفين قولهما . (ص ١٤ سطر ٢٠ وما بعده) «ولكن الجهل الذي كان يسيطر على الجيل الاول من المسيحية دفعه الى

بغض هذه الفنون الادبية (السريانية) وزهده فيها وحبب اليه ان يقنع بالكتب الدينية ؛ ولذلك فقد عمد هذا الجيل الى اتلاف الكتب الغير الدينية ومن هنا لم يصل الينا الا الكتب الدينية والكتب التي لا تتعارض مع المسيحية » . . .

فالى اي سند يستندان في اقوال استقياها لا من معين العلم الصافي ولكن من نعرة يجدر بنا التخلي عنها . ومن امثال (ص ٤٢ سطر ٩) ذلك ما جاء :

« ان المسيحية قد جنت على هذا التراث الادبي فحرمت العالم منه » وايضاً (ص٢٧ سطر ٤) ان الكنيسة حالت بينه وبين البقاء فلم يصل الينا شيء منه» .

ولولا المسيحية التي يلومانها هل تمكن المؤلفان الفاضلان من وضع كتابها واسانيده كلها مسيحية . . . وفاتهما ان يذكرا بان السريانية قضي عليها في منتصف القرن السابع . . . في الفتوحات العربية .

البرامكة في ظلال الخلفاء

تأليف محمد احمد برانق

دار المعارف بمصر . ص ٢٢٥ ق ٨

هذا كتاب ادب وتاريخ حاول مؤلفه بحث اسباب نكبة البرامكة مستقصياً عللها في ما سبقه المؤرخون في الكتابة عليها واخصهم المسعودي وابن خلدون وضرب الموازنة في اقوالهما بما يخص العباسة وجعفر وما نسب الى الرشيد في ذلك من الشنائع ورجح صحة رواية المسعودي (ص ١٨٦) وروى الكثير مما جاء في كتب الادب والشعر عن اخبارهم وقد اصبحت معروفة من عامة القراء . فليس من المقام ان نفيض في ذكرها ولكن يطيب لنا ان نشكر للمؤلف اسلوبه في البنيان التاريخي فانه جمع مواده من اصدق المصادر ورتبها عن تصميم متناسب الاجزاء برزت فيه شخصيات البرامكة في علاقاتهم مع الرشيد واسرته وذهب يحلل نفسيتهم ويدرس اطوارها بين مدّ وجزر في العواطف تتهادى فيها اراداتهم ونواياهم ولا يقرّ لها قرار وتحل النكبة ويذكر الرشيد يحيى البرمكي واولاده ويبكي . ومما لفت نظرنا الصفحات التي وصفت لقاء ام جعفر بالرشيد ومعاتبتها اياه والجدال الذي قام بين الخليفة ومرضعته وكلاهما يستشهد على زميله بالآيات القرآنية فتذكر علاقاة فريام لاشيل مطالباً

بجثة هكتور . وصفها هوميروس في الالياذة واظهر البطل اليوناني « الوثني » يحنّ على ابي هكتور الشيخ ويعطيه جثة ابنه القتيل اما الرشيد ... فعلى تورّعه الشديد (كان يصلي في اليوم مئة ركعة ويبكي اذا سمع الوعظ حتى تخضل لحيته بدمع عينيه ولم يكن وثنياً كاشيل بل كان يبغض المراء في الدين ويتشدد على الزنادقة) رفض طلب ام جعفر ولم يعفُ عن زوجها يحيى الذي كان له اباً ومربياً ووزيراً نصوحاً وبالغ في الظلم والبطش ببقايا اصدقائه بالامس واعدائه في اليوم (ص ٢٨٣ وما بعدها) .

شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب

تأليف ابن هشام — ومعه منتهى الارب بتحقيق شرح شذور الذهب

تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد

مفتش العلوم الدينية والعربية بالجامع الازهر والمعاهد الدينية

ص ٤٨٠ ق ٤ . مطبعة السعادة بمصر الطبعة الخامسة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م

طُبع كتاب شرح شذور الذهب عدة طبعات منها في الاستانة ومنها في بولاق ومنها الطبعة الحجرية التي علق عليها بالحواشي الامير الكبير السنباوي . وانقضت السنون الطوال على ظهور تلك الكتب ومن ثم كان تجديد نشرها لازماً فقام به السيد محمد محيي الدين عبد الحميد وزاد عليها تعليقات وفوائد وافرة منها انه فتش على مصادر الشعر الذي رواه ابن هشام فذكرها وكذلك عاد بالشواهد المأخوذة من القرآن فدلّ على السورة والآية التي اخذت منها . وذيّل كل شعر من اسفار الشذور بتفسير معناه واعرابه النحوي ورواية مختلف الآراء فيه بين النحويين الاعلام وبين ائمة اللغة . فجاء كتابه واسماً شاملاً اصول اللغة العربية وقد قررت ادارة العامة للجامع الازهر تدريسه لطلبة السنة الرابعة الابتدائية في المعاهد الدينية . لو يفسح زمان الدروس وموادها في برنامج التعليم الثانوي لطلاب مدارسنا ان يدرسوا هذا الكتاب لما ترددنا في نشره بين ايدي التلامذة ولكن لا اقل من ان تكون منه نسخة في ادارة تعليم العربية في كل مدرسة من المدارس لما فيه من المواد الزاخرة للاساتذة في تحضير دروسهم والقاء مواضيع المسابقات استعداداً للفحوص - وطبعة الكتاب ممتازة

بحروفها وتشكيلها الا ان فيها اغلاط يرجى اصلاحها في طبعة ثانية منها : (ص ١٦١) فغدت والصواب فعدت ؛ (ص ٤٧١) مدكي والصواب مدركي ؛ (ص ٤٧٧) ٠٨ والصواب ٨٠ ؛ عيلها والصواب عليها ؛ القرطاس والصواب القرطاس (ص ٤٧٨) كمويها والصواب كمويا .

اللغة العربية : اصولها النفسية ، وطرق تدريسها ، ناحية التحصيل

تأليف الدكتور عبد العزيز عبد المجيد.

الطبعة الاولى ص ٢٥٥ قطع ٨ دار المعارف بمصر ثمنه ٥٠٠ مليم

قضى المؤلف اثني عشر عاماً في التعليم بمصر والسودان وجاء بكتابه هذا « خلاصة لتجاوب وقراءات وبحث ودراسة في ميدان تدريس اللغة بمراحل التعليم المختلفة » وقد جمع فيه الكثير من النظريات والقواعد والطرق التي وصل اليها العلماء في ابحاثهم وتجاريبهم باللغات الاجنبية فتكلم عن اللغة ووظيفتها على العموم وعن المعنى اللغوي وطبيعته وعن العلاقة بين اللغة والفكر واللغة والذكاء وعن المراكز العصبية للغة ونشأتها في مراكز اللغة في الطبقة السنجابية وعن نمو اللغة عند الطفل وفي انتقاله الى المدرسة الى ان خص اللغة العربية بشيء من الكلام منها وعن فروعها الى غير ذلك من المواد الوافرة التي تستوقف نظر المعلمين في المدارس الى ان ختم الكتاب بمنتخبات واشعار تعلم في الروضة وفي المدارس الابتدائية والثانوية .

... واننا نثني على همة المؤلف ونشاطه في هذا البحث المترامي الاطراف وقد عنون كتابه اللغة العربية .. ولعله كان اقرب الى الحقيقة بتسمية اللغة .. فحسب لان الكلام فيه عن اصول التعليم عامةً عند الاجانب وقد تكتظ اسماؤهم واقوالهم في طيات الكتاب. وعبثاً حاولنا ان نجد فيه بحثاً عن الاسلوب اللازم استعماله في البلاد العربية لتذليل العقبات التي تعترض طريق المعلم من جراء الفرق بين العربية الفصحى والعربية الدارجة وهذا الفرق غير موجود في اللغات الاوروبية فضلاً عن امر تشكيل الاحرف وضبطها مع اختلاف صورة الحرف العربي في اول الكلمة او في وسطها او في آخرها مما يستدعي نظر من يهمهم تعليم اللغة العربية من امثال الدكتور عبدالعزيز المجيد عسى ان يأتينا المجلد الثاني من هذا البحث بالجواب الملبي طلبنا .

طبقات فحول الشعراء

تأليف محمد سلام الجمحي ١٣٩–٢٣١ هـ

شرحه محمود محمد شاكر – دار المعارف للطباعة والنشر ص ٧١٩ ق ٨ كبير

هذا الكتاب هو الحلقة السابعة من سلسلة الكتب المعنونة « ذخائر العرب» وهو نفيس بقلبه وقالبه بلغ فيه فن الطباعة عزّه في جمال الاحرف وصقل الورق وترتيب المتون بين المقدمة والذيل والحواشي اضف الى ذلك علامات الرجوع الى المصادر والتمييز بين ما يكون من الاصول والفروع لم يقبل الناشر على نشره الا بعد الاستعداد والتنقيب والمقابلة بين طبعاته السالفة وبين النسخة التي اكتشفها في المخطوطات التي جاء بها من بغداد الكتبي الفاضل امين الخانجي.

ان الالماني يوسف هل J. Hell كان قد اصدر سنة١٩١٣ بطبعة بريل في ليدن جزءاً من هذا الكتاب وعنونه « طبقات الشعراء » وعلق عليه بفهارس وحواشي ؛ ونشر الكتاب ذاته سنة ١٩٢٠ حامد عجان الحديد الكتبي في حلب خالياً من الشكل والروايات وفيه اغلاط اقتضى اصلاحها (راجع المشرق ١٩٢٠ ص ٤٨٩) . فجاء السيد محمود شاكر وسد الخلل بهذه الطبعة الجديدة التي لا ينقص منها الا القليل المفقود من المخطوطة . وكتابه هذا حقيق بالثناء وجدير بان يزين المكاتب لدرس الشعراء الاقدمين .

الورقة — لابي عبدالله محمد بن داود بن الجراح

تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار احمد فراج

دار المعارف بمصر – ص ١٦٠ ق ٨ كبير

جاء في المقدمة (ص ١٤) نشأ محمد بن داود بن الجراح في بيئة ادبية وكتب في دواوين الخلفاء : المعتضد والمكتفي والمقتدر واستوزره الخليفة المعتز ثم قتل واختفى ابن الجراح ثم أخبر عنه فقتل سنة ٢٩٦ هـ ٩٠٨ وترك مؤلفات منها هذا كتاب « الورقة » قيل انه سمي كذلك لان مؤلفه التزم فيه ان يترجم كلّ من ترجم له من الشعراء في ورقة واحدة تقريباً . وهذا الكتاب من طلائع كتب الشعراء في الادب العربي وهو الى نظائره مما الف في القرن

الثالث الهجري مرجع لتراجم شعراء الجاهلية وفيه ترجمة ٥٨ شاعراً . ولعل نسخة الكتاب كتبت في عصر المؤلف نفسه ومنها صفحتان مصورتان بالفوتوغرافية في هذه النشرة وفي آخرها الفهارس الواسعة . لولاها لفقد الكتاب الكثير من فوائده لما يعتور متونه من الاعلام والاشعار فان لانحتها المرتبة على احرف الهجاء تساعد على فك الغازها .

من الادب التمثيلي اليوناني ، سوفوكليس ، الكترا ، انتيجونا اوديبوس ملكاً ، اوديبوس في كولونا ، فيلوكتيتس

بقلم طه حسين

دار المعارف بمصر — ص ٣٨٤ ق ٨ صغير

عاش سوفوكليس الشاعر المأساتي الشهير في القرن الخامس قبل المسيح (٤٩٧ او ٤٩٥—٤٠٥) ومن مؤلفاته لم يبقَ الا سبع روايات لم يهمل منها المعرّب الا رواية « هركلس مائتاً » ١.١ الروايات الست التي نشرها لقراء العربية فتعتبر من آيات الفن الشعري تراث البشرية العام شأن المؤلفات التي خلدت ذكر نوابغ اليونان وان ظهورها بلغة الضاد لمفخرة من مفاخر النهضة الادبية الحديثة التي مشى في طليعتها سليمان البستاني معرب الياذة هوميروس ومقدماً عليها بدرس واسع بديع وازناً فيه بين الشعر اليوناني والشعر العربي وبين ثقافة اليونان وثقافة العرب .

وهل يتحفنا طه حسين يوماً بمقدمة على ما ينشره في هذه الناحية من الادب وقد يدعونا عنوان هذا الكتاب الى الامل بتحقيق امنيتنا فيه حتى اذا ما انتهى من روايات سوفوكليس وهي « من الادب اليوناني التمثيلي » او الجزء منها اقبل على غيرها من الاجزاء كروايات اسخيلس واوروبيدس ... واكمل الدرس بنظرات شاملة تحل محل المقدمة المنشودة ونعرف منها الاصول التي اخذ عنها المعرب اسلوبه في ضبط الاسماء اليونانية باللغة العربية فنهتدي به الى وضعها نهائياً في القاموس دون ان نرتاب في كتابة اديبس او اوديبس اثينا او اتينا كوسوتيس او خروزوتميس كلوتيمنسترا او قليتمنسترا ...

رباعيات عمر الخيام

تعريب وديع البستاني

دار المعارف بمصر – ص١٦٠ ق١٢

هذا الكتيب يكون الحلقة ١ من سلسلة « في ظلال الوحي » وقد ابرز بحلة قشيبة وطبع متقن على ورق صقيل بأشكال جاءت آية في فن الطباعة العربية والتصاوير الموقعة فيها باسم « بيكار » (Picart) تشهد للمصور بطول الباع في الفن وبالتروي في درس المشاهد الطبيعية الشرقية ورسم ملامح الاشخاص بازيائهم ومواقفهم التي لا تظهر بحقيقتها الا على يد المختصين لمثل هذه الاعمال.

قد اقيمت للسيد وديع البستاني حفلة تهاني ادبية في بيروت من عهد قريب ووددنا لو استطعنا التصفيق مع المصفقين للشاعر الذي عرب شعر الخيام (من الانكليزية ؟) ووفاه حقه من اناقة وبها. لولا رغبة السيد وديع في حياز الشهرة من اي طريقة كانت ولو بالتزلف الى من يطلبها منهم بتضحية قومية ودينية فانه « البستاني الصغير » ترجم الرباعيات ترجمة بديعة سد بها من اللغة العربية ثغرة قد سدّ مثلها من قبله البستاني الكبير في ترجمة « الياذة هوميروس » (ص١٣٧) وهو لبناني ماروني ... ألم يكن يوسعه ان يكتفي بالزهرة الجميلة التي قدمها للقراء دون ان يشوهها بما هو خارج عن موضوعه .

لا يضير الاسلام كثيراً ان يكون عمر الخيام مارقاً عن الدين وينوه بذلك المعرب ولكن ما باله يغتنم من ثم الفرصة للطعن في المسيحية فيقول (ص٢٠ سطر٢١) : « ان الخيام بسعة علمه كان مسلماً طليق الفكر من قيود التقاليد [يكفر ما يشا. ويسكر ما يشا.] وشديد الجرأة على المجاهرة باعتقاده المطابق للمعقول ولو جاء مخالفاً للمنقول شأن السواد الاعظم من علماء المسيحيين اليوم الذين يصلون رجال الدين حرباً عواناً ...» فمن هم هؤلاء العلماء ؟ اهو بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف الكبرى او هو عبد الله البستاني صاحب قاموس البستان او هو فؤاد صاحب الروائع ؟

نعم ان مجلة الشرطة والامن العام السورية ١٠ ايار ١٩٥٣ روت عن « الشاعر البقري » السيد وديع البستاني هذا الشعر :

اجا الناطقون بالضاد اصحوا ايكم نائم وغير مفاق
صيحة الحق قد غلبت فاسمعوها وصداها يرن في الابواق
لا نصارى ولا دروز ولكن ارض سورية وارض العراق
كلنا «مسلمون» في مذهب النر ب عداة منقوضة الميثاق

ولا بد ان يكون وديع قد تهنأ وسكر بنشوة المديح ولكن الم يكن باستطاعته ان يناله عن طريق اليق بكرامته واصله ! فعلى لبنانيته وعلى مسيحيته السلام !

الشيخ نجيب الحداد

بقلم عادل غضبان

مطابع دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ص ١١٢ ق ٨

قصيرة كانت حياة نجيب الحداد ١٨٦٧ —١٨٩٩ لكنها كانت خصيبة بالاعمال ظهر فيها المترجم له « شعلة من العزم والذكاء ولألاء من الوحي والشاعرية تلاقيا في اهاب جسم ناحل فاحترق باللهب وخلد مع النور» وهو بامه حفيد الشيخ ناصيف اليازجي فورث عنه مواهبه بالشعر والتأليف . هذا ما بينه الاستاذ عادل غضبان في هذا الكتيب متكلماً عن عصر « الحداد » وعن البئة التي عاش فيها وعن اثاره في الادب واجاد بما رواه من منتخبات في الحقول التي عمل فيها بالسياسة والادب والشعر وخاصة في وضع الروايات التمثيلية.

الجاحظ

بقلم حنا الفاخوري

دار المعارف بمصر — ١٩٥٣ ص ١٠٦ ق ٨

نشكر لواضع الكتاب سعيه في درس شخصية الجاحظ في عصره وتعريفه القراء بحياته واثاره وبما تفضل بالرواية عنها من منتخبات طريفة لذيذة يكاد يستغني بها المطالع عن مراجعة مؤلفات الجاحظ الطوال لما في هذا الكتيب من الفصول عن البيان والترجمة والاعتزال والتحري العلمي والمذاهب والنزعات الدينية وعن الحيوان وغير ذلك مما يجعل الجاحظ « ركناً من اركان الادب » .

حرمان — قصص موضوعة ومعربة

بقلم سلمى الحفار الكزبري

قدم لها الاستاذ شفيق جبري عميد كلية الآداب بدمشق

دار المعارف بمصر ص١٣٥ ق١٣

بين الطلاق والفراق على مسرح قد يكون غربياً في اوروبة او شرقياً في مصر يمثل اشخاص هذه القصص ادوارهم المتنوعة من معرَّبة او مبتكرة والرابطة التي تضمها من بدء الكتاب الى آخره هي الشبكة التي يقع بها القلب البشري الضعيف اذا ما اصطاده صيد العشق الاعمى من امثال ذلك: « تحدث امرأة من النساء زوجها بجمال امرأة اخرى فيعلق بها الرجل ويحبها ويطلق الزوجة الاولى ؛ وتدخل امرأة في بعض الفنادق غير غرفتها وتستلقي على سرير رجل تظنه زوجها ». (المقدمة ص١٢) ومن البديهي ان هذه القصص وامثالها لا تصلح لقراءة الناشئة وان يقرأها الكبار فعليهم الا ينسوا ان الزواج الذي أسسه الله مبني على الوحدة لا طلاق فيه ولا فراق كما جاء في سفر التكوين .

الف ليلة وليلة

نشره حسن جوهر محمد احمد برانق امين احمد عطار

دار المعارف بمصر . الجزء الاول بدرباسم ' حسن البصري ص١٦٨ ؛ الجزء الثاني السندباد ص١٧٥ ؛ الجزء الثالث جودر ص١٧٦ ق٨

هي ثلاث من قصص الف ليلة وليلة مطبوعة بأحرف جلية كبيرة واضحة مشكلة على ورق صقيل جميل وضعها اصحابها اخذاً عن الاصل مبدّلين فيها ما رأوه بحاجة الى التبديل في المعاني والالفاظ والتعابير متوخين فيها عامة القراء. واختهم الناشئة من البنين والبنات وحبذا المشروع فنهنئهم عليه واذ نتمنى ظهور غير ذلك من القصص نستميح عذراً بابداء رأينا في لغتها لقد احب الناشرون ان يستعيضوا في مواضع عديدة عن متن الكتاب البسيط القريب من اللغة العامية بمتون اقرب منها الى اللغة الفصحى وما اليها من مفردات يرصع بها الخطباء كلامهم . واني مع اعجابي باسلوبهم الانيق اسفت لفقدان لذيذ المتن

في بساطته الشعبية . هذا ومن المعلوم ان مفتاح كتاب الف ليلة قذر لا يُمس الا ان يطهره المنقح ما استطاع الى تطهيره سبيلًا . وكلّ الناشرين وفقوا في هذا السعي ولعلهم كانوا يوفقون اكثر من ذلك باهمال حكاية الاخوين الافتتاحية وما «يلصق بها من السفاهات» ولهم في سائر الحكايات المتيسر تهذيبها غنًى عن سواها فضلًا عن انهم لم يتقيدوا بالمحافظة على اصل الكتاب وترتيبه ولياليه (مقدمة الجزء الاول ص٥). وفي الكتاب صور متقنة تزيده حسناً وتشويقاً.

اللسان الحديث — الجزء الرابع

بقلم يوسف سعاده

منشورات الحكمة ١٩٥٣ — ٢٤٠ ص

طالعت « اللسان الحديث » من منشورات الحكمة لمؤلفه الاستاذ يوسف سعاده فاعجبني انتظام دروسه وجلاء اسلوبه واتقان طبعه ولقد « شعرت » و نا اتبع المؤلف في ادوار كتابه بما يُطانيه من « ألم عميق وغيرة لاهبة» رغبةً في تعزيز اللغة العربية « اعلى تراث» ورثناه من الجدود .

انني اثني على صاحب « اللسان الجديد » لعظم اهتمامه بتيسير تعلّم اللغة العربية لطلاب مدارسنا فيقبلون عليها برغبة ولذة لكني لا اوافقه في ادراج ما استحسنه من « تعديل » في كتبهم المدرسية فالحكم فيه لا يرجع اليهم بل الى ارباب اللغة والباحثين والمجامع العلمية ولا ينتج للتلامذة من مطالعة هذا التعديل الا زيادة بلبلة وحيرة واضطراب .

واني ارى بانه يكفي لتسهيل قواعد اللغة شذب ما علق بها من غريب الشذوذ وتحلّلها من تفنّن مفرط وانقاذ التلميذ من عبودية اساليب الاعراب التقليدية بعباراتها « المكرسة » تُفرض عليه فَهِمها او لم يفهمها . ان سبب نفور التلامذة من تعلم قواعد اللغة هو خصوصاً طريقة اغلب الاساتذة في تعليمها فانهم يجبرونهم على استظهارها بالفاظها كلمةً فكلمة كأنها الكلام المُنزل وبعد شروح تقليدية يعسر على اكثرهم تفهمها . والتلميذ يتعلم بسهولة هذه القواعد اذا عرف المعلم ان يدلّه عليها حيّة في النصوص التي لا بدّ من

مطالعتها تُنتخب من مؤلفات الكتاب الاقدمين والمتأخرين فيها يجد المتعلم صيغ الاشتقاق وقواعد اعراب الاسم والفعل لا بنوع نظري عقيم كما في كتاب الصرف والنحو ولكن باسلوب عقليّ لذيذ .

اما رأيي فيما جاء في اللسان من « تعديل » فاوجزه بالملاحظات التابعة بخصوص توحيد حركة عين المضارع يقرّ المؤلف نفسه بما ينتج منه من ارتباك في معاني الفعل فمنها ما يختلف معنًى باختلاف حركة عينه . واني لا اظن ان ما يُرجى من هذا التوحيد منفعةً يوازي ما يصدر منه بلبلة في المعاني . وفضلًا عن ذلك اننا اذا رضينا بتوحيد حركة عين المضارع فلماذا لا نرضى به للماضي ايضًا . فنقول مع المؤلف للمضارع يَشرُبُ ونزيد للماضي شَرُبَ: وقس عليه: جلُس يجلُس وعلُم يعلُم ... وليس من لا يرى في ذلك نهاية الغرابة واسوأ ابتداع . فالتوحيد اذن هذا يدخل الالتباس والغرابة الى معاني الافعال كما لا يخفى على كل مفكر يعرف لغته العربية .

وفي « تعديل » كتابة الهمزة سها صاحب اللسان عن امر مهمّ وهو ان قواعد كتابة الهمزة قد وُضعت خصوصًا للقارئ وهي تسهل عليه قراءة النصوص العربية اذ تمكنه من معرفة حركة الهمزة فيميّز بها صيغ الفعل . فاننا اذا كتبنا دائمًا مع المؤلف سئل بماذا يميّز القارئ مجهول هذا الفعل من معلومه . وكذلك مثلًا يُسئِم (يُسئِم يُسأم) وسائل (سائل ساءلَ) ...

اما « تعديل » المنصوبات (المفعول لاجله والمطلق والحال والتمييز ...) وتوحيدها في قواعد جامعة — كما نجد ذلك في اللغة الفرنسية « compléments circonstanciels » — فلا انكر وجهته المنطقية لكني أرى أيسر على التلميذ تعلم هذه القواعد مفترقة متميزة : يبقى على المعلم ان يبيّن التلميذ وحدة المبدأ الذي عليه ترتكز هذه القواعد .

اختم بالاعتذار الى « صاحب اللسان » اللبيب من صراحتي في نقد كتاب قيّم وضع في تأليفه جهودًا يُشكر عليها واني لا أخاله يتوقع من ناقد «المشرق» مدحًا واطراء. فحسب لكن ايضًا بحثًا صادقًا يؤول الى خير لغة هي عزيزة عليه ولغتنا جميعًا .

ف . ق .

CHARLES PELLAT. *L'Arabe vivant*. Paris - Adrien-Maisonneuve 1952. pp. V - 617+77.

قصد المؤلف ان يجمع في هذا الكتاب معظم الكلمات الواردة في الجرائد والمجلات ، وقد اصاب ذلك الهدف في الواقع ، فبين دفتي مجموعته نحو ٨٥٠٠ من تلك الالفاظ ، فضلاً عن التعبيرات ، وكلها مقيّد بالشكل الكامل قد قسمها بلا الى اربعة وستين باباً على حسب معانيها ، مما يسهل رسوخها في ذاكرة المتوخي حفظها ، وذيّل الكتاب بفهرسين حاويين جميعها ، احدهما فرنسي عربي والآخر عربي فرنسي . فنحض المؤلف تهنئتنا بخدمته هذه الجليلة للغة الضاد ، ومع ذلك نرى من واجبنا الاشارة الى بعض عيوب مجموعته . الاول ادراجه فيها عشرات الكلمات العامية ، من امثال بوفيه (buffet) وصالون (salon) وكنبة (canapé) . الثاني تكثيره الالفاظ غير المأنوسة في الشرق العربي بدون تعيين محل استعمالها ، ومن جملتها قجر (tiroir) خشكنانجة (biscuit)، كسح بمعنى كنس ، كاغط متنبر (papier timbré) ، مسابقة القصد (التعمّد) . الثالث تشوه مجموعته بعدة اغلاط محضة ؛ هاكم شيئاً منها : لا غبار عليه (لا غُبار) ، متوسّط الارقام (متوسّطها) ، اوعية متواصلة (متّصلة) ، لعب دوراً (مثّله) ، كاتب رواني بمعنى مآسي (dramaturge) . ر. نخله

WILLIAM POPPER. *The Cairo Nilometer*. Studies in Ibn Taghri Birdi's Chronicles of Egypt : I. (University of California Publications in Semitic Philology, Vol. 12). University of California Press. Berkeley and Los Angeles. 1951. pp. XI-269.

يروي المؤلف تاريخ فيضان النيل القوي كما سجله مقياس مياهه بجزيرة الروضة في القاهرة ، وتستغرق روايته هذه حتى الصفحة ٩٠ من كتابه . اما القسم الثاني فاوسع كثيراً من الاول (ص٩١ — ٢٥٦) وهو يتناول احصاءات معدل الفيضانات .

وبعد ان تكلم في فصل كامل على مقاييس مياه النيل العديدة في منطقة القاهرة ووصفها وصفاً مسهباً بالاستناد الى احدث المصادر العصرية منذ مطلع القرن التاسع عشر الى اقدمها في القرن التاسع خصص فصلاً بما سجله مقياس النيل في الروضة وفصلين آخرين بمحافظ المقياس وبطغيان المياه الفصلية ودرس المصادر

الممتدة حتى نهاية القرن التاسع عشر قبل ان يدرس الاحصاءات. وثمت فصول خاصة بانواع المقاييس بمعنى كلمة « سنة » في الاحصاءات وبما يروى بشأنها وبشأن فيضان النيل سنوياً ويومياً وبالتواريخ التي تقارن بين اعلى درجات ارتفاع مياهه وادناها ومعظمها بالارض التي تجري عليها مياهه وبالمطر في بلاد الحبشة وبما له من صلة بطغيان النيل .

والكتاب هو الجزء الاول من « دراسات في تواريخ مصر لابن طغري البردي » دراسات تتناول عدداً كبيراً من الكتاب العرب وكاتبين افرنسيين لوبر « Le Père » ومارسل « Marcel » .

والذي حدا بالمؤلف لاتيان هذه الدراسة بالدرجة الاولى هو ان بعض التفاصيل التي ذكرها بيردي وغيره من المؤلفين ونشرت حديثاً قد كان صعباً تفسيرها جد الصعوبة بحسب المقياس الذي تبنّاه الكتّاب السابقون مما اضطره الى البحث عن مقياس آخر .

ولسنا نجهل الصعوبات التي عاناها في مهمته حيال الاحصاءات الشيّقة التي استقرأ دراستها اما اسلوبه فيقوم على ان ينفحنا بنص صريح من دراسته ويتبعه فقرة فقرة بتعليق مستوفٍ عليه .

ويشتمل الكتاب على خمسين لوحة للمقارنة وعلى عدد من الرسوم بالخطوط ورسمين يصوّران طبيعة البلاد وثبت رائع للموضوعات العديدة والعبارات العربية اما اخراج نصوصه وخطوطه البيانية ورسومه فشديد الوضوح ا. لاتور

Asaf. A. A. Fyzee. *Outlines of Muhammadan Law* — Geoffrey Cumberlege, Oxford University Press. 1949. pp. XVI-443.

غاية المؤلف من كتابه صريحة جدّ الصراحة فهو محب للدقة والوضوح وهدفه ان يضع مؤلفاً مفصلاً للحقوق الاسلامية وبيان مبادئها التي تسترشدها الحقوق في الهند والكتاب لم يكن لطلاب الحقوق فقط بل للراغبين في طلب العلم وهو يأمل ان يكون بمثابة موجز يذكر المؤلفين في علم الحقوق بخطوطها وقوامها في الهند .

ولقد فضل ان يكتفي بان يقول الهند ليس الّا على ان يقول « الهند البريطانية » لاسباب حقوقية جوهرية ولسبب تطورها السياسي .

ولم يغب عن السيد فيزي « M. Fyzee » انه من المستحيل درس الحقوق والتعمق فيها من دون ارجاعها الى ضمن اطارها التاريخي فلذلك قدّم — من دون ان يتوسع في مناهجها — بلمحة تاريخية على الاسلام وتطور الحقوق الاسلامية وتقوم ميزته عن غيره على كونه ادرك ان الحقوق الاسلامية ليست كتلة متصخرة ضخّمت حجمها المواد الغريبة والتحمت بها عن طريق ارادة الله الكلي القدرة فقط واكتشف السيد فيزي « M. Fyzee » في الحقوق الاسلامية « تصميماً جلياً» كما اوضح سانتيلانا « Santillana » كل الايضاح وحاوله انتهاجه في كتابه .

وكتابه يشتمل على الموضوعات المدرسية التي نراها في مؤلفات سانتيلانا « Santillana » وجونبول « Juynboll » وغيرهما وانما امتاز عنهم في كونه مارس المحاماة امام محكمة بومبـاي طول خمسة عشر عاماً وجمع في شخصه الثقافتين الشرقية والغربية لانه تخرج من بومباي وكمبريدج مما جعل كتابه ينمّ عن معرفة مباشرة للحقوق وعن دراسته العلمية . اما طابعه الخاص فقائم على كونه ينفحنا بوجهة النظر الواقعية وبتطبيق الحقوق الاسلامية في الهند لكن لا يتردد عن الاستشهادات بمستندات حقوقية كاملة اذا ما اقتضاه الامر .

ولقد استفاض في دراسة باب الوراثة بالنظر الى اهميتـه وصعوبته باكثر من ٧٠ صفحة : بسط فيها الحقوق السنّية والحقوق الشيعية واكثر من جداول تقسيم المواريث الدقيقة .

والكتاب مذيّل بثبت للكتب رائع وبثلاثة فهارس للاعلام والاسماء والموضوعات .

ا . لاتور